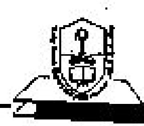
تحليل الخطاب

تأليف

ج. ب. براون　　ج. يول

ترجمة و تعليق

د. محمد لطفي الزليطني　　د. منير التريكي



النشر العلمي والمطابع

جامعة الملك سعود



ردمك: ٨-٤٦٠-٠٥-٩٩٦٠

ISBN :9960-05-460-8

تحليل الخطاب

تأليف

ج.ب. براون ج. يول

ترجمة وتعليق

د. محمد لطفي الزليطني
أستاذ مشارك
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب

د. منير التريكي
أستاذ مساعد
كلية اللغات والترجمة (سابقا)

جامعة الملك سعود

النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٢٤٥٤ الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية

هذه ترجمة عربية مصرح بها لكتاب:

Discourse Analysis

by: Gillian Brown and George Yule

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

براون، ج. ب
تحليل الخطاب – ج. ب. براون، ج. يول، ترجمة محمد لطفي الزليطني، منير التريكي – الرياض.
٣٧٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ٩٦٦٠-٠٥-٤٦٠-٨ (جلد)
٩٦٦٠-٠٥-٤٦١-٦ (غلاف)
١ – كتابة الرسائل أ – يول. ج (م. مشارك) ب – الزليطني، محمد لطفي ت – (مترجم) التريكي، منير (مترجم)
ث – العنوان
ديوي ٨١٨ ١٧/١٧٣٥

رقم الإيداع: ١٧/١٧٣٥

حكّمت هذا الكتاب لجنة متخصصة شكلها المجلس العلمي بالجامعة، وقد وافق على نشره باعتباره مرجعا علميا بعد الاطلاع على تقارير المحكمين في اجتماعه السابع للعام الدراسي ١٤١٥/١٤١٦هـ المعقود في ٢٤/٦/١٤١٥هـ الموافق ١٧/١١/١٩٩٤م.



النشر والمطابع ١٤١٨هـ/١٩٩٧م

مقدمة المترجمين

يعدّ كتاب «تحليل الخطاب» (Discourse Analysis) من الكتب التي كانت لها أهمية خاصة في أوائل الثمانينات من هذا القرن، لما يتمتع به الكتاب من لغة سلسة يسيرة وأمثلة من الواقع اللغوي في الحياة المعاصرة. ذلك بالإضافة إلى أن الكتاب يمتاز بمسح واضح للمؤلفات السابقة عليه في هذا الفن، ففيه كثير من الاقتباسات التي تشير إلى اطلاع المؤلفين، جيليان براون وجورج يول، على ما كتب في ميدان الكتاب حتى سنة ١٩٨٣م.

ولمصطلح «تحليل الخطاب» دلالات مختلفة بالنسبة للباحثين في شتى مجالات الدرس اللغوي. ففي نظر عالم اللغة الاجتماعي مثلا، يتّصل هذا المصطلح أساسا ببنية التفاعل الاجتماعي كما تتجلّى في الحوار اللغوي؛ وهو في نظر عالم اللغة النفسي ذو صلة بالطريقة التي يتم بها فهم النصوص القصيرة المكتوبة. ويقدم المؤلفان في هذا الكتاب مسحا شاملا للمقاربات الكثيرة والمتنوعة التي تم بها تحليل الخطاب، لكنهما أقاما دراستهما على محور المقاربة اللسانية التي تمثل -بدرجات متفاوتة- القاسم المشترك بين كل تلك الدراسات. وهما في ذلك كله يستخدمان منهجا وصفيّا يقدمان من خلاله عرضا واسعا للكيفية التي تستعمل بها شتى الأنماط اللغوية أثناء التواصل.

وكان همّهما في ذلك كله أن يبيّنا كيف أن أي شكل من أشكال اللغة يسوقه المتكلم، سواء كان محكيّا أو مكتوبًا، إنما يسوقه لتحقيق غرض تواصليّ معيّن في سياق معيّن. وهما إذ يقدّران للمقاربة الشكلانية التقليدية دورها في تعريفنا بطبيعة اللغة ونظامها، لكنهما يرميان أساسا إلى إبراز حقيقة جوهرية تكتسي أهمية خاصة

ضمن الطرح الذي يقترحانه، وهي أن المعاني لا تكمن في الأدوات اللغوية المستعملة بل لدى المتكلّم الذي يستعمل تلك الأدوات ويوظفها بشتى السبل لتحقيق مقاصده ونواياه. ولدعم هذا الطرح، يقدم المؤلفان نماذج كثيرة ومتنوعة من الخطاب (محادثات مسجلة في ظروف اجتماعية مختلفة، مقتطفات من الصحف اليومية، إعلانات . . . إلخ)، ويحللان تلك النماذج كلها بعناية واضحة وتفصيل شديد، مما يسمح لأيّ دارس مهتم بتطبيقها على أي لغة وفي أي سياق يصادفه.

لهذه الأسباب كلها، وقع اختيارنا على هذا الكتاب لترجمته وتقديمه للقارىء العربي الذي يرغب في معرفة المبادىء التي يقوم عليها استعمال اللغة - أي لغة - في ظروف طبيعية سواء لغرض التواصل أو فهم المقاصد.

ولقد حرصنا في ترجمتنا هذه أن نتوخى أسلوبًا واضحًا مباشرًا نعرض من خلاله مختلف الطروحات النظرية التي يقترحها المؤلفان بكل أمانة، مستخدمين في ذلك - قدر الإمكان - المصطلحات التي استقرت في مجال البحث اللساني العربي الحديث. واحتجنا في عدة مواضع أن نضع لأنفسنا مصطلحات خاصة رغم وجود مقابلات لها جارية في الاستعمال، وأردفنا لذلك مبررات جاءت في مكانها من الهوامش. كما أوردنا في الهوامش - وحيثما اقتضت الحاجة ذلك - تعريفات لبعض المصطلحات اللسانية المستعملة اقتبسنا معظمها من «معجم المصطلحات اللغوية» للدكتور رمزي منير بعلبكي (دار العلم للملايين - يونيو حزيران ١٩٩٠م)*.

أما الأمثلة والشواهد فقد ترجمت كما هي، حرفيا، في معظم الأحيان، وحيثما خرجت الترجمة العربية عن المثال الأصلي، أشرنا إلى ذلك في الهوامش أيضًا.

ومن الجدير بالذكر هنا أن حرصنا على ترجمة هذه الشواهد حرفيا - قدر الإمكان - مرجعه إلى أن تلك الشواهد، في عمل علمي كهذا، تتحول إلى أنموذج (Model) تحليلي تبقى قيمته في ذاته وبكونه أنموذجًا تحليليًا - لكننا وجدنا في أحيان كثيرة (وخاصة في الفصل الخامس) أن الاكتفاء بترجمة المثال كما ورد في الأصل لا

* هذا، وقد أوردنا في آخر الكتاب مسردًا لأهم المصطلحات المترجمة من العربية إلى الإنجليزية ومن الإنجليزية إلى العربية نرجو أن يسهل على القارىء متابعتها في مكانها.

يفي بالغرض دائمًا، لاختلاف خصائص اللغة الإنجليزية عن العربية. لذلك أوردنا في الهوامش وحسب الاقتضاء، أمثلة من اللغة العربية قصدنا بها توضيح تلك الفروق.

كلمة أخيرة عن الهوامش، هي أنها جميعها، وما لم ينصّ على خلاف ذلك، من عمل المترجمين.

وبعد، فإننا نأمل من الله تعالى أن يحقق هذا العمل المترجم ما نطمح إليه من فائدة للقارىء العربي في هذا الحقل المعرفي الجديد نسبيًا. كما نشكر مركز الترجمة بجامعة الملك سعود ممثلا في مديره سعادة الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل صيني، على تفضله بقبول هذا العمل ضمن المشروعات التي يشرف المركز على نشرها. كما لا يفوتنا أن نشكر الزميلين الكريمين اللذين قاما بتحكيم هذا العمل على ما تجشماه من جهد وعناء في فحص الترجمة وتدقيقها، ولهما منا كل التقدير على ملاحظاتهما وتصويباتهما السديدة، فقد حرصنا على الأخذ بها قدر الإمكان وذلك سعيا إلى الاقتراب بهذا العمل إلى أفضل صورة ممكنة. وأخيرًا وليس آخرًا نتقدم بالشكر الجزيل إلى أخينا السيد جمال الدين عبيد، على طباعة هذا العمل وزميلنا الأخ صلاح حسن محمد علي على مراجعته طباعيا والأخ فضل شعبان سليمان من مطابع الجامعة على إخراجه في هذه الصورة رغم كثرة التعديلات والتصويبات، فلهم منا وافر العرفان والتقدير والله نسأل لجامعة الملك سعود والقائمين عليها، وللقائمين على مركز الترجمة فيها دوام الازدهار والتوفيق.

المترجمان

مقدمة المؤلفين

لقد أصبح لمصطلح «تحليل الخطاب» استعمالات عديدة تشمل مجالات واسعة من الأنشطة. فهو يستعمل مثلاً للحديث عن أنشطة تقع على خط التماس بين دراسات مختلفة كاللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات الفلسفية واللسانيات الإحصائية. والمهتمون بمثل هذه الدراسات المختلفة يركزون بحثهم جميعا على جوانب شتّى من الخطاب. فعلماء اللسانيات الاجتماعية مثلا يهتمون خاصة ببنية التفاعل الاجتماعي - كما يتجلى في الحوار - كما أن دراساتهم الوصفية تؤكد ظواهر السياق الاجتماعي التي تعود بصفة خاصة إلى سلّم التصنيفات الاجتماعية. إنهم يطلقون تعميماتهم من خلال أمثلة واقعية من اللغة المستعملة. ويبنون عملهم على عيّنات من الخطاب المنطوق المكتوب كتابة صوتية. أما علماء اللسانيات النفسية، فيتجه اهتمامهم إلى قضايا تتصل باللغة والإدراك. وهم يتميزون باستعمالهم منهجية دقيقة استنبطوها من علم النفس التجريبي، ويعالجون على أساسها مشكلات الإدراك من خلال نصوص قصيرة أو سلسلة من الجمل المكتوبة. ويهتم فلاسفة اللغة من جهتهم - واللسانيون الشكلانيون كذلك - بالعلاقات الدلالية القائمة بين أزواج من الجمل وخصائصها النظمية، كما يهتمون أيضاً بالعلاقات بين الجمل و(الواقع) وذلك لمعرفة ما إذا كانت الجمل أداة لتقرير أحكام يمكن تقييمها بناء على سلّم من معايير الصدق أو الكذب. وهم يدرسون تلك العلاقات بين مجموعات من الجمل التي يستعملها متكلمون نموذجيون لمخاطبة متلقين نموذجيين في سياقات نموذجية قليلة التحديد. أما علماء اللسانيات الإحصائية ممن يعملون في هذا المجال، فإنهم يوجهون اهتمامهم

إلى معالجة نماذج خطابية تفرض عليهم طبيعة منهجهم أن يختاروها من بين النصوص القصيرة المستعملة في سياقات محددة جدا. ولا يخفى على القارىء، في هذه المرحلة المبكرة نسبيا من تطور البحث في مجال تحليل الخطاب، أنه لا يجمع بين مختلف هذه المناهج إلا القليل فيما عدا علم اللسانيات الذي يعود إليه كل منها بدرجات متفاوتة.

أما نحن، فمقاربتنا لتحليل الخطاب في هذا الكتاب مقاربة لسانية بالدرجة الأولى. فنحن نعالج فيه كيفية استعمال الناس اللغة أداة للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي، فيقوم هذا بمعالجتها لغويا على نحو خاص لتفسيرها. وسنستفيد من كل الدراسات المتمازجة التي أشرنا إليها ونستعرض كل الأعمال الهامة التي أنجزت في تلك المجالات، غير أن اهتمامنا موجه بالدرجة الأولى إلى ما يسعى عالم اللغة الوصفي تقليديا إلى تحقيقه وهو أن يكشف عن طرق استعمال القوالب اللغوية في عملية التواصل.

وبما أن دراسة الخطاب تفتح أمامنا مجالات واسعة تتداخل مع حقول دراسية أخرى، فقد وجدنا لزاما علينا أن نضع جملة من القيود على تحليلنا. من ذلك مثلا أننا لن نعالج إلا نماذج خطابية كتبت أصلا باللغة الإنجليزية[١] وذلك حتى نمكن القارىء من الاستفادة من قدرته على فهم النصوص التي نقدمها له، ولنستفيد من جوانب علمي التراكيب والصوتيات الإنجليزية تم وصفها جيدًا، وأصبحت كذلك مفهومة جيدًا نسبيًا. كما إن كثيرًا من القضايا التي سنطرحها ستناقش هنا بإيجاز، لذلك فسنحيل القارىء بشأنها إلى الدراسات المعروفة ليأخذ منها ما يريد. وحتى في إطار اللغة الإنجليزية، فإننا لم نختر سوى مظاهر قليلة من الخطاب قمنا بمعالجتها، وأعرضنا عن جوانب أخرى مع أن البحث فيها مغر وبلا شك مفيد (كعنصر الزمن والهيئة والصيغة وغيرها). وحاولنا من وراء ذلك أن نبين أن هناك - في إطار منهج تحليل الخطاب - إسهامات يمكن أن يقدمها علماء هم لسانيون بالدرجة الأولى ويعتمدون

(١) بالإضافة إلى ترجمة هذه النماذج إلى العربية، سعينا - كلما دعت الحاجة إلى ذلك - إلى ذكر أمثلة أصلية من اللغة العربية على سبيل المقارنة مع المثال الإنجليزي.

منهجية من اللسانيات الوصفية، كما حاولنا أيضًا تقديم معلومات لسانية أساسية وأولية إلى حد ما، وحاولنا قدر الإمكان أن نتجنب جزئيات الجدل الشكلاني مفضلين عرض القضايا التي طرحها الشكلانيون على اختلافهم بطريقة ميسّرة عموما.

ولقد أكدنا في الكتاب كله النظرة التي تضع المتكلم / الكاتب في مركز عملية التواصل. كما أكدنا أيضا أن الناس هم الذين يتواصلون، وأن الناس هم الذين يفهمون. إن المتكلمين / الكتّاب هم الذين يطرحون موضوعات وفرضيات، ويضعون للمعلومات التي لديهم بنية معينة، كما أنهم يقومون بعملية الإحالة، وأن السامع/ القارىء هو الذي يقوم بعملية التأويل والاستنتاج. وتتقابل هذه النظرة مع تلك التي تدرس هذه الظواهر على أنها مجرد جمل وتعالجها بمعزل عن سياقات التواصل. وباعتمادنا هذا المنهج الواقعي، حاولنا تجنب النقيض الخطير المتمثل في الدعوة إلى توخي المقاربة الفردية المزاجية لفهم كل مقطع من الخطاب تتمثل فيه النظرة التأويلية. لقد تبنينا موقفًا توفيقيًا مؤداه أن تحليل الخطاب يتضمن دراسة القوالب اللغوية ومظاهر الانتظام في توزيعها من جهة، كما يقتضي من جهة أخرى مراعاة المبادىء العامة التي تقوم عليها عملية الفهم، تلك العملية التي يضع الناس بواسطتها معنى لما يسمعون ويقرأون. لقد أشار صامويل باتلر في مقدمة إحدى المذكرات إلى ضرورة مثل هذا الموقف التوفيقي، وكذلك إلى المخاطر التي يتضمنها، من خلال تحذير يجدر بمحللي الخطاب أن يضعوه نصب أعينهم، فقال: «يجب أن ندرس كل شيء في ذاته قدر الإمكان، وأن ندرسه كذلك من حيث علاقاته. فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقًا، وبقطع النظر عن علاقاته، فإننا سنجد أنفسنا شيئًا فشيئًا قد استنفدناه فهمًا ودراسة. وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنكتشف أنه لاتوجد زاوية في هذا الكون إلا وقد احتل مكانه منها».

المحتويات

الفصل الثاني: دور السياق في عملية الفهم

الفصل الثالث: الموضوع وإشكالية تمثيل مضمون الخطاب

الفصل الرابع: «الإخراج» والتصور الذهني لبنية الخطاب

الفصل الخامس: بنية المعلومات

المقدمة : الأشكال والوظائف اللغوية

١,١ وظائف اللغة

إن تحليل الخطاب بالضرورة تحليل للغة في الاستعمال . لذلك ، لا يمكن أن ينحصر في الوصف المجرّد للأشكال اللغوية بعيدًا عن الأغراض أوالوظائف التي وضعت هذه الأشكال لتحقيقها بين الناس . وإذا كان بعض اللسانيين مهتمين بتحديد الخصائص الشكلية للغة ، فإن محلّل الخطاب ملزم بالبحث في ما تستعمل تلك اللغة من أجله . وإذا كانت للمنهج الشكلي تقاليد عريقة نراها مجسمة في عدد لا يحصى من كتب النحو ، فإن الدراسات الممثلة للمنهج الوظيفي أقل عددًا . كما أن المحاولات الهادفة إلى وضع مجموعة ـ ولو عامة ـ من المصطلحات لتحديد الوظائف الأساسية للغة لم تنتج سوى عدد من المصطلحات الغامضة التي يغلب عليها طابع اللبس ، ولهذا فلن نستعمل هنا سوى مصطلحين نحدد بهما الوظيفتين الرئيسيتين للغة ، ونؤكد أننا لم نلجأ إلى هذا التقسيم إلا تحقيقًا للجدوى التحليلية . فمن المستبعد أن تستعمل عبارة ما من عبارات لغة طبيعية في أي ظرف من الظروف لأداء وظيفة واحدة فقط مع استبعاد الوظيفة الأخرى بصفة كلية . أما الوظيفة الأولى التي تؤديها اللغة والمتمثلة في التعبير عن «المضامين» فنسميها وظيفة «تعاملية» . وأما الوظيفة المتمثلة في التعبير عن العلاقات الاجتماعية والمواقف الشخصية فنسميها «وظيفة تفاعلية» . وتقابل ثنائيتنا هذه (تعاملية/ تفاعلية) بصفة عامة تلك الثنائيات الوظيفية من قبيل التمثيلية/ التعبيرية التي نجدها عند "بوهلر" (١٩٣٤م) و«المرجعية/ الانفعالية» (ياكبسون ١٩٦٠م)

و«الفكرية/ التبادلية» (هاليداي ١٩٧٠م) و«الوصفية/ التعبيرية - الاجتماعية» (لاينز، ١٩٧٧م).

١,١,١. النظرة التعاملية

يبدو أن اللسانيين وفلاسفة اللغة لا يميلون كثيرًا إلى دراسة وظائف اللغة في المجتمع. فبينما هم كثيرًا ما يقرّون بأن اللغة يمكن أن تستعمل لأداء وظائف تواصلية عديدة، فإننا نجدهم مع ذلك يفترضون عمومًا أن وظيفتها الأكبر أهمية هي إيصال المعلومات. فهذا «لاينز» (١٩٧٧م ص ٣٢) يلاحظ مثلاً أن مفهوم الاتصال يشمل كذلك «المشاعر والأمزجة والمواقف»، لكنه يقترح أن يصرف اهتمامه أساسًا إلى «الإيصال المقصود للمعلومات المتعلقة بالحقائق أو الأقوال». وعلى النحو ذاته، نرى «بينيت» (١٩٧٦م ص ٥) يلاحظ أنه «يبدو أن وظيفة التواصل تتمثل أساسًا في سعي المتكلم إلى إبلاغ المتلقي بأمر ما أو إلى نسبة عمل ما إليه».

إن تعليق قيمة الاستعمال اللغوي بمدى قدرته على نقل المعلومات مترسخ جيدًا في إرثنا الثقافي. فكلنا يؤمن بأن تلك هي ميزة اللغة التي مكّنت بني الإنسان من تطوير ثقافات متنوعة، لكل منها تقاليدها الاجتماعية المتميّزة، وممارساتها وقوانينها الدينية، وإبداعاتها الشفهية، وأنماط معاملاتها التجارية، وما إلى ذلك. بل إننا نؤمن (أكثر من ذلك) بأن اكتساب اللغة المكتوبة هو الذي مكن من ظهور الفلسفة والعلم والأدب في بعض من هذه الثقافات (انظر «جودي»، ١٩٧٧م). كما أننا نؤمن جميعا بأن هذا التطوّر لم يكن ليتحقق لولا القدرة على نقل المعلومات بواسطة اللغة، تلك القدرة التي سمحت للإنسان بأن يستفيد من تجربة السابقين، وكذلك من تجربة أناس آخرين ينتمون إلى ثقافات أخرى.

فيما سيأتي، سنسمي اللغة المستعملة لنقل المعلومات المتعلقة بالوقائع والأقوال «لغة تعاملية أساسًا» ونفترض في اللغة التعاملية أساسًا أن ما كان في ذهن المتكلم (أو الكاتب) عند استعمالها أساسا هو النقل الناجع للمعلومات. واللغة المستعملة في هذه الحالة لغة «موجهة نحو الرسالة» بالدرجة الأولى، ذلك أنه من المهم عند مستعملها أن يأخذ عنه المتلقي معلومات تفصيلية صحيحة. وهكذا، فإذا أعطى الشرطي المسافر

نصائح توجيهية، وإذا حدّد الطبيب للممرضة كيفية إعطاء الدواء للمريض، وإذا قدّم صاحب البيت طلبا بالتعويض إلى شركة التأمين، وإذا شرح صاحب المحلّ التجاري المزايا الخاصة بصنفين من أصناف الصوف، وإذا وصف العالم الخطوات العملية لإحدى التجارب، فإن من المهم في كل من هذه الحالات أن يوضح المتكلم ما يقوله (أو يكتبه). وإذا لم يفهم المتلقي الرسالة على النحو الملائم، فستكون نتائج ذلك في عالم الواقع سيئة (إن لم تكن وخيمة).

١,١,٢. النظرة التفاعلية

بينما أولى اللسانيون وفلاسفة اللغة وعلماء اللسانيات النفسية عامة اهتمامًا خاصًا للغة المستعملة «لنقل المعلومات المتصلة بالوقائع والأقوال»، نرى علماء الاجتماع واللسانيات الاجتماعية قد اعتنوا خاصة باللغة المستعملة لإقامة العلاقات الاجتماعية وتثبيتها. فقد علقت الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية كثيرًا على ظاهرة استعمال اللغة للمجاملة، وبصفة خاصة على الاستعمال الجاري للغة عند التمهيد للمحادثات واختتامها. كما أن محللي لغة المحادثة قد أولوا عناية خاصة باللغة المستعملة لتنسيق الأدوار والعلاقات، وتضامن الأقران[1] وتحديد التبادل في الأدوار عند المحادثة، وإسعاف كل من المتكلم والمتلقي (انظر لابوف ١٩٧٢م أ، براون وليفنسون ١٩٧٨م، ساكس، شيفلوف وجيفرسون ١٩٧٤م، لاكوف ١٩٧٣م). ومن أوضح ما يمثل هذا الجانب من الاستعمال اللغوي أن قدرًا كبيرًا من المعاملات اليومية بين الناس إنما يقوم على اللغة، بوصفها بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد أكثر من قيامه على اللغة بوصفها أداة تعامل. فحين يلتقي غريبان مثلاً عند محطة الحافلة في يوم ريح قارس ويلتفت أحدهما إلى الآخر قائلاً وهو يرتعد من البرد: «يا إلهي، الجو بارد» يكون من الصعب أن نفترض أن نية المتكلم الأولى هنا كانت لنقل المعلومات. ولعله من الأقرب إلى المعقول أن نقترح أن المتكلم يشير بعبارته

(١) تضامن الأقران حقيقة اجتماعية من مظاهرها ما يعرف بلغة الأقران، أي طريقة الكلام التي يستخدمها أقران أحدهم في نطاق اجتماعي معين كالمدرسة أو المصنع أو الجيش.

تلك إلى استعداده لأن يكون لطيفًا، وأن يدخل في حديث مع المخاطب. وبالفعل، فإن قدرًا كبيرًا من المحادثات اليومية يتكون في الواقع من تعليقات يقوم بها شخص ما حول شيء يدركه هو والمتلقي على حد سواء، والحديث عن الأحوال الجوية بطبيعة الحال أكثر الأمثلة ذكرا في هذا المقام بالنسبة للإنجليزية البريطانية. غير أن قدرًا كبيرًا من المحادثات العفوية يضم عبارات وأشباه عبارات يبدو أن القصد منها هو مجرد المشاركة في الحديث أكثر مما هي نماذج لغوية ساقها المتكلم لتقديم معلومات على هذا النحو. ترى امرأة على متن حافلة تتحدث إلى رفيقتها عن صديقة لهما كانت قد أجرت عملية جراحية وغادرت فراش المرض قبل المدة اللازمة للشفاء، فتقول عنها في خاتمة حديثها: «أجل إنها حقا سيدة بغيضة».

يمكننا أن نعدّ جملة كهذه ملخصًا أجملت فيه المتكلمة معلومة معينة. عند ذلك تردّ رفيقتها متأملة (بعد أن كانت تعلق طوال حديث الأولى بقولها «نعم»، «نعم»): «أجل، إنها امرأة بغيضة».

يبدي «بيرسيغ» (١٩٧٦م، ص٣١٣) عن حديث كهذا ملاحظة بقوله: «إني لمحتار أمام الوتيرة التي يسير عليها هذا الحديث. فهو لا يبدو مقصودًا لأي غرض، إنه مجرّد سدّ للفراغ . . . وهو يتواصل هكذا بدون هدف أو غاية فيما عدا سدّ الفراغ، وكأنه إيقاع كرسيّ هزّاز».

إن ما يبدو موضع القصد أساسًا في هذا الحديث هو اقتسام وجهة نظر مشتركة. ولقد بين كل من براون وليفنسون الأهمية التي تمثلها بالنسبة للعلاقات الاجتماعية إقامة الأسس المشتركة والموافقة على وجهات النظر، كما ضربا أمثلة تصوّر لنا إلى أي مدى يمكن أن يذهب متكلمون ينتمون إلى ثقافات مختلفة في سبيل الحفاظ على شبه اتفاق، ولاحظا أن «هذا الاتفاق يمكن أن يتجلى أيضا في تكرار جزء مما قاله المتكلم السابق أو في استئنافه بجملته تمامًا». (١٩٧٨م، ص١١٧).

وبينما تستعمل اللغة المكتوبة عموما، كما سنرى، لأغراض تعاملية أساسا، فإنه من الممكن أن نقف على نماذج من هذه اللغة نفسها لا يكون القصد منها بالدرجة الأولى نقل المعلومات وإنما إقامة العلاقات الاجتماعية، من ذلك رسائل الشكر والرسائل الغرامية وألعاب الاستنتاج وغيرها.

١,٢ اللغة المحكية واللغة المكتوبة

١,٢,١. كيفية الإحداث

من الواضح أن كلاً من اللغة المحكية واللغة المكتوبة يفرض على مستعملي اللغة جملة من الاعتبارات المختلفة نوعًا ما وذلك من حيث كيفية الإحداث. فلدى المتكلم تشكيلة كاملة من المؤثرات مصدرها «نبرة الصوت» (وكذلك ملامح الوجه، وأشكال الوقفة والحركات). وبفضل هذه الأدوات، يستطيع المتكلم دائمًا أن يتجاوز آثار الكلمات التي يسوقها. من ذلك أن المتكلم الذي يقول: «إني حقيقة أرغب في ذلك» وهو مقبل وصوته دافيء منتعش، والبسمة تعلو شفتيه، سنفهم منه على أغلب الظن أنه يقصد فعلا ما يقول، وذلك بخلاف متكلم آخر يقول الكلام نفسه وهو معرض وقد تقطبت أساريره وهو ينخر بصوت أغنّ. ومثل هذه الأدوات الإيمائية (غير اللغوية) مفقودة لدى الكاتب. ونحن في هذا الكتاب عمومًا سنتجاهل هذه الملامح الإيمائية في اللغة المحكية وذلك لأن الشواهد التي سنذكرها منقولة عن متكلمين بالغين كانوا متعاونين معنا، ولم يستغلوا تلك القدرات الإيمائية بشكل يناقض الدلالة الحرفية التي يحملها كلامهم وإنما كانوا بالأحرى يوظفونها لدعم تلك الدلالة.

ثم إن المتكلم لا يتحكم فحسب في إحداث أنظمة تواصلية تختلف عن تلك التي تتوافر لدى الكاتب، وإنما نراه أيضًا يعالج تلك الأنظمة في ظروف تسلّط عليه عبءًا كبيرًا، فعلى المتكلم مثلاً أن يكون على بينة مما قاله قبل قليل، وأن يحدّد ما إذا كان ذلك ملائمًا لما يقصد، وفي الوقت نفسه الذي ينطق جملته عليه أن يخطّط للجملة الموالية، وأن يضعها في مكانها من النسق العام لما يريد قوله، كما أنه فوق ذلك كله لا يوجه أداءه هو فحسب وإنما كيفية وقوع ذلك الأداء في نفس المتلقي. وليس لديه مع ذلك كله تسجيل دائم لما ذكره سابقًا، كما أنه لا يملك أي ملاحظات مدوّنة تذكره بما يريد قوله لاحقًا، اللهم إلا في ظروف غير عادية.

أما الكاتب، فبإمكانه على العكس من ذلك أن يراجع ما كتب وأن يتأنى بين كل كلمة وأخرى دون أن يكون عرضة لمقاطعة المتلقي، وأن ينتقي عباراته بكل أناة حتى بالرجوع إلى القاموس عند الحاجة، وأن يراجع ما وصل إليه بالنظر إلى ملاحظاته المدونة، وأن يعيد ترتيب ما كتب، وحتى أن يغيّر رأيه فيما يريد أن يقول. وبينما يتعرض

المتكلم إلى ضغط كبير وهو مضطر إلى مواصلة الحديث أثناء المهلة المخصصة له، يظل الكاتب في حلٍّ من مثل ذلك الضغط. وفي حين يدرك المتكلم أن أي كلمة تنبس بها شفتاه سيسمعها المتلقي، وأنه ملزم إذا ما كانت تلك الكلمة مخالفة لقصده باتخاذ إجراء فعلي وعلني يصلح به ما فسد، فإن الكاتب لا يحتاج إلا إلى جرّة قلم يشطب بها ما كتب ليستأنف عمله من جديد في غرفته دون أن يراه أحد.

هناك بطبيعة الحال مزايا يتمتع بها المتكلم. فهو يستطيع مثلاً أن يرى المتلقي، وأن يغيّر فيما يقول إذا أراد أن يجعل كلامه أيسر على المتلقي أو أكثر تقبّلا. والكاتب محروم من مثل هذه الاستجابة المباشرة، ولا يمكنه إلا أن يتصوّر ردّ فعل القارىء. إنه لمن الطريف أن نلاحظ سلوك الأفراد وقد طلب منهم أن يختاروا بين أن ينجزوا أمرًا ما بصفة شخصية أو عن طريق الكتابة. ففي بعض الأحوال، نراهم يفضلون المواجهة، إلا أنهم في أحوال أخرى - ولأسباب مختلفة - يفضلون أن ينجزوا المعاملة كتابة. إن المتكلم في الخطاب الشفهي يتمتع بقدرته على توجيه رد فعل المتلقي تجاه ما يقول دقيقة بدقيقة، لكنه في الوقت ذاته معرّض لأن يكشف مشاعره (لأن يقع فيما يسميه إيكمان وفريسن، ١٩٦٩م، «بالتسرّب») وهو ملزم بأن يكون كلامه واضحًا مختصرًا، وبأن يستجيب مباشرة لأي رد فعل من المتلقي.

١,٢,٢ تمثيل الخطاب: النصوص

لقد تعرّضنا إلى الآن بشكل عام جدًا إلى بعض الفروق في صفة حدوث كل من الخطاب المكتوب والخطاب المحكيّ. وقبل أن نتطرق إلى بعض وجوه الاختلاف بين أشكال الخطاب المكتوب والخطاب المحكيّ، سنستعرض في الفقرتين اللاحقتين بعض المشكلات التي يطرحها الشكل الذي يقدم به كل منهما. ولهذا الغرض، سنستعمل عبارة «النص» كمصطلح فني يدل على التسجيل اللفظي للحدث التواصلي (من أجل مقاربة أخرى لمسألة النص - انظر الفصل السادس).

١,٢,٣ النصوص المكتوبة

إن مفهوم النص بصفته وثيقة مطبوعة مفهوم مألوف في مجال الدراسة الأدبية. فقد يكون عرض النص مختلفًا من طبعة إلى أخرى، وبأحرف كتابية مغايرة وعلى

صفحات ذات أحجام مغايرة أيضًا، وقد يكتب في عمود واحد أو في عمودين، إلا أننا نفترض مع ذلك كله أن هذه الأشكال المختلفة التي أخرج بها النص تمثل كلها النص ذاته. ذلك أن كلماته لا بدّ أن تكون على الأقلّ دون تغيير، وأن ترد حسب ترتيب واحد. وحيثما تكون هناك أكثر من رواية واحدة للنص الواحد، يجد المحققون لزامًا عليهم أن يعلقوا على ذلك، فمن ذلك مثلا أن «دوفر ويلسون» يعلّق على هذا البيت من مسرحية «هملت»

O, that this too too sullied flesh would melt [I,ii,129]

فيوضح أن ما ورد في هذا النص ليس إلا واحدة من القراءات، إذ إننا نجد في القراءة (too too sallied) في الربع الثاني، والقراءة (too too solid) في المخطوطة الأولى (دوفر ويلسون، ١٩٣٤م).

وحتى عندما لا يكون هناك شك في أن الكلمات لم تتغير، وأنها وردت على الترتيب نفسه، فإن مجرّد نسخها لا يضمن إخراج النص إخراجًا ملائمًا. لننظر مثلا في هذه الفقرة من حوار جاء في رواية «الغرور والهوى»:

«سيّد بينت، كيف يمكنك أن تشتم أبناءك الذين من صلبك بهذه الطريقة؟ إنك لمسرور بإغاظتي. إنك لا تشفق على أعصابي المنهارة».

«إنك مخطىء بحقي، يا عزيزي. فأنا أقدر أعصابك كل التقدير. إذ إنّ بيني وبينها صداقة عريقة. لقد سمعتك تذكرها بكل تقدير خلال السنوات العشرين الأخيرة على الأقل».

من الواضح هنا أننا في حاجة إلى أكثر من مجرّد نقل الكلمات حسب الترتيب الذي جاءت عليه. فنحن بحاجة مثلا إلى نقل علامات الترقيم والنسق الذي جاءت عليه السطور والذي يشير إلى تغيّر المتكلّم. ولو قرأنا النصّ وكأنه خطاب صادر عن متكلم واحد، فستبدو هذه الفقرة من الحوار غير مفهومة. ذلك أنه لابد ليكون تقديم النص ملائمًا أن ينسب الكلام إلى أصحابه، وأن تأخذ الجمل مكانها من الفقرة الصحيحة والفقرات مكانها من الفصول المناسبة. أي أنه لابد من الحفاظ على التنظيم الذي وضعه الكاتب لعمله والتوزيع الذي اختاره للأدوار.

أما في المقال النثري التفسيري، فإن إشارات الكاتب إلى الكيفية التي تسير عليها مناقشة الموضوع تسهم في تشكيل التجربة التي يحصّلها القارىء من ذلك النص.

وهكذا، فالعناوين وعناوين الفصول والتقسيمات الفرعية والعناوين الفرعية تمثل كلها إشارات تدل القارىء على النسق الذي يريده الكاتب لعرض فكرته. لذلك، فإن نسق السطور نادراً ما يكون مهمّاً في المقالات النثرية التفسيرية أو الوصفية. لكن هذا النسق يصير بكل وضوح ذا أهمية بالغة في كتابة الشعر. ولهذا، فإن أعمال أولئك الشعراء ممن عاشوا في القرن السابع عشر وصاغوا أشعارهم في شكل ماسات أو فراشات ستكون إلى حدٍّ كبير غير مفهومة، إذا لم يتم الحفاظ على شكلها الذي جاءت عليه[٢].

ثم إن مفهوم النص، يتجاوز مجرد نقل مادة مطبوعة إلى شكل آخر من أشكال الطباعة. فبالإمكان مثلا أن ننقل رسالة مكتوبة بخط اليد وبحبر أرجواني وزخارف لولبية متعددة إلى شكل من أشكال الطباعة. أو على النحو ذاته، يمكن إيجاد أشكال مطبوعة محايدة من قوائم لمشتريات مكتوبة بخط اليد، أو من شعارات مرسومة بالألوان على لوحة إعلانات، وبلاغات عمومية منقوشة على صفائح معدنية. وفي كل حالة، نعدّ «النص» قد نقل إذا كانت كلماته وعلامات ترقيمه وسطوره أيضاً ـ إذا كان ذلك مهمّاً ـ قد نقلت كلها بدقة. وإذا كان النص الأصلي يستغل التنوّع في الأنماط الكتابية، فإن نقله بنمط واحد من الأحرف الكتابية قد يفقد النص المنقول شيئاً من مزايا الأصل. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن النص الصحفي في إحدى الجرائد قد يستفيد من المزج بين عدة أنماط وأحجام كتابية يتمّ إخراجها بشكل معيّن. ومن الطريف في هذا المقام أن نلاحظ أن الناشرين يحرصون بانتظام على نقل أي توظيف مقصود من المؤلف للشكل الكتابي. من ذلك أن الناشرين قد نقلوا عبارة المقابلة التالية عند جين أوستين بالأحرف المائلة على هذا النحو:

«كلاّ، قالت إليزابيث، ليس هذا من العدل. *أنت* تودّ أن تفكر أن كل العالم جدير بالتقدير، وتستاء إذا تحدثت بأي سوء عن أي شخص. و *أنا* لا أريد إلا أن أقرأ فيك *الكمال*».

(٢) من ذلك نماذج الشعر الهندسي في الأدب العربي خلال ما يعرف بعصور الانحطاط، وماجاء منه في شكل دوائر ومثلثات ومربعات ومستطيلات ومعينات، وكذلك قصائد التشجير والقصائد المخلعة، وماإلى ذلك. انظر في هذا الشأن مثلا كتاب: «*مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني*» للدكتور بكري شيخ أمين (بيروت: دار الآفاق، ١٩٨٠م).

وعلى النحو ذاته، فإن السطور التي كانت الملكة فيكتوريا تخطّها تحت بعض الكلمات وهي تكتب مذكراتها بخط يدها قد نقلها الناشرون بطبع تلك الكلمات بالأحرف المائلة، وذلك لأداء معنى المبالغة الذي كانت تريد إبرازه وهي تكتب عن «اللورد ملبورن»:

«لقد ألقى إلي نظرة غاية في الحنان... و**الأبوّة**».

الخميس ٢٨ يونيو ١٨٣٨م

وهكذا، وحيثما نرى الكاتب يسعى بقصد إلى الاستفادة من الإمكانات الكتابية المتاحة، فإنه من المناسب ـ فيما يبدو ـ أن نعتبر ذلك التوظيف جزءاً لا يتجزأ من النص[٣].

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الحقيقة ما نراه في قواعد الإملاء. فنحن نفترض بصفة عامة أن للكلمات في الإنجليزية البريطانية شكلا إملائيًا موحدًا، وحقيقة التوحيد هذه تتيح للمؤلفين فرصًا لتوظيف أشكال إملائية مزاجية معينة لتحقيق آثار معينة.

من ذلك أن ناشري قصة Winnie _ the Pooh ينقلون الإعلان المعلّق خارج منزل «أوول» في سطر واحد فريد، وبالأحرف الكبيرة مع الوفاء بالشكل الإملائي الأصلي الذي ساقه المؤلف:

plez cnoke if an rnsr is not reqid.

إن الغرض الذي يرمي إليه المؤلف من وراء هذا الشكل الإملائي سيضيع حتمًا لو تمّ نقل الكلمات في شكلها الإملائي الصحيح. ولقائل أن يلاحظ هنا أن مثل هذا الشكل الذي جاء به النص قاصر أو غير ملائم وذلك لأن إدراك غرض المؤلف لم يعد ميسّرًا من خلال النص المكتوب في شكله الحالي. وبالفعل، فإن أهمية النقل الصحيح للشكل الإملائي الذي يختاره المؤلف ينصّعليها بصفة منتظمة بإدخال العبارة

(٣) من الملاحظ أن استفادة اللغة العربية اليوم من هذه الإمكانات الكتابية التي تتيحها الطباعة الحديثة قليلة: فلسنا نرى الكتّاب فيما يبدو يستعملون أشكال الطباعة بالأحرف المائلة أو البارزة أو الغليظة، لإبراز كلمة معينة أو التركيز على عنصر معين في الجملة، أو التنبيه إلى تغير في نبرة الكلام، اللهم إلا بوضع سطر أو قوسين أو ما شابه ذلك، أو بالإشارة إلى ذلك صراحة بعبارات من قبيل (ورفع صوته) أو (وشدّد قائلا) أو نحو ذلك.

(كذا - sic) ضمن الشاهد من قبل مؤلف ثان يريد أن يتخلص من مسؤولية مثل ذلك الشكل الإملائي الغريب.

لقد بنينا ما ذكرناه لحد الآن ولغرض التبسيط على افتراض أن محتوى النص الأصلي واضح في كل الأحوال. أما بالنسبة للنصوص المكتوبة بخط اليد، فكثيرًا ما يحتاج مخرجها في نشرة مطبوعة إلى بذل جهد كبير في التأويل حتى يجد دلالة لبعض الكلمات غير الواضحة[٤]. فالالتباس في بعض الكلمات، كما لاحظنا سابقًا بالنسبة للأدب، قد يكون مثارا لمشكلات واختلاف حول النصوص. وأما في الرسائل، والوصفات وقوائم المشتريات والمقالات المدرسية، فإنك ترى القارىء عادة يختار قراءة محددة تكون هي الأولى والأخيرة بالنسبة لنص ربما لن يقرأ أبدًا مرة أخرى. إلا أنه من الواضح أن طبعة معينة من نص مكتوب بخط اليد تمثّل إلى حدّ كبير قراءة واحدة لذلك النص. ويتضح هذا بصفة خاصة في المحاولات الكتابية لبعض الأطفال التي يحتاج الكبار فيها إلى أن يجدوا لكل شكل كتابي خطّه الطفل بعناء كبير حرفًا معيّنًا يوافقه، ثم يعيدون بعد ذلك قراءته (أو تأويله) على ضوء السياق الأكبر للرسالة. مثال ذلك هذه الصفحة التي رسمت عليها صورة لحيوان (قيل إنه أسد) وطاولة عليها وعاء مائي به سمكة ذهبية. وقد كتب طفل في الخامسة من عمره جملاً تحت الصورة يمكن أن نسوقها على النحو التالي:

---

(٤) من ذلك هذا الشطر من بيت شعر ورد في مخطوطة لديوان الشاعر الأندلسي ابن زمرك (ق٨هـ)، وقد كتب على النحو التالي: (بحور في التجليد أو في نصيب) الكلمات في هذا الشطر بدون نقط، على نحو ما كانت عليه الكتابة في أشكال الخط العربي القديم. ما يدعو المحقق إلى التأمل في طبيعة الخط وكيفية رسم الكلمات (أهي بخط كوفي أم مغربي أم نسخي أم خط رقعة... إلخ). كما يتدخل هنا أيضاً عامل الزمن فعصر الشاعر قائل البيت ليس بالضرورة عصر الناسخ، ثم إن النص هنا شعري وهنا يتدخل عامل الوزن والإيقاع، إضافة إلى المعنى الذي يقتضيه تأويل الشطر حسب السياق. كل تلك العوامل مجتمعة أدت بالمحقق إلى فك الإشكال الذي يطرحه رسم البيت وبالتالي إلى القيام بتأويله وقراءته على النحو الآتي:

(يحوز في التخليد أو في نصيب)

علما بأن عدم مراعاة هذه الاعتبارات المذكورة قد تؤدي إلى قراءات أخرى غير صحيحة. (مع الشكر الجزيل للزميل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الخانجي على هذا المثال).

1- The lion wos the fish to ti it.	اريد لاسسمك ليوكلو
2- The cat wants to get dwon the steis	اريد القت نزل سولم
3- With qwt to dsthhb the lion.	ابدوما يجعز السد

لعل أحد التأويلات الممكنة للنص في شكله هذا أن يكون:

The lion wants the fish, to eat it, the cat wants to get down the stairs without to disturb the lion.

(يريد الأسد السمك، ليأكله. يريد القط أن ينزل السلّم وبدون أن يزعج الأسد).

إن كتابة النص الأصلي صوتيا qwt (أبدوما) في السطر الثالث يمثل بقدر معقول من الدقة الحرف الأول (الذي يمكن أيضًا أن يمثل رقم ٩). وإذا اعتمدنا كتابة صوتية أكثر تأويلاً وتسامحًا، فقد يقرأ الرمز (٩) على أنه همزة. وسنعود في الفقرة التالية إلى مسألة المجهود التأويلي للقارىء/ المستمع في محاولته التعرف على الكلمات التي تكوّن النص.

١،٢،٤ النصوص المحكية

تصبح المشكلات التي نواجهها مع مفهوم «النص» بصفته تسجيلا لفظيّا للحدث التواصلي أكثر تعقيدًا عندما نتعرض لمفهوم «النص» المحكيّ. ولعلّ أبسط نظرة يمكن أن تنبهنا أن التسجيل الصوتي لأي حدث تواصلي كفيل بأن يحفظ لنا «النص». كما أن التسجيل الصوتي كفيل بالحفاظ على قدر كبير مما يخرج عن النص - كالسعال، وصوت الكراسي، وصوت الحافلات وهي تمرّ قريبًا من مكان الحدث، وصوت الولاعة وهي تُقدح لإشعال سيجارة، وما إلى ذلك. وسنؤكد أن هذه الأحداث لا تمثل جزءًا من النص (على الرغم من أنها قد تشكل جزءاً من سياقه، انظر الفصل الثاني).

يشتغل محلّل الخطاب عامة مستعينًا بتسجيل صوتي لحدث معيّن ينقله بعد ذلك إلى رموز الكتابة الصوتية، ويضيف إليه ملاحظات حسب ما تقتضي به اهتماماته في ظرف معيّن - كالكتابات الصوتية من قبيل ما نراه في هذا الكتاب. وعلى المحلّل أن

يحدّد مكونات الحدث اللغوي، والصيغة التي سيعتمدها في كتابته كتابة صوتية. وإذا لم يقدّم المحلّل كتابة صوتية دقيقة (قد لا يستطيع قراءتها بسهولة إلا عدد قليل جدًا من الناس)، فإن سمات جزئية تتصل بالنبر والنطق ستضيع حتمًا. وعلى العموم، فإن المحلّلين يسوقون الخطاب المحكيّمكتوبًا حسب المواضعات الإملائية المعتادة. فقد يسمع المحلّل عبارة معينة يمكن كتابتها صوتيا كالتالي /greipbritn/ . فهل سيسوقها إملائيا بهذا الشكل grape britain؟ ذلك مستبعد. فهو سيؤول ما يسمع وسيلتزم بالصيغة الإملائية المتواضع عليها (Great Britain) مع إدخال المحدّدات الكلمية المتواضع عليها أيضا ضمن الصيغة الكتابية، مع أنها - بطبيعة الحال - غير موجودة في الإشارة الصوتية[5]. وإذا سمع المحلّل /g n/ ، فهل سيسوقها كتابيا على أنها (gonna) (التي تقترن لدى بعض القراء بملامح أمريكية واضحة أو متميزة) أو gointub أو going to؟ إن المشكلة حقيقية فعلاً، لأن معظم المتكلمين يقومون بصفة مطردة باختصار الكلمات صوتيًا في نسق الكلام (انظر «براون»، ١٩٧٧م، الفصل الرابع). وإذا ما التزم المحلّل بالصيغة الكتابية المتواضع عليها، فإن الكلمات تتخذ تبعا لذلك طابعا من الشكلية والخصوصية من شأنه بالضرورة أن ينحرف بها عن الشكل المنطوق.

ثم إن المشكلات التي يحملها تمثيل الملامح التقطيعية للكلمات المنطوقة تبدو غير ذات أهمية بالمقارنة مع تلك التي يطرحها تمثيل الملامح التطريزية (كتفاصيل التنغيم والإيقاع). فليست لدينا مواضعات قياسية لتمثيل ملامح القول الإيمائية التي تدخل جملة ضمن ما يعرف بـ «نوعية الصوت»، ومع ذلك فالأثر الذي تتركه جملة تقال بلطف ومودّة يختلف اختلافًا واضحًا عمّا لو قيلت بشدّة وحدّة. وبالمثل، فإنه بالإمكان عادة أن نحدّد من خلال صوت المتكلم جنسه، وسنّه التقريبيّومستواه الثقافي، إضافة إلى جوانب أخرى تتعلق بوضعه الصحي وشخصيته (انظر ابركرومبي، ١٩٦٨م، لايفر، ١٩٨٠م). ومثل هذه الملامح الدالة على المتكلم لا توجد عنها عادة أي تفاصيل

(٥) قريب من ذلك في العربية اختلاف نطق بعض الأصوات من لهجة إلى أخرى. فإذا سمع التونسي كويتيًا مثلاً يقول: «وايد»، فهل سيكتبها كما يسمعها أو ينقلها إلى الصيغة الإملائية الأصلية للكلمة (أي «واجد») بناء على تأويل لما يسمع؟ علمًا بأن عبارة «واجد» لا تستعمل بهذا المعنى في اللهجة التونسية، مما قد يقتضي أيضًا نقلها إلى مقابلها المستعمل في تونس (مثل «ياسر» أو «برشة»).

في الكتابة الصوتية التي يسجلها محلّلو الخطاب. كما أن ملامح الخطاب الإيقاعية والزمنية تتجاهل عادة في الكتابة الصوتية، فالبنية الإيقاعية التي تربط في الظاهر بين مجموعات بعينها من الكلمات دون غيرها، وكذلك التسارع والتباطؤ في النسق العام لتدفق الخطاب بالمقارنة مع سرعة المتكلم العادية(في الكلام) في ظرف خطابي معيّن، كل تلك الظواهر تمثل متغيّرات على قدر كبير من التعقيد ولا نعلم سوى القليل عن كيفية توظيفها في الخطاب ولأيّغرض (ومع ذلك انظر باتروورث، ١٩٨٠م). غير أنه يبدو من المعقول أن نقترح أن هذه المتغيرات، وكذلك الوقف والتنغيم، تقوم في الكلام بالوظائف التي تحققها علامات الترقيم، والأحرف الكبيرة، والأحرف المائلة، والفقرات، وغيرها في اللغة المكتوبة. وإذا ما كانت هذه جزءا من التسجيل النصيّفي اللغة المكتوبة، فلا بدّمن إدماجها ضمن التسجيل النصيّفي اللغة المحكيّة. وإذا ما كان لها دور في إبراز الكلمات التي ركزت عليها الملكة فيكتوريا (في المثال السابق)، فإن لها بالتأكيد دورًا في الإشارة مثلاً إلى أن استعمال المتكلم للنغم العالي والجهارة قد قصد به التأكيد.

لقد عالج معظم المحلّلين هذه المشكلة المعقدة باستعمال مواضعات اللغة المكتوبة في نقلهم النص المحكي إلى رموز الكتابة الصوتية. وهكذا، نرى «اسيكورال» (١٩٧٣م) يسوق جملاً ثلاثًا سجّلها في قاعة الدرس على النحو الآتي:

١ - س: هكذا؟

٢ - أ: حسنا، نعم، لا بأس، الآن...

٣ - ر: والآن ماذا سنفعل؟

في الجملتين الأولى والثالثة، نعتبر أن العلامة؟ تدل على أن الجملة سؤال - ولا ندري هل سجّل ذلك شكليًا بنغمة (صوتية) صاعدة مثلاً، بالنسبة للجملة الأولى. وعلى النحو ذاته، ليس هناك ما يدلّصراحة على وظيفة الفواصل في كلام الأستاذ - فقد تكون وضعت للإشارة إلى وقفات في نسق الكلام، أو ربّما كانت تدل ببساطة على مزيج من الإشارات الإيقاعية والنغمية التي يستجيب لها المحلّل. والذي يجب إدراكه بوضوح أمام نص مكتوب من هذا القبيل هو أنه قد حصل قدر كبير من التأويل من قبل المحلّل قبل أن يعرض «النص» على القارىء. فإذا اختار المحلّل أن يكتب

كلمة معينة بالأحرف المائلة في النص الذي ينقله، وذلك للدلالة مثلاً على صعود نغمة المتكلّم وارتفاع صوته، فإنه يكون بهذا قد قام بتأويل معيّن للإشارة الصوتيّة، وهو تأويل يوافق في الواقع - وكما أراد - ذلك السطر الذي يضعه الكاتب تحت كلمة ما للإشارة إلى تأكيدها. هناك إذن اتجاه معيّن (يختاره) المحلّل وهو يصوغ نصّا سيقرأه آخرون. وهو في هذه الصياغة المكتوبة للنص المحكي، يقوم باستدعاء وجوه التأويل المتواضع عليها والتي يشترك فيها بقية مستعملي اللغة.

ولا بد من التأكيد بعد هذا أنه مهما كانت موضوعية مفهوم «النص» كما حددناه (أي التسجيل اللفظي للحدث التواصلي) فإن إدراك كل نص وتأويله عمل ذاتي أساسا. فالأفراد على اختلافهم لا يهتمّون بالنواحي ذاتها في النصوص التي تعرض عليه، كما أن مضمون النص لا يستهويهم أو يتلاءم مع تجربتهم بشكل واحد. إلا أننا في مناقشة النصوص نغفل (أو نتغافل) عن هذا التنوّع في ممارسة النص، ونفترض أن هناك بيننا ما يسمّيه «شولتز» ' وجهة نظر متبادلة ' نسلّم بموجبها بأن قراء نصّ معين -أو المستمعين إليه- يتقاسمون تجربة واحدة (شولتز، ١٩٥٣م). من الواضح أن افتراض وجود قدر معيّن من الاشتراك في وجهة النظر يكون كافيًا لتحقيق التفاهم أمر ضروري بالنسبة لجانب كبير من اللغة العادية اليومية. إلا أنه تعترض سبيلنا من حين لآخر تأويلات مختلفة لنص واحد. من ذلك ما يحدث خاصة عندما يركز أحدنا نظرة فاحصة على جزئيات في الخطاب المحكيلم يقصد المتكلم منها أن تكون أكثر من مجرّد عناصر عابرة، وغير مهمة نسبيا، في صياغة ما أراد قوله. ولعله من العدل فيما يبدو أن نقترح بأن التحليل الخطابيللغة المحكية معرّض بصفة خاصة لمثل هذا الضرب من الزيادة في التحليل. فكثيرا ما تكون للنص الواحد وجوه متنوعة من التأويلات المفروضة عليه من قبل المحلّلين، وهم يدرسونه في راحة من أمرهم، والتي تزيد كثيرا عما كان من الممكن أن يفكر فيه الأطراف الذين شاركوا في العملية التواصلية التي أدت إلى ظهوره. وعندما يؤلف المحلّل صيغة مكتوبة من نسخة مسجلة للخطاب المحكيّ، فإن النص المكتوب يصير بين يديه تماما مثلما النص الأدبي بين يدي الناقد الأدبي. ومن المهم أن نتذكر عند مناقشة النصوص المحكية هذه الطبيعة الانتقالية التي يتسم بها الأصل.

لعله بات من الواضح أن تعريفنا البسيط للنص بأنه «التسجيل اللفظي للحدث التواصلي» بحاجة على الأقل إلى أساسين يدعمانه:

١ - إن تمثيل نص معيّن مطروح للنقاش قد يضمّ إلى حدّما، وخاصة إذا تعلق الأمر بالتمثيل الكتابي لنص محكي، تحليلاً سابقًا (وبالتالي تأويلا) لمقطع من الخطاب قام به محلّل الخطاب وهو يعرض النص للمعالجة.

٢ - هناك سمات تتعلّق بأصل الحدث اللغوي، كالكتابة المرتعشة أو الصوت المتهدّج مثلاً، تعتبر بصورة اعتباطية إلى حدّما جزءاً من ملامح النص لا من ملامح السياق الذي تصدر فيه اللغة.

١,٢,٥ العلاقة بين الكلام والكتابة

تضطلع كل من اللغة المكتوبة واللغة المحكية عمومًا بوظائف في المجتمع شديدة الاختلاف. ولقد عرض الباحثون الانثروبولوجيون بخاصة وعلماء الاجتماع أيضًا هذه الفكرة بقوّة وبشكل لا يدعو إلى الاستغراب. من ذلك أن «جودي» و «وات» (١٩٦٣م) و «جودي» (١٩٧٧م) يقترحان أن التفكير التحليلي قد جاء في مرحلة لاحقة لاكتساب اللغة المكتوبة «وذلك لأن تمكّن الإنسان من ناصية الكلام هو الذي مكّنه بوضوح من الفصل بين الكلمات والتصرّف في ترتيبها وتطوير أشكال قياس منطقية من الاستدلال» (جودي، ١٩٧٧م ص ١١). ويستمر «جودي» في رأيه هذا، فيقترح وجهات نظر أوسع بشأن الطرق التي بموجبها ساعد اكتساب المهارة الكتابية، التي تمكّن الإنسان بفضلها من التدبّر في أفكاره، على تطوير جملة من البنى الإدراكية التي لا تتوافر لدى الأمّي (انظر كذلك آراء فيجوتسكي، ١٩٦٢م). ويعالج «جودي» الاستعمالات (المختلفة) لصور من الكلمة المكتوبة في ثقافات مختلفة، ويتطرق بصفة خاصة إلى «الاستعمالات اللغوية غير الكلامية» التي تساعد على تكوين أنظمة من التصنيف، كالقوائم والعبارات الجاهزة والجداول والوصفات المخصصة «لتنظيم المعرفة البشرية وتطويرها» (١٩٧٧م ص ١٧).

ويرى «جودي» أن للغة المكتوبة وظيفتين رئيستين: أولاهما الوظيفة التخزينية التي تسمح بالتواصل عبر الزمان والمكان، وثانيتهما الوظيفة التي «تنقل اللغة من المجال

المحكي إلى المجال المرئي» وتسمح للكلمات والجمل بأن تعالج خارج سياقاتها الأصلية، «حيث ترد في سياق مغاير جدًا وبالغ التجريد» (١٩٧٧م ص٧٨).

ولعله من المعقول أن نقترح أنه بينما نستعمل الكلام، في الحياة اليومية ووسط مجتمع متعلّم، أساسًا لإقامة العلاقات البشرية والحفاظ عليها (وهذا استعمال للغة تفاعلي أساسًا)، فإننا نستعمل الكتابة إلى حدٍّ كبير لصياغة المعلومات الوقائعية.

لذلك، تجدر الإشارة إلى أن المتلقي كثيرا ما يسجل تلك التفاصيل المقدّمة إليه كتابة. وهكذا، نرى الطبيب يدوّن الأعراض التي يشعر بها المريض، ويسجّل المهندس رغبات مستخدمه، كما يسجّل «هانسرد» مداولات البرلمان البريطاني، مثلما ندوّن نحن عناوين أصدقائنا وأرقام هواتفهم، ووصفات الأطعمة وأشكال التطريز، وما إلى ذلك. وحيثما لا نتوقع من المتلقي أن يدوّن تفاصيل ما يقال له، فإننا كثيرًا ما نرى المتكلم يكرّرها على مسمعه عدة مرات. لنفكر مثلاً في التركيبة المميزة التي تأتي بها النشرة الإخبارية. فهي تفتتح عادة بالعناوين الرئيسة – وهي مجموعة من التصريحات الموجزة – ثم يليها خبر معيّن هو عبارة عن عرض موسّع ومكرّر للعنوان الرئيس الأول، يتخلّله تعليق من المراسل تُستعرض فيه أهم النقاط من جديد، ثم تختتم النشرة بعد ذلك بإعادة لموجز العناوين الرئيسة. ويشير ذلك إلى أن هناك توقعًا عامًا بأن المستمعين لن يتذكروا تفاصيل الوقائع جيدًا إذا عرضت عليهم فقط بالصورة المحكيّة خصوصا إذا أريد منهم أن يتذكروها لفترة طويلة من الزمن. ومن الواضح أن هذا الجانب من عملية التواصل هو الذي تتفوّق فيه الكتابة تفوّقًا باهرًا، سواء لخدمة الفرد وتذكيره بالمعدّات الخاصة لحياته اليومية، أو لخدمة الشعوب وتمكينها من إقامة الدساتير والقوانين والمعاهدات مع الشعوب الأخرى.

إن أهم الفروق بين الكلام والكتابة تنبع من أن الأول وقتي أساسًا بينما تكون الكتابة مستمرة. وهذه بالذات هي النقطة التي يشير إليها إينرايت عندما لاحظ أنه "ربما كانت لأفلاطون في يوم من الأيام نظرة تقدير للكلام أكبر من الكتابة، لكنني أشك أنه باقٍ على رأيه هذا الآن" (انظر «مراجعات» في صحيفة الصاندي تايمز، ٢٤ يناير ١٩٨٢م).

١,٢,٦ الفروق الشكلية بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية

ليست نيتنا هنا أن نناقش الأشكال المختلفة من اللغة المحكية التي يمكن وجودها حتى في مساحة جغرافية واحدة كبريطانيا مثلاً. ومن الواضح أن هناك فروقًا لهجية، واختلافات في النبرة، وأخرى تتصل بالسجل اللغوي وتعتمد على متغيرات معينة من قبيل الموضوع المناقش، والأدوار التي يضطلع بها الأطراف المشاركون في الخطاب (انظر مثلاً: ترودجيل، ١٩٧٤م و هادسون، ١٩٨٠م حيث تجد مناقشة لهذه الأنواع من الفروق). إلاّ أن هناك فرقًا آخر قلّما نلاحظه، لكنه جدير بأن نلفت إليه النظر في هذا المقام. ويتمثل في الفرق بين كلام الذين في لغتهم أثر كبير لكثرة الاتصال بأشكال اللغة المكتوبة وكلام الذين ليس في لغتهم نسبيًا أيّ أثر للقوالب الكتابية. من الطبيعي أن يكون كلام الفريق الأول إلى حدّ ما هو موضوع الكتب التي تتناول اللغة بالوصف (كتب النحو) وذلك لأن ما يميّز مثل هذه الكتب أنها من تأليف أناس من متوسطي الأعمار الذين أمضوا سنين طويلة في مطالعة اللغة المكتوبة. فكلام ككلام الأكاديمي مثلاً في مواقف معيّنة، وعلى الخصوص إذا كان يقول شيئًا سبق له أن قاله أو فكّر فيه من قبل، قد يحمل قدرا كبيرا من الخصائص المشتركة مع أشكال اللغة الكتابية. وفي المقابل، فإن اللغة المحكية بالنسبة للأغلبية من السكان، حتى في بلد من 'المتعلمين'، تحمل من الخصائص المشتركة مع أشكال اللغة المكتوبة قدرًا أقل من ذلك بكثير. وهذه مرة أخرى نقطة أشار إليها «جودي» إذ يقول: «هناك أفراد يقضون مع اللغة المكتوبة فترات من الزمن أطول مما يقضونه مع اللغة المحكية. فما آثار ذلك على اللغة عامة... بصرف النظر عن آثاره على شخصياتهم؟ وفيم تختلف أشكال اللغة المكتوبة عن أشكال اللغة المحكية؟» (١٩٧٧م ص ١٢٤). سنقوم فيما يلي بالتمييز بشكل تبسيطي بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة متخذين من اللغة الكتابية الراقية معيارًا للغة المكتوبة، ومن كلام الذين ليست لديهم خبرة طويلة باللغة المكتوبة (وهذه مجموعة ستضمّ أغلب طلاب المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية) معيارًا للغة المحكية.

لقد ناقشنا في الفقرة ١,٢,١ بعض الفروق في كيفية إحداث كل من الكلام والكتابة، وهي فروق غالبًا ما تسهم بقدر مهمّ في تكوين أشكال مميزة للغة المكتوبة وأشكال أخرى مميزة تقابلها في اللغة المحكية. ويتمثل الأثر العام لذلك في إحداث

كلام يتميز بقدر من التنظيم المتنوع يقلّ عما في اللغة المكتوبة، وبمعلومات أقل كثافة، لكنه يضم قدرًا أكبر من العلامات التفاعلية[٦] و«المالئات» التخطيطية[٧]. والكتب المعروفة التي تصف نحو اللغة الإنجليزية (انظر مثلا كويرك، جرينباوم، ليتش وسفارتفيك، ١٩٧٢م) إنما تصف ملامح اللغة المكتوبة أو ذلك الشكل من أشكال اللغة المروية المتأثر -إلى حدّ كبير- باللغة المكتوبة[٨]. ولعلّه بإمكاننا، بالاعتماد على الدراسة الوصفية التي قام بها عدد من الباحثين للغة المحكية (انظر مثلا: لابوف، ١٩٧٢م؛ سنكلار وكولتهارد، ١٩٧٥م؛ تشايف، ١٩٧٩م؛ أوخس، ١٩٧٩م؛ سيكورال، ١٩٨١م؛ جوفمان، ١٩٨١م) أن نستخرج بعض الخصائص (وليس كلّها، بأي حال) التي تميز اللغة المحكية:

١ - يتميز نظم اللغة المحكية بكونه أقلّ تبنينا بكثير من اللغة المكتوبة:

(أ) فاللغة المحكية تضم عددًا كبيرًا من الجمل غير التامة، وتأتي غالبًا في شكل وصلات بسيطة متعاقبة من أشباه الجمل.

(ب) وتتميز اللغة المحكية باحتوائها عددًا قليلاً نسبيًا من المتعلّقات.

(جـ) في لغة الحوار التي قد تراعى فيها أحيانًا قواعد تركيب الجمل، نلاحظ عادة وجود الأشكال التصريحية المبنية للمعلوم. ففي أكثر من خمسين

---

(٦) «العلامات» ترجمة للمصطلح اللغوي الإنجليزي Markers. والعلامة سمة مميزة تفرق بين صيغتين، إحداهما موسومة Marked، والأخرى غير موسومة Unmarked. وقد تكون العلامة فونولوجية (كالجهر والهمس)، أو صرفية (كعلامة الجمع أو التأنيث) أو تركيبية (كالتقديم والتأخير)، أو نحوية (كصيغة الكلمة عندما تدل على وظيفتها، كأن تكون فعلاً متعديًا أو نعتًا مثلا)... إلخ. ولمثل هذه العلامات دور في تحقيق الخطاب أثره في المتلقي.

(٧) «المالئات» ترجمة للمصطلح اللغوي الإنجليزي Fillers وهي الكلمات التي تشغل حيزا في التركيب، كموقع الفاعلية في (جاء ———— أمس)، أو موقع الابتداء في (كريم النفس)، وغيرها. أما «المالئات التخطيطية» Planning Fillers فلها علاقة بما يضعه المتكلم في خطابه من عبارات، الغرض منها توجيه المتلقي إلى مقاصده وإعداده لتقبل فكرة معينة أو موقف محدد (من ذلك عبارات من قبيل: يبدو، فيما يبدو، لو تفهم ما أعني، أظنك تفهم ما أقصد... إلخ).

(٨) ينطبق هذا الحكم أيضا على عدد من كتب النحو العربي المدرسية الحديثة مثل كتاب «النحو الأساسي» لأحمد مختار عمر ومصطفى النحاس زهران ومحمد حماسة عبداللطيف، أو «التطبيق النحوي» و«التطبيق الصرفي» لعبده الراجحي... إلخ.

ساعة من الحوار المسجّل، لم يعثر كل من براون وكاريّ وكينوورثي (١٩٨٠م) إلاّ على نماذج قليلة من المبنيّ للمجهول والجمل المتصدعة[٩] والجمل الموصولة[١٠].

٢ - هناك في اللغة المكتوبة مجموعة كبيرة من العلامات اللغوية التي تستعمل لوسم العلاقات بين الجميلات (المتمّمات[١١] الموصولة، عندما / في حين/ بينما، وما شابهها من العلامات الزمنية، وما يعرف بـ «وسائل الربط المنطقي» من قبيل «إلى

---

(٩) الجملة المتصدعة أو الانشطارية ترجمة للمصطلح (Cleft sentence) وقد استوحينا هذا... المصطلح قياسًا على مصطلح «القنبلة الانشطارية». والجملة الانشطارية في الإنجليزية جملة يمكن أن تتفرع أو تنشطر إلى جملتين في كل منهما فعل، وتختلف دلالتهما التوكيدية عن الجملة الأصل. مثال ذلك:

The rich man gave money to the school

فمن هذه الجملة الأصل، يمكن أن نستخرج:

- It was the rich man who gave money to the school.

أو: - It was money that the rich man gave to the school

ولكل منهما معنى توكيديّ خاص. وتوصف العلاقة بين الأجزاء التي تتغير مواضعها في مثل هذه الجملة بأنها «تبعية غير مقيّدة» (Unbounded dependency). وتقابل هذه الجملة في العربية جملة الحصر بإنما أو بإلاّ. فمن الجملة: (أعطى الغني المال للمدرسة) يمكن أن نستخرج: «إنما أعطى الغني المال للمدرسة» (حيث المحصور هو «المدرسة») أو «إنما أعطى الغني للمدرسة المال (حيث المحصور هو المفعول المتأخر «المال»)، أو «ما أعطى المال للمدرسة إلاّ الغني».

(١٠) الجملة الموصولة ترجمة للمصطلح 'Wh-cleft'، وهي في الإنجليزية جملة تبدأ باسم موصول من قبيل What you did is wrong. «ما فعلته خطأ».

كما يعرض كريستال من جهته أيضا (١٩٨٠م) بعض المشكلات التي واجهها أثناء محاولته تحليل الكلام العفوي على أساس من الأصناف (النحوية) كالجُملة والجُميلة.

وكمثال مختصر على ذلك، لاحظ كيف يقف هذا المتكلم ثم يبدأ جملة جديدة قبل أن يفرغ تركيبًا من سابقتها:

«صارت جميلة حقًا هذه المدينة منذ + هي في الأصل كانت مزدحمة بشوارعها الضيقة، لكن يبدو + يبدو أنها صارت + يعني + + صارت أفضل من قبل».

(١١) مصطلح يستعمل في علم النحو التوليدي، للإشارة إلى الأداة التي تليها العبارة التميمة نحو «قلت له إن عليه أن يعتذر».

جانب ذلك»، و «إضافة إلى» أو «زيادة على ذلك»، «لكن» أو «إلا أن»، «بالرغم من» . . . إلخ). أما في اللغة المحكية، فإن معظم الجمل تتناسق فيما بينها بالتجاور أو بالإرداف عن طريق حروف العطف مثل «و»، «لكن» و «ثم»، ونادرًا بأداة الشرط «إذا». ويتميز المتكلم بكونه أقل تصريحًا من الكاتب: «أنا متعب جدًا (لأنني) قطعت كل المسافة إلى البيت مشيًا». كما أننا نجد في اللغة المكتوبة وسائل الربط البلاغية وقد استعملت لتنسيق وصلات من الخطاب أطول، ومن هذه الوسائل قولنا «أولاً، أكثر أهمية من، وفي الختام» – ويندر استعمال مثل هذه الوسائل في اللغة المحكية.

٣ – كثيرًا ما يشيع في اللغة المكتوبة استعمال المركبات الاسمية (من قبيل «ذلك الذي») مسبوقة بسلسلة من الصفات [١٢] ويندر في اللغة المحكية أن تجد أكثر من صفتين تسبقان (المركب الاسمي) حيث هناك ميل واضح إلى بناء المقاطع القصيرة من الخطاب على نحو يرتبط فيه مسند واحد بمرجع واحد محدد في كل مرة (ما يعرف بإطار الحالات [١٣] البسيط أو مسند الموقع الواحد [١٤] كما في:

---

(١٢) يبدو أن هذا الحكم لا ينطبق على العربية حيث لا نجد من هذا إلا مركبات مثل (طويل القامة، عظيم الرأس، حصيف الرأي . . .).

(١٣) في «نحو الحالات»، «مجموع» الحالات التي تعين السياق التركيبي للأفعال. و «الإطار» هو السياق التركيبي الذي يمكن أن تستخدم فيه مجموعة متجانسة من الوحدات اللغوية، فمثلاً (هو ——— بيته هو الإطار الذي يصح فيه استعمال الظروف من قبيل «في» و «داخل» أو «خارج» أو «على»، وموقعية الظرف هي الفراغ بين الكلمتين في مثل هذه الحالات. وقد يوسّع الإطار فيستعمل لتعليم الطلاب وتدريبهم، وذلك باستبدال وحداته اللغوية على نحو متتابع. أما «نحو الحالات»، فهو منهج في الدراسة النحوية أنشأه عالم اللغة الأمريكي «ك. فيلمور» في أواخر الستينات من هذا القرن، وقوامه قسمة الجملة في تركيبها العميق (أي «حالاتها» العميقة، خلافًا لحالاتها السطحية، ومن هنا الاسم الذي أطلق على المنهج) إلى قسمين: الصيغة والقضية، وتحليلها على أساس من العلاقة بين مكوناتها مع التركيز على دور الفعل خاصة.

(١٤) مسند أو «فعل الموقع الواحد» مصطلح يطلق في النحو الإنجليزي على الفعل اللازم إذ إن له متعلقًا واحدًا هو الفاعل (مثل: دخل الرجل). ويقابل هذا المصطلح مصطلح «فعل الموقعين» وهو المتعدي إلى مفعول (فله متعلقان: الفاعل والمفعول) وفعل المواقع الثلاثة وهو المتعدي إلى مفعولين (فله ثلاثة متعلقات: الفاعل والمفعول الأول والمفعول الثاني).

إنه قط كبير نوعًا ما + عتابي + له أذنان مخرومتان،

أو في

ماك أرثر هذا الرجل المسن + لقد كان صغير الحجم جدًا + . . نعم، صغير الحجم جدًا + وله . . . ذقن + وقد كان محدودبًا بقدر كبير.

أما في اللغة الكتابية، فإن تكديس المعلومات بشأن مرجع معيّن قد يأتي مكثفًا إلى حد كبير، كما في الخبر الصحفي الآتي:

توفي في المستشفى رجل تحوّل إلى شعلة من النار منذ عشرة أيام بعد أن أخذه النعاس في سيارته المقفلة وهو يدخن غليونه.

(الإيفنينغ نيوز – أدنبرة – ٢٢ نيسان ١٩٨٢م)

٤ – بينما تتركب الجمل في اللغة الكتابية عمومًا في شكل مسند إليه + مسند، كثيرًا ما نصادف في اللغة المحكية ما يسميه جيفون (١٩٧٩م) بنية المبتدأ والخبر، كما في قولنا:

القطط + هل أخرجتها من البيت؟

٥ – لا يشيع في الخطاب غير الرسمي استعمال التراكيب المبنية للمجهول، فلغة المحادثة تتميز بغياب المبني للمجهول الذي يسمح للمتكلم بالسكوت عن الفاعل الحقيقي. وبدلا عن ذلك، نجدها تستعمل الصيغ المبنية للمعلوم حيث نلاحظ ورود مزيج غير محدد من الإشارات إلى الفاعل الحقيقي، كما في هذا المثال:

أوه، إن كل ما يفعلونه في أدنبره + هم يفعلونه بشكل بطيء للغاية.

٦ – عند الحديث عن المحيط المباشر، قد يعتمد المتكلم (مثلاً) على النظر إلى جهة معينة لتحديد مرجع معين لحديثه (كأن ينظر إلى المطر ويقول):

– مريع أليس كذلك؟

٧ – يمكن للمتكلم أن يعوض كلمة بأخرى أو يحسن من عباراته وهو مسترسل في كلامه:

هذا الرجل + هذا الفتى الذي كانت تخرج معه.

٨ – تتميز اللغة المحكية باستعمالها قدرًا كبيرًا من المفردات المعمّمة من قبيل: فظيع[١٥]، حصّل، سوّى[١٦]، حاجة[١٧]، كويّس، شيء، وحاجات زيّ كده[١٨].

٩ – كثيرًا ما يكرر المتكلم نفس التركيب النحوي مرات ومرات، كما يفعل هذا المفتش وهو يتفقد موقعًا لأحد المعارض:

أتفقد طافئات الحرائق + أتفقد مخارج الطوارئ + أرى ما إذا كانت هناك ممرات جانبية + أتفقد الخيوط الكهربائية + هل هي موصولة جيدًا بالأرض + هل هي مغلّفة جيدًا.

١٠ – يمكن للمتكلم أن يستعمل عددًا كبيرًا من الكلمات أو العبارات «المالئة» (أو المكمّلة) المصطلحة من قبيل: نعم، إم[١٩]، أظن، لو تعلم، إذا أدركت ما أقصد، طبعا، وما إلى ذلك.

ويمكن أن نلاحظ بعضًا من الفروق النموذجية بين الخطاب المكتوب والخطاب المحكيّ في المثالين الآتيين اللذين يصف كل منهما قوس قزح (علمًا بأنه ليس القصد هنا إجراء مقارنة مباشرة، لأن كلا من الخطابين قد صدر في ظروف لا مجال للمقارنة بينها ولأغراض مختلفة تماما):

(١) وبعدها، وبين السحب المتحركة، لمحت شريطا من التقزّح اللوني الباهت وقد كسا جزءاً من الجبل بظلال من الألوان الشاحبة. ظلت تبحث ناسية مرتاعة عن ذلك اللون المتردد، فإذا بها تشاهد قوس قزح وهو يتشكل. لقد كان يلمع بشدة في مكان معيّن، أخذت وقلبها مفعم بالأمل تبحث عن ظل الحدقة حيث يجب أن يكون القوس. فإذا باللون يتجمع شيئا فشيئًا، هكذا، من لا شيء، وإذا به يمثل حاضرًا، هناك، إنه قوس قزح باهت ممتدّ.

(د. هـ. لورنس: قوس قزح، الفصل السادس عشر).

(١٥) في العامية: شيء فظيع، عبارة فظيعة، منظر فظيع (بمعنى رائع أو مهول) ومن هذا أيضا: رهيب، ... إلخ.

(١٦) في العامية.

(١٧) عملت حاجة، أخذت حاجة، رأيت حاجة ... إلخ. ومثلها «شيء».

(١٨) هذه الأمثلة كلها من العربية العامية، وروعي في اختيارها أن تكون أقرب ما يمكن من الأصل الإنجليزي:

Things like that. A lot of, got, do, thing, nice, stuff, place,

(١٩) للهمهمة.

في هذا النص المختار، تدل المفردات الغنية والبنية المتناسقة على أن الكاتب قد أمضى وقتًا في صياغة النص النهائي، وربما أعاد صياغته عدة مرات أثناء الكتابة. فهناك جمل تامة، تحتوي على أخرى تابعة، وهناك تنويعات كثيرة عن طريق النعوت والظروف، كما أن هناك أكثر من مسند واحد في كل تعبير مرجعي. أما في النص المختار الثاني، فهناك عدة وقفات تتخلل في غالب الأحيان وحدات تركيبية أساسية، وهناك تكرار وجمل ناقصة ومفردات معمّمة وعبارات «مالئة»، وهناك أيضًا مثال عن زلّة لسان:

(٢) عادة + وبعد مطر شديد + أو شيء من هذا القبيل + و + أنت تسوق سيارتك على الطريق + و + هناك بعيدًا جدًا + تشاهد + أم... + أم... + مجموعة من الخطوط ++ شكلها مثل القوس + قوس الرماية + بعيدًا بعيدًا جدًا + آه + وبه سبعة ألوان لكن ++ أتصور أنك لا تكاد ترى أبدا سبعة ألوان إنها مجرد + مجموعة من الألوان التي + تبدو متفرقة لكنك لو حاولت أن تبحث عن الألوان المتفرقة (...) لأن الألوان تبدو دائمًا + من الصعب جدًا + أن تفصل بينها + إذا كنت تفهم ما أقصد ++

(من حديث عادي لطالب في الدراسات العليا)

المتكلم هنا وهو يخطط لكلامه مباشرة والمخاطب أمامه ينتظر الفرصة ليأخذ طرفًا في الحديث، يكرر نفسه كثيرًا وبشكل مميّز، فيستعمل نفس التركيب النحوي، ونفس المفردات، ويبادر إلى أول لفظة ترد إلى ذهنه بدلا من البحث عن اللفظة المناسبة، ويملأ الوقفات في حديثه بشتى العبارات «المكمّلة» (أو المالئة). والأثر العام لذلك كله أن المعلومات المقدّمة جاءت في شكل أقل كثافة بكثير مما تتميز به لغة الكتابة. وعلينا أن نفترض أن درجة تكثيف المعلومات في اللغة المحكية إنما تأتي لتساعد المتلقي على معالجة تلك المعلومات في راحة من أمره. ذلك أن أغلب الناس الذين كانت لهم تجربة مع النصوص النثرية المقروءة بصوت مرتفع قد وجدوا صعوبة في متابعة النسق المحكيّ للخطاب. وقليلون هم الذين يستطيعون استيعاب قدر كبير من المعلومات من محاضرة تقرأ عليهم بصوت مرتفع وبدون مادة مرئية تدعمها. لقد أشار «جودي» إلى أن الشكل الكتابي للغة يخلّصنا من معاناة النسق الخطي للتجربة (المنقولة عبر الخطاب): «فاتخاذ (تلك التجربة) شكلا مرئيا يعني أن الفرد يستطيع الخلاص من مشكلة التعاقب الزمني للأحداث، بأن يراجع، ويتخطى ويبحث عن فاعل الحدث قبل معرفة الحدث ذاته.

من، فيما عدا الأكاديمي المفرط في استحواذه، تجده يقرأ كتابًا مثلما يسمع خطابًا؟ ومَنْ، فيما عدا أولئك الكتّاب الدراميين المعاصرين الأكثر طلائعية، تراه يحاول الكتابة مثلما يتكلم؟» (١٩٧٧م ص ١٢٤).

١,٣ الجملة والقول

قد يبدو من المناسب أن نقترح أن خصائص اللغة المحكية ـ كما استعرضناها في الفقرة السابقة ـ يجب اعتبارها خصائص تميّز الأقوال، وأن الملامح المميزة للغة المكتوبة يجب اعتبارها خصائص تميّز الجمل. وفي إطار هذه التفرقة المناسبة، يمكننا القول بعبارات غير متخصّصة إلى حدّ ما إن الأقوال محكية والجمل مكتوبة، وإننا سنستعمل هذين المصطلحين للإشارة إلى ما يسمّيه «لاينز» بـ«نتاج السلوك اللغوي المعتاد». ومن المهم هنا أن نوضح المقصود بمصطلح الجملة. يميّز «لاينز» بين ما يسميه «الجمل النصية» والجمل «النظامية». ويصف النوع الأخير على النحو الآتي:

«لا تقع الجمل النظامية مطلقا كنتاج للسلوك اللغوي المعتاد. من الممكن بطبيعة الحال أن تستعمل الأشكال الممثلة للجمل النظامية في مناقشة وصفية لبنية اللغة ووظائفها: وتلك الأشكال الممثلة هي التي تذكر عادة في الوصف النحويّ للغات بعينها» (لاينز: ١٩٧٧م ص ٣١).

وبما أن الأمثلة اللغوية المقدّمة لدعم مناقشتنا في هذا الكتاب مستمدة في أغلبها من «السلوك اللغوي المعتاد»، فسنستعمل مصطلح «الجملة» عامة بمعنى «الجملة النصية» لا بمعنى «الجملة النظامية».

وبالرغم من أن للغويّ الذي يقوم بتحليل الخطاب أهدافًا تتفق في النهاية مع أهداف لغويّ آخر يستعمل «جملا نظامية» في وصفه النحوي للغة من اللغات، فإن هناك بين المقاربتين فوارق منهجية مهمة. فكلاهما يسعى إلى تقديم وصف دقيق للغة المعيّنة التي يدرسها. ومن أجل هذا الغرض، سيركز النحوي على رصيد معين من الأمثلة ويحاول إيجاز مجموعة شاملة ـ لكنها محدودة ـ من القواعد التي تفسر كل الجمل المقبولة في رصيده وتلك الجمل فقط. إنه عادة لا يسعى إلى تتبع العمليات الذهنية التي تتم لدى أي من مستعملي اللغة وهو يسوق تلك الجمل، كما أنه لا

يصف السياقات المادية والاجتماعية التي ترد فيها تلك الجمل. ففي كل من هذه القضايا المتصلة بـ«الأمثلة» و«القواعد» و«العمليات» و«السياقات»، يتخذ محلّل الخطاب نظرة مغايرة.

١,٣,١ حول «الأمثلة»

لا بد «للأمثلة» بالنسبة للنحوي أن تكون جملة مفردة أو مجموعة من الجمل المفردة الممثلة لظاهرة معينة في اللغة المدروسة. كما أن مما يميّز منهج النحوي أن الجملة أو الجمل التي يستعملها في أمثلته هي من صياغته. وليس هذا النهج في الغالب معلنا بصراحة إلا أن التزاما صريحا بهذه الطريقة في صياغة الأمثلة قد تم التعبير عنه أخيرًا في عبارات كالآتي:

«سأفترض... أن سلسلات من الجمل المصطنعة وبعض الأحكام الحدسية بشأنها تمثل بالنسبة للبحث اللغوي أمثلة لغوية] مشروعة».

(جزدار: ١٩٧٩م ص١١).

وفي المقابل، فإن تحليل الخطاب، كما هو حاصل ومُمثّل له في هذا الكتاب، يعتمد بشكل مميز على مادة لغوية لا تصدر عن المحلّل وإنما عن غيره. وفي المناسبات القليلة التي نستعمل فيها مادة لغوية من صنعنا كأمثلة (عن الجدول الاستبدالي، مثلاً، كما في الفصل الرابع)، فإن ذلك موجّه لا محالة إلى تفسير مجموعة الخيارات الشكلية المتاحة للمتكلم أو الكاتب. إن أمثلة محلل الخطاب تتميز بصفة أكبر بكونها مستمدة من نصوص مكتوبة أو من تسجيلات صوتية. وهي نادرا ما تأتي في شكل جملة مفردة. ويوصف هذا النوع من المادة اللغوية أحيانا بأنه من قبيل «الأمثلة الأدائية»، وقد يتضمن خصائص مثل التردد والأخطاء والأشكال غير القياسية كالتي رأى لغويّ مثل تشومسكي (١٩٦٥م) أنه ليس من الضروري أن يشملها الوصف النحوي للغة من اللغات.

وعلى الرغم من الاختلاف المهم بين هاتين النظرتين للأمثلة، فإنهما ليستا متعارضتين، اللهم إلا إذا أخذنا كلا منهما بشكل حرفي مطلق. إذ يمكن لمحلل الخطاب أن يعالج بشكل منتظم مقتطفات مطوّلة من لغة الحوار مثلاً، لكنه لا يعالج تلك المادة

بمعزل عن المعلومات الوصفية والآراء الدقيقة التي يقدمها نحاة الجملة[٢٠]. كما أنه من الوارد للغوي المهتم أساسًا بتحليل الخطاب أن يكون في الوقت نفسه - وبشكل ما - نحويًا مهتمًا بنحو الجملة. وعلى المنوال ذاته، لا يمكن للنحوي الذي يصف الجمل أن يظل منعزلاً عن الخطاب الذي يصادفه في حياته اليومية. فالجملة التي يؤلفها مثالا على ظاهرة لغوية معينة يجب أن تنبع، بشكل من الأشكال، من «اللغة العادية» المستعملة في حياته اليومية، وأن تكون كذلك مقبولة في ذلك الإطار.

هناك نظرة متطرفة خطيرة إلى «الأمثلة المهمة» بالنسبة لمحلل الخطاب تعتبر أن الجملة المصنوعة لا يمكن أن تقبل كمادة لغوية. وهناك نظرة أخرى تتمثل في مقاربة تحليلية للأمثلة لا تشترط وجود مبررات لغوية في تلك الأمثلة لدعم فرضياتها التحليلية. وستكون لنا عودة مرة أخرى في الفصل الثاني إلى «الأمثلة المهمة» بالنسبة لتحليل الخطاب. وهناك نظرة ثالثة أكثر تطرفًا للأمثلة التي تعدّ من قبيل المادة اللغوية المهمة للنحوي الذي يصف الجملة، وقد لوحظت - حسب ما يرى سامبسون (١٩٨٠م) - في بعض الأعمال الأولى للنحاة التوليديين. ويعطي تشومسكي فكرة عن ضيق هذه النظرة حين يقرّر مباشرة بعد حكمه بأن «النحو مستقل» أنه:

«على الرغم من الفائدة والأهمية المؤكدة للدراسات الدلالية والإحصائية للغة، فإنها لا تبدو ذات علاقة مباشرة بإشكالية تحديد مجموعة الأقوال النحوية ووصفها».

(تشومسكي: ١٩٥٧م ص ١٧)

وتنشأ المشكلة الأساسية المترتبة على الالتزام المتطرف بمنهج الجملة المصنوعة حين يصير معيار الجمل الناتجة قائمًا فقط على استبطان اللغوي لذاته، فقد يؤدي هذا (وحصل أن أدى في بعض المناسبات) إلى وضع يدّعي فيه اللغوي أن «الأمثلة» التي يستعملها تمثل أنساقا لغوية مقبولة لمجرّد أنه يرى ذلك، بسبب نظرته الاستبطانية ودون اعتبار لما قد يعلو من الأصوات القائلة بخلاف ذلك. ومنبع هذه المشكلة، كما

(٢٠) المقصود بنحاة الجملة هؤلاء اللغويون الذين يركزون اهتمامهم على دراسة الجملة ويرون أن الجملة - لا الصوت مثلاً أو الكلمة أو النص - هي التي يجب أن تكون محور الدرس اللغوي باعتبارها الوحدة الأساسية للكلام. ومن هؤلاء اللغويين تشومسكي.

يذكر سامبسون (١٩٨٠م ص ١٥٣)، هو أن النظرة الضيقة إلى «الأمثلة» على أنها تنحصر في الجمل المصنوعة وفي ما يقضي به الاستبطان الذاتي للغويّ تؤدي مبدئيًا إلى استحالة التأكد من صحّة الدعاوى التي يصدرها. ومن نتائج هذه النظرة الضيقة إلى الأمثلة التركيز على ' جمل مصنوعة غير طبيعية ومعزولة عن سياقها التواصلي ' (انظر مقدمة جيفون - ناشر ١٩٧٩م). وبالرغم من أننا كثيرا ما سنحيل عبر صفحات هذا الكتاب، إلى آراء نحاة الجملة، بمن فيهم العاملون ضمن إطار المدرسة التوليدية، فسنتلافى قدر الإمكان تلك المنهجية القائمة على ما يصفه لاينز (١٩٦٨م) بالأمثلة «النمطية»[٢١] المقيسة[٢٢] المجتثّة من سياقها التواصلي.

١,٣,٢ القواعد إزاء القياسية

من لوازم المنهج المقتصر على الأمثلة (اللغوية) المصنوعة والذي يبرز في كثير من دراسات اللسانيين من المدرسة التشومسكية الاهتمام الموجّه إلى صياغة قواعد نحوية تكون ثابتة وحقيقية بصفة مطلقة في كل الأوقات. فكما أن «الأمثلة» التي يسوقها النحوي لا يمكن أن تتضمن ظواهر متغيّرة، كذلك يجب أن يتضمّن النحو قواعد تكون قاطعة، لا ' قواعد ' تكون حقيقية في بعض الأحيان فقط. ذلك أنه مما يميّز الحجج المتعلقة بالقواعد اللغوية الصحيحة ' في المنهج التشومسكي، وكذلك في منهج الأغلبية من نحاة الجملة، أنها تعتمد على تقديم «المثال» و«المثال المضادّ». ومع ذلك، فيكفي أن نسوق جملة واحدة (مقبولة) كمثال مضاد لإبطال قاعدة من القواعد القاطعة. ويبدو من هذا الجانب كيف أن «قواعد» النحو تعامل تمامًا مثلما تعامل قوانين العلوم الفيزيائية. ومن شأن ذلك أن يحدّ من مدى تطبيق تلك القواعد إذ يجعلها غير صالحة لأي لساني مهتمّ بدراسة التحوّل التاريخي أو التغيّر الآنيّ في لغة من اللغات. ويجب تأكيد أن هذا الموقف يمثل شكلاً متطرّفًا من النظرة التي يعتمدها

(٢١) أي المصنوعة لتكون نظامية، أي موافقة لنظام اللغة.

(٢٢) أي المصنوعة لتكون قياسية، أي موافقة للاستعمال اللغوي القياسي أو النموذجي سواء في اللهجة المحكية أو في اللغة الأدبية المكتوبة.

نحاة الجملة، وهو شكل صرنا نصادفه في الدراسات اللسانيّة المعاصرة بشكل أقلّ ممّا كان عليه منذ خمس عشرة سنة[٢٣].

أما محلّل الخطاب، فباعتماده أمثلة من «اللغة العادية»، فهو يلتزم بنظرة مغايرة تماما لمظاهر اللغة المحدّدة بالقواعد. فقد يفضل بالفعل أن يناقش مظاهر الاطراد لا «القواعد» وذلك ببساطة لأن المادة اللغوية التي لديه تمثل باطراد ظواهر مخالفة للنظام. وتعتمد مظاهر الإطراد التي يصفها محلّل الخطاب على درجة التردّد التي تقع بها ظاهرة لغوية معينة تحت شروط معيّنة ضمن أمثلته الخطابية. فإذا كانت درجة التردد عالية جدا، فقد يدلّ ذلك على أن الظاهرة المدروسة موافقة للنظام، وكما يقول جيفون:

«ما الفرق من وجهة نظر تواصلية بين قاعدة مطّردة بنسبة ٩٠٪ وقاعدة مطّردة بنسبة ١٠٠٪؟ إن هذا الفرق من الناحية النفسية قريب من لاشيء. ذلك أن النظام المطّرد بنسبة ٩٠٪ يمثل في عملية التواصل نظاما عالي الكفاءة».

(جيفون: ١٩٧٩م أ ص ٢٨).

ومع ذلك فدرجة التردد يجب ألاّ تقلّ عن ٩٠٪ حتى يمكن لظاهرة أن توصف بأنها مطّردة. إن محلّل الخطاب، مثل عالم النفس التجريبي، مهتمّ أساسًا بمستوى التردد الذي يبلغ درجة تجعله ذا دلالة من وجهة نظر إدراكية. وهكذا، فإن الاطراد في الخطاب هو تواتر ظاهرة لغوية معينة بدرجة كبيرة من التردّد في سياق يمكن تحديده. وفي محاولته تحديد مظاهر الاطراد تلك، يتوخى محلل الخطاب بشكل مميّز المنهجية التقليدية للسانيات الوصفية. فهو يسعى إلى وصف الأشكال اللغوية التي تقع في أمثلته في إطار علاقتها بالسياقات التي ترد ضمنها. بهذا المفهوم، يمثّل تحليل الخطاب منهجا في دراسة اللغة، تمامًا مثل اللسانيات الوصفية. وبالإمكان اعتباره مجموعة من التقنيات، بدلا من كونه نظامًا محددًا تحديدًا نظريًا مسبقًا لصياغة «القواعد» اللغوية. إن محلّل الخطاب يسعى إلى اكتشاف مظاهر الاطراد في مادته اللغوية ووصفها.

(٢٣) المدة تزيد على ذلك إذا أدركنا أن المؤلفين قد قالا هذا سنة ١٩٨٣م أو نحو ذلك.

١.٣.٣ النص المحدث وعملية الإحداث

تصاغ مظاهر الاطراد - التي يتجه محلل الخطاب إلى وصفها - بشكل حركيّ، غير سكونيّ عادة. وبما أن المادة اللغوية المدروسة هي نتيجة لـ«سلوك لغوي عادي»، فمن المتوقع أنها تتضمن ملامح تدل على ذلك العنصر «السلوكي». ويعني ذلك أن علينا أن نفترض أن المادة اللغوية التي ندرسها هي حصيلة جملة من العمليات الفاعلة، اللهمّ إلاّ إذا كان لدينا اعتقاد بأن مستعملي اللغة يتداولون فيما بينهم مقاطع مصطنعة من الأنساق اللغوية (الجمل)، على نحو ما يفعل أساتذة «سويفت» في أكاديمية لاجادو الكبرى (انظر رحلات جوليفر، الجزء الثالث، الفصل الخامس)[٢٤].

إن النحوي المهتم بدراسة الجملة لا يأخذ هذا الأمر عامة بعين الاعتبار، إذ إن مادته لا تتصل بالسلوك. إنها تتكوّن من مجموعة من العناصر تسمّى «الجمل النحويّة للغة من اللغات»، والتي يمكن أن توجد مستقلة عن أي متكلم محدّد بتلك اللغة. سنحدّد مثل هذه النظرة فيما يلي بأنها التي تعامل الجملة كعنصر أو شيء، ونلاحظ أن مثل تلك الجمل – الأشياء لا باثّ لها ولا متلقي. وهي علاوة على ذلك لا تحتاج أن ينظر إليها من حيث الوظيفة، كما يدلّ على ذلك هذا الرأي الذي يقرره شومسكي (١٩٦٨ ص ٦٢):

«إذا كان لنا أمل في فهم اللغة البشرية والإمكانات النفسية التي تقوم عليها، فعلينا أولا أن نتساءل عن ماهيتها، لا عن كيفية استعمالها أو لأي الأغراض هي مستعملة».

وهناك نظرة أخرى إلي جمل اللغة الطبيعية هي أقل تطرّفا، لكنها بالتأكيد ذات صلة، يمكن اكتشافها في كتابات لها علاقة بتحليل الخطاب. وفي إطار هذه النظرة، هناك باثّون للجمل أو للنصوص المطوّلة، ومتلقّون لها، لكن التحليل لا يركز إلا على النتاج، أي على الكلمات المخطوطة على الصفحات. وكثير من الأعمال

(٢٤) الإشارة هنا إلى جوناثان سويفت، الكاتب الإنجليزي المعروف، (١٦٦٧م – ١٧٤٥م) في كتابه الشهير «رحلات غاليفر» Gulliver's Travels حيث يتحدث الكاتب في الجزء الثالث، الفصل الخامس، عن أساتذة متفقهين من الذين يستعملون لغة متكلفة معزولة عن الواقع.

التحليلية التي أجريت ضمن ما يعرف باللسانيات النصية [٢٥] هي من هذا القبيل. ومما يميز هذه المقاربة مبدأ التماسك الذي تنظر به إلى العلاقة بين الجمل في نصّ مطبوع (مثال ذلك المقاربة التي قام بها هاليداي وحسن، ١٩٧٦م). ففي إطار هذه النظرة، هناك علاقات تماسك بين العناصر داخل الجمل المتصلة لنصّ ما بحيث تكون الكلمة أو شبه الجملة مرتبطة بكلمات أو أشباه جمل أخرى. وهكذا، يعامل عنصر إحالة كالضمير مثلا على أنه كلمة تحلّ محلّ كلمة أو كلمات أخرى، أو تحيل عليها. وعلى الرغم من أن هناك من يقول بأن علاقات التماسك في النصوص إنما يستغلها الكتّاب لتيسير القراءة أو الفهم على المتلقين (انظر روتشستر ومارتن، ١٩٧٧م، ١٩٧٩م؛ وانظر كالجرن، ١٩٧٩م)، فإن تحليل «النتاج»، أي النص المطبوع ذاته، لا يتضمن أي اعتبار للكيفية التي أحدث بها النص ولا للكيفية التي يفهم بها. سنعرّف هذه الطريقة في المعالجة بأنها تلك التي تنبع من النظرة إلى النصّ بوصفه عملاً محددًا. ولا تأخذ هذه النظرة في الاعتبار تلك المبادىء التي تقيّد عملية الإحداث، ولا تلك التي تقيّد عملية تأويل النصوص.

في مقابل هاتين المقاربتين المحددتين بشكل عام، يمكن أن نصف النظرة المعتمدة في هذا الكتاب على أحسن وجه بأنها التي تعامل الخطاب بوصفه عملية. لقد قام «ويدوسن» (١٩٧٩م ب، ص ٧١) بإبراز الفرق بين معاملة الخطاب على أنه «نتاج محدث» أو أنه «عملية». إننا سنعالج الكلمات وأشباه الجمل والجمل التي تظهر في المدوّنة النصية لخطاب ما بوصفها أدلة على محاولة من باثّ النص (سواء كان متكلمًا أو كاتبًا) لإيصال رسالته إلى متلقّ (سامع أو قارىء). وسنهتم خاصة بمناقشة الكيفية التي يمكن بها لمتلقّ معيّن أن يفهم الرسالة التي يقصدها الباثّ في مناسبة معيّنة، وكيف تؤثر شروط متلقّ معيّن (أو متلقّين معينين)، في ظروف محدّدة، على تنظيم الباثّ لخطابه. إن هذه بوضوح مقاربة تتخذ من الوظيفة التواصلية للغة المجال الأوليّ لبحثها وتسعى بالتالي إلى وصف الشكل اللغوي، لا من حيث هو شيء ساكن، وإنما بوصفه وسيلة حركية للتعبير عن المعنى المقصود.

---

(٢٥) اللسانيات النصية فرع من فروع اللسانيات، يعنى بدراسة مميزات النص من حيث حدّه وتماسكه ومحتواه الإبلاغيّ.

هناك عدة حجج يمكن بها الرد على التصور السكونيّ للغة الذي نجده متمثلا في معالجة «الجملة بوصفها شيئا» أو في معالجة «النص بوصفه عملاً محددًا». فعلى سبيل المثال، يحذّر ويتجنستاين (١٩٥٣م، ص ١٢) من أن «القضايا الملبسة التي تشغلنا تنشأ حين ينظر إلى اللغة كمحرك يدور في مكانه، وليس حين ينظر إليها كمحرك ينجز عملا». وفي معرض وصفه للمقاربة القائمة على النظرة إلى الجملة بوصفها شيئا، والتي تعتمد اعتمادا كليا على الوصف التركيبي، وكيف تفشل هذه الطريقة في تفسير أنواع شتى من البنى الجملية، ينتهي كونو (١٩٧٦م) إلى «أن الوقت قد حان لإعادة النظر في كل قيد من القيود التركيبية الرئيسة من وجهة نظر وظيفية». وهناك أحكام أخرى شبيهة بهذا عبّر عنها كرايد (١٩٧٩م) و جيفون (١٩٧٦م، ١٩٧٩م ب)، ورومتفايت (١٩٧٤م) وتايلر (١٩٧٨م).

ويرى مورجان (١٩٧٩م) في معرض نقده للنظرة إلى التماسك النصي القائمة على اعتبار النص عملا محددا، أننا نشاهد العلاقة بين ضمير معيّن ومركب اسميّ كامل في نصّ ما لأننا نفترض أن النص متماسك لا لأن الضمير «يحيل» على المركب الاسمي. إننا نسعى إلى معرفة المرجع الذي يقصده الكاتب للضمير، إذ يمكن أن يستعمل الضمير في الواقع ليحيل على كل شيء تقريبًا. ويعني هذا أن ما تقصده المدوّنة النصية «أي النص» يتحدد بتأويلنا لما أراد الباث لتلك المدونة أن تدل عليه.

إن محلّل الخطاب إذن يهتمّ بالوظيفة التي يقوم بها أو الغرض الذي يرمي إليه عنصر ما من المادة اللغوية، وكذلك بالكيفية التي تعالج بها تلك المادة سواء من قبل الباث أو المتلقي. وكنتيجة طبيعية لذلك، سيهتم محلل الخطاب بنتائج التجارب الجارية لفهم عملية المعالجة اللسانية النفسية للخطاب وذلك على نحو لا نجد مثله لدى نحاة الجملة. كما ينتج عن ذلك أيضًا أن أعمال أولئك اللسانيين الاجتماعيين والأنثوغرافيين الذين يحاولون دراسة اللغة من حيث أغراض استعمالها ستكون مهمة كذلك. وسنعتمد في معرض هذا الكتاب على الأدلة التي تقدمها الدراسات اللسانية النفسية واللسانية الاجتماعية والتي تقترح علينا نظرات ثاقبة في الكيفية التي يعالج ويفهم بها خطاب تم إحداثه في سياقات يمكن وصفها ولأغراض يمكن التعرف عليها.

٤. ١.٣ حول «السياق»

لقد أشرنا باستمرار إلى «المحيط» و«الظروف» أو السياق الذي تستعمل فيه اللغة. وستعرض في الفصل الثاني إلى إشكالية تحديد السياق المعنيّ. ونكتفي هنا بأن نلاحظ أن الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية (جملة، مثلا) تحليلاً كاملاً بدون مراعاة للسياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محلّ شك كبير. فإذا أراد النحوي المهتم بالجملة أن يقدم أحكامًا بشأن مدى «نحوية» جملة من الجمل وهو يحدد ما إذا كانت الأنساق اللغوية التي يقدمها نحوه جملا لغوية صحيحة، فإنه يعتمد ضمنيا على اعتبارات ذات علاقة بالسياق. إذ ماذا نفعل حين يطلب منا أن نحدد ما إذا كانت جملة معينة «مقبولة» أم لا؟ أو لسنا نلجأ مباشرة -وبصورة طبيعية تمامًا- إلى تشكيل عدد من الظروف (أي «سياق») يمكن فيها لتلك الجملة أن تستعمل بشكل مقبول؟

إن أي مقاربة لسانية تتضمن اعتبارات سياقية تنتمي بالضرورة إلى ذلك المجال من الدراسة اللغوية الذي يسمّى علم المقاصد[٢٦]. و «ممارسة تحليل الخطاب» تقتضي بالضرورة القيام بـ «دراسة للتركيب والدلالة»، ولكنها أساسًا تتضمن القيام «بدراسة المقاصد»، فإذا ما وضعنا المبادىء التي شرحناها في الفقرة ٣ , ١ إلى جانب التعريف الذي أورده «موريس» لعلم المقاصد بأنه دراسة «العلاقات بين الرموز ومؤوّليها» (١٩٣٨م ص٦)، أصبحت الصلة بين هذه المجالات واضحة تمامًا. ففي تحليل الخطاب – كما في علم المقاصد – يتجه اهتمامنا إلى ما يفعله الناس وهم يستعملون اللغة، كما نفسر الظواهر اللغوية في الخطاب بوصفها وسائل مسخّرة لما هم بصدد فعله.

(٢٦) اخترنا هذا المصطلح لترجمة المصطلح اللغوي الغربي Pragmatics الذي يشير إلى أحد ثلاثة أقسام من السيميائية، ويهتم بدراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى لتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلم والمقاصد من الكلام . . . إلخ. والذي دعانا إلى اختيار هذا المصطلح دون غيره هو أن مفهوم Pragmatics ينبني أساسًا على «القصد» و «المقصديّة» Intentionality في بعدهما الاجتماعي. كما أننا إذا أقررنا بمشروعية ترجمة Semantics بمصطلح «علم الدلالة»، فيجوز قياسًا أن نطلق على Pragmatics اصطلاح «علم المقاصد»

إن محلل الخطاب، بإيجاز، يعالج مادته اللغوية بوصفها مدونة (نصا) لعملية حركية استعملت فيها اللغة كأداة توصيلية في سياق معين من قبل متكلم أو كاتب للتعبير عن معان وتحقيق مقاصد (الخطاب). وانطلاقًا من هذه المادة، يسعى المحلل إلى وصف مظاهر الاطراد في الإحداثات اللغوية التي يستعملها الناس لإيصال تلك المعاني والمقاصد.

الفصل الثاني

دور السياق في عملية الفهم

٢,١ علم المقاصد وسياق الخطاب

لقد أبرزنا في الفصل الأول أن محلل الخطاب يتوخى بالضرورة منهجًا مقاصديًا في دراسة اللغة كما هي مستعملة. ومن شأن مثل هذا المنهج أن يتعرض بالدرس إلى عدد من الموضوعات التي لا تجد في الغالب حقها من الدراسة لدى اللسانيين الشكلانيين في إطار وصفهم للخصائص التركيبية والدلالية للجملة. فقد أشرنا ـ على سبيل المثال ـ أنه يتحتم على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه مقطع ما من الخطاب.

ومن الوحدات اللغوية التي تتطلب أكثر من غيرها معلومات عن السياق ليتيسر فهمها نورد الأدوات الإشارية مثل: هنا، الآن، أنا، أنت، هذا... وذاك... فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردت في مقطع خطابي استوجب ذلك منا – على الأقل – معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي. وسوف نتناول بالبحث في هذا الفصل هذه الجوانب وغيرها الواردة في تحديد السياق والتي يتطلبها تحليل الخطاب.

إلا أن هناك وجوهًا أخرى للاختلاف في المنهج المتوخى في تحليل المعلومات اللغوية بين محلل الخطاب واللساني الشكلاني، مما يؤدي إلى استعمال متخصص لبعض المصطلحات. فبحكم دراسته لاستعمال اللغة في سياق معين من قبل متكلم/

كاتب، فإن اهتمام محلل الخطاب ينصرف إلى فحص العلاقة بين المتكلم والخطاب في مقام استعمالي خاص، بدرجة أكبر من تتبعه للعلاقة الممكنة بين جملة وأخرى بصرف النظر عن واقع استعمالها، أي أن محلل الخطاب حينما يستعمل مصطلحات مثل الإحالة والافتراض والمعنى الضمني والاستدلال، فإنه في الواقع يصف ما يفعله المتكلمون والمتلقون، ولا يهتم بالعلاقة القائمة بين جملة أو مضمون ما وجملة أخرى.

٢,١,١ الإحالة

يقول لاينز (١٩٦٨م ص ٤٠٤) في سياق حديثه عن المفهوم الدلالي التقليدي للإحالة إن «العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل إلى المسميات». ولا يزال هذا المفهوم التقليدي يجد ذيوعًا في الدراسات اللغوية (مثل علم دلالات المفردات) التي تصف العلاقة بين لغة ما والكون، دون أن تأخذ بالاعتبار مستعمل اللغة. ولكننا نجد لاينز يصرح مؤخرا وهو يتحدث عن طبيعة الإحالة بقوله: «إن المتكلم هو الذي يحيل (باستعماله لتعبير مناسب): أي أنه يحمل التعبير وظيفة إحالية عند قيامه بعملية إحالة» (١٩٧٧ ص ١٧٧). هذا المفهوم الأخير للإحالة هو بالذات المفهوم الذي يجب على محلل الخطاب الاعتماد عليه. ويجد هذا المفهوم للإحالة دعما في قول ستروسن (١٩٥٠م) بأن «الإحالة» ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معينا، وكذلك في نظر سيرل إنه «أن كنا نعني أن المتكلمين يحيلون، فإن التعبيرات لا تحيل أكثر من أن هؤلاء المتكلمين يصدرون وعودا وأوامر» (١٩٧٩م ص ١٥٥). ولهذا ففي تحليل الخطاب ينظر للإحالة على كونها عملاً يقوم به المتكلم/ الكاتب. وهكذا، ففي المقطع التالي المأخوذ من محادثة على سبيل المثال، سنقول إن المتكلم يستعمل عبارات «زوج خالتي» و«هو» للإحالة على شخص معين، في حين يستعمل «أخت أمي» و «هي» للإحالة على شخص آخر. لكننا لن نقول على سبيل المثال إن «هو» تحيل على «زوج خالتي».

[١] (أ) سوف يأتي زوج خالتي من كندا يوم الأحد يتوقع مجيئه في +

(ب) كم كانت مدة غيابه؟ أم هل سافر فقط لوقت قصير؟

(جـ) كلا لقد عاشا في كندا – أمعم! إنه زوج خالتي ++ وقد توفيت منذ سنوات+ (١)

وسوف نبحث تعقيدات الإحالة في الخطاب بمزيد من التفصيل في الفصلين الخامس والسادس.

٢,١,٢ عملية الافتراض

في تعليقنا على المقطع الحواري السابق [١] سنقول كذلك إن المتكلمة (أ) تفترض أن الخبر القائل بأن لها زوج خالة أمر مسلَّم به لدى (ب)، وأن المتكلمة (ب) في سؤالها توحي بأنها قد قبلت هذا الافتراض. وسنتبنى النظرة القائلة بأن مبدأ الافتراض اللازم في تحليل الخطاب هو افتراض مقاصدي، أي أنه «معروف» من خلال فرضيات يقوم بها المتكلم عما يتوقع المتلقي أن يقبل به بدون اعتراض (جيفون ١٩٧٩م (أ) ص ٥٠). ونجد كذلك أن مبدأ «الأساس المشترك» المفترض في تبادل الخطاب جزء من هذا الوصف لعملية الافتراض، كما نرى ذلك في التعريف التالي لدى ستالناكر (١٩٧٨م ص ٣٢١) «إن عمليات الافتراض هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلما بها لدى كل أطراف المحادثة».

وتجدر الملاحظة أنه في كلا التعريفين السابقين رأينا أن المصدر المشار إليه والمسؤول عن عملية الافتراض هو المتكلم. ولهذا، وكما قلنا بالنسبة للإحالة، سنتجنب هنا نسبة عملية الافتراض إلى الجمل أو الأقوال. وبالتالي فنحن لا نرى فائدة عملية تذكر في تحليل الخطاب لمفهوم الافتراض المنطقي الذي يعرفه كينان (١٩٧١م ص ٤٥) كما يلي: «تفترض الجملة (جـ) منطقيا الجملة (جـ١) فقط في حالة افتراض (جـ) لـ(جـ١) وكذلك في حالة افتراض نفي(جـ)، ولهذا فإن (جـ) تتضمن منطقيا (جـ١)». لنعتبر الجملة الأولى من المقطع (١) هي (جـ) ولنعطها فيما يلي الرقم (٢ أ) ولنقدم (٢ب) على أنه نفي (جـ) و(٢جـ) على أنها الافتراض المنطقي (جـ١).

---

(١) النقطة الأساسية هنا هي أن الكلمات لا تحيل بل الذي يحيل هو المتكلم باستعماله للكلمات المحيلة (جرين، ١٩٨٩م). إن مقصد المتكلّم هو في آخر المطاف المعيار الأساسي في عملية الإحالة.

كاتب، فإن اهتمام محلل الخطاب ينصرف إلى فحص العلاقة بين المتكلّم والخطاب في مقام استعمالي خاص، بدرجة أكبر من تتبعه للعلاقة الممكنة بين جملة وأخرى بصرف النظر عن واقع استعمالها، أي أن محلل الخطاب حينما يستعمل مصطلحات مثل الإحالة والافتراض والمعنى الضمني والاستدلال، فإنه في الواقع يصف ما يفعله المتكلمون والمتلقون، ولا يهتم بالعلاقة القائمة بين جملة أو مضمون ما وجملة أخرى.

٢,١,١ الإحالة

يقول لاينز (١٩٦٨م ص ٤٠٤) في سياق حديثه عن المفهوم الدلالي التقليدي للإحالة إن «العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل إلى المسميات». ولا يزال هذا المفهوم التقليدي يجد ذيوعا في الدراسات اللغوية (مثل علم دلالات المفردات) التي تصف العلاقة بين لغة ما والكون، دون أن تأخذ بالاعتبار مستعمل اللغة. ولكننا نجد لاينز يصرح مؤخرا وهو يتحدث عن طبيعة الإحالة بقوله: «إن المتكلم هو الذي يحيل (باستعماله لتعبير مناسب): أي أنه يحمل التعبير وظيفة إحالية عند قيامه بعملية إحالة» (١٩٧٧ ص ١٧٧). هذا المفهوم الأخير للإحالة هو بالذات المفهوم الذي يجب على محلل الخطاب الاعتماد عليه. ويجد هذا المفهوم للإحالة دعما في قول ستروسن (١٩٥٠م) بأن «الإحالة» ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معينا، وكذلك في نظر سيرل إنه «أن كنا نعني أن المتكلمين يحيلون، فإن التعبيرات لا تحيل أكثر من أن هؤلاء المتكلمين يصدرون وعودا وأوامر» (١٩٧٩م ص ١٥٥). ولهذا ففي تحليل الخطاب ينظر للإحالة على كونها عملاً يقوم به المتكلم/ الكاتب. وهكذا، ففي المقطع التالي المأخوذ من محادثة على سبيل المثال، سنقول إن المتكلم يستعمل عبارات «زوج خالتي» و«هو» للإحالة على شخص معين، في حين يستعمل «أخت أمي» و «هي» للإحالة على شخص آخر. لكننا لن نقول على سبيل المثال إن «هو» تحيل على «زوج خالتي».

[١] (أ) سوف يأتي زوج خالتي من كندا يوم الأحد يتوقع مجيئه في +

(ب) كم كانت مدة غيابه؟ أم هل سافر فقط لوقت قصير؟

(جـ) كلا لقد عاشا في كندا – أعمم! إنه زوج خالتي ++ وقد توفيت منذ سنوات+ (١)

وسوف نبحث تعقيدات الإحالة في الخطاب بمزيد من التفصيل في الفصلين الخامس والسادس.

٢,١,٢ عملية الافتراض

في تعليقنا على المقطع الحواري السابق [١] سنقول كذلك إن المتكلمة (أ) تفترض أن الخبر القائل بأن لها زوج خالة أمر مسلّم به لدى (ب)، وأن المتكلمة (ب) في سؤالها توحي بأنها قد قبلت هذا الافتراض. وسنتبنى النظرة القائلة بأن مبدأ الافتراض اللازم في تحليل الخطاب هو افتراض مقاصدي، أي أنه «معروف» من خلال فرضيات يقوم بها المتكلم عما يتوقع المتلقي أن يقبل به بدون اعتراض (جيفون ١٩٧٩م (أ) ص ٥٠). ونجد كذلك أن مبدأ «الأساس المشترك» المفترض في تبادل الخطاب جزء من هذا الوصف لعملية الافتراض، كما نرى ذلك في التعريف التالي لدى ستالناكر (١٩٧٨م ص ٣٢١) «إن عمليات الافتراض هي ما يعتبره المتكلم أرضية مشتركة مسلما بها لدى كل أطراف المحادثة».

وتجدر الملاحظة أنه في كلا التعريفين السابقين رأينا أن المصدر المشار إليه والمسؤول عن عملية الافتراض هو المتكلم. ولهذا، وكما قلنا بالنسبة للإحالة، سنتجنب هنا نسبة عملية الافتراض إلى الجمل أو الأقوال. وبالتالي فنحن لا نرى فائدة عملية تذكر في تحليل الخطاب لمفهوم الافتراض المنطقي الذي يعرفه كينان (١٩٧١م ص ٤٥) كما يلي: «تفترض الجملة (جـ) منطقيا الجملة (جـ١) فقط في حالة افتراض (جـ) لـ (جـ١) وكذلك في حالة افتراض نفي(جـ)، ولهذا فإن (جـ) تتضمن منطقيا (جـ١)». لنعتبر الجملة الأولى من المقطع (١) هي (جـ) ولنعطها فيما يلي الرقم (٢أ) ولنقدم (٢ب) على أنه نفي (جـ) و(٢جـ) على أنها الافتراض المنطقي (جـ١).

(١) النقطة الأساسية هنا هي أن الكلمات لا تحيل بل الذي يحيل هو المتكلم باستعماله للكلمات المحيلة (جرين، ١٩٨٩م). إن مقصد المتكلّم هو في آخر المطاف المعيار الأساسي في عملية الإحالة.

[٢] (أ) **سيعود خالي من كندا.**
(ب) لن يعود خالي من كندا.
(جـ) لي خال.
(د) لن يعود خالي من كندا لأنه لا خال لي.

يمكننا إذا توخينا تعريف كينان القول بأن (٢ أ) تفترض منطقيا (٢ جـ) لأنها ظلت قائمة رغم النفي. ولكن لا نرى من جهة أخرى حاجة ضرورية لأخذ الجملة المنفية (٢ ب) بعين الاعتبار في تحليلنا للعلاقة بين (٢ أ) و (٢ جـ) تلك العلاقة التي يتضمنها الحوار الذي عرضناه سابقا في المثال الأول. ورغم معرفة أن للمتكلمة خالا قد لا تكون معلومة لدى الجميع فإنها تبقى «معلومة غير متنازع عليها» على حدّ قول جرايس (١٩٨١م ص ١٩٠). وعلاوة على ذلك فإن المتكلمة اختارت صيغة «خالي» على صيغة «أن لي خالاً وهو ...» فعلينا أن نفترض أنها لم تحسّ بالحاجة إلى إبراز هذا الجانب، بل إنها تبدو وكأنها تسعى إلى إبراز كون هذا الشخص قادمًا من كندا. ولهذا فلا نرى هنا بالذات فائدة تكسب من القول بضرورة اعتبار نفي هذا الادعاء حتى نتأكد من وجود افتراض لما لم يصرح به المتكلم.

ثم إن أخذنا للجملة المنفية (٢ ب) بعين الاعتبار في تحليلنا (٢) من شأنه أن يسبب مشكلاً إضافيًا. فقد وقعت الإشارة على سبيل المثال (انظر كامبسن ١٩٧٥م) إلى أن جملة مثل (٢ د) جملة مفيدة ومقبولة في اللغة الإنجليزية مما يضعف الإحتجاج بالافتراض المنطقي كما تم تعريفه آنفا.

إن جملاً من قبيل (٢ د) تبدو نموذجًا لمقولات يستعملها المتكلم لتفنيد افتراض متكلم آخر وذلك بطريقة غير لبقة. ومع ذلك نجد أن الظروف التي قد تقال فيها (٢د) يحتمل أن تكون مغايرة إلى حد كبير للظروف التي نشأت فيها الجملة الأولى في المثال الأول. ولنا أن نقترح هنا أنه لا بد أن يكون المتكلمان قد انطلقا من فرضيات مختلفة في كلتا الحالتين. فلو اعتمدنا على مفهوم «المتكلم» أو الافتراض المقاصدي فإنه بإمكاننا بكل بساطة اعتبار (٢ جـ) افتراضًا افترضه المتكلم عند قوله لـ (٢) بحيث لا تؤخذ (٢ ب) ولا (٢ د) بعين الاعتبار إطلاقًا.

وللتدليل على الرأي القائل بأن سلوك المستمعين يوحي بأنهم يقبلون افتراضات المتكلمين، نسوق النتائج (المزعجة شيئًا ما) التي توصّل إليها لوفتس في دراسته (١٩٧٥م) للإجابات الواردة ردا على أسئلة موجهة. فقد وجه إلى جمع من المشاركين في التجربة السؤالين التاليين بعد أن عرض عليهم شريطًا يصور حادث سيارة.

[٣] (أ) **كم كانت سرعة السيارة (أ) عندما دارت إلى اليمين؟**
(ب) هل رأيت إشارة وقوف؟

يمكننا ملاحظة أن من بين فرضيات المتكلم في السؤال (٣أ) القول إن السيارة (أ) قد دارت إلى اليمين. وقد أجاب ٣٥٪ بالإيجاب على السؤال (٣ ب). وقد مثلت مجموعة أخرى من المشاركين في التجربة السؤالين التاليين:

[٤] **(أ) كم كانت سرعة السيارة (أ) عندما تخطت إشارة الوقوف؟**
(ب) هل رأيت إشارة وقوف؟

فمن فرضيات المتكلم في السؤال (٤أ) أن السيارة (أ) لم تحترم إشارة الوقوف. في هذه الحالة أجاب عدد أكبر بالإيجاب على السؤال (4 ب) (٥٣٪) وهو أمر ذو أهمية. والجدير بالملاحظة أن عددًا من المشاركين في التجربة لم يجيبوا على السؤال (ب) من منطلق تحديد الصحة أو الخطأ، وإنما من منطلق فهمهم لظاهر فرضيات المتكلم عند طرحه هذا السؤال (للمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة انظر لوفتس وزانيي ١٩٧٥م).

وسنعود إلى معالجة مفهوم الافتراض في الفقرة٢ ,٣ ,٣، لكننا سنسعى في الغالب إلى اجتناب الحجج المعقدة المتعلقة بافتراضات الجمل والمقولات. (انظر المساهمات وقائمة المراجع في أوه ودينين (ناشرين) ١٩٧٩م).

٢,١,٣ المعاني الضمنية

يستعمل جرايس (١٩٧٥م) مصطلح المعنى الضمني (implicature) للحديث عما يمكن أن يضمنه أو يوحي به أو يعنيه متكلم ما فوق ما يصرح به ظاهر كلامه. هنالك

معان ضمنية متعارضة يحددها حسب قول جرايس «المعنى المتعارف للكلمات المستعملة» (١٩٧٥م ص ٤٤). فعلى سبيل المثال (مثال ٥) نرى أن المتكلم لا يصرح مباشرة بأن خاصية (الشجاعة) ناتجة عن خاصية أخرى (كون الرجل المشار إليه إنجليزيا)، ولكن من المتعارف عليه أن التعبير المستعمل يوحي ضمنيًا بوجود هذه العلاقة.

[٥] إنه رجل انجليزي، لذا فهو شجاع.

فلو اتفق أن كان الرجل المعني إنجليزيًا ولكنه غير شجاع، ففي تلك الحالة يكون المعنى الضمني خاطئًا، ولكن القول كما يقترح جرايس ليس بالضرورة خاطئًا. (لمناقشة أعمق للمعاني الضمنية المتعارف عليها انظر كارتونن وبيترس ١٩٧٩م).

إلا أن هنالك مفهوما أكثر أهمية لمحلل الخطاب، وهو مفهوم المعنى الضمني في المحادثة المستمدّ من مبدأ عام حول طبيعة المحادثة، بالإضافة إلى عدد من القواعد التي يلتزم بها المتكلمون عادة. ويسمى المبدأ العام هنا بالمبدأ التعاوني الذي يعرفه جرايس (١٩٧٥م ص ٥٤) كما يلي:

«أن تجعل مساهمتك في المحادثة كما هو مرجو منك من حيث اختيار التوقيت المناسب، وأن تكون تلك المساهمة متماشية مع الهدف والتوجه المسلم بهما للتبادل الخطابي الذي تقع ضمنه».

والقواعد المتواضع عليها والتي يستند إليها هذا المبدأ هي:

من حيث الكمّ: أن تجعل مساهمتك إخبارية بالقدر المطلوب (حسب ما تمليه الحاجة في تلك المحادثة القائمة) ولا تقدم معلومات أكثر مما يلزم.

من حيث الكيف: ألا تقول ما تعتقد أنه خطأ. ولا تتحدث عن شيء لا تملك بشأنه حججا كافية.

من حيث العلاقة: أن تتحدث عما هو مناسب للموضوع.

من حيث الأسلوب: أن تكون واضحا. وتجنب الغموض في التعبير. (ابتعد عن ازدواجية المعنى) وتتكلم بإيجاز (ابتعد عن الحشو). وأن تكون منظما.

ولا يقترح جرايس أن هذه القائمة شاملة - فهو يلاحظ أنه يجب عادة مراعاة قاعدة الأدب، مثلا - كن متأدبا - ولا يرى أيضا أن هذه الضوابط تحظى بنفس الدرجة من الأهمية.

(فعلى سبيل المثال نجد أن ضابط الكيفية لا ينطبق بوضوح على المحادثة التي يغلب عليها الطابع التبادلي). ولعلنا نلاحظ أن ضابط التناسب يشمل في الظاهر كل التوصيات الأخرى.

ولكن جرايس بوصفه للضوابط التي تتحكم في استعمالات المتكلمين للغة أثناء المحادثة قد أتاح الإمكان لوصف أنواع الدلالات التي يمكن لمتكلم أن يوحي بها في حالة «عدم التزامه» بأحد هذه الضوابط. فذلك يؤدي إلى إيحاء المتكلم بالإضافة إلى المعنى المباشر لمقولته بمعنى إضافي هو المعنى الضمني للمحادثة. لنأخذ على ذلك هذا المثال الموجز:

[٦] (أ) لم يبق لديّ أي بنزين
(ب) توجد محطة على بعد أمتار.

يرى جرايس (١٩٧٥م ص ٥١) أن المتكلم (ب) في هذه المحادثة لو كان يعطي مجرد معلومات مجانية عن العالم - كما يستشفّ من المعنى الظاهري لكلامه - لقلنا إنه لم يتقيد بشرط القول المناسب. فالمعنى الضمني إذن، وهو النابع من افتراضنا أن المتكلم (ب) ملتزم هنا بالمبدأ التعاوني، هو أن المحطة ليست فقط على بعد أمتار بل إنها مفتوحة وتبيع البنزين. ولعلنا نلاحظ كذلك أننا في تقصينا للمعنى الضمني لابد أن نكون على علم ببعض الحقائق عن العالم، كأن نعلم أن المحطات تبيع البنزين، وأن عبارة «على بعد أمتار» مسافة غير بعيدة عن موقع المحادثة، علينا كذلك أن نفهم ملاحظة المتكلم (أ) بأنها لا تعني فقط وصفا لحالة معينة، وإنما هي أيضا طلب للعون، مثلا. وبمجرد تجاوزنا في تحليل المعنى المقصود للمعنى المباشر الذي يدل عليه ظاهر الجمل، فإنا مضطرون إلى النظر في عدد هائل من المسائل ذات العلاقة. وسوف نقوم بدراسة بعض هذه المسائل في سياق هذا الكتاب، وخاصة في الفصلين السادس والسابع.

في معرض حديثنا عن المعنى الذي يدل عليه مصطلح «المعنى الضمني» في إطار تحليل الخطاب، قدمنا ملخصا لأهم النقاط الواردة ضمن مقترحات جرايس. ومن المفيد التأكيد أن المعاني الضمنية هي جوانب مقاصدية من المعنى ولها خاصيات واضحة الملامح. وهي مستقاة جزئيا من المعنى المتواضع عليه أو المعنى المباشر للقول حسب استعماله في سياق محدد مشترك بين المتكلم والمخاطب، وتعتمد على التزام المتكلم والمخاطب بالمبدأ التعاوني وضوابطه. ومن وجهة نظر المحلل - كما من وجهة نظر المخاطب، لا بد من اعتبار المعاني الضمنية غير محددة بطبيعتها - بما أنها نابعة من فرضية أن لدى المتكلم النية في أن يدلي بكلام له معنى، وأنه يلتزم باحترام المبدأ التعاوني. وبما أن المحلل لا يتمتع إلا بمعلومات قليلة عن نية المتكلم ومدى صدق نواياه عند تلفظه بمقطع خطابي، فإن أيّ ادعاءات يقترحها حول المعاني الضمنية التي توصل إلى اكتشافها لن تتعدى أن تكون مجرد تأويلات. وبهذه الطريقة يكون محلل الخطاب في موقع يبدو في الظاهر أقل تأصلا علميا من موضع اللغوي الشكلاني الذي يصف «قواعد» اللغة ومدى احترام أو عدم احترام مستعمل اللغة لها. إنه بالأحرى في موقع المتلقي الذي يؤول الخطاب تأويلات قد يكون لها معنى أولا. (لمناقشة أكثر تفصيلا للمعاني الضمنية انظر ليفنسون في كتابه الذي سيصدر قريبا).

٢,١,٤ الاستنتاج

بما أن محلل الخطاب - شأنه في ذلك شأن المخاطب - لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم عند تلفظه بالقول، فهو في الغالب يحتاج إلى الاعتماد على عملية استنتاج تمكنه من التوصل إلى فهم المقولات، أو فهم طبيعة الروابط بينها. ولكن عمليات الاستنتاج هذه تبدو متعددة. فقد نكون فعلا قادرين على التوصل إلى نتيجة محددة (٧جـ) بعد استقراء منطلقات معينة (٧أ) و(٧ب)، عن طريق الاستنتاج، ولكننا في الواقع قلّما نحتاج إلى مثل هذه العملية في التعامل مع الخطاب الذي يقابلنا كل يوم

[٧] (أ) الجوّ مشمس ودافيء. إذا كان الجوّ مشمسا، فالطقس دافيء.

(ب) الجوّ مشمس.
(جـ) لهذا، فالجوّ دافيء.

ولكن الأمر الأكثر احتمالا هو أننا سنستعمل طريقة أقل دقة في الاستدلال تؤدي إلى اعتقادنا بأن القبعات والمعاطف المذكورة في المثال (٨) تنتمي إلى زوار البيت الذي توجد به خزانة في المطبخ:

[٨] توجد في المطبخ خزانة كبيرة. وكلما دخل أحد المطبخ فإنك ترى كل القبعات والمعاطف ملقاة على تلك الخزانة.

قد يكون هذا الاستنتاج خاطئا بطبيعة الحال، ولكن يبدو أننا كمحلّلين للخطاب نحبذ القيام بعمليات استنتاج - يمكن إلى حد كبير - تبريرها، بحيث إذا جاءت معلومات لاحقة تشذّ عن ذلك الاستنتاج فإننا نتركه ونكوّن استنتاجا آخر. وكمثال على هذا، لننظر في المثال التالي المقتبس من سانفورد وجارود (١٩٨١م ص ١٠):

[٩] كان جون في طريقه إلى المدرسة.

لو أخذنا موقفا شكلانيا مما ينجرّ منطقيا عن مثل هذه الجملة التقريرية (كما فعل سميث وولسن مثلا، (١٩٧٩م ص ١٥٠ وما بعدها) فإننا سنضطر إلى قبول مجموعة من الجمل كمترتبات منطقية مثل:

[١٠] (أ) كان شخص ما في طريقه إلى المدرسة.
(ب) كان جون في طريقه إلى مكان ما.
(جـ) كان شخص ما في طريقه إلى مكان ما.

إن هذا الجانب لما نستنتجه من قراءتنا لـ(٩) لن يسعفنا بأكثر من فهم محدود لكيفية تعامل القراء مع ما يقرؤون. فأغلب القراء يخبرون أنهم يستنتجون من بين الاستنتاجات الممكنة من (٩) أن جون تلميذ، ولكن إذا أتبعنا الجملة (٩) بالجملة (١٠) في السياق الذي يليها في النص نفسه فإن القراء يتخلون تلقائيا عن استنتاجهم الأصلي، ويكونون استنتاجا جديدا مفاده مثلا أن جون معلم.

[١١] **عجز جون في الأسبوع الماضي عن التحكم في الصف.**

لكي يتسنى لنا الإمساك بناصية هذا النوع من الاستنتاج الذي لا تكاد تخلو منه عمليات فهمنا للخطاب، فإننا نحتاج إلى تبني مفهوم أقل دقة إلى حد ما لعملية الاستنتاج، يكون مبنيا على معلوماتنا الاجتماعية والثقافية. وهنا نجد لدى جمبرز (١٩٧٧م) عرضا مستفيضا لأنماط العوامل التي تدخل في هذا النوع من الاستنتاجات التي يفرضها المقام لا المنطق. وسنعود إلى مناقشة تأثير عمليات الاستنتاج بطريقة أكثر تفصيلا في الفصل السابع.

أما الآن فيكفينا أن نقدم نظرة تنبني على زعم بأن المصطلحات إحالة، وافتراض، معنى ضمني واستنتاج، يجب أن تُعد مفاهيم مقاصديّة في تحليل الخطاب. وستستعمل هذه المصطلحات للإشارة إلى علاقات قائمة بين المشاركين في عملية التخاطب وبين عناصر يحتويها الخطاب. وبما أن الاستعمال المقاصدي لهذه المصطلحات وثيق الارتباط بالسياق الذي يقع فيه الخطاب، فإننا سنتعرض الآن بالدراسة لتلك الجوانب المقامية التي يجب مراعاتها عند القيام بتحليل الخطاب.

٢,٢ المقـــام

لقد أولى اللغويون اهتماما متزايدا منذ بداية السبعينات لدور المقام في فهم الجمل. ونجد لدى سيدوك (١٩٧٨م ص٢٨١) تعبيرا عما يترتب عن أخذ المقام بعين الاعتبار حيث يقول: «هكذا يواجه دعاة علم المقاصد اللساني مشكلا منهجيا حادا. فلو سلمنا بوجود بعض أوجه لمدلول جملة ما في مقام ما فهل هذه الأوجه جزء من مدلول الجملة بحكم معناها... أم هل يجب أن نصل إليها بعد بحث يمكننا من استشفافها من بقية معنى الجملة والحقائق المتعلقة به ذات الصلة بالمقام وذلك بناء على قواعد جرايس؟».

لو بدأنا بتناول الجزء الثاني من هذا السؤال بجدية، فلا بدّ أن نكون قادرين على تحديد الحقائق المرتبطة بالموضوع والتي يقدمها المقام. ويطرح فلمور (١٩٧٧م ص١٩٩) المشكل نفسه عندما ينادي بتبني منهجية قد يسعى محلل الخطاب غالبا إلى

اتباعها إذ يقول: «علينا أن نحدد ما يمكن معرفته عن معنى قول ما ومقامه بالاعتماد فقط على معرفتنا بأن القول قد حصل... فكلما لفتت انتباهي جملة مستعملة في سياق ما أجد نفسي أتساءل مباشرة عمّا إذا كان وقعها سيكون مختلفا لو حصل تغيير طفيف على السياق». وسعيًا منا لاتباع هذا المنهج الشائع في الأطروحات اللسانية والفلسفية فإننا بحاجة إلى معرفة ما يقصد بالقول إن السياق «يختلف اختلافا طفيفا».

٢,٢,١ ملامح السياق

لندرس حالتين مختلفتين ابتدعناهما ابتداعًا يصدر فيهما القول نفسه عن متكلمين مختلفين.

(أ) المتكلم: أم شابة، المستمعة: حماتها، المكان – الحديقة العمومية بجانب غدير يلعب فيه البط، التوقيت: بعد الزوال في يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢م. المرأتان تراقبان ابن الأم الشابة وهو طفل عمره سنتان أثناء مطاردته للبط. وقد فرغت الحماة لتوها من ملاحظة أن ابنها، أي والد الطفل، كان أقرب إلى التخلف الذهني عندما كان في عمر الصبي. عندها تقول الأم الشابة:

لا شكَّ لديَّ أن آدم سريع

(ب) المتكلم: طالب، المستمعون: مجموعة من الطلبة.
المكان: الكل جلوس حول طاولة مستديرة في مطعم الجامعة.
التوقيت: إحدى الأمسيات من شهر مارس سنة ١٩٨٠م. بمجرد إنهاء جون لنكتته يضحك الجميع إلا آدم، ثم يضحك آدم بعد ذلك. فيعقب أحد الطلبة قائلا:

لا شك لديَّ أن آدم سريع.

(في كلتا الحالتين نلاحظ أن تركيز المتكلّم الصوتي هو على كلمة آدم) يمكننا بكل وضوح تحليل هذين الرمزين تحليلا شكلانيا لنجد أن المتكلم في كلتا الحالتين ينسب إلى آدم صفة السرعة. ولكن من الواضح كذلك أن المقولتين كما وردتا في السياقين المحددين أعلاه تحملان رسائل كلامية مختلفة. ففي الحالة الأولى (أ) سنفترض بكلّ بساطة أن ما تحيل عليه «لدي» و «آدم» هي مسميات محددة زمانيا

ومكانيا، إذ إن «آدم»هذا هو محور المقارنة أو المقابلة مع والده (علما بأن هذه المقارنة لصالحه). وهكذا يمكن فهم «سريع» في سياق الحديث عن «متخلف ذهني» على أنها تعني «سريع النمو».

أما في الحالة الثانية (ب) فنجد أن «الدي»و «آدم» تحيلان على مسميات مختلفة في تحديدها زمانيا ومكانيا. فـ«آدم» المقصود هنا هو محور المقارنة أو المقابلة لا مع والده حيث «إن المقارنة لصالحه» بل مع جمع من الطلبة الآخرين، حيث إن المقارنة ليست لصالحه. وفي هذه الحالة لا بد أن تفهم «سريع» على أنها تعني «سريع الفهم أو سريع رد الفعل أو الانتباه إلى قصد النكتة». وعلاوة على ذلك، وبما أن هذا القول صدر في سياق ثبت فيه فشل آدم في التفاعل مع وجه الطرافة في النكتة بنفس سرعة الطلبة الآخرين، فإن المتكلم (إذا أخذنا بالاعتبار هذا الصنف من المتكلمين الذي يوجه خطابه إلى هذا الصنف من المستمعين، في مثل هذه الظروف) لن يفهم على أنه تفوه بكلام كاذب، بل على أنه ضمّن كلامه معنى مناقضا لظاهر القول.

فهل يتسنى بطريقة مقننة تحديد تلك الجوانب من السياق التي لها علاقة بهذين الفهمين المختلفين للقول نفسه في مناسبتين مختلفتين؟

– في هذا الصدد يقول فيرث (الذي يعده كثيرون مؤسس اللسانيات الحديثة في بريطانيا): «لدى أهل المنطق نزعة إلى القول بأن للكلمات والأطروحات «معنى» في حد ذاتها يمكن بطريقة أو بأخرى تحديده بمعزل عن المشاركين في الخطاب والظروف والمناسبات التي وقع فيها الحدث الكلامي. يبدو أنهم لا يرون في طرحهم أهمية الأخذ بعين الاعتبار دور المتكلمين والمستمعين. أما أنا فأقترح أنه لا يمكن الفصل فصلا تاما بين الأصوات (المتكلمة) وبين السياق الاجتماعي الذي تلعب فيه دورها، وبالتالي فإنه يجب النظر إلى كل النصوص في اللغات المنطوقة على أنها تحمل في طياتها مقومات القول، بحيث تحيل على مشاركين نموذجيين في سياق معمّم» (١٩٥٧م ص ٢٢٦).

هكذا نجد أن اهتمام فيرث كان منصبًا على إحلال القول محله ضمن «السياق الاجتماعي» ومن ثم الخروج بتعميمات حول أنماط المعاني التي تفرزها سياقات اجتماعية محددة. وقد اقترح منهجًا مقننا لوصف هذه السياقات يشبه إلى حد كبير المناهج الوصفية الأخيرة الأكثر حداثة والتي سنقوم الآن بدراستها:

كنت ومازلت أرى أن أفضل توظيف «للمقام» هو استعماله كنموذج تصوري مناسب ينطبق على الأحداث الكلامية... إن اهتمام العمل اللساني بالمقام يربط الأصناف التالية بعضها ببعض:

(أ) الخاصيات المتعلقة بالأطراف المشاركة كالأشخاص والشخصيات.
– الفعل الكلامي للأطراف المشاركة.
– الفعل غير الكلامي للأطراف المشاركة.
(ب) الأشياء المتعلقة بالموضوع.
(جـ) وقع الفعل الكلامي.

ويمكن بتحفظ أن نجد بعض أوجه التماثل بين هذا المقام وبين كتب اللغة التي تزود المتعلم بصورة لمحطة القطار وقائمة من الكلمات الأساسية للسفر بواسطة القطار. هذا التماثل بدائي، ولكنه يوازي القواعد النحوية وينبني على العادات التي يكتسبها بالتكرار الأشخاص الذين يتعلمونها في المجتمع الموصوف. (١٩٥٧م ص١٨٢).

(من أجل تطبيق عملي لمنهج فيرث، انظر متشل ١٩٥٧م)

وقد طور هايمز في عدد من المقالات منهجًا مماثلاً في التركيز على أهمية المبدأ الاجتماعي في فهم عمليات التواصل بين المجموعات العرقية. ويعرف هايمز دور السياق في الفهم بأنه يحصر من جهة عدد المعاني الممكنة، وأنه يساعد من جهة أخرى على تبني المعنى المقصود: «إن استعمال صيغة لغوية يحدد مجموعة من المعاني. وبإمكان المقام أن يساعد على تحديد عدد من المعاني. فعندما تستعمل صيغة في سياق ما فإنها تستبعد كل المعاني الممكنة لذلك السياق والتي لم تشر إليها تلك الصيغة: والسياق (بدوره) يستبعد كل المعاني الممكنة لتلك الصيغة التي لا يحتملها السياق.» (هايمز ١٩٦٢م: ورد في ووتن ١٩٧٥م ص ٤٤).

في تحديده الخصائص المميِّزة للسياق والتي يمكن أن تكون لها علاقة بتحديد نمط من الأحداث الكلامية أخذ هايمز (١٩٦٤م) بأسلوب يذكرنا بأسلوب فيرث. فهو يركّز في المقام الأول - مثل فيرث - على «الأشخاص»المشاركين في الحدث الكلامي. ثم إنّ التعميم الذي يجريه على الأحداث الكلامية يمكنه من تجريد وظيفتي **«الباث»** و **«المتلقي»**. فالباث هو المتكلم أو الكاتب الذي يحدث القول. أما المتلقي فهو

السامع أو القارىء الذي يستقبل القول. (وفي مرحلة لاحقة يميّز هايمز كذلك «المستمعين» إذ إن وجود مستمعين يبلغ الحديث مسامعهم قد يسهم في تحديد معنى الحدث الكلامي). إن معرفة المحلل للباث في حدث كلامي معين يمكنه من تصور ما يحتمل أن يقول مثل ذلك الشخص. وتتحدد توقعات المحلل بصفة أكبر بمعرفته للمتلقي. وهكذا تختلف توقعاتك عن اللغة التي ستستعمل، شكلا ومضمونا باختلاف معرفتك بالمتكلم (هل هو رئيس الوزراء أم سكرتيرة القسم أم هو طبيب العائلة أم أمك) وكذلك باختلاف المتلقي (هل هو زميل أم مدير البنك الذي تتعامل معه أم طفل صغير).

فإذا أضفت إلى ذلك معرفتك **«الموضوع»** المتحدث عنه، وهو ما يسميه هايمز في تصنيفه بمحور الحديث، فإن توقعاتك ستكون أكثر دقة وتحديدا. فإذا زدت على ذلك معرفة **«الظرف»**، أي السياق الزماني والمكاني للحدث، وكذلك **«الوضع الجسمي»** للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم وطبيعة الحركة وتقاسيم الوجه، فإن توقعاتك ستكون أكثر دقة وتحديدا.

أما الخصائص الأخرى المميزة للمقام التي يناقشها هايمز (١٩٦٤م) فتشمل خصائص عامة مثل **القناة** (كيفية ربط حلقة الوصل بين الأطراف المشاركة في الحدث الكلامي - لفظا أم كتابة أم إشارة أم باستعمال الدخان؟) و**الشفرة** المستعملة أي اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل) و**صيغة** الرسالة (ما هي الصيغة المقصودة؟ هل هي حديث عابر غير رسمي أم مناظرة أم خطبة أم حكاية شعبية أم قصيدة أم رسالة غرامية... إلخ)، و**الحدث**-أي طبيعة الحدث- التواصلي الذي يمكن أن تضمن داخله نمطا خطابيا معينا، هكذا نرى أنه يمكن للخطبة أو الدعاء أن تكون جزءا من حدث أكبر هو الصلاة في الجامع. وفي استبيانات متأخرة يضيف هايمز خصائص أخرى مثل **«الطابع»** (الذي يتضمن تقييم الكلام: هل كانت خطبة جيدة أم تفسيرا تافها... إلخ) و**«الغرض»** (ماذا كانت الأطراف المشاركة تنوي التوصل إليه كنتيجة للحدث التواصلي).

وما يرمي إليه هايمز من كل ذلك هو أنه يجب النظر إلى هذه الخصائص السياقية، كما ينظر عالم الصوتيات إلى الخصائص الصوتية العامة. فكما أن بإمكان عالم

الصوتيات أن يختار من جملة الخصائص الصوتية العامة المتوافرة في الإنجليزية، الخصائص «مجهور»، «شفوي»، «انفجاري» لكن دون ذكر خاصية، جانبي لوصف الصوتم [b][٢] فكذلك بإمكان محلل الخطاب أن يختار من جملة الخصائص السياقية تلك الخصائص اللازمة لتحديد حدث تواصلي معين. فقد يود عالم الصوتيات أن يقدم وصفا أكثر تفصيلا ودقة للصوتم [b] كأن يذكر تأخّر عمليّة الجهورة وحدوث شيء من بروز الشفتين أثناء مدة الإغلاق. وبنفس الطريقة ربما يود عالم الأجناس أن يحدد بعض الخصائص السياقية في تفصيل أكبر. وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد على كل حال.

إن أهم ما يميز خصائص هايمز هو أنها قائمة مفصلة تمكن عالم أجناس زائر من الوصول عن طريق طائرة مروحية إلى مكان ما يتمّ فيه حدث تواصلي فيتثبت بالتفصيل من طبيعة ذلك الحدث التواصلي.

لنعتبر عالم أجناس كهذا شاهدا غير مرئي لحدث كلامي خاص. فغالب الظن أنه سيبدأ بملاحظة الخصائص السياقية الأكثر شمولا. ما هي القناة المستعملة؟ (لنقل إنها اللفظ)، ما هي الشفرة اللغوية المستعملة؟ (لنقل إنها الإنجليزية)، ما هي صيغة الرسالة المؤداة؟ (لنقل إنها المحادثة)، ما هو الحدث الذي يتضمن هذه المحادثة؟ (لنقل إنه جزء من مقابلة). وبإمكان هذا العالم أن يحدد الأطراف المشاركة: فالباث هو عالم شاب يجري معه المقابلة المتلقي وهو باحث في ميدان اللغة. أما الظرف فيتجسم ماديا في موقع المتلقي في جامعة إدنبره مع وجود خاصية مادية بارزة تتمثل في آلة تسجيل في حالة تشغيل. وأما الظرف الزماني فهو أواخر السبعينات (لهذا فمن المعقول توقع استعمالهما للغة الإنجليزية العصرية مع لكنة اسكوتلندية). لقد تم الاتفاق على أن يكون مجال الحديث هو عمل هذا العالم الشاب. وأمام آلة التسجيل المشتغلة، يقول هذا الشاب.

(٢) وينطبق هذا على الصوتم «ب» في العربية.

[١٢] إنني والحق يقال شديد الارتباك.

لغرض التبسيط المفرط نقول مبدئيا إن مجال الحديث هو ارتباكه (انظر مناقشة أعمق للمسألة في الفصل الثالث). وبناء على معرفة المحلل بالسياق فلن يجد، إلى حد ما، ما يدعو كثيرا إلى الغرابة في هذا القول. يندر أن نتمكن في الواقع من التنبؤ، بالتفصيل بشكل الكلام ومضمونه الذي سنتعرض إليه. ولكن على ضوء كل المعلومات الاجتماعية التي فصلناها، فإن القول الذي بين أيدينا بالفعل هو أكثر إمكانية للحدوث (وبالتالي نفترض أنه أكثر إمكانية للفهم من قبل المتلقي) من «الأقوال» التالية التي لم تحدث بالفعل.

[١٣] (أ) **«اعطني المربى لو سمحت!**
(ب) **لقد مرض قطي مؤخرًا مرة أخرى.**
(جـ) **ادخل في الصندوق.**
(د) **أنا جاهز لأقتطع أول قطعة.**

فكلما زادت معرفة المحلل بخصائص السياق زادت قدرته على التنبؤ بما يمكن قوله (انظر ٤، ٢). وصحيح كذلك أن الخصائص الاجتماعية هي التي تحدد معنى صيغ الإشارة المستعملة في القول الذي تمّ بالفعل. وهكذا فإن فهم «إنني»، «والحق يقال» يستدعي الإحالة إلى المتكلم، وهو العالم الشاب، وقت إصدار القول. (من شأن السياق هنا أن يضعف من إمكان الفهم الآخر، وهو أن المتكلم يتميّز بالارتباك دائما وأبدا، وذلك إلى درجة أن المتلقي أو حتى المحلل لا يفكران على ما يبدو فيها إلا إذا وقع التركيز بشكل واع على عملية التحليل نفسها). لقد سبق لنا أن أشرنا في الفقرة ١، ٢ إلى أنه لا يمكن فهم أدوات الإشارة في القول إلا بالعودة إلى السياق الذي قيلت فيه. وتعطينا قائمة هايمز للخصائص الاجتماعية وصفا للسياق يمكّننا بالرجوع إليه من تحديد العناصر الإشارية. إلاّ أننا نجد لدى الفيلسوف لويس (١٩٧٢م) قائمة أكثر تطورًا تقدم بالخصوص مسردًا لتلك المؤشرات التي يحتاج المستمع إلى تحديدها حتى يتمكن من التوصل إلى حقيقة الجملة. وكما هو الحال لدى أغلب اللغويين

الشكلانيين، فإن لويس يفترض أن القناة هي اللفظ، والشفرة هي الإنجليزية، وصيغة الرسالة هي المحادثة، والحدث هو ذلك الذي يقوم فيه فرد بإخبار شخص آخر. إلا أن اهتمامه لا ينصب على هذه الخصائص العامة للحدث التواصلي، بل يركز على تلك المؤشرات الخاصة التي تمثل «مجموعة متكاملة من العوامل المهمة، أي مسردا لها»، (١٩٧٢م ص ١٧٣) والتي تشكل السياق الذي يجب تحديد صحة الجملة بالعودة إليه. وتحدد هذه المؤشرات كما يلي:

(أ) مؤشر العالم الممكن وذلك لتفسير حالات يمكن أن توجد أو من المفترض أن تكون موجودة أو هي موجودة فعلا.
(ب) المؤشر الزمني: وذلك لتفسير الأزمنة اللغوية في الجمل، ظروف الزمان مثل اليوم أو الأسبوع القادم.
(جـ) المؤشر المكاني: وذلك لتفسير جمل مثل هاك/ خذ هذا
(د) مؤشر المتكلم: (أنا، لي، نحن، لنا... إلخ)
(هـ) مؤشر المستمعين: وذلك لتفسير جمل تحتوي على أنت، لك، أنت نفسك... إلخ.
(و) مؤشر الشيء المشار إليه: وذلك لتفسير جمل تحتوي على أدوات الإشارة مثل هذا، أولئك... إلخ.
(ز) مؤشر الخطاب السابق: وذلك لتفسير عبارات مثل الأخير، السابق الذكر... إلخ.
(ح) مؤشر الإسناد: ويشمل مجموعة مفتوحة لا نهاية لها من الأشياء (مجموعات، حلقات... إلخ).

ولقد اقترح علماء ممن يهتمون بإنشاء مجالات شكلانية للخطاب (انظر مناقشة هذه المسألة في الفصل الثالث) قوائم مشابهة. ولكننا سنكتفي هنا بملاحظة أن قائمة لويس - شأنها شأن قائمة هايمز - تحيل على المتكلم والمستمع حتى تعطي معنى للوظائف الإشارية للمتكلم والمستمع (الباث/ المتلقي) والتي تتحقق عن طريق استعمال ضمائر المتكلم وضمائر المخاطب. وهكذا يمكن تطوير ما يسميه هايمز بالظرف (أو «الإطار») لتقديم تفسير دقيق وواضح للزمان والمكان.

أما الخاصية العامة التي يسميها هايمز «محور الحديث» فهي توزع الآن على المؤشر الإشاري للموضوع المشار إليه، ومؤشر الإسناد، ومؤشر الخطاب السابق. ومزية هذا المؤشر الأخير أنه يمكّن المتلقي بشكل خاص من فهم ما يقال له في ضوء ما قيل. وهو يضفي على المسرد بنية زمنية تراكمية، حيث إن المتلقي مضطر دومًا لتعديل معلوماته المجتمعة لديه عبر الخطاب السابق لتتلاءم مع آخر الإضافات.

وبطبيعة الحال، لا يسعنا في كتاب دراسي مقرر أن نمكنك أيها القارىء من تجربة الخطاب اليومي الذي يحدث فيما يسميه ستينغ (١٩٧٨م) «السياق الطبيعي»، حيث يكون المتلقي جزءاً من السياق، ثم يتعرض بعد ذلك إلى النص. بل لا بدّ من اللّجوء إلى ما يسميه ستينغ بالسياقات «غير الطبيعية»، حيث يقرأ المحلل النص أولا ثم يحاول تحديد خصائص السياق التي قد تكون اكتنفت ذلك. ولهذا الغرض سنقدم مقتطفات ثلاثة مكتوبة تم تجريدها من السياقات التي ظهرت فيها. أما المقتطفان الأوّلان فهما مطبوعان، وأما الثالث فقد جاء مطليًا بالألوان على أحد الجدران. والمطلوب منك هو التفكير في الصعوبات التي قد تواجهك في فهم هذه الأمثلة الثلاثة - إن وجدت - باستعمال المؤشرات الواردة في مسرد لويس.

[١٤] (أ) **ضع إصبعين في الثقبين اللذين يقعان مباشرة إلى اليسار من موقف الأصابع. حرك الإصبع الأقرب لهذا الموضع.**

(ب) **كان عازفًا عنها في تلك المناسبة على ما يبدو، ولم يظهر عليه الاستعداد للبسها اليوم.**

(جـ) **الحشرات المرفوسة لا تعض الحكم للعقل الجنوني** (٣).

إننا لم نقدم إلى الآن طريقة مرضية تمكنك من التعامل مع تجربتك مع نصوص سابقة مماثلة (انظر مناقشة المسألة في ٤ , ٢). ولنسلم هنا بأنه من المحتمل أن نتمكن من التعرف على نوع الكاتب في (أ) على أنه جهة رسمية خفية الذات تتجه بالقول إلى قارىء عام لا إلى شخص بعينه (حيث وقع التركيز على المكان والمسافة).

(٣) ومن الأمثلة الطريفة على ذلك «ألمانيا تضع أمريكا للبيع» وهو عنوان مثير ورد في جريدة الصباح التونسية.

ولو وجدت صعوبة في فهم هذا المقطع فمن المحتمل أن يعود ذلك جزئيًا إلى عدم تأكدك من معرفة الأشياء التي يحيل عليها تعبير «الثقبين» و«موقف الأصابع». فقد يخطر ببالك أن حجم الثقبين لابد أن يكون مناسبًا ليسمح لشخص ما بإقحام إصبعين فيهما، وربما يكون الثقبان على درجة كافية من التقارب بحيث يمكن إقحام إصبعين من اليد فيهما، وبعد تحديد الحجم يبدو من المحتمل أن يكون الشيء المشار إليه بتعبير «موقف الإصبع» على بعد سنتمترات فقط بدلاً من كيلومترات. ولا شك أنك ستستفيد لو أعطيت المعلومة التالية:

الباث: هو مكتب البريد

المتلقي: هو أنت، مستعمل الهاتف

من المحتمل أن تتعرّف على الباقي إن لم تكن قد عرفته أصلاً، ومع ذلك فسنزيد في الإيضاح: لا يبدو أن معرفة زمن التلفظ، سواء كان توقيتًا بالساعة أو تاريخًا بالتقويم، أمر مهمّ، لكن المهمّ حتمًا أن تعلم ما إذا كانت التعليمات لاتزال سارية المفعول (وهي فعلا سارية المفعول).

كما أن معرفة الظرف المكاني للقول تكاد تكون غير مهمة، أما معرفة المكان الذي تجد فيه ذلك النص فهو أمر مهمّ (انظر دليل الهاتف). إن مؤشر «العالم الممكن» المرتبط بالموضوع محدد في الخطاب السابق: «من المفيد أن تتذكر كيف تتصل بالرقم ٩٩٩ سواء في الظلام أو في الدخان» (تجدر الإشارة هنا أننا لم نطلب منك استعمال المؤشرات لتحقيق الغرض نفسه الذي أراده لويس من استعمالها وهو تحديد صحة الجملة، وذلك لأن إضفاء معيار الصحة على الجمل التي تستعمل صيغ الأمر أمر ليس متفقا عليه).

أما النص (ب) فتنبع مشكلة فهمه من عدم معرفتنا ما أو من تشير إليه العبارات «هو، هي، في تلك المناسبة»، وعدم وجود أساس يثبت معنى ظرف الزمان «اليوم». فقد يكون بإمكانك معرفة أن «هو» تعود على كائن حي مذكر وهو الفاعل في جزأي الجملة. وربما تساءلت لماذا قيل لنا «إنه كان عازفًا عنها على ما يبدو» التي قد توحي بأنه لم يكن قادرا على التعبير شخصيا عن عزوفه، وهذا ربما يحد من مدى الاحتمالات الممكنة للضمير «هو». وقد تلاحظ أن الضمير «ها» في «كان عازفًا عنها» قد ورد في

صيغة المؤنث(٤)، ولعلك تتساءل ما هو هذا الكيان الذي يمكن في الوقت نفسه، العزوف عنه ولبسه. يحتوي هذا المثال على كل خصائص الجملة المقتطعة من نص أكبر، ويظهر بكل جلاء مدى حاجتنا إلى ربطه بـ «خطاب سابق» بالإضافة إلى عنصري «الزمن» و «المكان» الأكثر وضوحًا. لقد نشر هذا النص في مجلة «سبورتينغ كرونيكل» الرياضية بتاريخ ٤ يونيو ١٩٨٠م. وكان الكاتب في الخطاب السابق لهذه الجملة يصف حصانًا معينًا (هو) قد ألبس كمامات معينة (ها) في سياق ماض (في تلك المناسبة).

أما النص الثالث (ج)، فيطرح مشكلات أكثر تعقيدًا. فبينما تتسم لغة (أ) و (ب) بكونها مباشرة وأن كل ما تحتاجه لفهمها هو معرفة الأشياء التي تحيل عليها العبارات، فإن اللغة هنا تبدو غامضة، بل قد تكون أصلاً خالية من أي معنى. ومن المفيد معرفة أن التاريخ الذي نشر فيه هذا النص هو أواخر السبعينات. قد تكون متعوّدًا من خبرتك بنصوص مماثلة سابقة على صيغة «الحكم لزيد (لا شك)» التي قد تسمح لك بتقسيم هذا التسلسل الذي لا يحمل علامات ترقيم إلى جزأين:

الحشرات المرفوسة لا تعض

الحكم للعقل الجنوني.

لكن معرفة الموقع الذي ظهر فيه هذا الكلام أمر مهمّ. فقد جاء مطليًا بواسطة مرشّ للأصباغ على أحد الجدران بمدينة جلاسجو. وإن كانت لديك خبرة بمثل هذه النصوص فربما استنتجت من شكل النص ومن المعلومة التي حصلت عليها عن موقعه، أنه حصيلة خطاب بين عصابات الشوارع. ولعلك تعلم من معرفتك الموسوعية للعالم أن الكاتب عضو ينتمي إلى عصابة «العقل الجنوني» وإن المخاطبين المقصودين هم عناصر عصابة أخرى تسمى «الحشرات». ستحتاج بعد ذلك إلى اللجوء إلى الخطاب السابق الذي أعلنت فيه عصابة «الحشرات» أن «الحشرات تعضّ». (عندئذ يمكنك الاعتماد على معرفتك بما يسميه هايمز «صيغة الرسالة» فستعلم أن لغة التخاطب بين

(٤) صيغة المؤنث الغائب هنا ملتبسة، إذ قد تفيد في العربية المؤنث المفرد كما قد تفيد الجمع غير العاقل. والأمر ليس كذلك بالنسبة للضمير المستعمل في المثال الإنجليزي «Them» الذي يفيد جمع الغائب.

عصابات الشوارع تتمثل في تبادل الشتائم الاستفزازية. وبهذه الطريقة يمكنك الوصول إلى القصد من وراء التحذير «الحشرات المرفوسة لا تعض» ومن التقرير المباشر «الحكم للعقل الجنوني» الذي لا يحتوي على اللاحقة «أجل» التي لو استعملت يمكن أن تفهم على أنها دعوة للمخاطب للموافقة).

إن النصين (أ) و(ب) الموجهين إلى القارىء العام مقطعان لغويان سهلان نسبيا ولا يحتاجان لأكثر من تحديد المتلقين المقصودين حتى يتيسّر فهمهما. أما النص (ج) فهو موجه إلى مخاطبين معينين لا إلى الناس عمومًا، ومن الصعب على عامة الناس أن يفهموه دون أن يكون لديهم علم بالفرضيات المشتركة والتجربة السابقة، وهي أمور لا يمكن فرضها بكل سهولة على الإطار الذي اقترحه لويس. ولكي نأخذ هذا في الحسبان فسنحتاج إلى طريقة معيّنة تمكننا من اللجوء إلى مفاهيم مثل «الفرضيات المسبقة» و «المعرفة الموسوعية» و«المقصد أو الهدف من الكلام» و«الخبرة بمعرفة نصوص سابقة مشابهة»، وهذه مفاهيم استعملناها في دراستنا إلى الآن بطريقة عشوائية. وستكون لنا عودة إلى هذه المسائل في الفقرة ٣, ٢.

إن ما تمكنّا من إثباته في هذا المبحث هو أن الخصائص السياقية التي اقترحها هايمز بالإضافة إلى مسرد المؤشرات الذي اقترحه لويس (وذلك لأغراض أخرى مغايرة، هذا ما يجب أن ننتبه إليه) تمكننا فعلاً من تقديم تفسير جزئي لما يعنيه المصطلح المبهم «السياق». ويترتب على هذا أنه بإمكاننا أن نفسر إلى حدّ ما ما يقصده فلمور (١٩٧٧م ص ١١٩) بـ «تغيير السياق» حين يقول: «لأجد نفسي أتساءل ماذا يكون الوقع لو تغير السياق شيئًا ما». ويمكننا الإجابة بالقول إنك لو غيرت الشرط الذي ينص عليه أي مؤشر من المؤشرات فإنك تكون بذلك قد غيرت السياق.

سنقتصر عند هذا الحدّ على تغيير مؤشر واحد ألا وهو مؤشر المتكلم. فمن الواضح أننا لو سمعنا كلا من جين وماري تقول: «إنني أقفز» فإننا سنلاحظ في إحدى الحالات أن التي تعلن أنها تقفز هي «جين»، وأنها في الحالة الأخرى هي «ماري». وفي كلتا الحالتين تكون الجملة صادقة إذا كانت المتكلمة تقفز فعلا لحظة التفوه بالكلام. وإذا علمنا بالإضافة إلى ذلك أن «جين» لا يزيد عمرها على ثلاث سنوات فبإمكاننا فضلا عن الانتباه للخبر اعتباره إنجازا عظيما بالنسبة لطفلة عمرها ثلاث سنوات فقط.

أما لو كان عمر «ماري» ثماني سنوات ومن المعروف عنها أنها تقفز دون خوف، فإن الخبر سيكون واحدا من سلسلة أخبار متوقعة، مما قد يدعو إلى الملل. ذلك أننا نعير درجات متفاوتة من الاهتمام إلى الأخبار، ونتعامل معها بطرق مختلفة لحصول تغيير مهم في خاصية واحدة من خاصيات السياق، وهو المتكلّم.

لننظر في المقطع التالي من إحدى المحادثات:

[١٥] (أ) **هل تزور المنطقة باستمرار؟**
(ب) **نعم باستمرار+ مرة في الشهر تقريبًا + في الواقع ++ إني آتٍ لزيارة أطفالي**

لنفترض أن عمر (ب) يمكنه من أن يكون له أطفال. لكن ما يهمنا هي أنماط الاستنتاجات المختلفة التي نخلص إليها كمخاطبين بالاعتماد على متغيرات مثل عمر المتكلم وجنسه عند سماعنا لما يقوله (ب). لو افترضنا أن (ب) رجل يبلغ من العمر سبعين عامًا فإننا سنتوقع أن يكون أولاده في مقتبل العمر. ولن يترتب عن قدومه لزيارتهم مرة في الشهر أي استنتاج يذكر سوى أنه تربطه بهم روابط وثيقة. لنفترض الآن أن المتكلم رجل في الثلاثينات من عمره. فمن المتوقع أن يكون أطفاله صبيانًا ممن يعيشون عادة مع آبائهم. ولنا أن نتساءل لماذا لا يعيش أطفال (ب) مع والدهم؟ هل إنّ متطلبات حياته المهنية أم علاقته بأم الأطفال هي التي تجبره على العيش بعيدا عنهم؟ ولنفترض أخيرا أن المتكلمة امرأة شابة في الثلاثينات من عمرها. فستتوقع مرة أخرى أن يكون لها أطفال صغار ممن يفترض أن يعيشوا معها. وبما أن الأطفال الصغار في مجتمعنا [المجتمع الغربي]، في حالة فراق الوالدين، يعيشون عادة مع أمهم فقد يدعونا هذا إلى أن نستنتج أن أطفال هذه المرأة يعيشون في رعاية إحدى المؤسسات الخيرية أو التربوية. (كان المتكلم في المحادثة التي اقتبسنا منها المثال المذكور أعلاه رجلا في بداية الثلاثينات، وكان أطفاله يعيشون مع زوجته التي فارقته. وقد ساعدت كل الاستنتاجات التي توصل إليها «أ» عن «ب» على تفسير صحة هذا الأمر). إن ما يجب ملاحظته هو أن أنماط الاستنتاجات التي كنا بصدد مناقشتها لا تنبع من صيغة اللغة المستعملة. بل إن تلك الاستنتاجات نابعة من تغيير السياق، أي من التلاعب البسيط

بعمر الباث وجنسه. إن ما يسمح للسامع بالقيام بمثل هذه الاستنتاجات هو فهم القول في إطار السياق (للمزيد من المناقشة حول الاستنتاجات، انظر الفصل السابع).

٢,٢,٢ السياق النصي

ركزنا في دراستنا إلى الآن بالخصوص على السياق المادي الذي يتضمن أقوالاً مفردة ولم نهتم بما فيه الكفاية بمؤشر الخطاب السابق. ولقد أتى لويس بهذا المؤشر لتفسير الجمل التي تتضمن إحالة على ماسبق ذكره كما في قولنا «السابق الذكر». ولكن واقع الأمر هو أن أي جملة غير الجملة الأولى من مقطع خطابي تتأثر في فهمنا لها بالضرورة بالنص السابق لها، وليس فقط تلك العبارات التي تنص علنا على الإحالة على النص السابق مثل عبارة «السابق الذكر». فكما أن العلامة [q] في تصور الطفل للعبارة الإنجليزية without to disturb the lion وكذلك العلامة [p] في [greipbritn] محددتان بالسياق اللغوي الذي وردتا فيه، فكذلك الكلمات المستعملة في الخطاب محددة بما سنسميه «السياق النصي» متبعين في ذلك اصطلاح هاليداي. لننظر مثلاً في المفردات التالية المستعملة في عدد من السياقات الكلامية سقناها بطريقة تكاد تكون عشوائية من «مذكرات داروين» أثناء رحلة سفينة بيغل الملكية حول العالم».

[١٦] (أ) **يخلّص أطفال الهنود لبيعهم أو لإهدائهم كخدم، أو بالأحرى كعبيد لمدة تطول أو تقصر حسب نجاح المالكين في إقناعهم بأنهم عبيد فعلاً. ولكنني أعتقد أنه لا يوجد ما يدعو إلى الشكوى من معاملتهم** (ص ١١٤).
(ب) **وفي ذلك المساء نفسه وصلت إلى الشاطىء. إن أول نزول إلى اليابسة في أي بلد جديد أمر مهم جدا.** (ص ١٦٩).
(جـ) **عندما صرنا على مقربة من الشاطئ، تقدم أحد السكان الأصليين الذين حضروا لاستقبالنا، وأخذ يصيح بأعلى صوته لإرشادنا إلى مكان الإرساء. وعندما وصلنا إلى الشاطىء، بدا على الجماعة شيء من الخوف والحذر** (ص ٢٠٦).
(د) **بعد أن عبرنا العديد من التلال المتدنية، نزلنا إلى سهل غيترون الصغير الذي تحيط به الأرض. وفي داخل الأحواض - كهذا - والتي ترتفع عن مستوى البحر بمقدار ألف إلى ألفي قدم، ينمو ضربان من نبات السنط (الصمغ العربي) بأعداد كبيرة** (ص ٢٥٧). (طبعة ١٨٩٢).

ينبغي أن تكون النقطة التي نريد إبرازها هنا واضحة، و قد تنطبق في الواقع على العديد من الأدوات الأخرى التي لم نبرزها برسم خط تحتها في النصوص التي سقناها. والمطلوب هنا هو أن ننظر في المضمون المعجمي الذي قد يتوقع وجوده في القاموس مقترنا بالصيغ «معاملة»، «النزول إلى اليابسة»، «الجماعة» و «الحوض» ثم نلاحظ كيف أن تضمين هذه الصيغ داخل سياق معين يحدّد فهمنا لها. فكما أن فهمنا لمفردات منفردة يتحدد بالسياق النصّي فكذلك فهمنا للأقوال ضمن خطاب معين. لننظر هذا النص المأخوذ من بداية حديث لطالبة اسكوتلندية في السادسة عشرة من عمرها عن صور صامبي المتحركة:

[١٧] (أ) **كان رجل وامرأة جالسين في غرفة الجلوس + وكانت المرأة تقرأ وهي جالسة بكل سرور – شعر الرجل بالملل فقام إلى النافذة ونظر إلى الخارج + ثم غيّر ثيابه وخرج من البيت.**

على القارئ أن يفهم أن المقصود «بالمرأة التي تقرأ وهي جالسة بكل سرور» هي «المرأة» التي سبق ذكرها، ولهذا فعليه أن يقولب فهمه حتى تكون «جالسة تقرأ بكل سرور في غرفة الجلوس». وبالطريقة نفسها، لا بد من فهم «النافذة» على أنها «نافذة الغرفة». وتواصل المتكلمة حديثها مع حصول تغيير في الموقع وعلينا أن نفترض أن ما يلحق من أحداث حصل في الموقع الجديد:

(ب) **ها هو يذهب إلى أحد النوادي ويشرب قدحا ويتكلم مع الساقي + ثم يرقص مع فتاة جميلة لها شعر أسود طويل + يقضي وقتا ممتعا +....**

نحن نفهم كل ما يحدث هنا على أنه يحدث للرجل الذي لقيناه في غرفة الجلوس والذي يوجد حاليًا في النادي، هكذا نجده قد شرب قدحًا وتحدث إلى الساقي وقضى وقتًا ممتعًا، كل هذا «في النادي». ثم تعلن المتكلمة عن تغيير آخر في الموقع.

(جـ) ثم يعود إلى البيت ويكلمها + وزوجته تسترق السمع +

ومرة أخرى نفترض أننا لا نزال نتكلم عن الرجل نفسه وأنه قد عاد إلى البيت أي إلى الموقع الذي وجدناه فيه «غرفة الجلوس» أولا. ولكن المحلل الآن ربما يحتار في فهم «ويكلمها» إذ إنه ربما ذهب به الظن أن الرجل يخاطب زوجته. ولكن هذا التأويل يلغى بالسياق النصي الذي يليه مباشرة «وزوجته تسترق السمع». لهذا فإننا مجبرون على فهم «يكلمها» بمعنى «يتصل بها هاتفيا» وأن الضمير «ها» يعود على «الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود الطويل التي راقصها وقضى معها وقتًا ممتعًا». ويمكن أن تنشئ داخل السياق النصي سياقًا آخر له مسرده الخاص من المؤشرات، كما رأينا في [١٧] أعلاه. وبالفعل فبالإمكان إقحام سياقات جديدة في صلب ذلك السياق المركب. لننظر المقطع التالي:

[١٨] **قبل الوقت الذي أكتب عنه بحوالي أربعة شهور كانت سيدتي قد ذهبت إلى لندن وزارت إحدى الإصلاحيات... وحين لاحظت القيِّمة اهتمام سيدتي بالمكان أشارت إلى بنت اسمها روزانا سبيرمان، وروت لها عنها قصة غاية في الأسى: وتخونني الشجاعة هنا لإعادتها (على مسامعكم) وذلك لأنني لا أحب أن أجلب لنفسي الشقاء دون مبرّر ولا أظنك تفعل ذلك أيضًا. خلاصة الأمر أن روزانا سبيرمان كانت سارقة.**
(ولكي كولينز، مون ستون)

ليس من الضروري أن يعرف القارئ مكان كتابة النص وتاريخه من طرف المؤلف ـ ولكي كولنز ـ أو حتى هوية المؤلف حتى يفهم النص. ومع ذلك فلنا أن نفترض أن حظوظ القارئ ستكون أوفر لفهم أفضل لغرض المؤلف من صياغة النص على حالته تلك. لو علم أن النص كتب في أواخر القرن التاسع عشر (وهو ما يفسّر بعض الفروق في الشفرة حسب اصطلاح هايز) في العهد الفكتوري في إنجلترا (وهو ما يفسر الإشارة إلى «الإصلاحية») وأن المؤلف يكون بعمله هذا قد ألف أول قصة بوليسية باللغة الإنجليزية تروي الأحداث من وجهات نظر أربعة أبطال مختلفين تنعكس شخصياتهم جزئيًا من خلال الأسلوب الروائي الذي ينسبه المؤلف لهم. هكذا لدينا مؤلف ومكان وزمان حقيقيان لكتابة الرّواية (أو مجموعة تواريخ وأماكن). بعد ذلك نسبت إلى كل راو زمان إسهامه ومكانه. ومن المفترض أن يكون ذلك الزمان هو الذي

يرتبط بالتعليق «الذي لا أجد الشجاعة لإعادته هنا» حيث يعود ضمير المتكلم على الراوي الحالي. وقد كان الراوي مباشرة قبيل هذا المقطع يصف حادثًا له علاقة بتصميم القصة. وهو ما أشار إليه بقوله «الزمن الذي أكتب عنه». بعد ذلك يواصل الراوي حديثه بمدنا ببعض المعلومات عن خلفية الموضوع وهي معلومات نسبها إلى وقت سابق «منذُ حوالي أربعة شهور». وقد قدمت لنا روزانا سبيرمان التي كانت آنذاك (أي قبل أربعة شهور) تقيم بالإصلاحية ولكنها كانت قبل ذلك «سارقة». وفي غضون المجال الزمني «منذُ أربعة شهور» تم إقحام متكلم ومستمع جديدين:

[١٩] عندئذ قالت سيدتي للقيّمة «سوف تتاح لروزانا سبيرمان الفرصة في خدمتي». وبعد ذلك بأسبوع دخلت روزانا سبيرمان هذا الصرح كخادمتنا الثانية.

ففي لحظة التفوه بالكلام «أربعة شهور قبل الزمن الذي أكتب عنه» كانت السيدة المحسنة تتكلم عن المستقبل «سوف تتاح لها الفرصة». وفي الجملة التي تليها يعلق الراوي على ما حدث بعد موعد كلام السيدة بأسبوع من وجهة نظر سياقه هو، أي وقت كتابته لإسهامه في الرواية «في غضون أسبوع بعد ذلك».

لا تستوفي هذه المقدمة الموجزة حق الأهمية التي يجب أن تحظى بها البنية الزمنية لهذا المقطع. ولكنها تدل مع ذلك على تعقيد السياقات المضمنة التي أسسها السياق النصّي والتي يمكننا فهمها كمستمعين/ قراء.

سنناقش في الفصل السادس مسألة الإحالة إلى الوراء، التي ينظر إليها عموما على أنها تعتمد إلى حدّ كبير جدًا على السياق النصّي لكي تفهم. أما هدفنا الحالي فهو التأكيد على قوة السياق النصّي كعامل يحدد ويحدّ من فهمنا. حتى لو لم تتوافر لدينا معلومات عن مكان القول الأصلي وزمانه. وحتى في صورة غياب معلومات عن المتكلم/ الكاتب والمستقبل الذي يقصد توجيه الكلام إليه. فمن الممكن في الغالب إعادة بناء جزء من السياق المادي على الأقل لكي نصل إلى فهم النص بطريقة أو بأخرى. وكلما توافر السياق النصي ضمنًا بصفة عامة فهم النص. فالنص يخلق سياقه

الخاص به. وكما لاحظ آيسارد (١٩٧٥م ص ٣٧٧): «لا تعتمد العمليات الاتصالية فقط على السياق حتى تفهم، بل إنها تغير ذلك السياق».

٢,٣ السياق الموسع

لقد كان اهتمامنا منصبًا في دراستنا إلى الآن على فرض نوع من البناء التحليلي على كتلة غير محدّدة الجوانب تسمّى السياق. وقمنا بتجريد بعض التعميمات، انطلاقًا من سياقات خاصة ومرورًا بالسياقات التواصلية بشكل عام للوصول إلى مجموعة من الخاصيات يبدو بعضها مناسبًا لتحديد حدث كلامي ما على أنه من صنف معين، وبعضها الآخر مناسبًا لتمكين السامع من التنبؤ بما يحتمل أن يقوله المتكلم في نمط معين من أنماط السياق، والبعض الأخر مناسبا لحصر إمكانات الفهم داخل سياق. ولا شك أن القارىء دقيق الملاحظة قد لاحظ أننا قد أطلقنا لأنفسنا العنان لاستعمال مضمون الخصائص التي اقترحها هايمز والمؤشرات التي اقترحها لويس وذلك بطريقة تغلب عليها العشوائية. وهكذا فقد قدمنا مقادير مختلفة من المعلومات عن المتكلم أو السامع أو الزمان أو المكان طيلة دراستنا لمقاطع خطابية مختلفة. وهذا السلوك من جانبنا يتماشى مع توقعات هايمز نفسه عن الكيفية التي ينبغي توخّيها في استعمال الإطار الذي اقترحه. أنت تذكر طبعا أنه يعتقد أنه بالإمكان اعتبار الخصائص السياقية بالطريقة نفسها التي ينظر بها إلى الخصائص الصوتية: فهي مهمة في بعض الأحيان لا في جميعها، وقابلة للتفصيل بدرجات متفاوتة من الثقة لأغراض مختلفة (١, ٢, ٢).

فالمشكل الذي يعترض محلّل الخطاب إذن هو -دون شك- أن يقرّر متى تكون خاصية معينة مهمة في تحديد ماهية سياق معين، وما هو مدى التحديد المطلوب؟ هل هنالك مبادىء عامة من شأنها أن تحدّد مناسبة التفصيل أو طبيعته، أم أن المحلل يحتاج إلى إعطاء أحكام عشوائية بشأن هذه المسائل كلما حاول معالجة مقطع خطابي معيّن؟

في الوقت الراهن، سنقتصر في دراستنا لهذه المسألة على تلك الخصائص التي ترتبط مباشرة بالسياق الإشاري، أي تلك الخصائص التي ستسمح بفهم تعبيرات إشارية مثل أداة الإشارة الزمنية الآن، وأداة الإشارة المكانية هنا وضمير المتكلم أنا. هل هنالك أساليب متعارف عليها لتحديد المعلومات اللازمة لفهم هذه الأدوات؟

يقترح لاينز (١٩٧٧م ص ٥٧٠) من حيث المبدأ إمكان وجود مثل هذه الأساليب المتعارف عليها: «إن كل وحدة كلامية حقيقية فريدة من حيث الإطار المكاني والزماني حيث إنها قيلت أو كتبت في مكان محدد وزمان محدد. وطالما وجد نظام متعارف عليه لتحديد موقع الأشياء مكانيًا وزمانيًا فبإمكاننا، من حيث المبدأ، تحديد الظرف الزماني الحقيقي لأيّ حدث كلامي».

من الواضح أنه توجد أنظمة متعارف عليها لتحديد موقع الأشياء زمنيًا ومكانيًا. فقد يكون من الممكن تحديد وقت الحدث الكلامي بقولنا إنه يمتدّ بين التاسعة وثلاث وثلاثين دقيقة والتاسعة وأربع وثلاثين دقيقة صباحًا يوم الخامس من شهر يونيو ١٩٦١م. بهذا نكون قد حددنا الوحدة الكلامية من حيث الزمن حسب عقارب الساعة والتقويم وهي أنظمة جيدة متعارف عليها. ومن المحتمل كذلك في صورة حصولنا على أدوات القياس اللازمة، أن يكون بإمكاننا تحديد مكان الحدث الكلامي بالنظر الدقيق إلى نقطة التقاء خطوط العرض والطول (على الخارطة). ومع ذلك فليس من الواضح إطلاقًا أن هذه الأنظمة الخاصة المتعارف عليها تزودنا بالمعلومات المناسبة في كل الحالات، فربما صنفت سفينة دورية بحرية تجوب البحار الرسائل بهذه الطريقة، ولكن من الواضح أن تعاملنا كبشر مع الأحداث الكلامية لا يتمثل في تغييب قائمة من الوحدات الكلامية في الذاكرة نكون قد ألحقنا بها لواحق متعارفا عليها تحدد المكان والزمان بهذه الطريقة. فبإمكان أحد أصدقائك أن يذكرك بقول سابق عايشتماه معًا مستعملاً لواحق مكانية وزمانية متعددة:

[٢٠] (أ) **لكنك كنت تقول لتوك انه لم يكن... (المكان: هو نفسه الزمان: منذ دقائق فقط).**
(ب) **لقد قلت في اجتماع أعضاء هيئة التدريس بالأمس إنه لم يكن...**
(جـ) **لقد قلت في الأسبوع الماضي أثناء اجتماع أعضاء هيئة التدريس إنه لم يكن...**
(د) **لقد قلت في العام الماضي عندما التقينا في تورنتو إنه لم يكن...**

فكلما كانت الشقة الزمنية بعيدة بين الحدث المروي ولحظة التفوّه بالكلام قل احتمال تذكّر المتكلم لتفاصيل تاريخ حدوث الفعل وتوقيته، وازداد حجم الفترة الزمنية

التي يحتمل أن يخصصها لحدوثه. هكذا يبدو من غير المحتمل أن تكون «الأساليب المتعارف عليها» لتسجيل المواقع الزمانية والمكانية مناسبة لتحديد الإطار الخاص والفريد للأحداث الكلامية.

ربما مكنتنا الأساليب المتعارف عليها من تثبيت المساحات المكانية وذلك في فهمنا لأدوات إشارية مثل «هنا». لو افترضنا أن زيدًا يكلم عمروًا وهو واقف على الحافة الزرقاء للسجاد في مكتب زيد في أحد شوارع مدينة مانشستر بإنجلترا في بريطانيا في أوروبا الغربية... فبإمكان عمرو أن يتلفظ بأيّ من الأقوال التالية:

[٢١] (أ) **يوجد هنا جانب آخر بال يحتاج للإصلاح.**
(ب) **غرفتك هذه جميلة جدًا.**
(جـ) **إنه حقًا يوم فظيع هنا.**
(د) **الطقس لديكم هنا معتدل نسبيًا.**

لاشك أنه يمكن فهم الموقع المكاني المشار إليه بأداة «هنا» في كل الأمثلة السابقة على أنه مجموعة من الحلقات تنطلق من مركز واحد ـ ألا وهو المتكلم ـ لتنتشر حوله وتضم مساحات مكانية مختلفة الحجم، ولكن فهم المدى المكاني للأداة «هنا» حينما تستعمل في أية مناسبة خاصة يجب أن يتم بالرجوع إلى سياق ما يتحدث عنه المتكلم. إن الشيء الذي يبدو ثابتًا لا يتغير في فهم «هنا» هو أن المركز الإشاري موجود حيث يوجد المتكلم (باستثناء بعض الاستعمالات الشاذة في الاتصالات الهاتفية البعيدة، والسفر مسافات بعيدة التي درسها لاينز (١٩٧٧م).

وعند محاولة فهم أداة الإشارة الزمنية «الآن» تظهر مشكلات شديدة الشبه بالمشكلات المذكورة أعلاه. انظر الأقوال الممكنة التالية:

[٢٢] (أ) **صفقوا جميعا الآن (مدربة ألعاب رياضية تخاطب طالباتها).**
(ب) **أرى أنه ينبغي عليك أن تبدأ الفصل التالي الآن (مشرف دراسات عليا يخاطب طالبًا).**
(جـ) **والآن وأنا أتقدم في السنّ أجدني أرى بالفعل أن رجال الشرطة يبدون أكثر شبابًا من ذي قبل.**

(د) منذ العصر الحديدي إلى الآن، لم يتوقف الإنسان عن أدوات تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

في المثالين (جـ) و (د) يبدو أن القولين يقعان في مساحات زمنية مختلفة، حين يرتبط أحدهما بتقدم المتكلم في السنّ (أي ما يغطي فترة تتراوح ما بين ٢٠ و ٣٠ عامًا). في حين يرتبط الثاني بتقدم الإنسانية (أي ما يغطّي فترة تمتد عشرات السنوات، إن لم نقل قرونًا). أما المثالان (أ) و (ب) فهما يختلفان حيث إن العملية المنصوص عليها ستتبع القول، مباشرة في (أ) ولكن بعد انقضاء فترة زمنية في (ب). ومرة أخرى نقترح أن المركز الإشاري يقع داخل سياق الكلام النابع من المتكلم ولكن فهم الأداة «الآن» على أنها ترتبط بالحدث الكلامي، إما بالتزامن معه أو الحدوث بعده أمر يلزم تحديده بالرجوع إلى محتوى القول. وتجدر الملاحظة أن عملية تثبيت المركز الإشاري هذه تتناسب بالخصوص مع ما يسميه لاينز (١٩٧٧م ص ٦٣٧):

«الإطار الأمثل للقول: وهو أن يخاطب شخص شخصًا آخر أو عدة أشخاص باستعمال الجهاز الصوتي عبر القناة الصوتية - السمعية، وتكون كل الأطراف المشاركة حاضرة في المقام نفسه، الحقيقي، بحيث يتسنّى لهم رؤية بعضهم بعضًا، وإدراك الخاصيات فوق اللغوية غير المنطوقة في كلامهم، ويتناوبون فيما بينهم دور الباثّ والمتلقي».

قد تستعمل الأدوات «هنا» و «الآن» بطبيعة الحال في سياقات يمكن اعتبارها «محوّلة». لنلاحظ مثلا كيف ستفهم قول أحد روّاد الفضاء لزميله وهما على الأرض يدرسان خريطة القمر: «سنحط هنا». أم كيف ستفهم الرسالة المكتوبة على كل ورقة من أوراق الحمام عليها اسم إحدى الماركات التي تصنعها الحكومة: «والآن أغسل يديك من فضلك». يتمتع المتكلمون أو الكتاب بخيار نقل المركز الإشاري إلى الإطار الزماني المكاني الذي يطلع فيه السامع أو القارىء على النص.

من خلال دراستنا للمواقع الزمانية المكانية التي تبدو من حيث المبدأ قابلة للتحديد بشكل خاص حسب نظام متعارف عليه، لا بدّ أن نكون قد وضّحنا ما يلي:

أولاً: أنّ أدوات الإشارة قد تحتفظ بمركز إشاري متعارف عليه، ولكنها يجب أن تفهم على ضوء مضمون القول الذي استعملت فيه.

ثانيًا: أن الوصف الزّمني المناسب للقول (كأن تقول على سبيل المثال «الساعة ٢٢,٩ صباحا يوم الثلاثاء ٢٨ يونيو ١٨٧٣م أو أن تقول في أواخر القرن التاسع عشر) يختلف باختلاف معرفة المحلّل (أو المتكلم)، ومقصده عندما يشير إلى القول على أنه محدد زمنيا. ويعني هذا أنه حتى في وجود نظام متعارف عليه لإلحاق خاصيات زمانية مكانية بالأقوال، فليس هناك ما يضمن توفّر المعلومات المناسبة من خلال ذلك النظام. لقد ناقشنا في ١,٢,٢ هذا المقطع الخطابي:

«كان عازفا عنها في تلك المناسبة على ما يبدو ويمتنع عن لبسها اليوم»

حيث حددنا تاريخ الحدث الكلامي على أنه ٤ يونيو ١٩٨٠م. وقد صدر المقال الذي اقتبسنا منه هذا المقطع بالفعل في ذلك اليوم. ومع ذلك فإنّ أي شخص يعرف مدلول كلمة «سباق داربي» فإنه سيحصل ولاشكّ على معلومات أكثر لو تم تحديد زمن الحدث الكلامي بيوم سباق داربي ١٩٨٠م.

لا يمكن اعتبار المعلومات الخاصة بالزمان والمكان مؤشرات بسيطة غير ذات بينة للفهم في السياق. كما لا يمكن اعتبار المعلومات الأخرى المرتبطة بالسياق الإشاري، وهي المتكلم والسامع والشيء المشار إليه، مؤشرات بسيطة غير ذات بينة تتطلب تحديدا حسب نظام متعارف عليه. فماذا يعني أن نحدّد، على سبيل المثال، هوية الشيء المشار إليه؟ بإمكاننا التعرّف على شخص ما عن طريق اسمه. وبإمكاننا أن نروي أن «إيلين بلار قالت إنها ترغب في القدوم»، فهذه الإشارة ربما تكون مناسبة لتحديد المتكلم، بل إن عبارة «إيلين» ربما تكون كافية. ولكن إذا لم نكن نعلم من يكون أو ماذا يمكن أن يكون هذا الشخص، فإن الفائدة تكون أكبر لو أوضحنا سبب تقديمنا لها في المحادثة. هكذا بإمكاننا أن نقول «صديقتي إيلين بلار» أو «رئيسة القسم السابقة إيلين بلار» أو «ممرضة في الجناح تسمّى إيلين بلار» فنحن بهذا نقدم بطريقة أو بأخرى «أوراق اعتماد» لها تبرر وجودها في المحادثة وعلاقتها بالمتكلم الذي يتحمل مسؤولية إقحامها في المحادثة. ويتساءل مورغن (١٩٧٥م ص ٤٤٢):

«ماذا يمكننا أن نستنتج عن نوايا المتكلم من واقع اختياره لهذا الوصف الخاص بدلا من أي من الأوصاف الأخرى التي يمكن أن تحضر إلى الذاكرة المسمّى نفسه؟»

يوجد للحديث عن أي شخص عدد هائل من الأوصاف الممكنة تنطبق عليه بدرجات متفاوتة من التناسب حسب السياقات المختلفة. فبالإمكان التعرف على الإنسان مثلاً من خلال علامات جسمانية خارجية نذكرها كأن نقول: «المرأة التي في الزاوية، الرجل الملتحي، الطالب الذي صبغ شعره، الطفلة التي تلبس الفستان الوردي» أو أن نمدح بعض هذه الصفات أو نذمها بقولنا: «الرجل الطويل ذو المظهر المتميز/ الرجل ذو الأنف الكبير والشعر الليفي». وبإمكاننا تحديد الأشخاص بذكر ما هم بصدد فعله كأن نقول: «المرأة التي تغازل الأدميرال، الرجل المنهمك في تصليح السيارة... الخ».

إن المتغير الذي يهمنا إلى حدّ كبير هنا هو ذلك الذي يهم الأدوار العديدة التي يلعبها الإنسان. ويفرق لاينز (١٩٧٧م ص ٥٧٤) بين الوظيفة الإشارية للإنسان (وهي التي تستعمل على سبيل المثال ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب) ووظيفته الاجتماعية أو «وضعه»، ويلاحظ لاينز أن عبارات التخاطب التي يستعملها رجل في وضع اجتماعي أدنى مثلاً لمخاطبة رجل في وضع اجتماعي أعلى قد تختلف عن تلك العبارات المستعملة بين رجلين متكافئين في المركز الاجتماعي، كما هو الحال في عبارات النداء «سيدتي» أو «يا دكتور» أو «مولاي» (في المحاكم).

هكذا تختلف عبارات التخاطب حسب اختلاف السياقات الاجتماعية. (انظر على سبيل المثال استعمالات الضميرين tu و vous في الفرنسية). ويمكننا عموما أن نفترض أن شخصا ما لن يستعمل في سياق اجتماعي خاص في مناسبة خاصة إلا وظيفة واحدة. وتكفي نظرة سريعة على إحدى الجرائد اليومية لاكتشاف محصول ثري من وسائل التعرف على الأشخاص بالرجوع إلى الوظيفة الاجتماعية المناسبة للخبر، ونورد هنا بعضًا منها:

[٢٣] (أ) **مصوّر الدايلي تلغراف الكاريكاتوري نكولاس غارلند يعرض علينا رؤيته لرئيسة الوزراء**
(ستوب براس، ٢٧ فبراير ١٩٨٢م)

(ب) **فرانك سلبي، رئيس المحققين في لجنة العمل والموارد البشرية بمجلس الشيوخ (الأمريكي) يرفع السماعة.**

(مجلة التايم ٣١ مايو ١٩٨٢م)

(جـ) **صوفيا لورين، الممثلة السنمائية، تقبع اليوم داخل زنزانة بالسجن في كازرتا قرب نابولي.**
(التايمز ٢١ مايو ١٩٨٢م)

(د) **السيد روبرت موجابي، رئيس وزراء زمبابوي، سعى بالأمس إلى المستثمرين الذين يتطلع إلى استثماراتهم في بلده.**
(التايمز ٢١ مايو ١٩٨٢م)

(هـ) **أعلن رسميا عن فوز السنيور فورج بلانكو الذي ينتمي إلى الحزب الثوري الحاكم.** (التايمز، ٢١ مايو ١٩٨٢م)

في كل حالة من هذه الحالات تم تحديد هوية الشخص، إما بذكر وظيفته التي تناسب محتوى المقال أو الوظيفة التي يعرف بها لدى الجمهور. قد يكون لكل شخص من هؤلاء أدوار عديدة أخرى، كأن يكون أبًا أو طفلاً أو ابنة أخت أو أختًا أو لاعب شطرنج أو حدائقيًا أو كاتب مذكرات، ولكن هذه الوظائف كلها غير مناسبة في هذا السياق، ولهذا لم تذكر في هذه المناسبة. كما يمكن أن يكون لأكثر من وظيفة واحدة دور مناسب في آن واحد. ففي مناقشته للجملة التالية التي أوردها تشومسكي (١٩٧٢م ص ٦٧):

لست ضدّ أبي لكني فقط ضدّ وزير العمل.

يرى رومتقايت (١٩٧٤م ص٤٥) أنها لا تحتوي بالضرورة على تناقض، حتى وإن كانت العبارتان الاسميتان تحيلان على الشخص نفسه. إنها تعبر بكل بساطة عن ذلك التأرجح الذي يميز التجربة الإنسانية حيث تعجبك بعض جوانب كيان ما، ولا تعجبك بعض جوانبه الأخرى.

ويحتج رومتقايت ضدّ «مبدإ تحديد هوية المسمى على أنه نقطة محدّدة بما لا يدع مجالا للشك، في فضاء أحاديّ ومعرفيّ شفاف، يقوم على شروط بديهية مسبقة لعمليات محدّدة في المنطق الشكلاني».. حيث «تفرض القوانين الصارمة لقيم الصدق على المتكلم، إما أن يعرف الشيء المشار إليه معرفة مطلقة وإما ألاّ يعرفه إطلاقًا».

(١٩٧٤م ص ٤٨). يمكن أن ننظر إلى المتكلمين أو السامعين أو الأشياء المشار إليها من زوايا عديدة تبرز وظائف مختلفة. لننظر الأمثلة التالية:

[٢٤] (أ) بصفتي جاره فإنني أراه كثيرًا، أمّا بصفتي زميلاً له في العمل فإني أكاد لا أراه إطلاقًا.

(ب) إن نظرت إليك زميلاً فينقصك الكثير، وإن نظرت إليك جارًا ففضلك عظيم.

(جـ) إني أكن لها جانبًا لا بأس به من الودّ كزميلة، ولا شك أنها لطيفة جدًا كصديقة وقتية، ولكن يستحيل العيش معها تحت سقف واحد.

من الواضح أنه بإمكاننا إتخاذ مواقف تتباين جزئيًا ـ أو حتى كليًا ـ من الشخص نفسه، لكن في وظائف مختلفة. ففي المثال التالي المقتطع من تقرير صحفي في صحيفة التايمز (١٥ مايو ١٩٨٢م) تمت الإشارة إلى الشخص نفسه باستعمال أدوات مختلفة ترتبط بالوظائف المتعددة التي يعتبرها الصحفي مناسبة للحدث:

[٢٥] اتهام أحد القساوسة بمحاولة قتل البابا (لشبونة ١٤ مايو). وجه الاتهام هنا اليوم إلى قسّ إسباني منشق لمحاولته قتل البابا. وقد تمّ اعتقال يوحنا فرنانداز كروز البالغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا بعد أن اقترب رجل مسلح ببندقية مذببة من البابا أثناء صلاته بموقع فطيمة ليلة الأربعاء. وتفيد تقارير الشرطة أن فرنانداز أخبر المحققين اليوم أنه كان يتدرب على هذا الهجوم طوال الستة الأشهر الأخيرة. ويقال إنه زعم أن البابا «بدا حانقًا» عند سماعه لانتقادات«القسّ»الموجهة ضدّ إدارته لشؤون الكنيسة. وفي صورة إدانته، فإن هذا الإسباني يواجه حكمًا بالسجن لمدة ١٥ — ٢٠ عامًا.

لقد أبرزنا بالحروف الطباعية الداكنة العبارات المرتبطة بالرجل المشار إليه في العنوان «بأحد القساوسة»، وتكمن أهمية وظيفته كقس (إذ تمت الإشارة إليه باستعمال العبارات «أحد القساوسة، قسّ... منشقّ، انتقادات القس») في احتمال كونه قسًا ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية الرّومية التي يترأسها البابا. وبما أن الحدث المرويّ تمّ في البرتغال (في لشبونة) وأن أي حكم لاحق بالسجن سينفذ في البرتغال، فمن المناسب

التنصيص على أن القسّ ليس برتغاليا («قسّ إسباني»، «هذا الإسباني»). أما الإحالة النكرة في العبارة الباعثة على الالتباس «رجل مسلح ببندقية مذببة» فيبدو أنها تعود إلى الفترة التي سبقت التعرف عليه بصفته «قسًا إسبانيا منشقا». إذ تم تحديد هويته بذكر اسمه كشخص من بين مجموعة الوظائف المختلفة المتداخلة التي يقوم بها (يوحنا فرنانداز كروز، فرنانداز). وكما لاحظ لافي (١٩٧٩م ص ١٩٣):

فإن المتكلم عندما يشير إلى كيان ما قد لا يقتصر بكل بساطة على تحديد هوية المسمى، بل قد ينشيء المتحدث عنه، وذلك بأن يختار من بين حقل من العلاقات تلك الخاصيات التي ترتبط فعلاً بلحظة إصدار الكلام.

لننظر الآن في ردّ فعل طفلة عمرها خمسة أعوام وتصف في روضة أطفال بيور كشار عندما طلب منها أن تتحدث عن الفرق بين الصورتين فأجابت:

[٢٦] (أ) ذلك الشيء يوجد هناك في هذه ولكنه لا يوجد في تلك عندئذ أمسكت المعلمة بيدي الطفلة الصغيرة حتى تمنعها من الإشارة، وأغمضت هذه المعلمة عينيها وقالت للطفلة:

(ب) والآن أنا لا أستطيع رؤية الصورة، علميني الفرق مرة أخرى.

في هذه المرة قالت الطفلة:

(جـ) في هذه الصورة يوجد الدب على الكرسي ولكن في تلك (الصورة) لا يوجد أي دب.

تتشابه الصورتان تمامًا في ماعدا ثلاث نقاط: وجود أو عدم وجود دبّ جالس على الكرسي، اختلاف في الزركشة على بلّور الرفّ، واختلاف في موقع إحدى المرايا. فمن وجهة نظر البنت كان من الواضح أن الشيء البارز هو الدب. فهي تعتمد في ردها الأول على اطلاع مدرّستها على السياق العيني المشترك لفهم ما تقوله. فهي تشير إلى الدب «ذلك الشيء» في الصورة الأولى، ثم تشير إلى الكرسي الفارغ في الصورة الثانية (في تلك)، وتفترض أن المدرسة منتبهة لما هي بصدد الإشارة إليه في سياق المقام المشترك بينهما. ولكن عندما تمنع المدرسة الطفلة من الإشارة وتدعي

أنها غير قادرة على رؤية الصورة، تدرك البنت أن المقام التواصلي قد تغير، وأنه لم يعد باستطاعتها الاعتماد على السياق العيني المشترك، ولهذا صرحت بما تشير إليه (الدب) ودلت على موقعه لغويًا بدلاً من الإشارة إليه بإصبعها (على الكرسي) وبيّنت علنا وجه الفرق بين الصورة الثانية والصورة الأولى (لا يوجد أي دب). كما غيرت عملية التلفظ بالقول (ب) وما صاحبها من حركات خاصة بارزة لدى المخاطبة، وهي قدرتها على رؤية ما تراه الطفلة.

ليس المتكلمون ولا السامعون ولا الأشياء المشار إليها مساحات عديمة الخاصيات أو الألوان. وليس صحيحا كذلك أننا نجدهم مقترنين بأسماء أعلام تصلح لجميع الحالات مع وصف مميز لهم يصلح لكل الحالات. فما يميّزهم هو أنهم يتمتعون بأعداد هائلة من الخصائص الجسمية والاجتماعية تصلح أيّ منها لأن تكون الخاصية المناسبة لعملية تواصلية خاصة. لهذا فإن التصنيف الفلسفي الجامد الذي لا يرى المتكلم والسامع إلا بمجرّد زيد وعمرو لا يصلح إلا في عالم نموذجي محدود. أما محلل الخطاب الذي يعمل في العالم الحقيقي فعليه أن يتمكن من استخلاص الخصائص المميزة للسياق، وتلك الخصائص فقط التي تكون مناسبة للحدث التواصلي الخاص الذي هو بصدد وصفه والتي تسهم في فهم المعنى المقصود للقول وتحديده. وكما يلاحظ أنكفيست (١٩٨٠م ص ٧٩) «مصدر الإخراج الأول لمحلل السياق هو ثراء ذلك السياق». فعلى أي أساس سيتمكن من تحديد أيّ من الخصائص المميّزة للسياق تكون مناسبة في مقام معين؟ وهل هنالك مبادىء عامة يستطيع الرجوع إليها؟ هل من المعقول أن نفترض، كما يغلب علينا ذلك، أن تلك الخصائص السياقية التي تكون بارزة لدى المتكلم هي بالضرورة بارزة بالدرجة نفسها لدى السامع؟ أليس من الأجدر بنا أن نفكر بوجود رؤى للسياق تتلاقى جزئيًا. يقول بارهيلل (١٩٧٠م ص ٧٩):

«يختلف عمق السياق المقامي الضروري لفهم كامل لأنواع الجمل المختلفة بطبيعة الحال من حالة إلى أخرى. وليس لدينا إلى الآن إلاّ فهم محدود جدا للكيفية التي تمكننا من «تحديد عمق السياق المقامي اللازم» لذلك الفهم.

وسنقدم الخطوط العريضة لطريقة ممكنة لحلّ هذا المشكل في الفقرة التالية، وكذلك في الفصل الثالث.

٤,٢ مبدأ «الفهم المحلي» ومبدأ «القياس»

لقد ناقشنا في المبحث ٣,٢ المشكلات التي تعترض محلل الخطاب أثناء تحديده تلك الخاصية السياقية المحددة من جملة الخصائص السياقية اللامتناهية في الظاهر، والتي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في فهم الخطاب. فكيف سيتمكن من تحديد الفترة الزمنية المناسبة لفهم إحدى الاستعمالات الخاصة «الآن» أو الخصائص المناسبة لشخص يشار إليه بعبارة «جون»؟ علينا أن نفترض أن المشكل الذي يواجه محلل الخطاب يطابق تماما في هذه الحالة المشكل الذي يعترض السامع. لا بدّ من توفر مبادىء للفهم لدى السامع تمكنه ـ على سبيل المثال ـ من الوصول إلى فهم مناسب ومعقول لعبارة «جون» في حالة استعمالها في مقام خاص. وسنسمي أحد المبادىء التي يمكننا التعرف عليها «مبدأ الفهم المحلي». وفقا لهذا المبدأ فإن المتلقي مدعوّ إلى عدم إنشاء سياق يفوق ما يحتاج إليه للوصول إلى فهم معيّن لقول ما. وهكذا فإذا سمع شخص ما أحدا يأمره «أغلق الباب» فإنه سينظر إلى أقرب باب يحتاج إلى إغلاق. (فإذا كان ذلك الباب مغلقا، فمن المحتمل جدا أن يقول «إنه مغلق» بدلا من البحث عن أبواب أخرى يمكن إغلاقها). وعلى النحو ذاته، فلو أن مضيفه قال له «تعال مبكرا» مباشرة بعد أن دعاه لزيارته الساعة الثامنة، فإنه سيفهم «مبكرا» بالعودة إلى آخر وقت مذكور، بدلا من أي وقت آخر ذكر قبل ذلك.

انظر مرة أخرى المقطع (١٧) الذي نسوقه هنا تحت رقم ٢٧:

[٢٧] كان رجل وامرأة جالسين في غرفة الجلوس + وكانت المرأة تقرأ وهي جالسة بكل سرور. شعر الرجل بالملل فقام إلى النافذة، ونظر إلى الخارج + ثم غيّر ثيابه وذهب إلى النادي + أخذ قدحا وتحدث مع الساقي.

لقد أشرنا في المبحث ٢,٢,٢ إلى تأثير السياق النصّي في تحديد فهمنا لما يلحق. ذلك أن الشكل الأولي للسّياق النصّي يحدّد المجال السياقي الذي سيمكن المتلقي من فهم ما يقال لاحقًا. فهو يفترض أن الكيانات المشار إليها ستبقى ثابتة، وأن الإطار الزماني سيظل قارًا، وأن الإطار المكاني لن يتغيّر، اللهم إلا إذا عبّر المتكلم عن حدوث تغيير في أيّ واحد من هذه الأطر. حينئذ سيوسّع المتلقي دائرة السياق بشكل محدود.

ولا يقتصر المتلقي على افتراض أن الكلام يدور حول «الرجل» نفسه طوال النص، بل إنه يفترض كذلك أن هذا الرجل سيظلّ في المكان نفسه، اللهم إلا إذا أعلن المتكلم أنه قد انتقل إلى مكان آخر. فإذا سمع المتلقي «ثم قام إلى النافذة» فإنه يفترض أنها «النافذة» الموجودة في غرفة الجلوس ذاتها التي ذكرها آنفا، ويفترض أن الرجل «يقوم إلى النافذة» في تلك المناسبة ذاتها بعد دقائق معدودة من المنظر الأصلي «جالسا في غرفة الجلوس». وعندما يعلم السامع أن الرجل «ذهب إلى أحد النوادي» فإنه يفترض أن هذا «النادي» يقع في المدينة نفسها، بحيث لم يأخذ الرجل الطائرة ليطير إلى لاس فيجاس مثلا. ومرة أخرى فإن توسيعا طفيفا في الإطار الزماني المكاني سيشير إلى أن الرجل «قد تناول قدحا» و«تحدث مع الساقي» داخل النادي ذاته في تلك المناسبة ذاتها وفي فترة زمنية محدودة، نفترض أنها ساعة بدلاً من أن تكون سنة.

إن هذا المبدأ الذي يطلب من المتلقي ألا ينشيء سياقاً أكبر مما هو ضروري لضمان الفهم الصحيح للخطاب، هو الذي يفسّر كيفية فهمنا لمثال ساكس (١٩٧٢م) المشهور:

[٢٨] بكى الرضيع فالتقطته الأم

فقد يكون من الممكن بطبيعة الحال أن نتخيل أن أولى هاتين الجملتين تصف حدثًا معينًا، بينما تصف الجملة الثانية حدثا آخر لا علاقة له بالأول (بحيث يمكن أن يكون الشخص المشار إليه باسم «الأم» قد التقط كرسيا أثناء تنظيف الغرفة). ومع ذلك فإن مبدأ الفهم المحلي سيرشدنا إلى إنشاء سياق محدود تكون فيه «الأم» هي أم الرضيع المذكور والضمير «هـ» يعود على الرضيع السابق الذكر. بالإضافة إلى ذلك فإننا سنفهم تسلسل الأحداث على أنها متقاربة زمانيا ومكانيا. فلن يخطر ببال القارىء مثلا أن الرضيع يمكن أن يكون قد بكى منذ عام في سنغافورة، ثم التقطته أمه بعد عام في عدن. قد يكون من الممكن - بطبيعة الحال - تصور مقام لا يستغرب فيه حدوث مثل هذا التسلسل للأحداث. ولكن القارىء في غياب مثل هذا المقام المتصور سيتبنى فهمًا محليًا لمؤشرات الزمان والمكان والأطراف المشاركة.

من الواضح بلا ريب أننا لا يمكن أن نتصور مبدأ «الفهم المحلّي» إلا بشيء من الغموض. ذلك أنه يبدو من غير المحتمل أن القارىء يفترض في فهمه لـ[٢٨] معرفة

دقيقة للمسافة التي تفصل الأم عن الرضيع، في اللحظة التي تسبق مباشرة التقاط الأم للرضيع، وليس من المحتمل أيضا أن يشغل القارىء نفسه بالتفكير فيما إذا كانت الأم قد التقطت الرضيع بعد انتهائه من البكاء (وفي هذه الحالة، كم من دقيقة أو ثانية مرت بعد انتهائه من البكاء حتى التقطته الأم أو أثناء بكائه، أي أن الطفل كان لا يزال يبكي عندما التقطته الأم). وعلى النحو ذاته، يبدو من غير المحتمل أن يهتم القارىء بتكوين تصوّر فوتوغرافي ذي ثلاثة أبعاد «للرضيع» الذي بكى في الجملة الأولى، وتم التقاطه في الجملة الثانية. فالاحتمال كبير في أن ترتبط «عملية الفهم المحلي» بخطة مغايرة تطلب من المتلقي/ القارىء أن يقلل من عمليات التحليل قدر الإمكان، وأن يقتصر على تكوين تصور على درجة كافية من التخصيص، يسمح له بفهم يتناسب مع ما يرى المتلقي أنه غرض القول. كل ما قلناه في هذا المبحث يعتمد إلى حدّ الآن وبشكل كبير على قدرة السامع/ القارىء على استعمال معرفته بالعالم وتجربته لأحداث مماثلة لكي يفهم اللغة التي يتعامل معها. إن تجربته مع أحداث مماثلة هي التي تمكنه من الحكم على المقصد الذي يمكن أن يهدف إليه الكلام. كما أن معرفته للعالم هي التي تحدد فهمه المحلي. لننظر مرة أخرى في المثال [٢٧] الذي نسوقه هنا تحت رقم٢٩:

[٢٩] كان رجل وامرأة جالسين في غرفة الجلوس + وكانت المرأة تقرأ وهي جالسة بكل سرور. شعر الرجل بالملل فقام إلى النافذة ونظر إلى الخارج + ثم غيّر ثيابه وخرج من البيت.

لقد اقترحنا أننا سنفهم «قام إلى النافذة» بمعنى ينتقل إلى النافذة التي في «غرفة الجلوس»، في حين أن «يذهب إلى أحد النوادي» تعني «يذهب إلى ناد يقع في نفس المدينة» أي أن النادي لا يوجد في «غرفة الجلوس» ولا حتى «في البيت». إن معرفتنا للعالم تعلمنا أن البيت الذي يحتوي على غرف جلوس لا يحتوي عادة على حانات. ولا يمكن بكل بساطة فهم «خرج» بمعنى «خرج من الغرفة» بل لا بدّ أن نفهمها بمعنى «خرج من البيت». (سنعود في الفصل السابع إلى دراسة «معرفتنا للعالم»).

علينا أن نفترض أن تجربة الإنسان مع أحداث سابقة مشابهة ستزوّده بتوقعات وافتراضات عن خصائص السياق التي يحتمل أن تكون مناسبة. في سياق تعليقه على

أهمية ربط تجربة معينة بتجارب أخرى مشابهة يقول بارتلت، أحد مؤسسي علم النفس المعاصر:

«يحق لنا أن نقول إن كل العمليات المعرفية التي تمّ النظر فيها والتي تتراوح بين الإدراك والتفكير ليست إلا سبلا تمكن «جهدنا في تقصّي المعنى» من التعبير عن نفسه. ولو صغنا هذا الأمر بقدر كبير من التعميم، لقلنا إن هذا الجهد هو ببساطة محاولة **لربط شيء معطى بشيء آخر مخالف له**. (١٩٣٢م ص ٢٢٧) [التركيز للمؤلفين].

فهو يقترح هنا أن الشخص يعمم انطلاقًا من تجارب خاصة يستخلص منها أنماطا من التجربة. وبطبيعة الحال، فإن هذا المفهوم موجود ضمنيا في تكوين مجموعات الخصائص السياقية التي كنا بصدد دراستها في هذا الفصل. ولكي نكوّن مفهوما محددا «للمتكلم في سياق معيّن» فمن الضروري أن نعمم على سياقات عديدة ونحدد ما هي الخصائص المشتركة التي تميز المتكلمين في سياقات مختلفة. كذلك، ولكي نبني مفهوما محددا «لأنماط» النصوص، لا بدّ من التعميم انطلاقا من تجاربنا، وتحديد ما هو مشترك في الحكايات الشعبية أو المحادثات العفوية أو نشرات الأخبار أو الملحمات الشعرية أو المناظرات أو الأعمال اليومية للباعة، بحيث نتمكن من التعرف على أي واحد منها على أنه نموذج دال على النمط المعمّم.

انطلاقًا من تجاربنا إذن نتعرف على أنماط من الأحداث التواصلية نتعامل معها على ضوء كتلة من التوقعات الأوعية والمبنية كذلك على تجاربنا السابقة، والتي يمكن تلخيصها متبنّين في ذلك طرح فان دايك (١٩٧٧م ص ٩٩) على أنها «التسليم بكون العالم عاديا».

فنحن نفترض أن عضلاتنا ستظلّ تتحرك بشكل طبيعي، وأن الأبواب القابلة للفتح عادة ستبقى قابلة للفتح، وأن الشعر ينمو على الرأس، وأن الكلاب تنبح، وأن المدن تحافظ على مواقعها الجغرافية، وأن الشمس ستشرق كالعادة... إلخ. ومن المفيد في هذا المضمار أن نلاحظ القيود الصارمة على مبدعي الأدب السريالي وأدب الخيال العلمي. فبإمكان «أليس» مثلا الدخول في عالم المرآة حيث تحدث عجائب غير متوقعة، ولكنها مع ذلك تتصف بصفات الإنسان: فقد يأخذها السير بعيدا في

اتجاه غير متوقع، لكن عملية السير كما نعرفه ماديا تظل أمرا مسلما به. أما إذا خرق الكاتب عددا من التوقعات يفوق الحدّ المعقول، فيمكن أن يشك شاك في قدراته العقلية، ويرى أنه غير قادر على رؤية العالم من منظور طبيعي.

وهكذا فالتوقعات من جهة تجعل عملية الفهم ممكنة، وهي من جهة أخرى تشكل امتدادا أو مزيدا من التأكيد على صلاحية ذلك الفهم. وتجد هذه النقطة تعبيرا مقنعا لدى بوبر إذ يقول:

لقد خلقنا ونحن نحمل توقعات: نحمل «معرفة» وإن كانت **لا تملك صلاحية مسبقة إلا أنها معرفة سابقة نفسيا أو وراثيا**، بمعنى أنها سابقة لكل التجارب القائمة على الملاحظة. ومن أهم هذه التوقعات توقع الحصول على الانتظام. وهو توقع يرتبط بنزعة فطرية للبحث عن أوجه التشابه، أو بحاجة للحصول على أوجه الإطّراد. (١٩٦٣م ص ٤٧) [التركيز في النص الأصلي]

بالإضافة إلى ذلك، وكما أشار لويس (١٩٦٩م ص ٣٨) «من حسن حظنا أننا تعلمنا أننا جميعا نلاحظ في الغالب أوجه القياس». فنحن لسنا فقط مجبولين على البحث عن أوجه التشابه بل إننا ننزع كذلك إلى إدراك أوجه التشابه نفسها. من الواضح أنه كلما كانت المجموعة صغيرة زاد عدد مفاهيم التشابه المشتركة بما أن السياقات التي يشترك فيها أفراد تلك المجموعة تكون شديدة التشابه.

بمجرد أن يبدأ الإنسان في التعرف على أوجه التشابه والتعميم انطلاقا من تجاربه، فإنه يصبح بإمكانه أن يتعرف ليس فقط على تجربة خاصة بكونها تنتمي إلى نمط معين كالتوبيخ أو المقابلة مثلا، بل يصبح كذلك قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يحدث، وما هي الخصائص السياقية التي يحتمل أن تكون مناسبة في دائرة نمط معين من الأحداث التواصلية. ويترتب على هذا أن السامع في مقام كلامي معين ليس في وضع يتيح له الاهتمام بكل خصائص السياق (فذلك أمر مستحيل من حيث المبدأ). بل إنه سيركّز اهتمامه فقط على تلك الخصائص التي كانت في وقت مضى ضرورية ومهمة في مقامات مشابهة. ويقترح بارتلات أن لدى الإنسان «نزعة تجعله يقتصر بكل بساطة على أخذ انطباع عام عن الوضع ككلّ، وانطلاقا من هذا الانطباع يبني التفاصيل المحتملة» (١٩٣٢م ص ٢٠٦).

إننا ننتبه إلى تلك الخصائص البارزة التي تميز نمط الكلام ونتوقع أن تكون الخصائص الهامشية كما كانت عليه في السابق. ومن الجلي أن تطرأ أنماط من المناسبات ليست لها سابقة في تجاربنا الماضية. ولدينا قوالب ثقافية جاهزة تفيد أن مثل هذه المناسبات تسبب صعوبة بل حتى إحراجا لنا لعدم علمنا بردود الفعل المناسبة، وهكذا فإذا سمعت للمرة الأولى نوعا خاصا من النكت فقد تقف حائرا لا تعرف نمط ردّ الفعل المناسب. لكنك إذا أعدت الكرّة فستكون أكثر ثقة بما هو متوقع. (وقد قدّم تلستوي من روايته «الحرب والسلم» وصفا عبقريا لحالة القلق التي تسببها المناسبة الأولى التي يتعرض فيها شخص ما لنمط جديد من التجارب، وذلك في سياق وصفه لدخول بطرس عضوية محفل ماسوني).

إن معايشتنا لمواقف تواصلية معينة تعلمنا ماذا يمكن أن نتوقع من ذلك الموقف سواء كان ذلك بمعنى التنبؤ العام (كنوعية المواقف المحتمل التعبير عنها ونوعية المواضيع المحتمل إثارتها على سبيل المثال) وهو ما يولّد لدينا مفاهيم «التناسب» أو كان ذلك بمعنى التنبؤ المحدود وهو الذي يمكننا من فهم علامات لغوية (مثل الأدوات الإشارية هنا والآن) بنفس الطريقة التي فهمناها بها في سياقات مماثلة. علينا أن نفترض أن اكتساب الطفل الصغير للغة يتم في سياق اتساع تجاربه واتساع التأويلات الممكنة لأدوات مثل هنا والآن في مواقف مختلفة، وهي مواقف يتمّ التعرف عليها وتخزينها كأنماط.

وعلى ضوء هذه الكتلة من التوقعات التي تنبع من تجاربنا وتشكلها، يصبح من الممكن التعرف على الجوانب المناسبة لخصائص الموقف بالاعتماد على قواعد متعارف عليها للتوقعات في صلب نمط معين. فكلما كان النمط أكثر تحديدا وارتباطا بطقوس معينة زادت قدرتنا على التعرف على القواعد المتعارف عليها. هكذا يبدو من المحتمل أن تكون أسئلة الامتحانات في الهندسة الكيميائية على مستوى التخرج على قدر من التشابه في الشكل والمضمون، وأن تشترك في فرضياتها المسبقة، في مختلف المؤسسات في شتى أنحاء العالم. ولكن كلما ضعف تحديد النمط ـ كما هو الحال على سبيل المثال في المحادثات التي تهدف أساسا إلى مجرّد الاتصال لا غير ـ قلّ احتمال

قدرتنا على التنبؤ بثقة بالقواعد التي يمكن تعميمها حتى على تجربة السكان الإنجليز(٥). إن هذا الموقف لا يشكل صعوبة للمشارك في علاقة المحادثة، إذ بإمكانه الاعتماد على كم هائل من التجارب الخاصة والمحلية المتوافرة.

ولكن الوضع مختلف تماما بالنسبة لمحلل الخطاب. فكلما كانت المناسبة شخصية ـ وخاصة للأطراف المشاركة فيها، كان المحلل بالضرورة محدودا في تأويله. فلو وجد المحلل نفسه مثلا أمام بيانات مثل التي سنراها (وهي مقطع من مذكرة خاصة لا تهدف إلا إلى تذكير كاتبتها المسنّة بكيفية قضائها أحد الأيام في يناير ١٩٨٢م) فلن يكون بإمكانه التعمق كثيرا في تحليله:

[٣٠] اضفت المزيد إلى رسالة إيفي. كلمتني آي آي في الرابعة وقالت إنها عادت في الثاني من الشهر، وانها قد قضت أياما ممتعة مع جواندا وبقية أفراد العائلة. وبما أن الجو كان مناسبا في المساء، ذهبت إلى إيفنسونج (القس كارليل) وعادت مترجلة مع السيدة نيكولز (٨٥ عاما) وابنتها. اتصلت شقيقتي دوريس عليّ الساعة الثامنة والربع وقالت إنها ستمرّ غدا! ذ هبت إلى الفراش الساعة الحادية عشرة والربع.

بطبيعة الحال لو تعرض محلل الخطاب إلى كمّ هائل من مثل هذه البيانات لأصبح أكثر قدرة على وصفها وفهمها. ولكنه هو نفسه مقيّد في فهمه بتجاربه السابقة المماثلة، أي أنه مقيّد بسعيه إلى الفهم على ضوء ما يمكن تسميته بمبدإ القياس Principle of analogy.

ويوفر مبدأ القياس للسامع والمحلّل ـ في أغلب الأحيان ـ إطارا مضمونا إلى حد ما لعملية الفهم. فالأمور في الغالب تسير حسب توقعاتنا. ولكن يحدث أن تخرق القوانين المتعارف عليها، ويدخل خلل على توقعاتنا سواء كان ذلك بصفة مقصودة

---

(٥) من الظواهر الشائعة في المجتمع الإنجليزي – مثلاً – تلك المحادثات البسيطة التي تدور حول أحوال الطقس أو الحرارة أو البرد أو ما إلى ذلك، والتي لا تهدف إلا إلى كسر الحواجز بين الأغراب والدخول معهم في حوار، حتى ولو كان الموضوع من البدهيات أو من تحصيل الحاصل.

للحصول على وقع أسلوبي معين أو عن طريق الخطأ أو السهو. لاحظ أن المتكلم/ الكاتب لا يتعمد خرق قانون متعارف عليه أو التلاعب بتوقعاتنا للحصول على وقع أسلوبي معين إلا لأن هذه القوانين المتعارف عليها وهذه التوقعات موجودة أصلا. فالقصيدة التالية لا تعطي أثرها، وهو أخرق نمط القصائد الفكاهية، ذات الأبيات الخمسة (الليميرك)، إلا لوجود بنية متعارف عليها لهذه القصائد الفكاهية لها إيقاع مميز وهو اشتراك الأبيات الأول والثاني والخامس في قافية معيّنة والبيتين الثالث والرابع في قافية أخرى (أ أ ب ب أ)

[٣١] كان في قرية النحل طفلة صغيرة
احمرّ أنفها بلسعة زنبور
ولما سئلت: هل تحسين بألم؟
اجابت: أجل أحسّ بألم
لكن وافرحتاه فهو لم يكن دبّورا.

يمثل مبدأ القياس إحدى الأدوات الأساسية التي تمكن السامعين والمحللين من تحديد فهمهم داخل السياق. فهم يفترضون أن كل شيء سيبقى على ما كان عليه ماداموا لم يعطوا إشعارا خاصا بتغيير إحدى الخصائص. فها هو داهل (١٩٧٦م ص ٤٦) يصوغ مبدأ للمتكلمين بقوله: «لا تذكر إلا الأشياء التي تغيرت وغضّ الطرف عن الأشياء التي بقيت على ما هي عليه». فتكرار المعلومات المشتركة المعروفة، «الأشياء التي بقيت على ما هي عليه»، يخرق مبدأ الكمّ لدى غرايس. ولكن المتكلمين بطبيعة الحال يعمدون إلى تذكير بعضهم بعضًا بمعلومات مشتركة بينهم وذلك لاستعمال تلك المعلومات كجزء من سياق الخطاب الذي تم تنشيطه، كما أشار إلى ذلك ماكولي (١٩٧٩م).

يتم فهم الخطاب على ضوء التجارب السابقة مع خطابات مماثلة قياسًا مع نصوص سابقة مماثلة. (تذكر كيف احتجنا إلى معرفة نصوص سابقة مماثلة في فهمنا للمثال (١٤ جـ) في الفصل الثاني: الحشرات المرفوسة لا تعض. الحكم للعقل الجنوني). إن انتقاء الجوانب المناسبة من تجاربنا السابقة وإشفاعها بالاعتماد على مبدأ

القياس من شأنه أن يجبر السامعين/ القراء على محاولة فهم الأقوال المتتالية على أنها ترتبط بالموضوع نفسه. فعندما يضع كاتب ما جملتين معا في علاقة تجاور دون اعتبارهما نصّا مترابطا فعليه أن يشير دون لبس إلى عدم ارتباطهما. ففي أحد كتب اللسانيات تم تقديم الجملتين التاليتين على أنهما مثالان مستقلان تمّ الاستشهاد بهما للدلالة على غموض البنية:

[٣٢] ١- غادرت العروس وعريسها المكان ليلة أمس مبكرا
٢- لقي الفتاة مبتسما

(براون وميلر ١٩٨٠م ص......)

ففي سياق كتاب في اللسانيات، يتعلق خاصة بالتركيب، لا يتوقع منا بالضرورة أن نفهم جملتين متتاليتين سيقتا كمثالين على أنهما تصفان أحداثًا متسلسلة. ولكن «السعي الطبيعي للبحث عن المعنى» في أغلب السياقات سيجبر السامع/ القارىء على محاولة وجود رباط معنوي بين المقاطع اللغوية التي يجدها متقاربة مكانيا على صفحة واحدة أو حجر واحد أو جدار واحد، وكلما أمكن ذلك على فهم اللغة من حيث مناسبتها للسياق المادي. وتقودنا هذه النقطة الأخيرة إلى مفهوم مهم لكنه كثيرا ما يساء فهمه في تحليل الخطاب. فالمبدأ الذي يقضي «بحاجتنا إلى البحث عن نقاط التشابه» والذي يتحدث عنه بوبر، إضافة إلى حديث بارتلت عن «السعي بحثا عن المعنى»، هذان المبدآن يوجدان توقعا قويًا لدى الناس بأن ما يقال أو يكتب له معنى في إطار السياق الذي يظهر فيه. فحتى في أسوأ الظروف فإن ردّ الفعل الطبيعي للإنسان يبدو في سعيه لإضفاء معنى على كل علامة تشبه اللغة أو تشبه أيّ محاولة من محاولات الاتصال. إن رد فعل الرجل الذي يجد علامات تبدو منقوشة على صخرة في الصحراء هو أن يحاول فك رموزها للوصول إلى معناها. كما إن ردّ فعل الآباء لأطفالهم الصغار وردّ فعل الأصدقاء تجاه ملفوظ أصدقائهم المصابين بمرض شديد هو إضفاء معنى على كل همسة يمكن فهمها على أنها ترتبط بالموقف، ومتى أمكن ذلك محاولة فهم ما يبدو قولا على أنه يشكل رسالة مفيدة تسمح للسامع بإنشاء فهم مترابط في ذهنه. إن المجهود الطبيعي للسامعين والقراء على حد السواء هو سعيهم إلى إضفاء

نوع من المناسبة والترابط المعنوي على النص الذي يواجهونه، إلى أن يأتي ما يخالف ذلك فيجبرهم على التخلي عن هذا الجهد.

إن التوقع الطبيعي في تكوين الخطاب وفهمه هو كما يقترح غرايس وجود مبدأ التناسب، أي أن يظل المتكلم يتحدث عن نفس المكان والزمان ونفس الأطراف المشاركين ونفس الموضوع مادام لم يعلن بما لا يدع مجالا للشكّ عن حدوث تغيير في السياق، ولم يشر إلى ما إذا كان هذا السياق الجديد مناسبًا أو غير مناسب لما كان يتحدث عنه سابقا. كما أن التوقع الطبيعي هو أن يكون الخطاب متماسكا معنويا. ولقد تفاعل بعض الدارسين مع مسألة «التماسك المعنوي» بالبحث عن المؤشرات الدالة عليه داخل النص، وهذا إجراء يمكن بالفعل أن يؤدي إلى عرض وصفي لخصائص بعض أنماط النصوص. ولكنه يتجاهل في الواقع حقيقة كون الناس في غنى عن وجود أدوات ربط داخل النص حتى يكونوا على استعداد لفهم ذلك النص. فهم بفطرتهم يفترضون وجود تماسك معنوي، وبالتالي يفهمون النص بناء على هذه الفرضية. أي أنهم يفترضون أن مبدأي القياس والفهم المحلي يحدّان من تجاربهم. فبين الجملتين الواردتين تحت (٣٣) هناك عدد كبير من مؤشرات الترابط المعنوي يضاهي عدد المؤشرات في (٣٤) (علما بأننا سندرس بإسهاب مفهوم «التماسك المعنوي» في الفصل السادس):

[٣٣] ١ – غادرت العروس وعريسها المكان ليلة أمس مبكرًا.
٢ – لقي الفتاة مبتسمًا.

[٣٤] بكى الرضيع
فأخذته الأم.

إن التماسك المعنوي لا يكمن في تتالي الجمل. بل واقع الأمر هو أن القارىء يحكمه مبدأ القياس والفهم المحلي هو الذي يفترض أن المثال الثاني (المثال ٣٤) يصف سلسلة من الأحداث المترابطة، وهو بالتالي يفهم المؤشرات اللغوية (الرضيع) بناء على هذه الفرضية. أما في المثال الأول (٣٣) فإن فهم الجملتين في السياق الذي جاءتا

فيه يجعل القارىء لا يفترض أنهما تصفان سلسلة أحداث مترابطة، وبالتالي فهو لن يفهم المؤشرات اللغوية الكامنة (العريس . . . هو) على أنها تعود على الشخص ذاته.
إن مبدأي القياس (أي أن تكون الأشياء عادة كما كانت في السابق) والفهم المحلي (أي أنه إذا طرأ أيّ تغيير فالمفترض أنه يكون غير جذري) هما اللذان يكوّنان أساس فرضية التماسك المعنوي في تجربتنا الحياتية عمومًا، وبالتالي في تجربتنا مع الخطاب كذلك.

الموضوع وإشكالية تمثيل مضمون الخطاب

سنعالج في هذا الفصل بعض المعاني التي استعمل بها المصطلح «موضوع» في مجال دراسة الخطاب. وسنتطرق في أثناء ذلك إلى بعض المحاولات المتأخرة لبناء مفهوم نظري لـ«الموضوع»، وهو مفهوم يبدو جوهريًا بالنسبة لمفاهيم أخرى مثل «التناسب» و «التماسك المعنوي»، لكنه يظل في ذاته صعب التحديد جدا. وسنقترح أن المحاولات الشكلية التي ظهرت لتحديد المواضيع محكومة بالفشل، وأن باستطاعة محلّل الخطاب في المقابل أن يستفيد من مفاهيم من قبيل «الكلام في موضوع» و«موضوع المتكلم» ضمن ما يعرف بـ«إطار الموضوع». كما سنعالج باختصار كيفية اكتشاف مؤشرات «التحوّل الموضوعي» في الخطابين المكتوب والمحكي. وسنركز بصفة خاصة على مبدأ أن الموضوعات موجودة لدى المتكلمين والكتاب، لا في النصوص. وسنبيّن بعد ذلك كيف أن مفهوم «الموضوع» له صلة بالأشكال التي يتم بها تمثيلنا لمضمون الخطاب. وبما أن كثيرا من الأشكال المقترحة تعتمد على تنظيم سلّمي لمضمون الخطاب، فسنتعرض بالنقد إلى إمكان تحديد «الموضوع» بناء على العناصر العليا الواردة ضمن ذلك التمثيل السلّمي.

٣,١ مقاطع الخطاب ومفهوم «الموضوع»

لقد أشرنا من قبل إلى أن الأمثلة المستعملة في تحليل الخطاب تعكس بالضرورة اهتمامات المحلل الخاصة. وإضافة إلى ذلك، فإن المثال الواحد الذي يقع اختياره للدراسة لا يمكن تحليله إلا جزئيا. فلو تصدّى لهذه الدراسة باحث يهتم أساسا بقضايا

التنغيم، مثلا، فلا بد أن تستجيب الأمثلة المنتقاة لشروط محددة، إذ يجب أن تكون محكيّة، ومسموعة، واعتمادا على المستوى الذي تجري عليه الدراسة، على درجة من الوضوح تسمح بإجراء تحليل مخبري، كما يجب أن تكون مصحوبة بمعلومات إضافية عن سنّ المتكلم وجنسه وخلفيته اللغوية. أما في الواقع، فإن أي دراسة معيّنة ستتطلب شروطا أكثر صرامة فيما يخص الأمثلة من تلك التي أوردناها في هذه القائمة التي يغلب عليها العموم. وبعد اختيار الأمثلة، يقوم الباحث بدراسة خصائص من قبيل الطبقة الصوتية والإيقاع وجهارة المقاطع اللفظية في الأمثلة، بينما لا يلتفت إلا بقدر يسير، أو ربما لا يلتفت تماما إلى المفردات أو الخصائص الصرفية. وفي حالاته القصوى، قد يؤدي هذا التضييق للدراسة من حيث اختيار الأمثلة وطبيعة التحليل الجاري عليها إلى ظهور نص مصنوع يقرأه بعناية وبصوت مرتفع متكلم باللهجة الإنجليزية النموذجية المتكلمة في جنوب بريطانيا [١]. ويمكن بعد ذلك أن تستعمل نتائج الدراسة لإطلاق أطروحات «تقوم على التجربة» بشأن خصائص التنغيم في اللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من أن هذا مثال من الأمثلة القصوى، فإنه صالح للتدليل على الطابع الانتقائي الذي يميز البحث اللغوي عموما والذي نجده كذلك حاضرا إلى حد ما في أغلب نماذج تحليل الخطاب.

إن الأمثلة المدروسة ضمن تحليل الخطاب لا تشكّل أبدا سوى مقطع يسير من الخطاب. وعلى محلل الخطاب دوما أن يقرر أين يبدأ المقطع وأين ينتهي. لكن كيف يحدد المحلّل ما يمثل وحدة مناسبة للتحليل؟ هناك بالفعل طرق للتعرف على حدود المقاطع الخطابية التي تميّز مقطعا من الخطاب عن المقاطع الأخرى. فيمكن مثلا أن تستعمل قوالب جاهزة من قبيل «كان يا ما كان في قديم الزمان... وعاشوا بقية حياتهم في سعادة وهناء» صراحة لإبراز حدود مقطع من المقاطع. ومن المؤشرات الأخرى المعروفة عبارات من قبيل: «هل سمعت بكذا...؟»، «أما أخبرتك بما حدث لي في

(١) يمكننا أن نذكر مثالا مقابلا لهذا في اللغة العربية، كأن يكون المتكلم من الخطباء المعروفين بالفصاحة ووضوح النطق وإقامة قواعد اللغة العربية.

الأسبوع الماضي؟» وغيرها من الصيغ المختلفة التي يمكن استعمالها لتحديد بداية نكتة أو واقعة. ومن شأن هذه المؤشرات أن تساعد المحلل على تقرير بداية مقطع متجانس من الخطاب. إلا أن المتكلمين لا يقدمون في الغالب مثل هذه الإرشادات الصريحة التي تعين المحلّل على اختيار المقاطع الصالحة لدراسته.

ولتجزئة تسجيل مطوّل لمحادثة ما إلى مقاطع يمكن تحليلها بالتفصيل يجد المحلل نفسه في الغالب مضطرا إلى الاعتماد على مفاهيم حدسية لتحديد نهاية جزء معين من المحادثة وبداية آخر. هناك بطبيعة الحال نقاط يتوقف عندها متكلم ما ليبدأ متكلم آخر، لكنّ ذلك لا يعني أن كل تغيير في أطراف المحادثة يؤدي بالضرورة إلى انتهاء مقطع معين متجانس من المحادثة. فما هي إذن من بين هذه التحولات العديدة في أطراف الحديث تلك النقطة التي يمكن اعتبارها نهاية مقطع من المحادثة؟ مثل هذا النوع من القرارات هو ما يتخذ عادة بالرجوع إلى مفهومنا الحدسي للموضوع. كأن يتوقف أطراف المحادثة عن الحديث عن «المال» لينتقلوا إلى الحديث عن «الجنس».

وهكذا يمكن اعتبار مقطع من المحادثة وحدة من نوع ما لأنه يتناول «موضوعا» معينا. يتضح إذن أن مفهوم «الموضوع» هو طريقة يستسيغها حدسنا اللغوي، وتمكننا من وصف ذلك المبدأ الجامع الذي يجعل من مقطع خطابي ما حديثا «عن» شيء ما ومن المقطع الموالي حديثا «عن» شيء آخر، ذلك أننا نجد اعتمادا مستمرا على هذا المفهوم في ما ظهر من الدراسات في مجال تحليل الخطاب.

ومع ذلك، فالقاعدة المتّبعة في تحديد «الموضوع» قلّما تأتي صريحة بل الواقع أن كلمة «موضوع» هي أكثر المصطلحات استعمالا في مجال تحليل الخطاب وأقلّها وضوحا.

٣,٢ موضوع الجمل

يرتبط أحد استعمالات مصطلح «الموضوع» بالحديث عن بنية الجملة. ففي رأي هوكيت، يمكن التمييز بين «الموضوع» و«المحمول» في جملة ما من حيث إن «المتكلم يعلن أولا عن موضوع ثم يخبرنا بشيء ما عن ذلك الموضوع... ففي الإنجليزية

وغيرها من اللغات الأوروبية المعروفة تكون المواضيع عادة مسندا إليها، وتكون المحمولات مسندا» (١٩٥٨م ص ٢٠١).

ويتضح من أمثلة هوكيت التي نسوق منها المثالين (١) و (٢) أن «موضوع الجملة» هذا قد يتفق مع وظيفة الفاعل النحوي، كما في المثال (١)، وقد لا يتفق معها بالضرورة، كما في (٢):

[١] **فرّ / جون**
[٢] **أما عن كتاب توماس جيرنزي الجديد / فإني لم أقرأه بعد.**

كما تظهر معاملة «الموضوع» بوصفه مصطلحا نحويا يستعمل لتحديد إحدى مكونات بنية الجملة (أو على الأقل في تحليل البنية العميقة) في أعمال نحاة، مثل داهل (١٩٦٩م) وسغال وزملائه (١٩٧٣م). وقد يفسر نحاة المدرسة التحويلية التوليدية بنية المثال (٢) بوجود تحويل تحريكي أو تبديلي يسمّى بـ«الموضعة» أو «التقديم الموضوعي». فمصطلح «الموضوع» إذن، كما نجده مستعملا في الحديث عن بنية الجملة هو أساسا مصطلح يحدّد مكونا معينا من مكوّنات الجملة. وقد استعمله جرايمز (١٩٧٥م ص ٣٣٧) مثلا بهذا المعنى في دراسته الخطاب للحديث عن الوسائل المختلفة المتبعة في لغات عدة للإشارة إلى «مكوّن الموضوع» داخل الجمل. كما استعمله جيفون (١٩٧٩م - أ) كذلك للبرهنة على أن وظائف الفاعل في الجمل مستمدة أثناء تطور اللغة من «موضوعات اكتسبت صبغة نحوية». إلا أننا لن نهتم الآن ببنية الوحدات اللغوية الشبيهة بالجملة البسيطة (انظر الفصل الخامس). كما أننا لن نعتبر «الموضوع» مكونا نحويا بأي شكل من الأشكال. فنحن معنيون أساسا بالمفهوم العام غير المنظّر «للموضوع» بوصفه «ما يتم التعبير عنه» أثناء المحادثة. ويستبعد أن يعرّف مثل هذا الضرب من «الموضوعات» على أنه جزء من أجزاء الجملة. ولهذا فنحن نتفق مع مورجان على «أن المواضيع لا توجد في الجمل بل لدى المتكلمين» (مورجان، ١٩٧٥م ص ٤٣٤).

٣,٣ موضوع الخطاب

في محاولة منهما للتمييز بين مفهوميهما عن «الموضوع» ومفهوم «موضوع الجملة» لدى النحاة، استعمل كل من كينن وشيفلن (١٩٧٦م) مصطلح «موضوع الخطاب». وانصب اهتمامهما بصفة خاصة على تجنب أن يعامل «الموضوع» في دراسة الخطاب وكأنه قابل بصفة أو بأخرى لأن يعبّر عنه بمركّب اسمي بسيط، كما يحصل غالبا أثناء دراسة موضوعات الجمل. (ويقترح لاينز، ١٩٧٧م ص ٥٠٢، بعض الأسباب الوجوديّة التي تبرر مثل هذا النوع من المعالجة). والذي يسعى كينن وشيفلن (١٩٧٦م ص ٣٨٠) إلى تأكيده هو أن «موضوع الخطاب ليس مجرّد مركب اسمي بسيط وإنما هو قضية (تصدر بشأنها أو توضّح دعوى معيّنة)». قد يعود الأمر إلى كون دراستهما تهتم أساسا بلغة الأطفال، إلا أنه يبدو أن كينن وشيفلن وهما يصفان موضوع الخطاب بأنه «القضية التي تحظى بالاهتمام المباشر» قد استبدلا فكرة المركب الاسميّ الصحيح بوصفه يعبر عن الموضوع بفكرة التعبير الصحيح أو الجملة. وما يترتّب على ذلك في دراستهما هو أنه لا بدّ أن توجد - لأيّ مقطع من مقاطع الخطاب - قضية واحدة (تأتي في شكل تعبير أو جملة) تمثل موضوع الخطاب بالنسبة لكامل المقطع. من المؤكد أن مثل هذه النظرة بالغة التبسيط، كما نأمل أن نبيّن ذلك بالنظر في بعض الأعمال التجريبية التي عومل فيها «الموضوع» على أنه نظير للعنوان. (سننظر في مدى إمكانية تمثيل «موضوع الخطاب» على أنه قضية في الفقرة ٣,٧ عندما نتطرّق إلى التحليل الذي يقوم على اعتبار الخطاب محورًا لقضية).

ضمن سلسلة من التجارب أوردها برانسفورد وجونسون (١٩٧٣م) عرضت نصوص مصنوعة على بعض الأفراد لقراءتها، وفهمها، وبعد ذلك لاستذكارها.

وكان الغرض من تلك التجارب البرهنة على أن فهم النصوص الإنجليزية لا يتوقف على معرفة اللغة فحسب، بل أيضا على معارف غير لغوية تتصل خاصة بالسياقات التي تقع فيها النصوص. فهناك نصوص مثلا يعتمد فهمها - فيما يبدو - على مواد مرئية مصاحبة، وهناك نصوص أخرى، كنصّ المثال (٣) الوارد فيما يلي، تحتاج إلى ذكر «الموضوع».

[٣] الطريقة في الواقع بسيطة جدًا. إذ يجب أولًا أن ترتب الأشياء إلى مجموعات مختلفة. قد تكون كتابة واحدة بطبيعة الحال كافية وذلك اعتمادا على حجم ما عليك القيام به. وإذا كان عليك أن تذهب إلى مكان ما بسبب النقص في التسهيلات فتلك هي الخطوة التالية، وإلا فستبق مستقرًا في أحسن حال. ومن المهمّ ألاّ تكثر من الأشياء التي تقوم بها. أي أنه من الأفضل أن تقوم بأشياء قليلة جدًا في آن واحد من أن تقوم بأشياء كثيرة جدا. قد يبدو هذا غير ذي أهمية على المدى القصير، لكن من الممكن بسهولة أن تحصل تعقيدات. كما أن حصول خطأ ما قد يكون مكلفًا. سوف تبدو لك الطريقة بكاملها معقدة في البداية، لكنها سرعان ما ستصبح مجرد وجه آخر من وجوه الحياة. ومن الصعب أن تعرف مسبقا ما ستنتهي إليه هذه المهمة الضرورية في المستقبل القريب، لكن أحدا لا يستطيع أبدا أن يدري، والحال هذه. وبعد الانتهاء من كامل العملية، يجب إعادة ترتيب الأشياء إلى مجموعات مختلفة من جديد. وبالإمكان بعد ذلك وضعها في أماكنها المناسبة. وربّما يتمّ استعمالها مرّة أخرى، ولا بدّ في هذه الحالة إعادة الدورة بكاملها. غير أن تلك جزء من الحياة.

(عن براسفورد وجونسون، ١٩٧٣م ص ٤٠٠)

لقد أُلّف هذا النص لغرض محدّد، لذلك فإنه إلى حدّ ما غير عاديّ من حيث قلّة المفردات التي يمكن أن تساعد على معرفة ما «يدور حوله» النص. وكما يمكن توقعه، بيّنت التجارب أن فهم هذا النص واستذكاره كانا أفضل بكثير عندما أعلم الذين أجريت عليهم تلك التجارب بما سمّاه برانسفورد وجونسون «موضوع المقطع». وموضوع هذا المقطع حول «غسل الثياب». وباستطاعة القارىء أن يقرّر بنفسه ما إذا كان فهمه سيكون أكثر اكتمالا لو كان لديه علم مسبق بهذا الموضوع.

إن استعمال كلمة «موضوع» في هذا النوع من التجارب يوحي بأن موضوع نص ما نظير للعنوان، وأن لأيّ نصّ عبارة صحيحة واحدة تمثّل «الموضوع». وقد يكون هذا صحيحا لو أمكن للنصوص فقط أن تفهم فهما كاملا طالما صاحبها عنوان واحد فقط يكون صحيحا. إلا أنه لن يكون من الصعب جدا أن نتصوّر عدة عناوين مختلفة للمقطع (٣) يستطيع كل منها أن يسهل عملية الفهم علينا بقدر سواء. كما

يمكن لأيّ منا أن يشير إلى أن النص يضمّ مجموعة من التعليمات وذلك بأن يقترح عنوانا من قبيل «كيف تغسل ثيابك» أو «دليلك إلى تنظيف ملابسك». وربما أمكنه أيضا أن يقحم الحكم الفلسفي الوارد في آخر جملة من النص ضمن عنوان من قبيل «غسيل الملابس كفلسفة في الحياة» أو «نمط حياة منظم من خلال طريقة جيّدة في غسل الثياب». ويضمّ هذان العنوانان الأخيران بالنسبة للقارىء القدر نفسه من المعلومات التي يضمها عنوان «غسيل الملابس» الذي يصفه برانسفورد وجونسون بأنه «الموضوع». وما يترتب على ذلك من غير شك هو أن لأي نص عددا من العناوين الممكنة. وبناء على هذا، فإننا سنقترح أن هناك عددا من الطرق المختلفة للتعبير عن «موضوع» أي نص. وكل طريقة من هذه الطرق المختلفة تمثل في الواقع حكما مغايرا بشأن ما هو مكتوب (أو متحدث عنه) في النص. ولنضرب مثالا على هذه النقطة، نتصور أن النص الوارد ضمن المثال (٣) قد عثر عليه في وثيقة يكسوها الغبار، أثناء إحدى الحفريات الأثرية تحت أطلال مينيابوليس في العام ٢٥٠٠ ب. م. فعندما يسأل محلّل الخطاب في بعثة الحفريات عن «موضوع» النص، فقد يذكر أنه يدور حول «أساليب كان يستعملها أبناء الطبقة الوسطى في الحضارة الأمريكية في أواسط القرن العشرين للحفاظ على نظافة ثيابهم». (لاحظ العناصر الزمنية والمكانية الواردة هنا – وهي عناصر سنتطرق إليها بأكثر توسّعا فيما بعد). وقد يذكر محلّل آخر، له رأي ثان، أن النص يتناول موضوعا آخر مغايرا تماما، وإذا بنقاش حول المسألة يأتي لينضمّ إلى ما كتب في تحليل الخطاب من دراسات. فنحن أمام «نص» واحد يقوم بدراسته محلّلان اثنان. ومحور الاختلاف بينهما حول الطرق التي تم بها التعبير عن «الموضوع». (لاحظ أن النقاد مازالوا إلى اليوم يعانون من النقاش حول موضوع مسرحية «هاملت»).

وتزداد الصعوبة في تحديد عبارة واحدة أو جملة تمثل «موضوع» جزء من نص مطبوع إذا انتقلنا إلى مقاطع من خطاب المحادثات. فالحكم على «ما يتحدث عنه» في أي محادثة سيختلف من نقطة إلى أخرى، كما أن الأطراف أنفسهم قد لا تكون لديهم وجهة نظر متماثلة لما يتحدث عنه كل منهم، ومع ذلك، نرى الناس بانتظام يذكرون أشياء «عما دارت حوله» محادثة ما. ذلك أن هناك طرقا غير رسمية للتعبير عن «الموضوع» حتى في خطاب المحادثات.

٣,٣,١ إطار الموضوع

تواجه محلّل الخطاب إذن عدة مشكلات حينما ينوي استعمال هذا المفهوم غير المنظم والمغري جدا، الذي هو مفهوم «الموضوع»، للتعبير عما «هو متحدث أو مكتوب عنه». ويتمثل إغراء هذا المفهوم في أنه يبدو وكأنه المبدأ المركزيّ المنظم لقدر كبير من الخطاب. وقد يمكّن المحلّل من تفسير الأسباب التي جعلتنا ننظر إلى عدة جمل أو أقوال على أنها مجموعة من نوع خاص، مستقلة عن مجموعة أخرى. كما قد يمنحنا وسائل تمكّننا من التمييز بين مقاطع من الخطاب نحسّ بأنها أمثلة جيّدة، متناسقة من الإنجليزية، ومقاطع أخرى نحسّ بحدسنا، أنها سلسلات من الجمل غير المتناسقة. لننظر مثلا في مقطع الخطاب التالي الذي أورده روتشستر ومارتن (١٩٧٩م ص٩٥):

[٤] **سؤال: الغرزة في حينها توفر تسعا. ماذا يعني هذا القول؟**
الجواب (من متكلم يعتقد أنه مضطرب التفكير): آه! ذلك لأن لدى كل النساء قدرا يسيرا من السحر - لقد اكتشفت ذلك - هكذا يسمونه - إنه نوع من السحر الجيد وتسعة عبارة عن رقم سحريّ + تماما مثلما أن لي تسعة ألوان هنا ستلاحظ - عندي الأصفر والأخضر والأزرق والرمادي والبرتقالي والأزرق والحبريّ - وعندي الأسود - وعندي لون هو عبارة عن أبيض فاتح – فالألوان التسعة بالنسبة لي هي كلّ العالم – وهي ترمز إلى كل رجل وامرأة وطفل في العالم+

يحاول روتشستر ومارتن أن يصفا الروابط القائمة بين الجمل في خطاب من هذا القبيل جاء على لسان متكلّمين مصابين باضطراب التفكير والفصام، على أساس أنها تقوم على تداعيات في الذهن وروابط المفردات. لكنهما يلاحظان أن مثل تلك الروابط «لا علاقة لها بموضوع المحادثة». ويبدو أن مفهوم «الموضوع»، رغم كونه يأتي من غير تعريف، يمثل بالنسبة لروتشستر ومارتن معيارا طبيعيّا للتمييز بين خطاب مترابط، لكنه غير متناسق، على لسان متكلمين من ذوي التفكير المضطرب، والخطاب المتناسق الذي يأتي على لسان متكلمين عاديّين.

إذا كانت هناك، كما سبق أن بيّنّا، طرق كثيرة مختلفة يمكن بها التعبير حتى عن «موضوع» نصّ قصير مكتوب، فكيف يحدّد المحلّل العبارة الواحدة الصحيحة التي

تعرض موضوع النص؟ أحد الأجوبة بطبيعة الحال أن نقول إنه لأغراض عملية لا يوجد شيء يسمّى تعبيرا واحدا صحيحا عن موضوع أيّ مقطع من مقاطع الخطاب. ستكون هناك دائما مجموعة من الإمكانات نستطيع بها أن نعبّر عن الموضوع وكما قال تايلر (١٩٧٨م ص ٤٥٢)، فإن «الموضوع» لا يمكن أن يكون إلاّ «إعادة صياغة واحدة ممكنة» لسلسلة من الأقوال. والذي هو مطلوب هنا هو تقديم وصف «للموضوع» يسمح لكل من العبارات الممكنة، بما في ذلك العناوين، بأن يعتبر صحيحا (جزئيا)، وبذلك يكون قابلا لأن يتضمّن كل الأحكام المعقولة بشأن «ما هو متحدث عنه». ونحن نقترح هنا أن مثل ذلك الوصف يمكن أن يتمّ ضمن ما نسمّيه بـ«إطار الموضوع».

لقد ناقشنا في الفصل الثاني المشكلة التي يواجهها محلّل الخطاب لكي يقرّر مجرّد المظاهر من السياق التي لها علاقة بتأويل مقطع معيّن من الخطاب. واقترحنا هناك أن الخطوات المتاحة له هي - من ناحية - أن ينطلق من توقّعاته المبنية على تجربته السابقة (كأن يكون مرّ بمتكلمين مشابهين، أو أغراض مشابهة... إلخ)، وأن يعالج من ناحية أخرى مضمون النص. وانطلاقا من مضمون النص، يمكن للمحلّل أن يحدّد مبدئيّا، ملامح السياق التي تنعكس صراحة على النص بوصفه السجلّ الشكلي الذي يتمثل فيه القول. سنسمّي تلك الملامح من السياق التي تنعكس مباشرة على النص، والتي نحتاج إلى أن نعود إليها لتأويل النص، «ملامح السياق المستثارة»[٢]، ونقترح أنها تمثل الإطار السياقي الذي يتشكل ضمنه الموضوع، أي «إطار الموضوع».

وحتى نتعرّف على نوع الملامح التي سنحتاج إليها لتحديد إطار الموضوع، سنقوم بدراسة مقطع من محادثة في محاولة لتحديد ما «يتحدثّ عنه». ولا يمثّل المقطع الذي نعرضه هنا تحت المثال (٥) نصا مصنوعا وإنما جزءا من محادثة مسجلة. وبوصفه مثالا

(٢) اخترنا هذه الصيغة لترجمة مصطلح المؤلفين Activated features of context، وهو مصطلح رأينا اقتباسه من مفهوم آخر قريب في مجال المعجم وهو مفهوم «التنشيط المعجمي» أي أن يستدعي ذكر كلمة ما تذكّر – أو تعلّم – كلمة أخرى ترتبط بها معنى أو شبيهة بها صيغة.

من العيّنات التي يتناولها تحليل الخطاب، فقد تم اختياره لغرض معيّن. وهو ليس من الأمثلة التي يصعب التعامل معها، إذ إن له بداية ونهاية يمكن تحديدهما، كما أن أحد الطرفين فيه هو الذي يتكلم، في الجزء الأكبر من المقطع، جوابا عن سؤال من الطرف الآخر يطلب فيه بعض المعلومات. ومن شأن طلب المعلومات هذا أن يوجّه المحادثة وجهة معيّنة، مما يجعلنا أمام كلام له غرض وليس مجرّد حديث عارض جاء في مناسبة اجتماعية لمجرّد تمضية الوقت. كما يمكن القول أيضا إن مضمون طلب المعلومات قد يعطي بعض الأساس لموضوع الجواب، خصوصا حينما يكون الطلب متعلّقا بمعنى عبارة يجب توضيحه. أي أنه قد يبدو من السهل لأول وهلة أن نسوق «موضوع» هذا المقطع من الخطاب، لأنه وارد ضمن السؤال المطروح. فقد سئل المتكلم مباشرة قبل هذا المقطع التالي عن معنى عبارة «تدخين المنازل».

[٥] ج. في تلك الأيام + عندما كنا صغارا + لم يكن لدينا هنا جهاز محلّيّ لإطفاء الحرائق + إنما كانت هناك فقط عربة ذات عجلتين محفوظة في البلدة + أعني في مخزن البلدة على شارع جيمس + وكلما كان هناك حريق + لم تكن المسألة سوى أن يصرخ من تفطن إلى الحريق أولا بقوله «إلى الحريق» + ويهرع أقرب الناس من المكان إلى العربة والله وحده يعلم كيف كانوا يصلون إليها وكيف كانوا يتصرفون+ لم يكن أحد مدرّبا على استعمالها + على كلّ الجميع كانوا يعرفون كيف يصلون إلى العربة + حسنا + عندما كنا صغارا + كنا نستعمل هذه «الكركارة» + كانت تضطرم في غضب + وكان دخان أسود سميك يخرج منها وكنا نجعلها تضطرم + وكنا نذهب بعد ذلك إلى صندوق رسائل ونظلّ ننفخ نفتح صندوق الرسائل + ونظل ننفخ الدخان فيه + هل ترى + وذلك حتى يمتلىء الجزء الأسفل من المنزل بالدخان وبالدخان فقط + لم يكن هناك حريق + وإنما فقط نملأه دخانا + لمجرّد تحريك الهواء + لمجرّد الدعابة + وبعد ذلك طبعا + عندما يفتح أحد السكان نافذة أو بابا يندفع الدخان متدفقا إلى الخارج + وبعدها + ترى الجميع منطلقين نحو العربة + ونقف نحن ونتفرج عليهم جميعا ++

س. ذلك هو معنى «تدخين المنازل» إذن؟

ج. ربّما + ربّما + كنا نسميها «الكركارة» +

لو قلنا إن موضوع مقطع الخطاب هذا هو «معنى عبارة تدخين المنازل»، فلا يمكننا الادعاء بأننا قلنا شيئا ذا بال له أهمية تحليلية. قد يكون الأمر بالنسبة للسائلة أن العبارة السابقة تمثل أفضل طريقة لتلخيص ما كان يتحدث عنه ج، وذلك كما يدلّ عليه ردّها. ومع ذلك، وحتى إذا عددنا تلك العبارة الملخّصة صيغة من الصيغ الممكنة للتعبير عن الموضوع الذي يتضمنه كلام ج الطويل، فإننا من غير شك لم نقدّم وصفا وافيا بالمراد لما كان يتحدث عنه المتكلم. ربما اقترحنا أن المتكلم يتحدث عن دعابة أو مزحة. وهو إذ يفعل ذلك يتحدث عن شيء يسمّى «الكركارة» ويخرج قدرا كبيرا من الدخان. وهو يتحدث عن عملية «تسريب الدخان إلى المنازل» من خلال صندوق الرسائل وكيف «يندفع الدخان إلى الخارج» عبر النافذة أو الباب.

كما أنه يتحدث عن شيء يعرف بالعربة، وهو عبارة عن جهاز لإطفاء الحرائق، و«الأحداث» التي ترافق استعماله. ويتحدث أيضا عن «الناس وهم ينطلقون إلى العربة» عندما يخرج الدخان من أحد المنازل. وهكذا، فإنّ عرضا لما يتحدث عنه المتكلم قد يتضمّن العناصر التالية: دعابة – الكركارة – الدخان – داخل المنازل – ذهاب الناس إلى العربة – استعمال العربة.

يمكننا أن نعدّ مجموعة الأشياء والأحداث هذه مجموعة من العناصر التي قد نحتاج إلى إدخالها ضمن تمثيلنا لموضوع هذا المتكلم، أي ما كان يتحدّث عنه. لكن تلك المجموعة ليست كاملة. فالمتكلم في هذا المقطع يتحدث أيضا «عن» زمن ومكان معيّنين، و «عن» شخص محدّد. إنه يتحدث عن طفولته (عندما كنا صغارا) في بلدة ستورنوي (هنا). ويطرح هذا العنصر الأخير مشكلة، إذ ليس هناك في نصّ المحادثة أي شيء يدلّ على هذا الموقع. ومع ذلك فهو يمثّل معلومة لها علاقة بما يتحدث عنه المتكلم، وما يزيد من أهميتها أن المتكلّم يفترض أن المتلقية على علم بها. ويمكن أن نسلّم كذلك بأن المتكلّم يستطيع أيضا أن يفترض أن المتلقية، لكونها تعلم سنّه تقريبا، تستطيع أن تقدّر زمن الأحداث المذكورة (أي منذ أربعين سنة وليس منذ عشر سنوات).

كما يجب النظر في مختلف الافتراضات التي يقوم بها المتكلم بشأن معلومات المتلقي من حيث علاقتها بالعناصر التي يحرص المتكلم على التصريح بها في كلامه. فهل تسهم السطور الأولى من المقطع السابق في الإجابة عن السؤال المطروح؟ لو

توخّينا الدقة لقلنا إنها لا تفعل. ومع ذلك، فإن الواحد منا سيتردد في الحكم على هذه السطور بأنها غير مناسبة. ذلك أن لها علاقة بما ينوي المتكلم تقديمه للإجابة عن السؤال، وهذا اعتبارا للطبيعة المحدّدة للمتلقية التي تستمع إليه [في هذا المقام]. فهذه الفتاة الأمريكية التي تزور ستورنوي قد لا تكون لديها سوى فكرة غير مناسبة تماما عن نوع الآلة والسلوك المصاحب الذي كان يتخذه الناس في ستورنوي منذ أربعين سنة لمقاومة الحرائق. فإذا لم تكن لديها معلومات عن العربة، فإن المتلقية قد لا تستطيع (وهذا ربما في تقدير المتكلم) إدراك اللذّة الكاملة التي تحملها الدعابة أو المزحة التي يتحدث عنها المتكلم.

قد يعترض أحد هنا فيقول إن هذه النقطة الأخيرة تفسّر السبب الذي دعا المتكلم إلى الحديث عن شيء ما أكثر مما هي تتصل بما تحدّث عنه. فكل دراسة للموضوع تقتضي السؤال عن السبب الذي يدعو المتكلم إلى قول شيء ما في مقام خطابيّ معيّن. وكما لاحظ كولتهارد (١٩٧٧م ص٧٦) متّبعا في ذلك ساكس (١٩٧١م)، فإن هناك نزعة ثابتة أثناء المحادثة إلى تحليل ما يقال بناء على السؤال «لماذا يقال هذا الآن ولي أنا». لقد سبق أن أجبنا جزئيا في معرض هذا النقاش عن السؤال الأولي، «لماذا»، الذي يطرحه القارىء بشأن مقطع الخطاب المدروس وذلك بتقديم السؤال السابق الذي طرحه المتكلّم. ومعنى هذا أن أي محاولة منّا لعرض ما يتحدث عنه شخص ما تقوم دائما على افتراض أننا على علم بالسبب الذي دعا ذلك الشخص إلى أن يقول ما قال. قد تصبح هذه النقطة أكثر وضوحا لو نظرنا في رد الفعل الذي يمكن أن يثيره إقحامنا للجملة «الورود حمراء، والزنابق زرقاء»، ضمن المثال (٥) ومباشرة بعد قول المتكلّم «لم يكن أحد مدرّبا على استعمالها». فهل ستضم هذه الجملة ببساطة إلى قائمة الأمور الأخرى التي تحدث عنها المتكلم، أم إنها ستدفعنا مباشرة إلى أن نسأل «لماذا قال المتكلّم ذلك هنا؟». إن قبول مقطع الخطاب الوارد في المثال (٥) وعدّه نموذجا معقولا من نماذج خطاب المحادثة في الإنجليزية يقتضي ضمنا تقويم كل عبارة بناء على السؤال «لماذا» السابق والتوصّل إلى إجابة ملائمة عن هذا السؤال. وإن جزءا من التحليل الذي نقوم به فيما يتصل بـ«الموضوع» إنما هو محاولة للتصريح بالقاعدة التي

تقوم عليها قدرتنا الحدسية على معرفة الأسباب التي تجعل ما يقال مناسبا في مقطع معيّن من الخطاب.

هناك عناصر تقيّد الموضوع يمكن تحديدها قبل بداية هذا الخطاب. وتمثل هذه العناصر جزءاً مما وصفناه في الفصل السابق بسياق الحدث اللغويّ. غير أن اهتمامنا ونحن نربط بين خصائص سياقية وبين حدث لغوي معيّن، لا يتّجه بصفة خاصة إلى تلك الخصائص المستثارة من السياق والتي تنتمي إلى مقطع الخطاب قيد الدراسة. فمظاهر زمن الخطاب ومكانه في المثال (٥) مثلا مهمة لأن لها صلة بما يقوله المتكلم (الذي مازال موجودا في ستورنوي، ولكن بعد أربعين سنة من حصول الحدث موضوع الخطاب). وبالمثل فإن هناك حقائق بشأن المتكلم والمتلقية، كما بيّنا سابقا، لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار. فعلى سبيل التقريب الأوليّ إذن، يمكننا أن نقدم تمثيلا جزئيا لإطار بالنسبة للمقطع (٥) وذلك بناء على المجموعة التالية من خصائص السياق المستثارة.

المحادثة تجري بين الطرف جـ (عمره ٥٠ أو يزيد، سكوتلندي، ذكر، . . .) والطرف س (عمرها ٢٠ أو تزيد، أمريكية، أنثى، . . .) في الموقع م (ستورنوي، . . .) والزمن ز (أواخر السبعينات).

إن هذه المجموعة البسيطة من الخصائص التي نقول إنها ضرورية لمناقشة مسألة الموضوع لا بد منها في أي شكل من أشكال تحليل الخطاب، وذلك بقطع النظر تماما عن أي اعتبارات تخصّ الموضوع. فبالنسبة لعلماء اللغة الإثنوغرافيين وعلماء اللغة الاجتماعيين المهتمّين بمظاهر التفاعل اللغوي، لا بدّ من التصريح بهذه العناصر وغيرها أثناء تحليل خصائص مثل تبديل الشفرة والعلاقات القائمة على مبدإ توزيع الأدوار في العملية التواصلية. وكذلك يحتاج الباحث في علم الدلالة الشكلي إلى هذه العناصر حتى يحدّد قيما معينة إلى أدوات إشارية من قبيل «أنا» و «أنت» و «هنا» و «الآن». أي أننا ونحن نضع إطارا لتحليل الموضوع لا نضيف أي شيء إلى الأدوات المتوافرة بين يدي محلل الخطاب مما لا يحتاج إلى استعماله أصلا.

وتستمدّ هذه الخصائص السياقية التي تحدثنا عنها سابقا بطبيعة الحال من السياق المادي. فهي تقع خارج النص. غير أن لمعظم مقاطع المحادثة مجموعة من العناصر

الداخلة ضمن الخطاب والتي تستمد من جزء المحادثة الذي يسبق المقطع المحدّد قيد الدراسة. ويتمّ تقديم هذه العناصر ضمن السياق السابق لتشكل جزءا مما يعرف بـ«حيّز الخطاب» (انظر ك كارتونن، ١٩٧٤م). ومما يدخل في حيّز مقطع معين من مقاطع الخطاب الناس، والأماكن والكائنات، والأحداث، والوقائع، وغيرها مما استثير في ذهن كل من الأطراف وذلك لأنها قد ذكرت في المحادثة السابقة. فلو أن مقطع الخطاب المدروس كان محدودا فقط بذلك الجزء من المثال (٥) الذي يبدأ بـ«عندما كنا صغارا، كنا نستعمل هذه الكركارة»، فإن الحديث عن ذكر المتكلم للعربة قرب نهاية هذا المقطع لا بد أن يتم بناء على الخطاب السابق (أي كامل الفقرة الأولى التي وردت قبل ذكر «الكركارة») الذي يقدم فيه المتكلم العربة ويصفها.

لقد قدمنا هنا بعض المكونات الأساسية التي يحتاج إليها في وصف إطار الموضوع بالنسبة لأي مقطع من مقاطع الخطاب. ويتكون إطار الموضوع من عناصر يمكن أن نستمدّها من السياق المادي والحيّز الخطابي الذي يقع ضمنه أي مقطع من مقاطع الخطاب. والملاحظ أننا لم نركّز إلا على تلك العناصر المستثارة، أي التي لها علاقة بتأويل ما يقال. فإذا قلنا إن وصف إطار الموضوع وسيلة للتصريح ببعض الافتراضات التي يمكن أن يقوم بها المتكلم بشأن المعلومات التي لدى المتلقي، فنحن لا نقصد كامل المعلومات التي يعتقد المتكلم أنها مشتركة بينه وبين المتلقي، وإنما فقط ذلك الجزء المستثار الذي يحتاج إليه في تحليل مقطع الخطاب قيد الدرس. مثل هذه المقاربة تختلف اختلافًا جذريًا عن بعض المقترحات الأخرى التي سنتطرق إليها.

٣,٣,٢ أرصدة الافتراضات المسبقة

إن لما وصفناه بإطار الموضوع جوانب كثيرة مشتركة مع ما يقترحه «فينيمان» من أن لأيّ خطاب «رصيدًا من الافتراضات المسبقة "يضم معلومات" مستمدة من المعرفة العامّة، وسياق الحال، والجزء المكتمل من الخطاب ذاته» (فينيمان، ١٩٧٥م ص٣١٤). فلدى كل طرف من أطراف الخطاب ـ حسب هذا الاقتراح ـ رصيد من الافتراضات المسبقة، ويظلّ هذا الرصيد في تزايد مع تقدّم عملية الخطاب. كما أن كل طرف في هذه العملية يتصرّف وكأنّ هناك رصيدا واحدا فقط من الافتراضات

المسبقة مشتركا بين كلّ أطراف الخطاب، ويؤكد فينيمان أن هذا الحكم ينطبق على أي «خطاب عاديّ صادق».

وضمن رصيد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأيّ خطاب، نجد مجموعة من «المسلمات الخطابية»، وكل خطاب إلى حدّ ما إنما يدور حول مسلّماته الخطابية. ولأن وجود هذه المسلّمات الخطابية جزء من الافتراضات المشتركة بين أطراف الخطاب، فإن تأكيد وجودها ضمن الخطاب أمر ليس ضروريًا. ومن العبارات المستعملة في ذكر المسلّمات الخطابية يمكن أن نذكر مثلا «الملكة»، «جون»، «زوجة جون» (وتدخل ضمن رصيد الافتراضات المسبقة بناء على معلومات عامة) «قبّعتك»، «اليوم» (وهذه من ضمن سياق الحال) «أحد العروض الموسيقية التي أقامتها جوقة برلين الفيلهارمونية خلال السنة الماضية» أو «عدّة مقالات» (وهذه مما ورد ذكره في جزء سابق من نصّ الخطاب).

قد يكون عدد المسلّمات الخطابية الداخلة ضمن رصيد الافتراضات المسبقة الذي يشترك فيه الأطراف في خطاب ما مرتفعا جدا، وخاصة إذا كان التعارف بين هؤلاء الأطراف وثيقا جدا. فكيف يستطيع محلل الخطاب أن يقرّر أي المسلّمات الخطابية يمكن إدخاله ضمن رصيد الافتراضات المسبقة الخاص بقطعة معيّنة من محادثة؟ إذا تذكّرنا أن أي عيّنة من العيّنات الخطابية التي بين يدي المحلّل لن تزيد على مقطع، فإنه سيكون من الصعب جدا عليه أن يحدّد مسبقا المجموعة الكاملة من المسلّمات الخطابية التي يشترك فيها الأطراف قبل الشروع في مقطع معيّن من الخطاب. ولعلّ أقصى ما يمكن أن يطمح إليه في هذا الشأن هو تقديم مجموعة جزئية من تلك المكوّنات. لذا فالمشكلة التي عليه مواجهتها هي أن يحدّد اختياره، بطريقة ما تكون غير عشوائية، لما تضمه مجموعة معيّنة من مكوّنات، حتى وإن كانت تلك المجموعة جزئية.

يتصل أهم المبادىء التي يقوم عليها اختيار المسلّمات الخطابية التي يقترحها فينيمان بمدى مناسبة تلك المكوّنات لمقطع الخطاب المعيّن قيد الدراسة. فإذا أمكننا أن نعرف بشكل مستقلّ، وعلى مدى فقرة من محادثة، أن لدى الأطراف مجموعة ممكنة من المسلّمات الخطابية، لنقل مثلا «الملكة» أو «البابا» أو حتى «ملك سيام»، تدخل ضمن رصيد الافتراضات المسبقة المشتركة بينهم، ولكن من غير أن يأتي ذكر هؤلاء

الأفراد على ذلك النحو في أثناء المحادثة، فإن ذلك يعني من غير شك أننا لسنا بحاجة إلى أن نتطرق إليهم أثناء تحليلنا ذلك المقطع المعيّن من الخطاب [٣]. إنهم في إطار مقاييسنا يمثلون عناصر غير «مستثارة». مما يؤدّي بنا إلى أن نستنتج بأن «المسلّمات الخطابية» لمقطع خطابي معيّن هي التي تقع الإحالة عليها في نص الخطاب. ولا بدّ من أن نلاحظ، وقد اعتمدنا هذا الشرط أساسا لاختيار المسلّمات الخطابية، أن المحلّل إنما يسعى في الواقع إلى أن يعيد بناء رصيد الافتراضات المسبقة التي ربما كانت لدى الأطراف قبل تحليل مقطع الخطاب. ويمكن أن نشبّه هذه العملية بالتجربة التي يمرّ بها أحدنا عندما يفتح المذياع في منتصف نقاش ويحاول أن يفهم ما يجري، فيعيد جزئيا بناء ما يتوقع أنه قيل، ومن يكون الأطراف، وما إلى ذلك. ومن شأن هذا بالفعل أن يوحي بأن المعلومات الوحيدة التي بحوزة محلل الخطاب هي تلك التي يضمّها نص مقطع الخطاب.

٣,٣,٣ موضوع الجملة ورصيد الافتراضات المسبقة

ليست مواد تحليل الخطاب بطبيعة الحال محدودة بتلك النصوص المجهولة الأصل، المقتطعة من سياقها، كما بيّنا ذلك سابقا في الفصل الثاني. غير أن التركيز على نص واحد فقط يظل الطريقة العامة المتبعة في كثير من الدراسات المتصلة بالخطاب. ومما يميّز هذه الطريقة كذلك أن المحلّل هو الذي يصنع النص الذي ينوي دراسته للتمثيل على القضايا التي يرغب في طرحها. وهذه للأسف هي الطريقة التي اتبعها فينيمان. فعلى الرغم مما يوحي به مفهومه عن رصيد الافتراضات المسبقة المشتركة بين أطراف [الخطاب] من شمولية واعدة في التحليل، نرى بحثه منحصرا في وصف العلاقة بين أزواج من الجمل. ولعلّ مفهوم «الموضوع» - كما يراه فينيمان - يعكس لنا

(٣) لعلّ هذا المفهوم يزودنا بمنظور جديد لفهم «النجوى» في العربية. إذ يمكن أن نفسر هذه العملية بناء على وجود رصيد من الافتراضات المسبقة يكون مشتركا بين طرفين فقط من أطراف الخطاب ومفقودا تماما لدى الطرف الثالث، مما يحوّل كلام الاثنين إلى مبهمات يعجز عن وضعها في سياق.

محدودية دراسته. فهو يرى أن: «عبارة «موضوع» أو «موضوع الخطاب» تحيل على مسلّمة خطابية يرتكز عليها اهتمام أطراف الخطاب. ويتحقق تركيز الاهتمام هذا عادة، وإن ليس دائما، بأن يأتي ذكر تلك المسلمة الخطابية في جزء سابق مباشرة من النص». (فينيمان، ١٩٧٥م ص ٣١٧).

يحمل تعريف الموضوع هذا جانبا حدسيا لا يخلو من الطرافة، إذ إن ما يرتكز عليه الاهتمام لدى الطرفين أثناء المحادثة مثلا يمثّل مرشحا معقولا لأن يكون هو «الموضوع». غير أن هناك مشكلتين أساسيتين هنا. أولاهما أن تعريف الموضوع هذا يبدو قائما على المعادلة ذاتها التي رفضناها سابقا والتي تعدّ الموضوع عنوانا من كلمة واحدة. فكما بيّنا عندها، وعلى الرغم من أن مقطعا خطابيا ما قد يبدو متصلا إلى حد كبير بشخص واحد، أو بمسلّمة خطابية معيّنة، بحيث يمكن القول إن النص يدور «حول» ذلك الشخص، فإن هذا يجب ألا يقودنا إلى القول إن كل الخطابات تتعلق بشخص واحد فقط، أو يمكن أن تحمل عنوانا من كلمة واحدة.

أما الاعتراض الثاني فيتمثل في أنه من غير الواضح تماما أن نعرف كيف نحدد على نحو مبدئي ما «يرتكز» عليه اهتمام الأطراف في الواقع خلال مقطع خطابي ما. ويحاول فينيمان أن يقدم لنا وسائل شكلية للتعرف على الموضوع الذي يتناوله الخطاب في مقطع من مقاطعه، فيقترح أن «الموضوعات، مثل كل الظواهر التي نفترض وجودها الفرديّ مسبقا، يمكن أن يحال عليها بأسماء فردية، أو عبارات إشارية، أو أوصاف محدّدة» (فينيمان، ١٩٧٥م ص٣١٧). من هذا المنطلق، سيجد المحلّل أن للمقطعين التاليين اللذين اختير أحدهما من خطاب محكي والآخر من خطاب مكتوب عدة «موضوعات» من هذا القبيل.

[٦] ما كان يثير الاهتمام أن رتشارد الصغير رجع من مدرسته في «تورنتو» ومعه حصيلته من دعابات «نيوفي» التي تماثل في مضمونها – مضمونها الحقيقي – [تلك] الدعابات حول الأيرلنديين التي كان ابني يرويها عند عودته إلى البيت من المدارس في أدنبره.

[٧] وكذلك هو يستطيع، لكن أهم شيء في هذا النظام هو [مقدار] الضغط الذي يسلطه على اللاعبين الآخرين.

فما «الموضوع» في المثال (٦)؟ أهو «رتشارد الصغير» أم «مدرسته في تورنتو» أو «دعابات نيوفي» التي كان يرويها؟، وهل الموضوع في (٧) «هو» أم «هذا النظام» أم «اللاعبون الآخرون»؟ من الممكن أن نخمّن بما كان المتكلم في (٦) والكاتب في (٧) يركزان الاهتمام عليه، لكن المحتمل أن هذا التخمين يقوم على إعادة بناء مفصّلة لما كان عليه السياق في أغلب الظن، سواء في ذلك السياق الكلامي وغير الكلامي، بالنسبة لهذين المقطعين الخطابيين. أي أن القارىء سيضطرّ إلى استعمال هذين «النصين» ليس فقط لإعادة بناء بعض المسلّمات الخطابية المناسبة الداخلة ضمن رصيد الافتراضات المسبقة، على نحو ما فعل فينيمان، بل بالأحرى بعض العناصر من إطار الموضوع التي كانت موجودة حينما صدر هذان المقطعان الخطابيّان. وإذا طلب من القارىء أن يذكر موضوع كلّ مقطع، فإن من المحتمل أيضا أنه لن يذكر مجرد «عنوان» من كلمة واحدة.

ولو واجه القارىء «خطابا» من نوع المقطع الذي صاغه فينيمان، ونسوقه هنا تحت المثال (٨)، فإنه قد يبادر بكلّ سهولة إلى دعم التحليل الذي يقترحه فينيمان فيقول إن الموضوع» هو «ماري».

[٨] **تغني ماري بطريقة غريبة.**

كما يفترض أن القارىء قادر بنفس السهولة على إعادة بناء سياق بديل (مثل وصف آثار الماريوانا على أداء مسرحي يقدّم بمناسبة عيد الميلاد) لا تُقترح فيه ماري «موضوعا للخطاب». هكذا، وبينما قد تكون هناك أفضليات نستشفها من العناصر التي يتم اختيارها بوصفها الأقرب إلى أن يقع التركيز عليها في جملة جاءت منفردة، فقد تعكس تلك الأفضليات الحقيقة الواهية إلى حدّ ما بأن الأسماء أكثر بروزا من أي شيء آخر، إذا جاءت بمفردها. وقد ناقش كونو وكابوراكي (١٩٧٧م) مسألة أن تكون لهذه الأفضليات دلالة لتحليل بنية الجمل التركيبية. لكن من غير الممكن مبدئيا أن يتألف الخطاب من جملة واحدة مجتثة من السياق، كما أنه من النادر عمليا أن يلجأ أطراف الخطاب إلى استنباط «موضوع الخطاب» انطلاقا من كل جملة على حدة.

وأكثر ما يمكن لمحلّل الخطاب أن يقول بشأن مقطع خطابي من قبيل الجملة الواردة في المثال (٨) هو أن ماري قابلة لأن تكون جزءا من موضوع الخطاب الذي جاءت ضمنه تلك الجملة، غير أن هناك معلومات أخرى لابد من معرفتها، كما هو الشأن أيضا بالنسبة للمقطعين (٦) و(٧)، في الواقع، ولعلنا بهذا قد وضّحنا كيف أن اتخاذ جمل مصنوعة منفردة أساسا لإصدار دعاوى بشأن مفاهيم من قبيل «موضوع الخطاب» أمر مضلّل إلى حد بعيد.

٣,٤ مبدأ المناسبة والحديث في الموضوع

يمثل إطار الموضوع ـ كما وصفناه هنا ـ مجال التداخل في المعلومات المستثارة لدى الأطراف، والتي يتقاسمها هؤلاء الأطراف عند نقطة معينة من الخطاب. وبعد أن يتعرّف المحلّل على العناصر المكوّنة لإطار الموضوع والعلاقات المتبادلة بينها، تصبح لديه قاعدة ما للحكم على مدى مناسبة ما يسهم به كل طرف من أطراف الحوار.

والاستعمال المتخصص لمصطلح «المناسبة» في تحليل المحادثة مستمدّ من المبادىء التحاورية التي اقترحها غرايس (١٩٧٥م). فإذا كان هناك ـ كما يقترح غرايس ـ اتفاق عام على التعاون بين أطراف الحوار، فباستطاعة كلّ طرف إذن أن يتوقع من الآخر أن يلتزم بجملة من المواضعات أثناء كلامه. وتتصل هذه المواضعات أو المبادىء بكمية[٤] الإسهامات في الحوار (أو مدى الإبلاغ فيها) ونوعيتها[٥] (أو مدى صدقها) وكيفيتها[٦]

(٤) مبدأ الكمية (maxim of quanity) واحد من المبادىء التحاورية، أي المبادىء المسلّم بها في التحاور، وهو أن ينقل المتكلم إلى المخاطب القدر المناسب من المعلومات بقدر مناسب من الكلمات، بلا إيجاز مخلّ ولا إسهاب مملّ.

(٥) مبدأ النوعية (maxim of quality) مبدأ آخر من المبادىء التحاورية، وهو أن ينقل المتكلم إلى المخاطب المعلومات التي يعتقد أنها صحيحة ولا كذب فيها (حتى وإن يكن الكذب والتعمية مقصودين أحيانا).

(٦) مبدأ الكيفية (maxim of manner) مبدأ ثالث من المبادىء التحاورية، وهو أن ينقل المتكلم معلوماته إلى المخاطب بوضوح وإيجاز.

(أو مدى وضوحها) ومناسبتها[٧]. وعلى الرغم من أنه يناقش المبادىء الأخرى ويسوق أمثلة عنها، فإن غرايس لا يتوسّع في شرح المبدإ البسيط «ليكن حديثك مناسبا». والمشكلة التي يواجهها مباشرة محلّل الخطاب الذي يرغب في الاستفادة من هذا المفهوم هي أن يقرّر «أن تكون مناسبة لماذا؟». ولعل واحدة من الطرق الموصلة إلى حل هذه المشكلة هي أن يترجم مبدأ «ليكن حديثك مناسبا» إلى صيغة ذات جدوى عملية أكبر من قبيل «ليكن إسهامك في الحديث مناسبا بناء على إطار الموضوع القائم».

ربما أمكننا بطريقة أفضل أن نستوعب ما وصفناه بإحدى مواضعات الخطاب التحاوري - أي «أن يكون إسهامك في الحديث مناسبا بناء على إطار الموضوع القائم» - باستعمال عبارة «الحديث في موضوع». فنقول إن طرفا من أطراف الخطاب «يتحدث في موضوع» حين يتطابق قوله تطابقا وثيقا مع آخر العناصر التي أدرجت ضمن إطار الموضوع. ويظهر هذا بدرجة واضحة تماما في تلك المحادثات التي «ينتقي» خلالها كل طرف من الأطراف عناصر من كلام المتحدث السابق ويدمجها في كلامه، كما هو الشأن في المقطع التالي:

[٩] س. لقد ذهبت إلى متنزّه يوسيمايت الوطني.
ج. حقا
س. بلى إن الجو جميل هناك طوال العام +
ج. أعرف أناسا في كاليفورنيا هذا المتنزه هو المفضّل لديهم لأنهم + يستمتعون بإقامة المخيمات كثيرا.
س. حقا.
ج. تراهم ينتقلون من مكان إلى مكان ويخيّمون +
س. يجب أن أعترف بأنني اكره المخيّمات +

يمثّل هذا النوع من «الحديث في الموضوع» خاصية واضحة من خصائص المحادثات العفوية غير المتكلّفة، حيث يسهم كل طرف بنصيبه من غير أن تكون

(٧) مبدأ المناسبة (maxim of relevance) مبدأ رابع من المبادىء التحاورية وهو أن ينقل المتكلم إلى المخاطب معلومات ذات علاقة بموضوع محادثتهما.

للمحادثة وجهة محدّدة تسير نحوها. وفي المقابل، هناك ظرف من الظروف التحاورية يركز فيه الأطراف حديثهم على ظاهرة معينة، أو شخص محدد، أو قضية بعينها. قد يكون الأطراف في الواقع «يتحدثون في الموضوع» في ظرف كهذا، لكن يمكن أن نقول عنهم أيضا إنهم «يتحدثون حول الموضوع». ومن الأمثلة القصوى عن «الحديث حول الموضوع»، يمكننا أن نتصوّر نقاشا يتجاهل فيه أحد الأطراف ما قاله المتحدث السابق عن «الحكم بالإعدام»، مثلا، ليسوق حديثه بطريقة مستقلة تماما من أي علاقة بما قيل من قبل. إننا عمليا نجد أنساقا من الكلام في أي ضرب من ضروب المحادثة تظهر فيها نماذج من «الحديث في الموضوع» ومن «الحديث حول الموضوع».

ويعتمد كلا الشكلين من الكلام على أساس من إطار الموضوع القائم، غير أن الفرق بينهما ينبع مما يعدّه كلّ من المتكلمين عناصر بارزة ضمن إطار الموضوع ذاك. من ذلك أنه كثيرا ما يعامل متكلم معين ما كان يتحدث عنه في آخر المحادثة على أنه أكثر العناصر بروزًا، بينما يعدّ ما تحدّث عنه المتكلّم الآخر أقلّ بروزًا، حتى وإن كان هذا الذي قاله المتكلم الآخر قد جاء بعد كلامه هو. ويقودنا هذا المظهر من الخطاب التحاوريّ بشكل طبيعي إلى النظر في الموضوعات [كما تتمثل لدى] المتكلم الواحد ضمن إطار موضوع المحادثة الذي كنا بصدد مناقشته. وقبل الخوض في مسألة «موضوع المتكلم» وتأثيره، سنحاول أن نسوق أمثلة مفصّلة شيئًا ما عن الكيفية التي يتكلم بها أطراف المحادثة «في موضوع»، وذلك بأن يجعلوا مشاركاتهم على صلة بإطار الموضوع القائم.

ولتمثيل إطار الموضوع، سنقدم العناصر التي تندرج ضمنه في شكل قائمة. من الصعب أن نتصوّر «رسما بيانيا» ملائما يمكن أن يضمّ في الوقت ذاته النسق التتابعي للعناصر المقدّمة والعلاقة المتبادلة التي تربط تلك العناصر فيما بينها [من جهة] وفيما بينها وبين الخصائص السياقية [من جهة أخرى]. وسنتعرف في الوقت الراهن على بعض العناصر والروابط المهمة بالنسبة لتحليل مقطع واحد [من إحدى المحادثات].

[١٠] إطار جزئي لموضوع محادثة بين ك (في سن العشرين أو تزيد، أنثى، تقيم في أدنبره، طالبة جامعية...)

و ج (في الستين أو يزيد، رجل، يقيم في أدنبره، متقاعد...) في المكان م (أحد نوادي العمّال، في أدنبره...) والزمن (في بداية إحدى الأمسيات، من ربيع ١٩٧٦م...)

يذكر (جـ أبناءه الثلاثة، إخوانه، المدارس التي درس فيها ج، أن ج كان فاشلاً في الدراسة، أن ج ترك الدراسة في سن الرابعة عشرة).

عندها: تسأل ك. عما فعله ج بعدما ترك الدراسة.

ج. أوه! لقد اشتغلت بوظائف غريبة + فعملت مثلا موزّعا للصحف + وفي صيدلية، عملت في صيدلية + كما قمت بعملين أو ثلاثة أعمال أخرى +

وأخيرا بدأت العمل في مجال البناء + فقضيت حياتي عاملاً في البناء.

ك. ذاك عمل مربح

ج. في أيامنا هذه نعم، لكن في تلك الأيام + أيام أمضيت فيه حياتي، لم يكن كذلك + كنا نتقاضى ثلاثة جنيهات وتسعا فقط في الأسبوع + إذن + +

ك. كان والدي بنّاء وبدأ يعمل في بلدنا + وكانوا يتقاضون نصف بنس إضافيا في الساعة لأنهم يجيدون العمل باليد اليسرى + +

أمام مقطع من محادثة وإطار موضوع كهذين اللذين لدينا هنا في المثال (١٠) يمكن للمحلّل أن يشير إلى بعض الطرق التي يتحدث بها كل طرف «في الموضوع». ربما يبدو مثل هذا الجهد من قبيل البديهيات - كأن نذكر أن المتكلم ج، في تدخّله الأول، مثلا، يجيب عن السؤال «ماذا» بناء على موقع يفترض أنه معروف وزمن معروف أيضا، وذلك من خلال تفاعل بين معرفته سنّ ج (السياق) ومعرفته أن ج كان على الأقل في سن الرابعة عشرة (المجال).

وحتى نبرز ارتباط كلام ج الأول بالموضوع أو «مناسبته»، فقد نسأل مثلا عما قد يكون عليه رد فعل ك لو تحدث ج عن أحد إخوانه، أو عن نوع العمل الذي سيحصل عليه في أستراليا، أو عن التدريب ليصبح جرّاحا في الدماغ. فبناء على إطار الموضوع هذا الذي أمامه، فإنه لا يسع ج أن يتحدث عن أي من هذه الأمور اللهمّ إلا إذا أدخل في إطار الموضوع بعض المعلومات الإضافية التي يمكنه بعد ذلك أن يعدّها مشتركة بينه وبين المتلقية - كأن يذكر مثلا أن أحد إخوانه قد ذهب إلى أستراليا ليتخصص في

جراحة الدماغ، وأنه قد فكر في أن يفعل مثله، لكنه اختار بدلا عن ذلك أن يصبح بنّاء. على هذا النحو، يمكن أن نحكم على تدخل ج الأول في المحادثة بأنه مناسب بناء على إطار الموضوع القائم، وأنه كذلك يضيف بعض المعلومات إلى إطار الموضوع ذاك. إنه في هذا التدخل الأول لا يتحدث مثلا عن كونه في الرابعة عشرة من عمره أو أكثر، ولا عن «أدنبره»، لكنه يتحدث قطعا عن «بداياته في العمل بنّاء» (حين كنت في سن الرابعة عشرة أو أكثر)، كما أنه قد يكون مدعوًا إلى أن يذكر صراحة، بحكم كونه محاورا متعاونًا، ما إذا كانت المعلومة بشأن سنه وهو «في الرابعة عشرة أو أكثر» غير ذات علاقة.

أما تدخّل ك الأول في المحادثة في المثال (١٠) فهو أكثر طرافة. فعلاقته بالخطاب السابق أولا تعتمد على استدلال عام بأن الإنسان إذا عمل (بنّاء، مثلا)، فإنه يتلقى أجرة على عمله. (سنناقش دور الاستدلال في الخطاب في الفصل السابع). كما أن لهذا التدخل ثانيا قابلية لإحداث بعض التناقض في المحادثة، حيث إن «المتحدث عنه» حتى هذه النقطة ليس الزمن الحاضر. يبدو أن المتكلمة تصدر تعميما على زمن يشمل تجربتها الخاصة. فضمن إطار الموضوع القائم، نرى المتكلمة ك تقول «ذاك عمل مربح»، وقولها هذا مثال عن الحديث في الموضوع، بالنسبة لها، لكن النسق الزمني ضمن إطار الموضوع القائم، بالنسبة للمتكلم ج، قد تم حصره إلى مدى أضيق من خلال ملاحظاته السابقة. هناك إذن تعارض بين ما يتحدث عنه كل من الطرفين، ضمن إطار الموضوع. وسنتطرق في الفقرة اللاحقة إلى الأثر الذي يتركه هذا التعارض في المواضيع بين المتكلمين.

ويربط ج ملاحظاته اللاحقة بالنسقين الزمنيّين البارزين ضمن إطار الموضوع ويضيف بعض المعلومات المحددة عن جزئية «الأجرة» التي أقحمتها المتكلمة ك.

ثم يأتي تدخل ك الموالي الذي يعرض لنا سلسلة من الروابط المعقدة مع إطار الموضوع القائم. فقد تحدث ج في كلامه السابق عن الأجرة التي كان يتقاضاها عن عمله في نقطة معينة من الماضي. فإذا بالمتكلمة ك في تدخلها «تنتقي» عنصر الزمن الماضي هذا، فتقترب أكثر من الزمن الذي يتحدث عنه ج مع الحفاظ على مرجعها الشخصي من خلال «والدي» الذي كان أيضا يعمل في البناء مثل ج، وكان يتقاضى

أجرة عن عمله هذا. ولتقرّب مشاركتها أكثر من ملاحظات ج السابقة، نرى ك تربط ملاحظاتها عن والدها بـ«بداياته» في العمل، فتجعلها بذلك قريبة من حديث ج عن بداياته هو في مجال البناء وعن «أيام حياته التي أمضاها في هذا العمل». وتضيف ك، وقد أقيمت هذه الروابط المعقّدة، بعض العناصر الجديدة إلى المحادثة (ما كان يتقاضاه العمال من أجرة إضافية لأنهم كانوا يجيدون العمل باليد اليسرى).

لقد حاولنا سرد الروابط القائمة عبر المشاركات [المختلفة] في هذا المقطع الخطابي للتأكيد على الطرق التي يجعل بها المتكلمون ما يتحدثون عنه مندمجا في إطار يمثل ما نحن (بصفتنا أطرافًا في الخطاب) نتحدث عنه أثناء الخطاب التحاوري. وبالنسبة لمحلّل الخطاب، بوصفه مستمعًا بالمصادفة، فقد تشير تلك الروابط إلى علاقات التناسق التي تجعل كل مشاركة مناسبة للخطاب ككلّ. وبالتعرّف على العناصر المشكلة لإطار الموضوع عند أي نقطة من الخطاب، يمكن للمحلّل أن يصدر أحكاما بشأن ما يتضمّنه «الحديث في الموضوع». كما يتسنّى له أيضا أن يقدّم صيغة ما لـ«ما يتحدّث عنه»، أي لموضوع المحادثة، وذلك أمر أشمل بكثير، وله من غير شك فائدة تحليلية أكبر من عنوان الكلمة أو العبارة الواحدة الذي غالبا ما نراه مستعملا بصورة واهية إلى حدّ ما لتمثيل «الموضوع» في دراسة الخطاب التحاوري.

٣,٥ موضوع المتكلم

عالجنا مفهوم «الموضوع»[1] في الخطاب حتى الآن بوصفه قاسمًا مشتركًا بين الأطراف، ذلك أن «إطار الموضوع» كأداة تحليلية يمثل وسيلة نتعرف بها على مجال التداخل بين الإسهامات الخطابية المختلفة. غير أن التركيز على كيفية التداخل بين تلك الإسهامات قد يجعلنا نغفل مظاهر من الخطاب لها علاقة بما لدى المتكلمين على اختلافهم من «موضوعات» شخصية يتحدثون عنها. أي أننا ركّزنا حتى الآن على وصف «موضوع الحديث» وأهملنا ما يعرف بـ«موضوع المتكلم». كما سبق أن أشرنا، تمثل نصوص المحادثات بالنسبة لمحلّل الخطاب مادة منتهية، أو حصيلة قارة لعملية تفاعل مسجلة. وفي معالجته إياها على هذا النحو، فقد ينسى أن الخطاب أثناء المحادثة يتسم بالحركية، وأن المادة التي بين يديه تمثل عملية. فإذا كان بإمكاننا أن نعدّ أي نموذج

من نماذج المحادثة عملية يتكلم خلالها اثنان أو أكثر من الأطراف ضمن إطار الموضوع، فلا بد أن نجد في مشاركاتهم عناصر تسمح بتحديد «الموضوعات الخاصة» بكل واحد منهم. وعلى هذا النحو، سننظر في مقطع معيّن من خطاب محكي لا من حيث كونه مظهرًا من مظاهر المعلومات المشتركة بين الأطراف، وإنما من حيث كونه عملية يعبر فيها كل طرف عن موضوع خاص ضمن إطار الموضوع العام الذي يتناوله الحديث ككلّ. قبل المقطع الموالي الذي نورده هنا تحت المثال رقم (١١)، كانت المتحدثتان «ل» (وهي امرأة في العشرينات، غير متزوجة) و«م» (وهي امرأة في الثلاثينات، متزوجة، لها عدد من الأطفال الصغار وتقيم في أدنبره) تتحدثان عن آخر التحسينات التي أدخلت على المباني القديمة في مناطق مختلفة من مدينة أدنبره:

[١١] ل: تعجبني كثيرا طريقتهم في ترميم مبنى المايل + أظن أنها فعلاً –
م: أجل [تهمهم] أجل
ل: الجانب الأسفل منه على كل حال
م: أجل – إنها فعلاً طريقة جيدة فقد حافظوا بكل تأكيد على + [همهمة]++
حافظوا على نمطه العام بقدر معقول لكننا ذهبنا إلى أبردين هذا العام في إجازة وكنا نقيم داخل الحي الجامعي في أبردين القديمة+ و + بعض المباني هناك جميلة، فعلا جميلة + لكنني أعجبت بها كثيرا – إنها الإجازة الأولى التي قضيناها هناك +
ل: كنت ألاحظ – وأنا في شارع الملكة أو + أسفل شارع هانوفر أو في أي مكان آخر + وقد فرغوا من عهد قريب من تنظيف بعض المباني هناك + وياله من فرق +
م: أجل أعرف لأن هناك بعض المباني الجميلة
ل: أوه كانت جميلة حقا.

يمثل المقطع الوارد ضمن المثال (١١) ظرفًا مألوفًا من ظروف المحادثات التي يقدم فيها كل طرف من الأطراف أمثلة من تجربته الشخصية لها صلة بقضية عامة. ويمكن أن نقول إن القضية العامة في هذه الحالة هي شيء من قبيل «أثر ترميم المباني القديمة»، الذي يمثل بدوره جزءا من إطار الموضوع الذي حدده الخطاب السابق.

والملاحظ أن الإسهام الثاني للمتكلمة في هذا المقطع من الخطاب لا يدور «حول» تلك القضية العامة فحسب. فهي مثلا تتحدث كذلك عن إجازتها الأخيرة في أبردين. يمكننا في هذه المرحلة أن نصف عنصر «الإجازة في أبردين» هذا بأنه جزء من الموضوع الشخصي الذي تتحدث عنه «م» والذي قد يتحول خلال المحادثة الجارية إلى مجال موضوعي مشترك بين المتحدثتين. ولقد كان بإمكان «ل» أن تواصل بسؤال مثلا عن الإجازة، أو عن أبردين، أو حتى ببعض الملاحظات الشخصية بشأن المباني في أبردين القديمة أو داخل الجامعة. غير أن «ل» لا «تلتقط» أي عنصر من الموضوع الخاص الذي تتحدث عنه «م» بل تواصل في مجال موضوعها الخاص (أي مظهر المباني القديمة في أدنبره بعد ترميمها). وحين تتكلم «م» من جديد في آخر المحادثة، فإنها لا تعود إلى «إجازتها» ولا إلى «أبردين القديمة» وإنما تربط حديثها ربطا وثيقا بملاحظات «ل» السابقة مباشرة.

هناك أمران يستحقان الملاحظة بشأن هذا المقطع من الخطاب الحواري. أولهما أن مما يميز كثيرا من المحادثات أن «الموضوعات» ليست محددة مسبقًا، وإنما تتحدد أثناء سير الحديث على سبيل التفاوض. فعلى مدى محادثة من المحادثات، ترى «الموضوع» التالي الذي سيدور حوله الحديث ينمو شيئا فشيئا. وفي الحديث يسهم كل متكلم بنصيبه في الآن نفسه ضمن إطار الموضوع القائم وضمن إطار موضوعه أو موضوعها الخاص. فمن خلال المثال (١١) يتضح أن بعض العناصر من الموضوع الخاص للمتكلم لا تصبح عناصر بارزة في المحادثة طالما لم يعد الطرف الثاني ولا المتكلمة نفسها إلى ذكرها من جديد. ولنستعمل استعارة «التفاوض» من جديد، يمكننا أن نقول إن المتكلمة «م» تعرض عناصر من موضوعها الخاص (في مشاركتها الثانية) بوصفها عناصر يمكن ضمها إلى موضوع الحديث، غير أن المتكلمة «ل» ترفض ذلك العرض.

وأما الأمر الثاني الذي يلاحظ في هذا الحوار - وفي عدد كبير غيره - فيتمثل في أن تقديم الموضوعات الخاصة غالبًا ما يتم بالإحالة على نحو من الأنحاء إلى المتكلم. فقد كان من الممكن تقديم الآراء الواردة في المثال (١١) بشكل موضوعي على أنها أحكام بأن بعض المباني في بعض المواقع قد أصبحت أجمل بعد صيانتها، لكننا نرى

كلتا المتحدثتين تربطان تلك الأحكام بتجربة شخصية؛ وكأن المتكلمين يشعرون بضرورة تقديم مبرر ما شخصيّ للأحكام التي يصدرونها عن العالم من حولهم. فقد جاء الحكم على أن المباني في مدينة أبردين القديمة جميلة ضمن التأكيد بأن المتكلمة قد ذهبت مؤخرا إلى أبردين، وأقامت هناك فترة وأصبح لها بالتالي مسوّغ لإصدار حكم بشأنها.

ولو أعدنا النظر في المثال (٥) الأسبق باعتبار أن أحد الطرفين يريد أن يعرف معنى إحدى العبارات، وأن الطرف الآخر يقترح عليه تفسيرًا ممكنًا لها، أمكننا أن نلاحظ كيف أن التفسير المقترح مقدّم من وجهة نظر شخصية (عندما كنا صغارا وكنا نسميها «كركارة») تعتمد على تجربة شخصية عاشها المتكلم. قد لا يكون هذا التفسير جوابا مقبولا عن السؤال، لكن المتكلم يقدمه بشكل يعني أن هذا «ما أعتقد أننا نتحدث بشأنه» في هذا الجزء من الحوار. ويضم تعريفنا للموضوع الخاص بالمتكلم بكونه «ما أعتقد أننا نتحدث بشأنه» في الآن نفسه ذلك العنصر الذي يميل محلّل الخطاب إلى تجريده بوصفه «موضوع الحوار» بالنسبة للمشاركين (أي «ما نحن نتحدث بشأنه») والنظرة الشخصية التي لدى المتكلم عن ذلك الموضوع (أي «ما أعتقد») وهو يشارك بنصيبه في الحوار. على أن المتكلمين يقومون فعلا بإقحام ما يريدون قوله عن طريق شكل من أشكال الإحالة إلى الذات، ولذلك أثر واضح على البنية التي تتخذها مشاركاتهم في الخطاب الحواري، وستكون لنا عودة إلى هذه النقطة عند مناقشة تفاصيل أخرى من البنية الخطابية في الفصل الرابع.

وانطلاقا مما اقترحنا بأنها موضوعات المتكلمين في الخطاب الحواري، فقد يحدث أحيانا أن تكون هناك روايتان على الأقل لـ«ما أعتقد أننا نتحدث بشأنه» ويمكن لهاتين الروايتين أن تكونا غير متلائمتين. لكن ما يميّز الخطاب الحواري من مظاهر التعاضد الواضح بين أطرافه أن عدم التلاؤم الممكن هذا قلّما يؤدي إلى تصادم بشأن موضوع الحوار. والذي يحصل بشكل مميز هو أن أحد المتكلمين، أثناء عملية التفاوض، يكتشف أن روايته لا تتلاءم مع ما يبدو أن حديث الآخر يدور حوله، فيجعل تدخلاته في الحوار متلائمة مع «ما أعتقد أنك أنت تتحدث بشأنه (لا نحن)». ويمكننا أن نمثل

لهذه العملية بمقطعين من محادثة يصوّران استراتيجيّتين مختلفتين يتوخاهما المتكلمون لتفادي الصدام أثناء عمليات «التفاوض».

في المقطع الأول، المثال (١٢)، نجد قسمًا من محادثة مسترسلة تنقسم إلى عدة أقسام – وفي القسم السابق مباشرة، كانت المتحدثة «ب» (وهي امرأة في الخمسينات، خالة المتكلمة «أ» أو عمتها)، تصف للمتكلمة «أ» (وهي امرأة في العشرينات) أول نوع من أجهزة اللاسلكي كانت قد اقتنته منذ أربعين سنة.

[١٢] (أ) **لكن ربما كانت لديكم تليفونات قريبة +**
(ب) **(همهمة) أوه نعم أوه نعم، لقد كان لي هاتف منذ عام ١٩٣٨م +**
(أ) **(همهمة)**
(ب) **أوه كانت موجودة أعتقد منذ مدة طويلة قبل ذلك +**

كانت المتكلمة «ب» تتحدث عن جهاز اللاسلكي الذي اقتنته في الثلاثينات، ويبدو أن السطر الأول من حديث المتكلمة «أ» يستمر ضمن المؤشرات الزمانية والمكانية والشخصية التي يحددها إطار الموضوع وهي تقحم الحديث عن «الهواتف»، وتعامل المتكلمة «ب» هذا الردّ على أنه يتطلب جوابا، وذلك حسب نسق معيّن يسوقه لابوف في القاعدة التالية:

«إذا أصدر (المتكلم) «أ» حكما بشأن الحدث (المتكلم) «ب»، فإن ذلك يفهم على أنه طلب للتأكيد» (١٩٧٢م ب، ص ٢٥٤). فتسترسل المتكلمة ب في إجابتها حول الهاتف، وذلك من وجهة نظر شخصية. وبينما لا تضيف المتكلمة «أ» أي شيء تقوله، تقدم المتكلمة «ب» بعض المعلومات الإضافية عن «التليفونات». وهكذا، فقد نحدد وجهة نظر المتكلمة «ب» بشأن «ما أعتقد أننا نتحدث عنه الآن» بأنه موضوع معيّن يتعلق بشخصها، وبالثلاثينات، وبوجود الهواتف (وكذلك أجهزة اللاسلكي) في تلك الفترة. وتتواصل المحادثة:

(أ) **فقد كان هناك رجل في... – كان والدي يعمل في الكشافة +**
(ب) **أوه نعم، كان في الكشافة – وهل ما زال؟**
(أ) **[كلا] هو الآن موظف في الإدارة البلدية.**

(ب) **أوه هل الأمر كذلك + أمها +**

يبدو أن المتكلمة «أ» تقترح بعض العناصر الجديدة لتدرجها ضمن موضوع المحادثة، وهي تنطلق في ذلك مرة أخرى من بعض الإحالات إلى شخصها (كما في «والدي»)، وهو أمر تقبله المتكلمة «ب» فيما يبدو. أي أن «ب» لا تصرّ على ذكر «الهواتف» بل تنتقل في حديثها إلى هذا الموضوع الجديد. فلا بدّ أن وجهة نظر «ب» حول «ما أعتقد أننا نتحدث بشأنه الآن» صارت تشمل الآن المتكلمة «أ» ووالد «أ»، والكشافة و«رجلا» (قد تكون له علاقة بالهواتف). قد نتوقع أن تكون المتكلمة «ب» محتارة بعض الشيء حول هذه العناصر، ومدى علاقتها بموضوع المحادثة السابقة – وتواصل المتكلمة «أ» حديثها قائلة:

(أ) **وقد أشرف أحد أساتذته الكشافة الكبار + على عيد ميلاده المائة**
(ب) **هل الأمر كذلك +**

لدينا شك، عند هذه المرحلة، في أن باستطاعة المتكلمة «ب»، على الرغم من إدراكها لما «يجري الحديث بشأنه»، أن تقوم بأيّ دور في تحديد الموضوع، لأنها عاجزة عن معرفة السبب الذي من أجله تمّ إقحام هذا الشخص ضمن الحديث. من هنا لم تعد مشاركاتها محاولات لإضافة أي شيء إلى موضوع المحادثة. وبالتالي، فإنها لم تعد تنظر إلى المحادثة على أنها تعبير عن موضوع شخصي، بل صارت تنتظر معرفة «ما أعتقد أنك، أنت، تتحدثين بشأنه (لا نحن)»، وهكذا نرى المتكلمة «ب» خلال باقي المقطع التالي بأكمله تدلي بأصوات تعبّر عن مدى «اهتمامها» في انتظار أن تحدد المتكلمة «أ» تدريجيًا ما تريد قوله.

(أ) **إذن كان والدي يعدّ كتابًا ضخمًا + عبارة عن مذكرات**
(ب) **أهاه**
(أ) **وذلك حتى يهديه إياه،وكان يكتب في البداية، عبر الكتاب كله، عن كل عام من حياته وما حصل خلاله من أشياء مخترعة أو +**
(ب) **أهه، نعم**

(أ) او كتاب تم تاليفه او قطعة موسيقية تم تلحينها أو لوحة رسمت
أو –
(ب) طريف جدا، نعم
(أ) أو عن أي شيء كما تعرفين وهكذا + أثناء حياته تم اختراع
التليفون +
(ب) أهكذا + حقًا + رائع +

في هذا المقطع الخطابي عامة، يمكننا أن نتتبع محاولة المتكلمة «ب» أن تسهم بشيء ما فيما تعتقد أنه موضوع الحديث، وذلك باقتراحها بعض الملاحظات بشأن «الهواتف»، ثم بشأن «والد» محدثتها. لكنها تقلّص تعليقاتها تدريجيا إلى ضرب من الأصوات الخاوية، من تلك التي يصفها دنكن (١٩٧٣م) بـ«القنوات الترجيعية». ويلجأ إلى سلوك القنوات الترجيعية، التي قد تشمل كذلك الإيماءات وتتمات أوتكملات الجمل، حين يريد أحد الأطراف أن يبيّن للطرف المتكلم أن عليه أن يستمرّ في كلامه. وتتوقف المتكلمة «ب» في محاولة لأن تأخذ دورها في تقرير الموضوع، وتنتظر من المتكلمة «أ» أن توضح علاقة ما تقوله بإطار الموضوع القائم. وفي النهاية، وكما نرى في ملاحظات «أ» الأخيرة، تقام العلاقة. هناك أدلّة فيما قالته المتكلمة «أ» تبرهن على أن ما تحاول قوله لم يكن منظمًا تنظيمًا جيدًا قبل شروعها في الحديث. فقد وقعت في استهلالات خاطئة، وظهر عليها تردّد كثير وتكرار. وليس من النادر أن يتميز خطاب المحادثات اليومية بهذا النقص في التخطيط المسبق. فالبنية التركيبية الناتجة عن ذلك في أقوال المتكلمة «أ» مألوفة في الخطاب إلى حد كبير في الواقع، وسنناقشها بشيء من التفصيل في موضوع لاحق ضمن إطار ما يعرف بـ«الإخراج» (انظر الفصل الرابع).

فاستراتيجية المتكلمة «ب» إذن في موقف وجدت فيه نفسها غير متيقّنة مما تظن أن الحديث يدور حوله هي أن تتوقف عن الكلام. ولدينا في المثال (١٣) التالي نموذج آخر من عدم التوافق بين موضوعات المتحدثين، مصدره سوء فهم للمعنى المقصود من لفظة معينة. في الحديث الذي سبق مباشرة كانت المتحدثة «ج» (امرأة في العشرينات، أمريكية في زيارة لأدنبره) تحاول الحصول على معلومات من المتحدث

«د» (رجل في الأربعينات، يقيم في أدنبره) عن الأماكن الجيدة التي يمكن زيارتها ركوبا على الدراجة في داخل أدنبره وحولها.

[١٣] ج – **ما رايك في النزول [في جولة] عند لسان فورث البحري؟**
د – **ستكون جولة ممتعة لاشك، نعم، يمكنك ذلك.**
ج – **صحيح؟**
د – **نعم يمكنك التجول بالدراجة على امتداد الحافة كلها، هل تعلمين، من غير أن تسقطي في الماء، تستطيعين الذهاب بالدراجة على امتداد الحافة من غير + (همهمة) + مع البقاء على الطريق الرئيسة + ستكون [جولة] ممتعة فعلا + يمكنك ذلك +**
ج – **[سمعت] مع ذلك أن المنطقة خشنة هناك**
د – **ليس هناك فيما أذكر حصى كبير – هل حاولت أن تقودي الدراجة على الحصى الكبير؟**
ج – **بلى، بلى،**
د – **إذن فعلت؟**
ج – **ذهبت إلى «ميور هاوس»**
د – **وفيها كل الأرضية تقريبا من الحصى الكبيرة، أليس كذلك؟**
ج – **كانت بالأحرى خشنة.**
د – **(همهمة)**
ج – **لا، ولكني كنت – كنت أفكر بالأحرى في الخشونة من حيث (همهمة)+ [طبيعة] الناس +**
د – **أوه، فهمت + لا أعتقد ذلك + لا أدري + (تردّد) – أجزاء منها فقيرة إلى حد كبير + وخاصة منطقة بيلتون +**

إذا نظرنا في سؤال «ج» الثالث، يمكننا أن نقترح صيغتين «لما أظن أنه موضوع حديثنا». فالأمر بالنسبة للمتحدثة «ج» يتعلق بالسؤال «هل طبيعة الناس خشنة؟»، بينما اتجه فهم المتحدث «د» إلى السؤال: «هل الطرق خشنة؟». لكن خلافا للمتلقية «ب» في المثال (١٢)، تبدو «ج» قادرة على إدراك الموضوع البديل الذي يقترحه «د» وتقبل لفترة ما بما تظن أنه موضوع حديث «د» على أنه «موضوع حديثنا». وحين ينتهي «د» من الحديث عن الحصى الكبيرة (أي التي تجعل الأرضية خشنة على الدرّاجة)،

تحاول «ج» العودة إلى موضوعها (أي الخشونة من حيث طبيعة الناس). ورد فعل «د» في نهاية هذا المقطع هو في الواقع جواب عن السؤال الذي أرادت «ج» منه أن يجيب عليه في البداية.

قد نظن في نهاية هذا المثال الأخير أن هناك مرة أخرى تصورا واحدًا بالنسبة للمتحدثين لـ«ما يظن أنه موضوع الحديث». ومعظم التحليلات التي أجريت على المحادثة تتخذ في الواقع من مفهوم «الموضوع» الواحد هذا فرضية تنطلق منها في عملها. ومع ذلك، فنحن لا نستطيع في المثال (١٣) إلا أن نعيد بناء المعنى الذي تقصده «ج» بسؤالها الثالث، لأنها تشرح لنا فعلا ذلك المعنى المقصود فيما بعد. ولو أن «د» واصل الحديث بعض الشيء عن «الحصى الكبيرة» أو الطرقات الخشنة عموما، أو اقتصر التحليل على جزء فقط من هذه المحادثة، إلى حدّ قول «ج»: «كانت بالأحرى خشنة»، لما كان لنا عند ذلك دليل على أي اختلاف في الموضوع بين الطرفين أثناء المحادثة. وستكون حجّتنا عند ذلك أضعف بشأن الأهمية التي يجب أن نوليها إلى الموضوعات الخاصة بكل طرف من أطراف الخطاب الحواري. لسنا نقترح أن على محللي الخطاب أن يمضوا وقتهم في البحث عن معان بديلة ممكنة لما يقوله المتكلمون أثناء الحديث، لكننا نقترح أن على المحلّل أن يفترض ببساطة أن هناك «موضوع حديث» واحدًا ثابتًا لأي مقطع من مقاطع المحادثة. فإذا كان هناك عنصر يمكن التعرف عليه بأنه «موضوع الحديث»، فإن على المحلّل أن ينظر في المؤشرات التي تحملها أقوال كل من أطراف الحديث والتي تساعده على معرفة ذلك. كما أن عليه أن يكون واعيا بأن المحادثة عملية، وأن كل إسهام فيها يجب أن يعامل بوصفه جزءا من عملية التفاوض حول «ما يجري الحديث بشأنه». وعليه فوق كل شيء ألا ينسى بأن «الموضوعات» لدى المتحدثين، لا في المحادثات أو الخطابات.

٣,٦ علامات حدود الموضوعات

لقد ركزنا أثناء مناقشتنا مسألة «الموضوع» أساسا على اعتبارات ذات صلة بالمضمون وأهملنا تأثير «الشكل». ومع ذلك، فتأويلنا لـ«ما» يتحدث عنه المتكلم يعتمد بشكل لا بدّ منه على «الكيفية» التي ينظم بها بناء ما يقول. لذا فسنقوم الآن

بدراسة بعض المظاهر الشكلية التي تتّسم بها بنية الموضوع في الخطاب. وسننظر في هذه الفقرة في الأدوات الشكلية المستعملة كعلامات محدّدة لكتل من كلا الخطابين المكتوب والمحكي، تلك الكتل التي تشكل وحدات كبيرة من نوع خاص، كالفقرات مثلا. وسنناقش مظاهر من البناء الداخلي لهذه الكتل في الفصل الرابع.

هناك اقتراح (مثلا: من شانك، ١٩٧٧م ص ٤٢٤؛ ماينرد، ١٩٨٠م) بأنه بدلا من توخّي الطريق الصعب ومحاولة تحديد «ماهية الموضوع» فإن الأجدر بنا أن نركز على وصف ما ندرك أنه «انتقال في الموضوع». أي أنه لابد من وجود نقطة معيّنة بين مقطعين خطابيين متجاورين ندرك حدسيًا أن لهما «موضوعين» مختلفين ويكون الانتقال عندها من موضوع معيّن إلى الذي يليه معلّمًا بعلامة ما. فإذا استطعنا تحديد علامة هذا الانتقال الموضوعي، نكون بذلك قد اكتشفنا قاعدة بنيوية لتقسيم مقاطع خطابية طويلة إلى سلسلة من الوحدات الصغرى، لكل منها موضوع مستقل. ويقوم هذا الضرب من المقاربات لتحليل الخطاب على مبدإ أننا لو استطعنا التعرف على حدود تلك الوحدات - حيث تنتهي وحدة وتبدأ أخرى - فلن نكون بحاجة إلى مواصفات مسبقة تحدّد موضوع تلك الوحدات. ونتيجة لذلك، يتحوّل عبء التحليل إلى البحث عن العلامات الشكلية للانتقال الموضوعيّ في الخطاب.

٣,٦,١ الفقرات

قد يتصوّر أن التعرف على العلامة الشكلية التي تحدّد كتلا من الخطاب المكتوب أو المطبوع مهمّة بسيطة نسبيا - فالخطاب المكتوب - رغم كل شيء - ينقسم إلى فقرات تبرز حدودها من خلال تلك التغليلات في أولها. فبالإمكان إذن التعرف على الانتقالات الموضوعية في الخطاب المكتوب مع بداية كل فقرة جديدة. لكن الأمر للأسف ليس بذلك القدر من البساطة. فالذين يستعملون مصطلح «الفقرة» لوصف وحدة معينة أثناء التحليل البنيوي للخطاب المكتوب يتجشمون قدرا من العناء حتى يبيّنوا أنهم ليسوا معنيّين بالوصف الشكلي للفقرة. فالفقرة من الناحية الشكلية يمكن أن تنتج، حسب لونجاكر (١٩٧٩م، ص ١١٦)، عن اهتمامات أسلوبية لدى الكاتب، وهي اهتمامات «تمليها عليه جزئيا اعتبارات المظهر الجمالي» [للنص]، أو عن

مواضعات طباعية من قبيل ذلك الفراغ المخصّص لكل انتقال من متكلم لآخر. كما يلاحظ هايندز (١٩٧٧م ص٨٣) كذلك أن الفقرة الصحفية كثيرا ما تتحدد على أساس المظهر. وهو يقدم مثالا مدروسا يتشكل فيه بناء فقرة واحدة من مقال صحفي يضم خمس فقرات شكلية. وهذا فقد يكون صحيحًا أن تدل بداية فقرة شكلية على نقطة انتقال موضوعي، لكن الأمر ليس كذلك دائمًا بالضرورة.

ويستمدّ كل من لونجكر (١٩٧٩م) وهايندز (١٩٧٧م) دلائل من لغات أخرى غير الإنجليزية يبيّنون على أساسها أن هناك علامات لغوية شكلية تدل على بداية الفقرات ونهايتها. والذي يلاحظ مباشرة من مناقشة هذه العلامات هو أنها تختلف باختلاف الأنواع الكتابية. فهناك طرق للدلالة على بداية فقرة جديدة في قطعة من نص سردي مثلا لا تستعمل في الخطاب التفسيري. ونجد هذه الملاحظة العامة كذلك لدى جرايمز (١٩٧٥م، ص ١٠٩) الذي يصف علامات حدود الفقرة بوصفها شكلاً من أشكال «التقسيم» التي يتّسم بها الخطاب. وتتصل المبادىء التي يقوم عليها ذلك التقسيم بالتحوّل الحاصل في «الإطار» (الزمان والمكان) و«الموضوع» (الشخص أو الشيء المتحدث عنه)، وذلك في الخطاب السردي على الأقل. قد يكون من الطريف أن نعلم أن هناك أدوات محددة لتقديم الفقرات في الخطاب السردي لدى هويشول وشيبيبو، لكن الأمر يصبح أقل طرافة حين نكتشف أن التعرف على دلالة هذه الأدوات يتوقف على تعرّفنا المسبق على الفقرة بوصفها وحدة «يواصل المتكلم فيها الحديث عن الشيء نفسه» (جرايمز، ١٩٧٥م ص ١٠٣). ويبني هايندز (١٩٧٧م) تقسيماته للفقرة على مبدإ مشابه، مستشهدًا لتأييد كلامه بجرايم، ومؤكدًا على أهمية عنصر «الارتباط بأحد الأطراف». أي أن وحدة الفقرة تنبع من كونها أساسًا تتناول طرفًا واحدًا. ويرى لونجكر (١٩٧٩م) من ناحيته أن «الفقرة من الخطاب السردي تدور حول طرف له صلة بالموضوع» (لونجكر، ١٩٧٩م ص ١١٨).

ويدلّ ذلك بعبارة أخرى على أن النقاش في هذا الشأن قد انحصر ضمن بنية الفقرة كما تتجلّى في مقاطع خطابية تتصل بشخصيات فردية، من الصنف البشري أساسًا. ومن شأن هذا، في الواقع، أن يحدّد النقاش ضمن دائرة الخطاب السردي، أو كما عند هايندز (١٩٧٧م)، ضمن وصف أو نعي يتعلق بشخص معيّن.

من هنا يتضح لنا لماذا يمكن أن تمتد فقرة دلالية واحدة في تحليل هايندز (١٩٧٧م) إلى خمس فقرات إملائية (أو شكلية) من مقال صحفي. فكل واحدة من هذه الفقرات الشكلية «تتناول» الشخص نفسه. ومع ذلك، فهناك بعض النصوص التأبينية التي تمتد إلى عشرين فقرة شكلية أو أكثر تدور «حول» شخص واحد، وهناك فصول كاملة من روايات، تضم ما يزيد على مائة فقرة شكلية طويلة، قد تدور «حول» شخصية واحدة. من المؤكّد أن مثل تلك الكتل الطويلة من الخطاب المكتوب لا تشكل «فقرات» واحدة؟

سنعالج فيما يلي قطعة من خطاب مكتوب، لم نأخذها من حكاية شعبية كولمبية مثلاً، أو من نص مصنوع لنا خصيّصًا، بل من رواية إنجليزية حديثة. وقد أهملنا في النص المختار كما هو معروض أدناه (المثال ١٤) حدود الفقرة الشكلية مثلما ظهرت في الصفحة المطبوعة. ويضم النص طرفين مشاركين رئيسين، لكنه يدور بكل وضوح «حول» واحد منهما فقط. فإذا كانت هناك نقاط «تحوّل موضوعي» في الخطاب الإنجليزي المكتوب تدعو الكتّاب، أو من ينشرون لهم، إلى الابتداء بفقرة شكلية جديدة، فسيكون بإمكاننا عندئذ أن نتعرف على نقاط دلّ فيها الكاتب أو الناشر بعلامات معينة على تقسيم «النص» إلى كتل مستقلّة.

[١٤] إثر الأيام القليلة الأولى، عندما أدخل الغرفة، تقف العصفورة بيردي على أرضية القفص، متحركة إلى الأمام وإلى الخلف، وهي تنظر إلى الخارج نحو السياج الذي يحجز الحصى،[2] أظنها مسرورة لرؤيتي، ليس فقط لأنني أقدم لها الطعام الجيّد، ولكن لأنها تشعر بالوحدة.[3] إنني صديقها الوحيد الآن، الكائن الحي الوحيد الذي تستطيع رؤيته.[4] ومع نهاية الأسبوع، أوثقت وعاء الأكل بشريط مطاط إلى طرف مجثم إضافي وضعته عبر الباب داخل القفص.[5] وتركت الباب مفتوحا بواسطة مشبك للأوراق.[6] ظلت بيردي خجولة في البداية، ثم أخذت بعد ذلك تقفز إلى المجثم الذي أمسكته بيدي ثم إلى وعاء الأكل.[7] إنه لرائع أن أراها بدون تلك القضبان التي تفصل بيننا.[8] وتجلس تأكل الطعام عند فتحة الباب وهي تنظر إليّ.[9] كيف يمكنها أن تنظر إليّ في عينيّ ولا تنظر إلى ذلك الإصبع الضخم الذي بجانبيها.[10] وبعد أن تفرغ من الأكل، تتراجع إلى الوراء، إلى وسط المجثم.[11] فأرفعه برفق لآخذها في جولة وأشعرها أن المجثم جزء مني وليس من القفص.[12] فتحوّل جسمها وتخفق بجناحيها لتحافظ على توازنها، ثم تنظر إليّ وتطلق صوتًا جديدًا، حادًا جدًا: بيييب![13] ثم تقفز من المجثم إلى أرضية القفص.[14] فأسحب المجثم إلى الخارج وأحاول الحديث معها لكنها تتجاهلني.[15] وتشرب الماء.[16] ولا تنظر إليّ من جديد إلاّ بعد أن مسحت منقارها ومدّت جناحيها، كلاً على

حدة.[17] إنها تستعمل قدميها لتستطيع مدّ جناحيها.[18] ثم تطلق صوتا قصيرا: كويييب![19] عموما تنظر إليّ بيردي بعينها اليمنى أكثر من اليسرى.[20] ليس من المهمّ في أي اتجاه من القفص أنا واقف.[21] فهي تلتفت حتى تتمكن من رؤيتي بعينها اليمنى.[22] كما أنها حين تمد قدمها لتمسك بوعاء الأكل الجيد، أو حتى وعاء الأكل العادي، فهي تقوم بذلك بواسطة قدمها اليمنى.[23] لو كانت لها يدان لكانت تشتغل باليمنى، فهي إما تشتغل بالقدم اليمنى أو بالجانب الأيمن.[24] إنها تعالج معظم الأشياء وتقوم بها من الجانب الأيمن.

(وليم وارتن، بيردي، طبعة جوناثان كيب، ١٩٧٩م ص٤٧).

لو كانت هناك في الصيغة الأصلية من هذا النص تقسيمات شكلية للفقرات أجريت لمجرد المظهر الخارجي للنص على الصفحة، فلن يكون لنا عندئذ أمل كبير في التعرّف على تلك التقسيمات بأي من أساليب التحليل الشكلي. فما هي -إن وجدت تلك المؤشرات الشكلية التي نتوقع وجودها في بداية فقرة جديدة؟ تتمثل المؤشرات التي يتعرف عليها لونجكر (١٩٧٩م) في الخطاب السردي بشكل لا مناص منه في عبارات ظرفية تدلّ على التتابع الزمني. ويبدو أن بالإمكان اعتبار ذلك الصنف العام من الظروف التي يمكن أن ترد في مطلع الجمل من العلامات الدالة على «الانتقال الموضوعي» - ويقدّم كويرك وزملاؤه (١٩٧٢م الفصل الثامن) قوائم من تلك الظروف مصنّفة إلى فضلات[8]، وظروف عطف[9]، وظروف مستقلة[10].

(٨) «الفضلة» أو «المستلحق» عنصر ثانوي أو اختياري في التركيب يضيف إليه معنى دون أن يغيّر بنيته مثل الظرف «أمس» في «قرأت الكتاب أمس». وقد يخصص المصطلح في النحو الإنجليزي لبعض أنواع الظروف، كتلك الدالة على الزمان والمكان والتكرار والدرجة... إلخ (مثل further ,Almost, everywher.) (Adjunct)

(٩) ظرف العطف ظرف وظيفته الأساسية الربط بين العبارات أو الجمل (مثل Nevertheless, however, moreover... إلخ) ويعرف كذلك بالظرف الرابط (conjunct)

(١٠) الظرف المستقل (Disjunct) مصطلح يستعمله بعض اللغويين، وليس موضوع إجماع، للإشارة إلى ظروف من قبيل Sadly (للأسف) و Frankly (صراحة)، يقال إنها مستقلة عن التركيب أكثر من الظروف الأخرى، وتنطبق على الجملة بأسرها إضافة إلى أنها تظهر موقفا معيّنا للمتكلم من الشيء المتحدث عنه.

ويبدأ المثال (١٤) في الواقع بشبه جملة ظرفية تقع في مستهلّ الخطاب. وهناك موضعان آخران في هذا المثال، في الجملتين الرابعة والعاشرة، كل منهما يبدأ بشبه جملة ظرفية، كما أن هناك أربعة مواضع أخرى تقع فيها عبارات في مطلع الجمل تفيد الظرفية، وهي الجملة ٦ (في البداية) و١٨ (ثم) و١٩ (عمومًا) و٢٢ (كما). مما يمنحنا ستة مواضع انتقالية ممكنة تبرزها علامات شكلية في بنية النص.

وسؤالنا التالي هو: هل تؤدّي هذه العبارات الظرفية وظيفتها بشكل متماثل؟ فنحن نريد، برغم كل شيء، أن نميّز بين ظروف تفيد العطف بين جملة وجملة أخرى تليها، وتلك التي تستعمل للربط بين مجموعة ومجموعة أخرى من الجمل. فاستعمال (ثم) في الجملة ١٨ يبدو أنه تقديم لحدث أخير يقع ضمن سلسلة متعاقبة من الأحداث. يمكننا إذن أن نعتبر أن الفصل على هذا النحو بين تلك الجملة وبين المجموعة التي تسبقها قد تم على أساس أنها شكل واضح من أشكال الذروة [في النص]. ويمكن أن نتوقع مع ذلك أنها جملة تتميّز بصفة أكبر بكونها تأتي في آخر موضع من الفقرة، لا بوصفها نقطة الذروة، وإنما لكونها تصف حدثا يتوّج سلسلة من الأحداث الأخرى. وتأتي إثرها جملة لا تمثل امتدادا لسلسلة الأحداث تلك وتبدأ بما يسمّيه كويرك وزملاؤه (١٩٧٢م ص ٥٠٩) «ظرفا مستقلا أسلوبيا» فاستعمال(عموما) في الجملة ١٩ على هذا النحو يفصل فعليا بين مجموعة الجمل السابقة والمجموعة التي تليها والتي تصف طبيعة معينة للشخص المتحدث عنه. وفي هذه المجموعة الأخيرة، تبدأ إحدى الجمل (الجملة ٢٢) بفضلة الزيادة (كما)، مما قد يدلّ على أن هذه المجموعة تنقسم إلى قسمين. والمحتمل أكثر هو أن الجملة التي تبدأ بـ(كما) تضيف تفصيلات أكثر لتعزيز الاستنتاج العام بأن الشخص المتحدث عنه (يعالج الأشياء بالأطراف اليمنى)، وتمثل تلك الجملة جزءا من البنية الداخلية للفقرة التي تبدأ بـ(عمومًا).

تبدو شبه الجملة الظرفية (في البداية) في الجملة ٦ جزءا من بنية الجملة الداخلية، خصوصا إذا لاحظنا (ثمّ) التي تليها. فالأحداث التي تصفها هذه الجملة تقع ضمن مجموعة الأحداث التي تذكر الجملة ٤ أنها حصلت (مع نهاية الأسبوع).

وهكذا، فقد قلّصنا عدد المواضع الانتقالية الممكنة في هذا النص إلى ثلاثة، بحيث نستطيع أن نقترح أن هناك أربع فقرات، تبدأ عند الجمل الأولى والرابعة

والعاشرة والتاسع عشرة. يمكن للقارىء أن يقترح مواضع انتقالية أخرى ممكنة، كالذي في ٩ مثلا، حيث نجد جملة من بنية تركيبية (استفهامية) تختلف إلى حد كبير عن بنية باقي الجمل في النص. وقد تبدو الحجة على وجود نقطة انتقالية هنا معقولة جدا بما أن هذه الجملة تحمل مؤشرات تركيبية تدل على أنها قائمة بذاتها. كما أنه لاشك في أن القارىء قد يفكر أيضا في مبرّر، يقوم على اعتبارات أسلوبية أساسا، يدعو إلى اعتبار هذه الجملة جزءا من المجموعة السابقة. ومن الوارد كذلك، إذا أخذنا الاعتبارات الأسلوبية بشكل أعمّ، أن يرى القارئ تقسيم هذا النص إلى فقرات مستقلة عند مواضع لا توجد فيها علامات شكلية مطلقا. وفي مثل هذه الحالة، فقد نفترض أن النقاش لم يعد يحتكم إلى أدلة لغوية أساسا موجودة داخل هذا النموذج من نماذج الخطاب.

لقد اقترحنا، بناء على بعض المؤشرات اللغوية الشكلية، أن لدينا أربع فقرات في المثال (١٤). ربما نكون قد وجّهنا إلى اكتشاف تلك الفقرات الأربع لأنها، في الواقع، تمثل التقسيمات التي ظهرت في النص الأصلي فعلا، ولم نزد نحن على أن بحثنا عن أدلة إضافية تبرّر الطريقة التي قسّم بها الكاتب خطابه. ومع ذلك، فإن هذه النقطة تبرز لنا حقيقة أن العمل الذي قمنا به على المثال (١٤) يمثل طريقة مصطنعة إلى حد كبير في معالجة الخطاب المكتوب - فقد بدأنا بإزالة واحد من المؤشرات الأوّلية المتوافرة لدى الكاتب للدلالة على «الانتقال الموضوعي»، ألا وهو اللجوء إلى تفليل واحد من السطور في نصه. وبدلا من معاملة التفليل في السطر الأول من الفقرة على أنه مجرد مظهر جمالي سطحي، كما يفعل لونجكر (١٩٧٩م)، فقد يكون من الأفضل لنا أن نرى فيه علامة يضعها الكاتب لتوجيهنا إلى ما يريد منا أن نعدّه بداية لقسم جديد من النص. وإذا استعمل الكاتب مع ذلك عبارات ظرفية في مطلع الجملة الأولى من هذا القسم الجديد، فيمكننا عندها أن نقول إن لدينا أدلة قاطعة على أن الكاتب قد حدّد «الانتقال الموضوعي» في خطابه بعلامة معينة. ذلك أننا رغم كل شيء نمارس عملا وصفيا لا تقنينيا ونحن نقوم بتحليل الخطاب. كما أننا لا نريد أن نحدد للكاتب كيفية تنظيم خطابه المكتوب إلى فقرات قبل أن نتمكن - بقدر ما من الشمول - من وصف الطريقة المميزة التي يجري بها الكتّاب ذلك عمومًا.

يبدو أن البحث في ما يفعله الكتاب بشكل مميّز لإبراز البنية التي تأتي عليها نصوصهم يمثل هدفا أكثر ملاءمة لتحليل الخطاب. فبدلا من أن نستبعد، مثلا، هيكل الفقرة الشكلية كما نجده في المقالات الصحفية على أنه انحراف نوعا ما عن بنية الفقرة «الحقيقية» لما هو مكتوب، فلعله من الأنسب لمحلّلي الخطاب أن يصفوا هيكل النص الصحفي كشكل من أشكال التنظيم التي يأتي عليها الخطاب المكتوب. عندها، يكون بالإمكان أن نصف بنية الفقرة في نصوص من أنواع شتى، من قبيل النصوص التي نجدها في الكتب العلمية المدرسية، أو في دليل إصلاح، أو في روايات من القرن التاسع عشر... إلخ، وأن نصدر أحكاما بشأن «القواعد» مثلا أو المظاهر المنتظمة التي يتم بها الانتقال الموضوعي في مثل تلك الأنواع.

وبناء على وصف من هذا القبيل لعلامات «الانتقال الموضوعي» الخاصة بكل نوع، يصبح بالإمكان إصدار أحكام لسانية، في مقابل الأدبية، بشأن بنية الخطاب المكتوب في الإنجليزية، وهي أحكام تعكس الغرض الذي يرمي إليه الكاتب. على هذا النحو، يجب على الكاتب - وهو يصوغ نصا من الخطاب السردي (القصصي) - أن يقدم بعض العلامات الدالة على تغيّر الزمن والمكان، كما أشار إلى ذلك جرايمز (١٩٧٥م ص ١٠٢). أما إذا أراد أن يناقش مسألة فلسفية، فبإمكان الكاتب أن ينتقل على مدى أزمنة وأماكن كثيرة داخل فقرة واحدة، لكن عليه عندها أن يضع مؤشرات معينة تبرز التحوّلات التي تتخذها وجهة نقاشه. فلو أخذنا بشكل عشوائي صفحة من كتابات كارل بوبر، مثلا، لرأينا بنية الخطاب متمثلة في شكل هيكل من خلال أول عبارة أو جملة من كل فقرة.

[١٥] **الفقرة ١: لقد طرحت أسئلة أخرى أحيانا...**
الفقرة ٢: وهناك سؤال آخر مطروح أحيانا هو...
الفقرة ٣: الجواب الصحيح الوحيد هو الجواب المباشر...
الفقرة ٤: كما قيل أيضا إن مشكلة الاستقراء هي...
(بوبر، ١٩٦٣م ص ٥٦)

كما سيصير من الممكن أخيرا أن نحدد تلك المؤشرات الدالة على «الانتقال الموضوعي» والتي تأتي في كل أشكال الخطاب المكتوب. وقد نجد أن استعمال «لكن»

في بداية فقرة هو بالفعل كما يصفه فان دايك (١٩٧٧م، ص ١٣٩) علامة عامة جدا على تغيّر الموضوع. ومن الأمثلة الأخرى على ما يسميه فان دايك (١٩٧٧، ص١٥٠) بأدوات الربط البنائي الكبرى و«زيادة على ذلك»، «غير أن»، و «إذن».

وسنناقش مفهوم البنى الكبرى في الخطاب في الفقرة ٣,٧ حين نتطرق إلى تحليل الخطاب القائم على القضية.

٣,٦,٢ الفقرات النغمية

لقد ركزنا حتى الآن على المؤشرات التي تشكل بنية الخطاب المكتوب. أما الخطاب المحكي، فلا نرى فيه ذلك الفراغ المميز لبداية السطر الأول من كل فقرة والذي يدل على وجود تقسيم في بنية الخطاب. فكيف يبرز المتكلمون نقاط «التحول الموضوعي» في كلامهم؟ هناك اقتراح بوجود وحدات بنائية في الخطاب المحكي، في الواقع، تأتي في شكل «فقرات كلامية» وتعرف بـ«الفقرات النغمية» (انظر: براون، ١٩٧٧م ص ٨٦).. وهناك طرق مختلفة لإبراز حدود «الفقرات الكلامية» يمكن أن نجد لها بعض الدعم في الممارسات السائدة لدى بعض الناس حين يطلب منهم أن يقرأوا نصوصًا مكتوبة بصوت عال. فهم يستعملون إشارات تنغيمية معينة كعلامة على بداية فقرة جديدة. وتعرف الفقرة الكلامية أو الفقرة النغمية، كالفقرة الشكلية، بمؤشرات معينة تبرز حدودها. فاستعمال علامة معينة للدلالة على بداية فقرة نغمية إذن طريقة يمكن أن يلجأ إليها المتكلمون للإشارة إلى حصول تحول موضوعي. وبما أن مفهوم الفقرة النغمية غير مألوف كثيرًا بالمقارنة مع مفهوم الفقرة الشكلية، فلعلّه من المفيد أن نناقش المظاهر التي تساعد على تحديده.

في مطلع الفقرة النغمية، يستعمل المتكلم بشكل مميّز عبارة استهلالية يعلن بها بالتحديد ما ينوي التحدث بشأنه. ويجعل المتكلم هذه العبارة الاستهلالية بارزة من الناحية الفونولوجية، وقد يسوق كامل العبارة أو الجملة الأولى من الفقرة النغمية بنغمة مرتفعة. وتوضع لآخر الفقرة النغمية علامة شبيهة بـ«علامة النوبة الحوارية» التي ناقشها أولئك المهتمون بالبحث في الخطاب التحاوري بوصفه عملية تفاعل اجتماعية (انظر: دنكن، ١٩٧٤م؛ ساكس وزملاؤه، ١٩٧٤م). ويمكن أن يعلّم عليه

بنغمة شديدة الانخفاض، تقع حتى على العناصر المعجمية، وبفقدان في سعة الموجة الصوتية، وبوقفة طويلة. ويمكن للمتكلم، بدلا عن ذلك أن يستعمل جملة تلخيصية، يكرر بها في الغالب العبارة الاستهلالية، وذلك في نغمة ليست منخفضة بالضرورة، وتكون متبوعة كذلك بوقفة طويلة. وأكثر العلامات الدالة على نهاية الفقرة النغمية انتظاما الوقفة الطويلة التي تتجاوز مدتها عادة الثانية[(١١)].

تبدأ الفقرة النغمية بعبارة استهلالية تساق في نغمة عالية جدا على المدى النغمي، وتنتهي بالعبارة نفسها في نغمة منخفضة ضمن التلخيص الذي يورده المتحدث لكلامه. وتأتي الوقفات في وسط الكلام قصيرة، فلا تتجاوز أي منها نصف الثانية، لكن الوقفة الأخيرة التي تدل على نهاية الفقرة النغمية طويلة (ومدتها ١,٦ ثانية). تلك هي المؤشرات الشكلية المميزة للفقرة النغمية. هناك بطبيعة الحال مظاهر داخلية، كالتماسك الدلالي داخل الحقل المعجمي المحدّد، يمكن أن يلجأ إليها للقول إن هذه الكتلة الخطابية تمثل وحدة من نوع خاص. لكن هذا الضرب من التماسك الداخلي لا يشكل مظهرًا لازمًا من مظاهر الوحدة البنائية التي سميناها الفقرة النغمية.

يمكن لبعض المظاهر التي وصفناها بمؤشرات على حدود الفقرة النغمية في الخطاب المحكي أن تكون لها وظائف أخرى. فبالرغم من أن الوقفة الطويلة قد وصفها تشايف (١٩٧٩م ص ١٧٦) كذلك بأنها علامة على التقطيع في النماذج التي ساقها من الخطاب المحكي، وأنها شبيهة بنظام الفقرات في الخطاب المكتوب، فإن مظاهر التنغيم التي أبرزناها قد تكون لها وظائف أخرى مختلفة تمامًا. وسنناقش بعض هذه الوظائف بالتفصيل في الفصل الخامس. لكن ما وصفناه هو الاستعمال المتدمج لهذه المؤشرات الشكلية من المتكلمين للدلالة على انتقال فيما هم يتحدثون بشأنه. قد تكون هناك علامات أخرى، أكثر خفاء تدل على الانتقال الموضوعي، ويستعملها دارسو

---

(١١) يورد المؤلفان هنا مثالين [١٦ و١٧] على الصفحات أرقام ١٠٢ - ١٠٥ من الأصل الإنجليزي من حوار طويل نوعًا ما يضم فقرة نغمية تصوّر بخصائصها التنغيمية مظاهر مميزة للإنجليزية الأسكتلندية كما هي مستعملة في أدنبرة. لذا كان الوصف الفونولوجي لهذه الخصائص شديد اللصوق بلهجة محدّدة من لهجات الإنجليزية. لهذا رأينا عدم ترجمة المثال وتلخيص النتائج التي توصل إليها المؤلفان من خلاله فيما يتصل بخصائص الفقرة النغمية عمومًا وعلاماتها الشكلية.

الخطاب الحواري، لكننا أهملناها. كما أن دلالة «تحديق المتكلم»، كما وصفه كندون (١٩٦٧م)، و«حركات الجسم» المحددة (دي لونج، ١٩٧٤م) التي تشير إلى تحوّل في الحوار قد تكون لها كذلك علاقة بتغيير الموضوع. إن استعمال أنواع مختلفة من «المالئات» مثل «أجل» و«الهمهمة»، و«لو تعلم» و«التأوه» وغيرها قد يتطابق بشكل منتظم مع نقاط الانتقال الموضوعي. إلا أننا ركزنا على بعض المؤشرات الشكلية الأولية التي يسهل التعرف عليها، والتي يستعملها الكتاب والمتكلمون للإشارة إلى التقسيمات البنائية في خطابهم. ونؤكد مجدّدا على أنه بالرغم من تمكننا بشكل منتظم من التعرف على مثل هذه المؤشرات، إلا أن ظهورها في الخطاب ينبغي ألا يعامل بأيّ حال على أنه «خاضع لقواعد». وتمثل هذه المؤشرات خيارات قد يلجأ إليها الكتاب والمتكلمون لتنظيم ما يودّون قوله. إن عدم استعمال علامات صريحة على التنظيم البنائي لما يريد المتكلم قوله ربما يجعل مهمة التأويل صعبة على المتلقي، لكن ذلك قد لا يعني بالضرورة في حد ذاته قصورًا في عملية الإبلاغ.

٣,٧ موضوع الخطاب وتصوير محتواه

رغم محاولتنا إعطاء أمثلة على بعض أنواع المؤشرات الحدودية التي يمكن التعرف عليها سواء في النصوص المحكية أو المكتوبة فإن السمة الملحوظة على الدراسات التي سقناها في هذا المجال هي تركيزها الذي يكاد يكون تامًا على تحليل النصوص المكتوبة. هذا الانحياز الكبير إلى استعمال الأمثلة المكتوبة يوجد كذلك في الدراسات التي تتعلق بمحتوى الخطاب، وفي واقع الأمر نجد أن الأمثلة المكتوبة التي توفر عنها تحليل للمحتوى تتمثل غالبًا في مجموعات من الجمل التي صنعها المحلّل. سنشير إلى بعض عيوب هذه المقاربة عند دراستنا للمنهجيات المتعددة التي تم اقتراحها لتصوير محتوى الخطاب.

تنبني الكثير من الدراسات التي سنسوقها على فرضية تقول بوجود رابطة محددة بين «موضوع الخطاب» و«محتوى الخطاب». فموضوع الخطاب يعتبر إلى حدّ ما شاملا للعناصر «المهمة» الموجودة في محتوى الخطاب. ولو أمكن عرض عملية تصوير محتوى الخطاب في شكل سلّم هرميّ للعناصر الموجودة في الخطاب لاعتبرنا العناصر

الواقعة في أعلى السلّم مرشحة تلقائيًا لأن تكون المكونات «الأكثر أهمية» في موضوع الخطاب. ولو أمكن كذلك إثبات قدرة الناس على تذكّر هذه العناصر العليا في السلّم أكثر من غيرها فإن ذلك قد يكون دليلا على أن ما نحمله في رؤوسنا بعد قراءة النص هي تلك العناصر التي تمثل موضوع الخطاب. ولتقييم مثل هذه المقاربة فإن علينا إلقاء نظرة ناقدة على كيفية الوصول إلى مثل هذه العمليات التصويرية لمحتوى الخطاب.

اهتم العديد من الباحثين في السنوات الأخيرة وخاصة أرباب علم اللغة النفسي منهم بإنتاج نماذج لتصوير المحتوى الدلالي أو المحتوى الخبري للنصوص. ومن المفاهيم المشتركة بين العديد من هذه المحاولات لتصوير المحتوى الدلالي نذكر مفهوم القضية، وهو مفهوم نابع من علم المنطق التجريدي لكنه يستعمل دون ضوابط اصطلاحية فيما يكتب في تحليل النصوص، وذلك للحديث عن مفاهيم قد يكون من الأفضل اعتبارها «تقارير» أو «جملا بسيطة». ففي حين يغلب اعتبار القضية عند المناطقة تعبيرا عن المعنى المستقل عن السياق والذي لا يتغيّر والذي يتحقق في جملة (تقرير) فإن دراسات تحليل النصوص تنظر «للقضية» غالبًا على أنها تمثل تأويلا نموذجيًا لجملة – نص حسب استعمالها في سياق.

وفي تعليقه على الجدل الذي ارتبط بهذا المفهوم، يقول لاينز (١٩٧٧م ص ١٤١): يعدّ بعض الكتاب القضايا مسميات غاية في التجريد ولكنها إلى حدّ ما موضوعية.. في حين يعدّها آخرون ذاتية أو نفسية.. وتتولد مشكلات إضافية عند استعمال مصطلح «القضية» بالمقارنة مع «الجملة» و«التقرير». فالبعض يعرف القضايا على أنها جمل (تقريرية) ويساويها البعض الآخر بالتصريحات في حين يربطها آخرون بمعاني الجمل (التقريرية). وفي كل هذا قلّما نجد استعمالا مطردا لتعريف «التقرير».

يتم التعبير غالبًا في منشورات تحليل النص عن «القضايا» بصفتها مجرّد علاقات بين مسند وحججه، وهي تصوّر كما في (١٨أ):

[١٨] ضَرَبَ جون لماري
[١٨أ] ضرب (جون، ماري)

إن التمثيل المعبّر عنه هنا في (١٨ أ) يعدّ عادة القضية الوحيدة التي يمكن استعمال جملة – نص مثل (١٨) للتعبير عنها. ويقرر المحلّل التأويل الوحيد المناسب للجملة من خلال اختياره للتمثيل الدلالي في (١٨ أ). وسنشير فيما بعد إلى بعض المشكلات التي تثيرها هذه المقاربة. وترتبط خاصية عامة أخرى لمقاربة تحليل النص لمفهوم «القضية» بالبعد النفسي للتمثيل الدلالي، فالعديد من أخصائي علم النفس المعرفي الذين يقومون بتحاليل لمحتوى النص يرون ضرورة اعتبار القضايا التي تحتويها نماذجهم متمثلة في ما يوجد في ذهن المتكلمين بعد قراءتهم لمقطع نصّي. وتُعد هذه القضايا بنى تصوّرية. وسنناقش في دراستنا هذه بعض المشكلات المترتبة عن هذه المقاربة. وعموما فإن مصطلح «قضية» كما نستعمله فيما يلي يجد أفضل تعبير عنه في تسميته بـ«التمثيل الدلالي».

يمكن العثور على مقاربة ذات أثر بالغ لتحليل التمثيل الدلالي للنص في أعمال فان دايك (١٩٧٧م). وينبع منهج فان دايك التحليلي من محاولاته كتابة «نحو للنص» (انظر بالمقارنة فان دايك وزملاته ١٩٧٢م، فان دايك، ١٩٧٣م) ولكن هذه المحاولات تطوّرت لتشمل تصوير محتوى لـ«موضوع الخطاب». وبما أننا توسعنا بما فيه الكفاية في دراسة تصوير «الموضوع» فإننا سنعالج تصوير فان دايك لمحتوى الخطاب من زاوية تحليله لكيفية ضبط خصائص «الموضوع».

وضع فان دايك (١٩٧٧م) لنفسه مهمة تقديم تفسير شكلاني علمي لمفهوم «موضوع الخطاب». وفي معرض تحليله لمقطع من نص مكتوب يقترح فان دايك أنه بالإمكان التعبير عن الموضوع بصفته قضية معقدة ناجمة منطقيًا عن اجتماع مجموعة من القضايا التي تم التعبير عنها من خلال سلسلة الجمل في النص. وينبغي التنويه هنا بقوة إلى أن تحليل فان دايك يستند إلى تمثيل دلالي كامن للنص بدلا من سلسلة الجمل التي يتكون منها النص. إن التمثيل الدلالي للنص هو «بنيته الكبرى التي تعرّف» معنى أجزاء من الخطاب ومعنى الخطاب برمّته بناء على معاني كل جملة «(فان دايك، ١٩٧٧م ص ٦). فعلى سبيل المثال تُعد البنية الكبرى لمقطع خطابي مكوّن من جملة واحدة غير معقدة القضية الكامنة. ونسوق مثال فان دايك على هذه العلاقة تحت رقمي (١٩) و(١٩أ) حيث تعتبر (١٩أ) التمثيل الدلالي (أي البنية الكبرى) للجملة (١٩):

[١٩] سيسافر بطرس إلى باريس الأسبوع القادم

[١٩أ] يسافر إلى (بطرس، باريس) والأسبوع القادم (أ)

(فان دايك، ١٩٧٧م ص ١٣٧)

لو افترضنا إمكان توصلنا لإنتاج قضايا كامنة من هذا القبيل لكلّ جملة مأخوذة من مقطع نصي أطول للزم أن يكون واضحا أن التمثيل الدلالي الناتج سيكون بحجم المقطع النصي نفسه، إن لم يكن أكبر منه. يبدو أن التمثيل الدلالي ليس سوى ترجمة (و تُعد بالمناسبة تأويلا) للمقطع النصي إلى شكل بديل. ولا يبدو أن هذه الطريقة تزودنا بوسيلة للتعرف على «موضوع» المقطع الخطابي، إذ لا يمكن أن يكون التمثيل الدلالي هو «الموضوع»، فنحن لا نتوقع قطعا أن يكون التعبير عن موضوع خطاب معيّن أطول من الخطاب نفسه. بل واقع الأمر -كما أشار إلى ذلك فان دايك نفسه- أن «موضوعات الخطاب تبدو كأنها تقلّص وتنظم وتصنف المعلومات الدلالية الموجودة في تسلسل الكلام إلى مجموعات» (١٩٧٧م ص ١٣٢). ولا نجد هنا وسيلة ترينا بشكل علمي منظّم كيفية «تقليص» التمثيل الدلالي لنحصل على تصوير لموضوع الخطاب. بل على العكس يطلب من المرء أن يعود للمقطع النصّي، ويصنع جملة تبدو كأنها تلخيص لأهم النقاط في هذا المقطع النصي، ومن ثم يترجم هذه الجملة إلى تمثيل دلالي. وفي تعامله مع مقطع نصّي موسّع يحتوي على خمس فقرات طلع فان دايك علينا بالجملة (٢٠) ومن ثم ترجمها إلى التمثيل الدلالي (٢٠ أ) الذي تم اعتباره فيما بعد موضوع الخطاب.

[٢٠] مدينة (صغيرة) (تسمى فارفير) في طريقها إلى التدهور لأنها غير قادرة على منافسة مدينة أخرى (تسمى بانتون فيل).

[٢٠أ] مدينة (أ) + مدينة (ب) [يمكن (أ) (التنافس مع (أ، ب)] (د) + سببه (د، ح) + [تدهور (أ)] (ح).

فان دايك، ١٩٧٧م ص ١٣٤)

قد يكون إذن من الممكن الإتيان بدليل أننا نستنتج منطقيًا القضية المعقدة في (٢٠أ) من اجتماع مجموعات القضايا في التمثيل الدلالي للنص بكامله. عندئذ

سنحصل على الدليل عبر الروابط الشكلانية بين القضايا. ولكن تحديد ما إذا كان بالإمكان فعلا تحقيق هذا الدليل هو من اهتمامات أرباب المنطق لا اللسانيين (علما بأن فان دايك لا يزوّدنا بدليل).

إن ما يهمّ اللغويين لا محالة في دراستهم لمفاهيم مثل «موضوع الخطاب» هو حقيقة كون الوسيلة الشكلانية التي زعم فان دايك إمكان استعمالها للتعرف على موضوع مقطع خطابي مجرّد سراب لا حقيقة له. فلا تصوير الموضوع ولا التمثيل الدلالي لكامل النص مأخوذان من أي طرح يزيد شكلانية عن تأويل المحلل لما يعنيه النص. ولكي يحصل على موضوع الخطاب فإن فان دايك لا يزيد على ما يطلب من أطفال المدارس فعله باستمرار من قبل مدرّس الإنجليزية ألا وهو إنتاج جملة واحدة تلخص النص المدروس. وكما لا يخفى على أي مدرس لغة إنجليزية فإن هذا التمرين أقل صعوبة إلى حدّ كبير في بعض المقاطع (وهي النصوص الوصفية أو الحكايات البسيطة) منها في بعض المقاطع الأخرى (كما في النثر الخطابي أو الشرحي) وهو يفرز لا محالة تأويلات مختلفة ومتنوعة وإن كانت مرتبطة فيما بينها لما يجب احتسابه في هذه الجملة «الموضوع». (وقد قمنا بملاحظة مشابهة فيما سبق عند دراستنا للعناوين الممكنة لمقاطع الخطاب).

إن فان دايك يزوّدنا على مستوى الخطاب بطريقة لتجريد تأويلاتنا لمجموع معاني الجمل في النص، وكذلك للجملة الملخصة للنص نفسه، ويزعم أنه بالإمكان التدليل على وجود علاقة استلزام منطقي بين هذه التأويلات. وهذه الصيغة هي في أفضل الأحوال وصفة لتحديد الموضوعات الممكنة لخطاب معين لا الموضوع (الوحيد) لهذا الخطاب. وبما أنه بالإمكان مسبقا تحديد الموضوعات الممكنة لخطاب معيّن دون الاعتماد على المنطق، فهذا يعني أن هذه الترجمة المعقدة إلى تمثيلات منطقية دلالية لا حاجة لنا بها.

لقد عاملنا القضايا إلى الآن على أنها ضرب من الترجمات التي يسهل الحصول عليها لجمل من اللغات الطبيعية وهي تمثل «معنى» تلك الجمل. إلا أن العديد من الكتّاب بمن فيهم فان دايك (١٩٧٧م) يرون أن القضية تمثّل مفهوما أو بنية تصوّرية، وأن شكل القضية - والطرح هنا هو الصيغة القوية لهذا الزعم - هو التمثيل الذي يتم

بموجبه استعمال كل المعلومات وتخزينها. فإذا أمكن القيام بتمثيل لمقطع نصّي بالاعتماد على قضايا ينظر إليها على أنها مفاهيم في ذهن القارىء، فيترتب على هذا ضرورة أن يكون محلل الخطاب قادرا، ليس فحسب على تحليل المقطع النصي بل كذلك على تحليل التمثيل الذهني لذلك النص، أي أن محلّل الخطاب بإمكانه أن يزعم أن نتاج تحليله ليس فقط مجرّد تفسير جيد للحقائق («جيد» من منظور تحليلي بالنظر إلى اعتبارات مثل الاقتصاد والشمول) بل إنه يمكنه كذلك أن يزعم أن نتاج تحليله «حقيقي» نفسيّا. أي أن هذا النتاج هو ما يحمله الناس في رؤوسهم بعد قراءة النص. وبطبيعة الحال يؤدّي مثل هذا الزعم إلى نشوء أطروحات تمسّ طبيعة عملية تذكّر النصوص كما في فرضية كنتش القائلة بأنه «ينبغي أن تكون المدة الزمنية اللازمة لقراءة فقرة معينة وتذكّرها متماشية مع عدد القضايا التي تشتمل عليها» (كنتش، ١٩٧٤ ص ١٣٥).

وتدعيمًا لهذا النمط من الفرضيات توجد أدلّة مخبريّة تشير إلى أن النصوص - أو حتى الجمل المنفردة - لا تخزّن في الذاكرة على علاّتها (انظر برانسفورد وفرانكس ١٩٧١م). وبالفعل فنحن نعرف من معايشتنا للواقع إلى حدّ ما أن محتوى النص أو زبدته وليس كلماته هو ما يمكننا تذكره. فلو أمكن التعبير عن محتوى نص ما على أنه بنية أساسية تتكوّن من مجموعة من القضايا التي يمكن التعرف عليها، عندئذ يمكن اعتبار هذه المجموعة النموذج الذي في الذاكرة عن ذلك النص بعينه وأساس ما تم تذكّره، لا الكلمات نفسها. وبما أن مستعملي اللغة لا يعبّرون عن أنفسهم في صيغة قضايا منطقية، فإنه من الصّعب تجربة هذه التركيبة لكيفية تذكر النص بصفة مباشرة. وقد اقترح كنتش وكينن (١٩٧٣م) تجربة غير مباشرة يفترض بموجبها أن يتطلب نصان يشتركان في نفس الطول تقريبا ولكنهما يختلفان في عدد القضايا الكامنة بهما مددا من الزمن مختلفة للقراءة/ الفهم. ونقدّم بعض الأمثلة المستعملة في هذه التجربة مع تحاليلها كقضايا تحت رقم (٢١) و (٢٢). في كل قضية يوجد في البداية مصطلح رابط يكون مشفوعًا بحجّة واحدة أو أكثر. ويمكن للقضايا أن تكون حججًا لقضايا أخرى.

[٢١] أخذ روميولس المؤسس الأسطوري لروما نساء السابين بالقوة

(١) (أخذ، روميولس، النساء، بالقوة)
(٢) (أسس، روميولس، روما)
(٣) (أسطوري، روميولس)
(٤) (السابين، نساء)

[٢٢] كان سقوط كليوباترا بسبب ثقتها العمياء في الوجوه السياسية المخادعة في العالم الروماني.

١- (بسبب، ألفا وبيتا)
٢ - (سقوط، كليوباترا) = ألفا
٣ - (ثقة، كليوباترا، الوجوه) = بيتا
٤- (عمياء، ثقة)
٥ - (مخادعة، وجوه)
٦ - (جزء من، الوجوه، العالم)
٧ - (الروماني، العالم)

وعندما طلب من المشاركين في التجربة تحديد موعد انتهائهم من قراءة هذين المقطعين النصّيين وفهمهما، تبيّن بالفعل أنهم استغرقوا وقتًا أطول بشكل ملحوظ في (٢٢) منه في (٢١). وهذه النتيجة ربما كانت تدعّم هذه الفرضية.

يوجد على يسار مجموعة القضايا سواء في (٢١) أو في (٢٢) تمثيل للعلاقات الهرمية التي يزعم وجودها بين القضايا. أي أنه لا يمكن اعتبار تمثيل النص مجرّد قائمة بالقضايا، بل لا بدّ أن يبيّن هذا التمثيل تبعية بعض القضايا لقضايا أخرى. وفي تجربة أخرى طلب فيها من المشاركين تذكر ما كانوا قد قرأوه، تبيّن أنهم تذكّروا قضايا موجودة في أعلى السلم الهرمي بسهولة أكبر من تذكّرهم للقضايا الموجودة في وضع تبعيّة.

وهذا لا يعني فقط أن التصوير الذهني للنص يتخذ شكل مجموعة من القضايا، بل يعني كذلك وجود تنظيم هرميّ لهذه المجموعة. وقد يعني كذلك ـ وإن كان كنتش وكيتز (١٩٧٣م) لا يصرّحان بهذه النقطة ـ أن أعلى قضية في هذا السلم هي مرشح واضح لأن يكون «القضية - الموضوع» في النص - عندها يصبح بالإمكان وصف البنية الموضوعية للنص بالاعتماد على العلاقة الهرمية بين القضايا، بحيث نحصل

على تفسير للعلاقة التي سعى فان دايك (١٩٧٧م) إلى التعبير عنها بين القضية التي تمثّل «موضوع الخطاب» ومجموعة القضايا في ذلك الخطاب. هكذا يمكن تعريف كل قضيّة داخل مجموعة القضايا بصفتها تابعة هرميًا للقضية - الموضوع.

لقد استعرضنا بشيء من التفصيل التحليل القائم على تحديد القضايا في النص، نظرا لأثره العميق في كيفية تعامل الكثير من الدارسين مع تحليل النص. وسنناقش في المبحث القادم بعض التطوّرات الطارئة على منهج تحليل بنية القضايا في النص على يد كتاب آخرين. لكن من الضروري أولاً الإشارة إلى بعض المشكلات الأساسية في هذه المقاربة.

ينصب تركيز هذا الطرح القائم على تحديد القضايا في تحليل الخطاب أساسًا على «محتوى» مقطع خطابي، ويستثني من التحليل كل ما عدا ذلك. فهذا كنتش يصرّح أنه سيهمل في تحليله الجوانب النصية والتواصلية. ولعلنا نتبين الدوافع التي أدت إلى قراره هذا في الاقتباس التالي: إن نموذج عملية تذكر النص هو نتاج محتوى النص لا طريقة صياغته. أي أنه بالإمكان تكوين نماذج ذهنية متطابقة تمامًا عن فقرات تكون كلها جزءًا من نفس مجموعة الصيغ البديلة. (كنتش، ١٩٧٤ ص ١٠٧)

إن طرحًا يقوم على مثل هذه النظرة هو بلا شك طرح غير لغوي، لأنه يقرّ بأنه لا يعير اهتماما لاعتبار النص مثالا على اللغة في استعمالها الحقيقي. أي أن تلك الجوانب من بنية النص التي ناقشها في الفصل الرابع مثل «الإخراج» و«إبراز الخبر» والتي تمسّ مباشرة كيفية صياغة المحتوى، لن يكون لها بالتالي أي تأثير على التمثيل في الذاكرة، والواقع أنه من الصعب التوفيق بين هذا الرأي المبالغ فيه شيئا ما وبين أبحاث تجريبية أكثر حداثة أثبتت أن عمليات مثل «الإخراج» و«إبراز الخبر» لها تأثير شديد على عملية تذكر النص (انظر على سبيل المقارنة كلامنتس، ١٩٧٩م).

إضافة إلى ذلك، لو استعمل مقطع نص كمجرّد وسيلة للوصول إلى دراسة التمثيل الذهني فما المانع من أن تقوم أداة غير لغوية مثل الصورة الشمسية بالوظيفة نفسها؟ إن المشكل الذي يعتري الوسائل غير اللغوية هو أنها تبدو غير قابلة تلقائيا للتحليل حسب معايير القضايا. هل توجد إذن طريقة غير عشوائية للتعبير عن «محتوى» صورة شمسية على أنها على سبيل المثال مجموعة من التقارير؟ هنالك

مدرسة فكرية في علم النفس المعرفي تحتج بأن الذاكرة تتكيف مع الوسائل المعروضة عليها (انظر للمقارنة بايفيو، ١٩٧١م). أي أن تذكّرنا لتجربتنا لشيء ما يتخذ نماذج مختلفة تبعا لكيفية معايشتنا له: مثلا هل كان ذلك بالاعتماد على حاسة البصر أم السمع؟ وهذا من شأنه أن يؤدي إلى نماذج ذهنية مختلفة لنفس «النص» بناء على ما إذا كنّا تعاملنا معه عن طريق المنطوق أم المكتوب. فحسب هذا الطرح الذي يناقض مباشرة طرح كنتش تؤثر كيفية التعبير عن النص بشكل ملحوظ على النموذج الذهني له.

يمكن بطبيعة الحال الاحتجاج بأن تحليلاً قائمًا على القضايا يزودنا بفهم جيّد لجانب من كيفية تصوير الذاكرة لمقطع نصّي، وأن هذا الطرح الأقلّ تطرّفا يمكن الاحتفاظ به طالما تعلق ذلك بالمحتوى الخبري للنصوص المكتوبة فقط. فلو افترضنا وجود تحليل أساسي لمحتوى نص بالاعتماد على قضاياه فبالإمكان إدماج تأثير «الإخراج» مثلا في صلب تحليل البنية الهرمية للقضايا المعنيّة.

٣,٨ بعض مشكلات تحليل محتوى الخطاب بالاعتماد على قضاياه

يحتوي تحليل النصوص الذي يعتمد على قضاياها على مشكل منهجي جوهريّ يجعل من الصعب تطبيقه بأيّ شكل عمليّ في تحليل الخطاب، إذ يحتاج محلّل الخطاب إلى أن تكون لديه القدرة على تحليل مقاطع نصيّة تعترضه في الجرائد والمجلات والروايات والكتب الدراسية وغيرها. ولا يمكنه بأي حال من الأحوال حصر دراسته في مقاطع نصيّة يصنعها لغرض معيّن.

في الاقتباس التالي يستعرض كنتش أولا المشكل المنهجي البارز الذي يبقى دائما في وجه تحليل النصوص القائم على قضاياها، ومن ثم يقترح الحلّ الذي يرتئيه: من أهمّ المشكلات الرئيسة في مثل هذه الأبحاث عدم وجود طريقة حسابيّة تمكننا من تحليل جملة (أو فقرة) معيّنة بتفكيكها إلى بنيتها الأساسية من القضايا، إلاّ أنه بالإمكان الانطلاق من القضايا نفسها وترجمتها إلى نصوص إنجليزية. (كنتش، ١٩٧٤م ص١٢٤)

معنى هذا أن كنتش يقول إنه رغم وجود منهج يبدو في الظاهر شديد التجريد وكأنه بالتالي موضوعيّ، فإن تحليل النصوص في اللغات الطبيعية بالاعتماد على

قضاياها هو لا محالة ذاتيّ. فلو أن المحلّل زعم أنه قادر على إنتاج مجموعة القضايا لمقطع نصّي، وهو كما أشرنا ما زعمه فان دايك (١٩٧٧م)، فإن مجموعة القضايا تلك تمثّل بالضرورة تأويلا واحدًا ولا يمكن في الواقع تجربتها. بل كل ما يمكن فعله هو أن يتحداها محلّل آخر بقوله «إن نموذجي الذهني يختلف عن نموذجك» ولا توجد طريقة مقنّنة تمكّننا من الفصل في المسألة وتقرير أيّ النموذجين أصحّ أو حتى أفضل. بل يمكن القول إنه قد لا يوجد تمثيل دلالي صحيح واحد (بمعنى مجموعة قضايا) لنص معيّن (أو حتى لجملة واحدة كما يرى تشايف (١٩٧٧م أ)) إذا اعتبر ذلك التمثيل الدلالي شيئًا يدور في رأس الناس.

إضافة إلى ذلك قد يكون الحلّ الذي اقترحه كنتش مقبولا من وجهة استدلاليّة بحتة في علم النفس التجريبي، ولكن لا يمكن أن يكون له في تحليل الخطاب إلا تطبيق محدود إلى أبعد الحدود. قد يكون بالفعل صنع مجموعة من الجمل من أصل مجموعة من القضايا دليلا على أن للنصوص المكتوبة بلغات طبيعية بنية من القضايا، لكن هذا الطرح دائريّ للأسف.

يمكن أن نجد لدى كلارك وكلارك (١٩٧٧م) محاولة للبحث عن علاقة مناسبة بين القضايا والنصوص المكتوبة بلغات طبيعية من شأنها تجنّب الزعم القائل بأن محتوى النصوص يخزّن في الذاكرة في شكل قضايا. وهما يقترحان أنه «حتى لو تمّ تمثيل المعلومات في أشكال تختلف عن القضايا فقد يقول قائل إنها لا بد أن تحوّل إلى قضايا قبل أن تستعمل، إمّا في عملية استخدام حقيقي أو في بحث الذاكرة عنها لغرض صناعة الجمل» (كلارك وكلارك، ١٩٧٧م ص ١٦٤). وقد عبّر تشايف عن موقف مماثل (١٩٧٧م ب) يقول إن «معارفنا ليست مخزّنة في شكل قضايا إطلاقا . . . فالشكل الأساسي لما يخزّن قد يتكون من أحداث وأشياء لها تميّز خاص، لكل واحدة منها محتوى قياسي . . . إلى أن تجعل الحاجة إلى استعمالها من الضروري اتخاذ قرارات تتعلق بالقضايا» (تشايف، ١٩٧٧م ب ص ٥٤).

في كل من هذين الشاهدين يتبيّن بجلاء أن تكوين القضايا ليس سوى جزء من عمليّة إنتاج الجمل. إذن فالقضية ليست سوى هيكلة جزئية لما يريد متكلم أن يبلغه، وهي بالتالي جزء من عملية الإحداث الكلامي. وبهذا المعنى لا يمكن أن ننظر لجملة

معيّنة على أنها مستمدة من مصدر واحد للقضايا . فقد تكون الجملة نتاجا لعدة قضايا مختلفة . ويكفي للتدليل على هذا أن نسوق مثالا لآلوود وآندرسن وداهل (١٩٧٧م ص ٢٠) نقدّمه هنا تحت رقم (٢٣) :

[٢٣] إنه جائع الآن.

فالجملة في (٢٣) عندما أصدرتها جوزيفين للحديث عن نابليون في عام ١٨٠٦م تعبّر عن قضية مختلفة عن الجملة نفسها عندما استعملتها كروبسكايا للحديث عن لينين عام ١٩٢٠م . ينبغي أن يكون واضحا إذن أن أيّ تحليل للجمل في نص ما بالاعتماد على القضايا المستعملة في إنتاج تلك الجمل لا بدّ له أن يعتمد كذلك على بعض جوانب من السياق الذي قيلت فيه تلك الجمل . هكذا بالضرورة يتضح المشكل الناجم عن محاولة استنتاج القضايا الكامنة في جملة معيّنة . فهذا يعني استنتاج القضية التي كان قائل الجملة يقصد أن تؤديها جملته . ولهذا فعلى محلّل الخطاب الذي يريد أن يقدم تحليله في شكل قضايا أن يتبيّن أن تحليله لا يمثّل ترجمة مباشرة من معنى الجملة إلى شكل بديل بل هو في الواقع تأويل للمعنى الذي قصده المتكلّم/ الكاتب من خلال إنتاجه للخطاب .

وكما سبق لنا بيانه فإن البحث عن المعنى الذي قصده المتكلم/ الكاتب يتطلّب معرفة تفاصيل عديدة إضافة إلى التفاصيل الموجودة في الوثيقة النصية لإنتاج المتكلم/ الكاتب اللغوي، فلو استعملنا هذه المعرفة في عملية «فهمنا» المقاطع لغوية فيلزم تباعا أن يضمّ أي تحليل له مزاعم عن «عملية الفهم» تلك المعرفة في تمثيله لتلك العملية. فالمحلّل الذي يقتصر على إنتاج مجموعة من القضايا كتمثيل لما يفهمه هو عند قراءته لجمل نص معيّن يكون في الواقع قد فشل في إبراز بعض الجوانب عن كيفية توصّله لذلك «الفهم» . ويصبح هذا الفشل أكثر وضوحا عندما يحاول هذا المحلّل استعمال تمثيله هذا المبني على القضايا في النمذجة الحاسوبية لعملية فهم اللغة، حيث إن كل المعارف التي افترضها المحلّل غير متوافرة للحاسوب . فكما شرح ذلك ستنيدمان

وجونسون لارد (١٩٨٠م ص ١١١) «من نقاط الضعف التي يشتهر بها الحاسوب سطحيته وعدم قبوله لحالات عدم الدقة» . فلكي يتصرّف الحاسوب كأنه «يفهم» مقطعا نصيّا فلا بدّ أن نزوّده بطريقة لتحليل الجمل في النص، إضافة إلى بعض المعلومات العامة تمثل السياق الذي يجب أن «يفهم» النص في إطاره . وكنتيجة لذلك وجد العاملون في فرع الذكاء الاصطناعي الذي يحاول نمذجة عملية فهم النصوص أنفسهم يقومون بالكثير من عمليات تحليل الخطاب الحقيقية . وهم عموما لم يعتبروا التحليل القائم على القضايا الذي يقترحه فان دايك وكنتش منهجا مفيدا . سنستعرض بعض المناهج البديلة المستعملة في النمذجة الحاسوبية لعملية فهم النصوص في الفصل السابع .

٣,٩ تعامل الذاكرة مع محتوى النص: أطروحات نحو الجملة

رغم الاعتراضات الممكنة التي قد توجه ضدّ تمثيل محتوى النصوص في شكل سلّم هرميّ للقضايا فقد تمّ استعمال هذه المنهجية الأساسيّة بدرجات متفاوتة من التجريد في العديد من الدراسات الخاصة بتنظيم الخطاب .

وقد اهتمت غالبية هذه الدراسات بكيفية معالجة الذهن لمحتوى النص في عملية الفهم، وكيفية تخزين ومن ثم استرجاع الذاكرة له . يتعيّن ملاحظة أن مثل هذا الاهتمام يختلف إلى حد كبير عن الاهتمام الذي تبني عليه عادة أغلب الدراسات اللسانية الأخرى . فاللساني النظري يتعامل عادة مع معايير مثل الاقتصاد والاتساق والشمول عند دراسته مزاعم متنافسة حول أوصاف بديلة للظواهر اللغوية . إلا أننا من جهة أخرى نجد أن المعايير المستعملة في ترويج صيغة تمثيلية معينة تتعلق عادة بدرجة دقة المواد المتذكّرة (أي ما ينتجه القرّاء كروايتهم المتذكرة لما قرأوه) وكذلك بسرعة القراءة و«الفهم» .

لذلك ينبغي التعامل مع نماذج تمثيل محتوى النص التي يقترحها روملهارت (١٩٧٥م و١٩٧٧م) وثورندايك (١٩٧٧م) على سبيل المثال والمشار إليها غالبًا على أنها «نحو للقصة» كما لو تعاملنا مع «النحو» الذي يقترحه اللساني . فمن منطلق أساسي

يصعب جدًا التفكير في مفهوم المثال العكسي مثلا عند التعامل مع «نحو القصة» نظرا لأن لمكوّنات هذا النحو تعريفات غير دقيقة إلى أبعد الحدود. ففي نحو البنية الشبجملية التي تحتوي على مكوّن يسمّى «شبه جملة اسمي» لدينا تصوّر واضح إلى حدّ كبير لما يمكن إدخاله من العناصر الموجودة في الجملة داخل شبه الجملة الاسمي وما لا يمكن إدخاله فيها. بل إنه بالإمكان في الواقع استعراض قائمة هذه المجموعة بشكل يكاد يكون مستوفيًا. ولكن ماذا يسعنا يا ترى أن نضع على يمين[١٢] سهم توسيع لمكوّن يسمّى «الحدث»؟ فمن الصعب أن نتصوّر قائمة وافية للصيغ المقبولة التي يمكن أن يتحقق بها حدث.

بعد أن أخذنا بعين الاعتبار هذا التحذير عن وضع نماذج تمثيل المحتوى والموجودة في نحو القصة، لننظر الآن في بعض الأمثلة (للحصول على استعراض شامل لأنماطها المختلفة انظر باكوفيتش وثورندايك ١٩٨١م). يقدّم روملهارت (١٩٧٧م) الرسم التوضيحي المبني على شكل شجرة في (٢٤ أ) كتمثيل لكيفية فهمنا لمحتوى مقطع القصة (٢٤):

[٢٤] بلغ مسامع ماري صوت بائع الأيسكريم قادمًا من أعلى الطريق. فتذكرت المال الذي حصلت عليه في عيد ميلادها وأسرعت باتجاه البيت.

ينبغي ملاحظة عدة جوانب من هذا التمثيل، فقد تمّ استعمال صيغة شبه إخبارية لوصف العقد في الرسم البياني. كذلك نجد أن تنظيم العقد هرميّ بحيث تتبع بعض أجزاء الشجرة من أجزاء أخرى في أعلى الشجرة. لم توسّع كل العقد بل إن بعض العقد قد يكون بحاجة للتوسيع وهذا يحتمل أن تعتمد على ما سيأتي لاحقًا في النص. ويحتوي عدد كبير من هذه العقد على عناصر غير موجودة في النص مثل يسبّب وترغب. بمعنى آخر فإن الرسم البياني (٢٤ أ) ليس تمثيلا لما يوجد فقط في النص (٢٤) بل هو تمثيل لتأويل روملهارت للخطوات المتبعة في عملية فهمنا لهذا المقطع النصّي.

(١٢) في العربية سيكون على اليسار.

٢٤ أ -

الحادثة (ماري)

يسبب (سماع (ماري، بائع الأيسكريم) | تحاول (ماري، الحصول على (مزي، الأيسكريم)) | النتيجة (تحاول ماري الحصول (ماري، الأيسكريم))

تختار (ماري، تشتري آيسكريم) | تحاول (ماري، الحصول (النقود) | تشتري (آيسكريم) | تسبب (تشتري (ماري، آيسكريم، نتيجة)

تختار (ماري، تنفق (ماري، نقود عيد ميلادها)) | تحاول، الحصول (ماري (نقود عيد ميلادها)) | تنفق (ماري، نقود (عيد ميلادها) | تسبب (تنفق (ماري، نقود عيد ميلادها)، نتيجة

تختار (ماري، الذهاب (ماري، إلى البيت)) | تسرع (مزي، إلى البيت) | تسبب (تسرع (ماري، إلى البيت)، نتيجة

(روملهارت، ١٩٧٧م ص ٢٧٢)

ورغم وجود نقاط تشابه سطحية بين تمثيل روملهارت وتمثيل كنتش الذي سبق لنا دراسته والتي تتمثل في احتواء الطرحين على نسخ شبيهة بالقضايا لمحتوى النص مع وجود علاقة هرمية بين تلك القضايا، إلا أن الأسس التي يرتكز عليها كلا النموذجين تختلف بوضوح. فروملهارت على وجه الخصوص أدمج في طرحه ما تعتبر دون شك استنتاجات يقوم بها القارىء عمّا يوجد في النص. هذه العناصر المستنتجة كسماع صوت عربة الأيسكريم الذي يسبّب الرغبة في الأيسكريم هي عوامل ضرورية آلي روملهارت على نفسه أن يدمجها في نموذجه. ومع ذلك فإن هدف روملهارت الرئيس لم يكن دراسة طبيعة تلك الاستنتاجات، بل هو تحديد المكوّنات الرئيسة في محتوى القصص البسيطة. وبناء على ذلك نجده يقارن تحليله لعدة قصص بسيطة والمقدّمة في شكل تمثيل هرميّ بتحليله بتلاخيص المشاركين في التجربة لتلك

القصص، ويخلص إلى القول بأن التلاخيص تضمّ في الغالب مكوّنات موجودة في أعلى درجات سلمه الهرمي، وتترك مكونات موجودة في أسفل درجات هذا السلّم.

وقد طوّر ثورنندايك (١٩٧٧م) تحليل روملهارت للقصص البسيطة فأنتج مجموعة من مكوّنات الخطاب القصصي نظّمها في شكل سلّم هرميّ. ونستعرض هنا في (٢٥) مقطعا من هذه «القواعد»:

[٢٥] ١ – القصة ← الإطار + الموضوع + العقدة + الحلّ
٢ – الإطار ← الأبطال + الموقع + الزمان
٣ – الموضوع ← (الحدث) * + الهدف
٤ – العقدة ← الحادثة*
٥ – الحادثة ← الهدف الفرعي + المحاولة* + النتيجة
٦ – المحاولة ← { الحدث* / الحالة }
٧ – النتيجة ← { الحدث* / الحالة }
٨ – الحلّ ← { الحدث / الحالة }
٩ – { الهدف الفرعي / الهدف } ← الحالة المرغوبة
١٠ – { الأبطال / الموقع / الزمان } ← الحالة

(ثورندايك، ١٩٧٧م ص ٧٩)

مرة أخرى عند مقارنة الأشياء المتذكرة والتلاخيص بالقصة الأصلية (كما حلّل ذلك ثورندايك) تبيّن عموما أن المكوّنات الموجودة في أعلى السلّم الهرمي يتمّ تذكّرها أو إدماجها في التلاخيص بسهولة وتلقائية أكبر، ولكن ينبغي الانتباه إلى أنه يوجد في الواقع ضمن البيانات عن التلاخيص والأشياء المتذكّرة والتي قدّمها كل من روملهارت وثورندايك عدد لا يستهان به من المكونات الموجودة في أسفل السّلم الهرمي أدمجها مشاركون مختلفون.

إن النتائج التي توصّل إليها روملهارت وثورندايك لا ترتبط بشكل خاص بمحتوى النصوص التي استعملاها، بل هي تؤكد بالأحرى وجود تصوّر ذهني للقصة يستعمله القرّاء في عملية تذكّرهم للنصوص القصصيّة، وما ينتج عنها من تمثيل في الذاكرة. أما من وجهة نظر محلل الخطاب فتبقى لديه بالضرورة بعض التحفّظات عن مدى قبول نحو القصة. في الواقع، إن لمفهوم «التصوّر الذهني» إغراءً شديدًا ولسوف ندرسه مرة أخرى بتفصيل أكبر لاحقًا (انظر الفصل السابع). إلا أن نمط التصوّر الذهني في القصة الذي يقترحه روملهارت وثورندايك قد يكون مناسبا فقط للقصص القصيرة البسيطة التي يصنعانها لاستخدامهما الخاص. (ويبدو أنه توجد بالفعل مثل هذه المجموعة من القصص نظرًا لأن القصص نفسها تستعمل مرارًا وتكرارًا في العديد من الدراسات على يد أولئك الذين يزعمون دراسة الخطاب القصصي).

فلو أراد محلّل الخطاب أن يدرس القصص التي تحدث بشكل تلقائي، وعلى وجه الخصوص تلك القصص التي تظهر في غضون المحادثة، فإنه ربما يجد التصنيفات العامة (مثل «الإطار» أو «الحادثة») مفيدة، إلا أنه لا يجد بين يديه أساسًا منظّمًا يمكنه من تقرير أيّ الأدوات **اللغوية** تندرج تحت هذا الصنف أو ذاك. وقد يصل محلل الخطاب في الواقع إلى القناعة بأن دراسة تعلّمه أن «قصة» تتكوّن من إطار وموضوع وعقدة وحلّ لم تعلّمه شيئا يذكر. ولعلّ المحلّل يتخوف كذلك إلى حدّ ما من إمكان توليد نحو القصة، كما تمت صياغته، لـ«قصة» تتكون من بداية **سندريلا** ومنتصف الطاقية الحمراء ونهاية بياض الثلج (انظر جاثهم وزملائه، ١٩٨٢م).

لمحلّل الخطاب نقد أكثر أهمية لنمط التحليل الذي قام به روملهارت وثورندايك (وهذا ينطبق كذلك على آخرين مثل ماندلر وجونسن (١٩٧٧م) وشتاين وجلان (١٩٧٩م) الذين قاموا بدراسة نصوص قصصية) وهو أن قراراتهم بخصوص محتوى النصوص التي يحللونها عشوائية وذاتية. أما الإيحاء الخاطىء بأن قراراتهم موضوعية فهو يعود أساسًا إلى التبسيط المفرط الذي تتسم به النصوص المحلّلة. فقد تمّ بناء النصوص بطريقة تجعلها محايدة من حيث السياق وخالية من احتمال الغموض وشاملة لجمل أغلبها غير معقّدة. ويمكن التدليل على عشوائية ما يندرج تحت بنية المحتوى

بإدراجهم لاستنتاج **يسبّب (تسمع** (ماري، بائع الأيسكريم). **ترغب** (ماري، أيسكريم) في (٢٤ أ) عندما تطلّب ذلك التحليل المقترح لبنية محتوى النص. لكن عندما لا يشتمل التحليل المقترح لمقطع قصصي على «خانة» للأداة المستعملة في حدث – على سبيل المثال – فإن الأداة المستنتجة يتم تجاهلها. هكذا، ورغم كوننا قادرين بكل تلقائية على استنتاج أداة مثل (الحبل؟) في «سحب المزارع الحمار» فإننا لا نجد هذا الاستنتاج مثبتا في التمثيل **سحب** (المزارع، الحمار) (انظر روملهارت، ١٩٧٧م ص ٢٧٤). نحن لا نقترح أنه من الضروري إدخال مثل هذا الاستنتاج في التحليل. ولكن لا بدّ لكل من يريد تطبيق هذا التحليل أن يعرف ما هي الاستنتاجات التي بإمكانه تمثيلها، وتلك التي لا يمكنه تمثيلها. فأطروحات نحو الجملة شأنها في ذلك شأن تحليل كنتش المبني على القضايا والذي سبق لنا دراسته، لا تقدّم أي لوغاريثم يمكننا من تقرير أيّ القضايا (أو أشباه القضايا) التي يمكن أو لا يمكن احتسابها من مقطع خطابي.

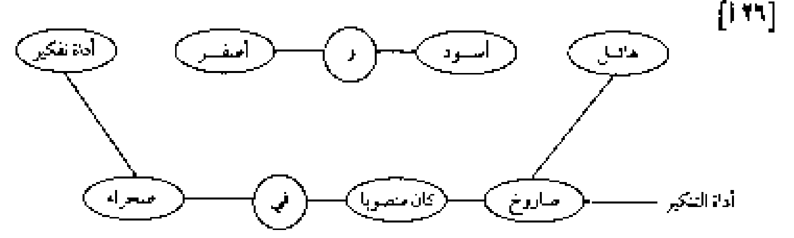
٣,١٠ تمثيل محتوى النص في صورة شبكة

في دراستنا للكيفية التي تمّ بها تصوير محتوى النص حصرنا اهتمامنا في تلك النماذج التمثيلية التي تستعمل بنية الشجرة كاستعارة للتعبير عن العلاقات الهرمية الموجودة بين مكوّنات النص. ولكن بوجراند (١٩٨٠م) طوّر طريقة بديلة لتمثيل محتوى النص تُعد أساسًا متعدّدة التفرّعات، فالاستعارة المناسبة هنا مأخوذة من الحاسوب ومستمدّة في الأصل في نماذج إعراب الجملة التي قدّمها تورن وبراتلي وديوار (١٩٦٨م) وطوّرها بوبرو وفرايزر (١٩٦٩م) وودز (١٩٧٠م) والعديد من الباحثين الآخرين منذ ذلك التاريخ (انظر ونستن، ١٩٧٧م) في شكل شبكات تحويلية مضاعفة.

إن عملية المعالجة التي يقترحها دي بوجراند ليست ترجمة للنص إلى شكل قائم على تنظيم هرمي للقضايا لكنها بالأحرى نموذج منهجي يقيم شبكة من العلاقات بين العناصر الموجودة في «عالم النص». فمن جهة توجد طريقة نظمية تعطينا شبكة نحوية كم هو الحال في (٢٦ أ) عن الجملة (٢٦):

[٢٦] كان صاروخ هائل لونه أسود وأصفر منصوبا في أحد الصحاري.

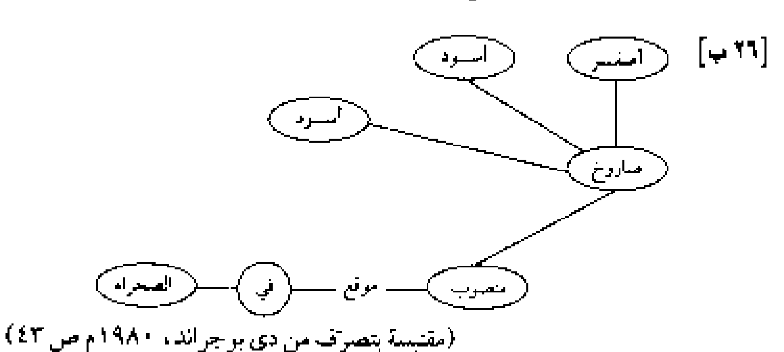
[٢٦ أ]



(دي بوجراند، ١٩٨٠م ص ٤٣)

إن العلاقات بين العناصر التي اتخذت شكل الروابط في (٢٦ أ) هي علاقات نحوية مثل «الصفة الرئيسة»، وهي تذكرنا بالعلاقات السطحية الموجودة في النحو النظامي (انظر باري، ١٩٧٥م). وبالتوازي مع هذا النوع من الشبكة النحوية يقترح دي بوجراند (١٩٨٠م ص ٧٧) وجود شبكة تصورية كذلك. هنالك قائمة طويلة إلى حدّ كبير «للعلاقات التصوّرية» (مثل: حالة، مادة، سبب) المطلوبة ولكن لعلّ المثال الموجز في (٢٦ ب) عن نوع العلاقات القائمة في (٢٦) يبرهن على الكيفية التي يمكن بها كذلك اعتبار العلاقات النحوية في الشبكة علاقات تصورية.

[٢٦ ب]



(مقتبسة بتصرّف من دي بوجراند، ١٩٨٠م ص ٤٣)

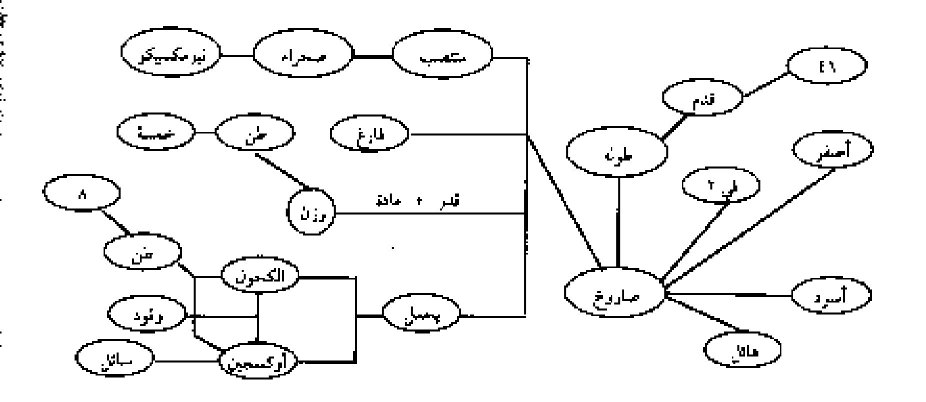
ينبغي أن يكون واضحا أنه كلما طال النص وكثرت تفاصيله ازداد تعقّد الشبكة التصورية. ورغم كون هذا من شأنه أن يجعل عملية تمثيل نموذج عالم النص أمرًا في غاية الصعوبة إلا أنه قد يكون في الواقع تفسيرًا دقيقًا (في حدود المعقول) لعدد كبير من العلاقات التصوّرية الممكنة والموجودة داخل النص. لكن المشكل، كما أشار إلى

ذلك دي بوجراند نفسه، هو أن نماذج عالم النص التي يقدّم عنها تمثيلاً هي «حالات مثالية للموجودات المعرفية الحقيقية المعنية». وربّما كان أي قارىء يملك عددًا أقلّ من العلاقات التصورية التجريدية الموجودة في الشبكات المقترحة لقاء عدد أكبر من العلاقات التصورية الإيحائية غير التجريدية التي تتحدّى التحليل. فعلى سبيل المثال قد يتضمّن وصف الصاروخ في (٢٦) خطوطًا صفراء وسوداء عند قارىء معيّن ومربعات صفراء وسوداء لدى قارىء آخر. فكلّ ما سعى دي بوجراند إلى عمله هو تصوير الأساس (أي نمط الصفة) الذي يشكّل القاعدة المشتركة بين «الموجودات المعرفية» لدى كلا هذين القارئين كما استقياها من النص.

لو عدنا مجددًا إلى مفهوم «الموضوع» الذي بدأنا به الفصل فبإمكاننا إيجاز دراسة استعمال دي بوجراند لجانب واحد من تمثيله للشبكة، والذي يزعم من خلاله تمكّنه من تمثيل «الموضوع». وتبيّن الشبكة (٢٧ أ) للمقطع النصي (٢٧) أن حلقة واحدة في الشبكة وهو («الصاروخ») مشتركة بين كل الجمل.

[٢٧] **كان صاروخ كبير لونه أصفر وأسود من نوع في – ٢ وطول ٤٦ قدمًا منصوبًا في إحدى صحاري نيومكسيكو. دون حمولة، كان يزن خمسة أطنان وكانت حمولته من الوقود ثمانية أطنان من الكحول والأكسجين السائل.**

[٢٧أ]



(دي بوجراند، ١٩٨٠م، ص٩٣)

فحسب طرح دي بوجراند «إن هذا الاشتراك في الحلقة هو تصوير رسمي للموضوع» (١٩٨٠م ص ٩٤). من الواضح أن ما يعتبره دي بوجراند «موضوعًا» هو ما يمكن وصفه بـ«الموضوع الرئيس» (انظر الفقرة ٣,٤). ولقد سبق لنا الاحتجاج بأن «موضوع الخطاب» مفهوم أكثر تعقيدًا إلى حدّ كبير. إلا أن زعم دي بوجراند المبني على تحليله لنص بسيط يشير إلى مدى إمكان تبني طرح في غاية التبسيط عن «الموضوع» عندما تكون البيانات المدروسة محدودة بهذا القدر.

بل أكثر من ذلك، يمكننا في الواقع التصريح بأن الكثير من الأبحاث المنقولة في أدبيات الموضوع الخاصة بموضوعات مثل «الموضوع» و«بنية النص» و«محتوى النص» هي في الواقع مقصورة على بيانات من الخطاب، لا تمثّل الخطاب في تعقيده إلى درجة أن نتائجها لا يحتمل أن يكون لها تطبيقات أوسع في تحليل الخطاب. فقد يستفيد محلّل الخطاب شيئًا ما من نتائج هذه الأبحاث عن بعض جوانب النصوص البسيطة ولكنه لا يستطيع أن يقصر نفسه إلى الأبد على دراسة نسخ من بيانات مثل «المزارع والحمار» أو «الصاروخ في الصحراء».

هنالك موضوع من بين الموضوعات التي نجد لدى بوجراند وعيًا بها ولكنه لا يدرسها، وهو حقيقة كون «الاستعمال الكثيف للجمل في نماذج عملية الفهم يبعدنا عن تناول السؤال الذي يخص طول المقطع النصي الذي يقوم الناس فعليًا بمعالجته مرة واحدة». يبدو من غير المعقول أن نقترح أن النصوص القصصية بكاملها تعالج على سبيل المثال برمتها مرة واحدة. إن كانت توجد وحدات خطابية أصغر فكيف ستكون حدودها؟ وما ستكون مكوّناتها؟ وكيف ستكون منظمة داخليًا؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة في سياق الفصل الخامس.

«الإخراج» والتصور الذهني لبنية الخطاب

٤,١ مشكلة تسلسل الكلام

إن مما يحدّ من حرية المتكلم/ الكاتب أنه لا يستطيع إصدار أكثر من كلمة في وقت واحد. وعندما ينظم هذه الكلمات الفردية في شكل جمل، ثم ينظم هذه الجمل في نصوص فإنه يواجه ما أصبح يعرف بـ «مشكلة تسلسل الكلام». فعليه أن يختار نقطة بداية. هذه النقطة ستؤثر في فهم المستمع/ القارىء لكل ما يليها في الخطاب، حيث إنها ستمثل السياق النصي الأوّلي لكل ما يلحق. لننظر في نمطين فقط من الأمثلة المصنوعة. ولننظر أولاً كيف يختلف وقع جملة وصفية واحدة عندما تسبقها ملاحظات تقييمية مختلفة:

[١] (أ) **لا أطيق رؤية سالي بينز. إنها طويلة، نحيفة وتمشي مثل الغرنوق.**

(ب) **إنني فعلاً معجب بسالي بينز. فهي طويلة القامة، رشيقة القوام وتمشي مشية الغرنوق.**

فإذا كان يراد لخصائص الطول والنحافة والمشي مشية الغرنوق في المثال (أ) أن تكون أوصافًا غير جميلة، فإن هذه الخصائص نفسها تكتسي في (ب) رشاقة وجمالا.

ولننظر الآن في وقع التسلسل التتابعي للكلام على فهم تتابع الأحداث زمنيًا حيث يمكن أن نتوقع من المستمع أن يخلص إلى استنتاجات مختلفة كلما اختلف نظام التسلسل (لافلت١٩٨١م ص ٩١)

[٢] (أ) لقد تزوجت ثم حملت.
(ب) لقد حملت ثم تزوجت.

وكما يذكرنا لاقلت، فهناك نظام تسلسل طبيعي يمكننا من أن نتوقع في غياب مؤشرات توحي بخلاف ذلك أن الحدث الذي ذكر أولاً هو الذي حدث أولاً والحدث الذي ذكر ثانيًا تلاه زمنيًا. لهذا فالمجال مفتوح أمام المستمع/ القارىء للوصول إلى استنتاجات من هذا التسلسل، وهي استنتاجات محددة بمضمون ما قيل وبالتوقعات النمطية المبنية على تجارب سابقة (انظر مناقشتنا للموضوع في ٢ و ٤).

نحن نعرف في مجال الإدراك البصري كيف ينتج على العلامة المثيرة نفسها وقع مختلف كلما وضعت في سياقات مختلفة. فلو وضعنا كتلة من الألوان في مركز تحيط به ألوان زاهية لأمكن إدراكها على أنها أغمق بكثير من إدراكنا لها لو وضعناها في مركز تحيط به ألوان داكنة. وبالمثل يبدو الخط الواحد طويلا في سياق وأقصر في سياق مختلف. وعلى النحو ذاته، فإن فهم الأحـداث الكلامية تتم في إطار الأرضيـةالتي يوفرها السياق النصّي السابق (داخل سياق محدّد بطبيعة الحال). فقد تأخذ السلسلة نفسها من الكلمات «قيمة» (ويدوسون ١٩٧٨م) مختلفة عندما تصدر في سياق نصي مختلف. سندرس هذا الوقع أولاً من حيث البنية الداخلية للرسائل على مستوى الجملة، ثم من حيث تنظيم مقاطع خطابية أكبر.

٤،٢ الموضوع Theme

لن نتوسع هنا في مناقشة عملية التسلسل. مما يعني أننا مجبرون على سلك طريق مختصر في مناقشتنا هذه. سنتحدث بالخصوص عن البنية الخبرية (Thematic organisation) للجملة. لكن من المهم ملاحظة أننا في تعاملنا مع الجمل المركبة والمعقدة سنضفي بنية خبرية مستقلة على كل تعبير (حيث هناك دراسة موسعة لعمليات إبراز الخبر (Thematisation) في الإنجليزية انظر هاليداي ١٩٦٧م). كذلك سيكون من اللازم

في هذا الجزء الاستشهاد بعدة جمل مصنوعة وضعت خصيصا للتدليل على المقابلات الممكنة في الوقع الناجم عن استعمال بنى مختلفة.

سنستعمل مصطلح الموضوع للحديث عن صنف نحوي هو أقصى ما يقع على اليسار في الجملة الإنجليزية(١). فلكل جملة بسيطة موضوع وهو نقطة بداية القول، ومحمول وهو كل ما يتبع الموضوع في الجملة ويتكون «مما يقوله المتكلم عن نقطة البداية من القول» (ماتيسيوس ١٩٤٢م).

فالموضوع إذن هو ما يستعمله المتكلمون/ الكتاب «كنقطة بداية» حسب اصطلاح هاليداي (١٩٦٧م ص ٢١٢). وفي العديد من الحالات (وهي الحالات التي تُعدّ في الغالب عادية أو محايدة) يكون الموضوع في الجمل التقريرية تركيبة اسمية (أي الفاعل النحوي)، ويكون الموضوع في الجمل الاستفهامية أداة الاستفهام، في حين يكون الموضوع في صيغ الأمر فعل الأمر نفسه. وسنركز في دراستنا هذه على الجمل التقريرية البسيطة بالنظر إلى بنيتها الخبرية بدلاً عن بنيتها النظمية.

من الخصائص التي تلفت الانتباه في الإنجليزية، كما في العديد من اللغات الأخرى، وجود مجال كبير من الخيارات النظمية يمكن للمتكلم استعمالها لإبلاغ المضمون نفسه المقترح أو المعرفي. لننظر في عدد من الصيغ النظمية المتوافرة في الإنجليزية:

[٣] (أ) قبّل جون ماري a - John kissed Mary
(ب) تمّ تقبيل ماري من طرف جون b - Mary was kissed by john
(جـ) إن جون هو الذي قبّل ماري c - It was Mary who was kissed by john
(د) إن ماري هي التي قبلها جون d - It was Mary who was kissed by john
(هـ) ما فعله جون هو تقبيل ماري e- What John did was kiss Mary
(و) التي قبلها جون هي ماري f- Who John kissed was Mary
(ز) ماري، لقد قبلها جون. g - Mary, John Kissed her.

(١) أقصى اليمين في العربية.

في كل مرة يقع التعبير عن المضمون نفسه . ففي كل صيغة من هذه الصيغ يقع التنصيص على أن هناك عملية تقبيل ، أن جون هو الذي قام بالتقبيل ، وأن ماري هي التي وقع عليها فعل التقبيل ، فلو كان الداعي الوحيد لاختيار البنية النظمية هو تمكيننا من التعبير عن مضمون ، فمن غير المقنع أن نبدّد كل هذه الخيارات الهائلة من الصيغ (حيث إننا لم نورد إلا نزرا قليلا منها) للتعبير عن هذا المضمون . فلماذا نجد إذن هذا الكم الهائل من الصيغ الممكنة؟

لقد اقترحت إجابات عديدة مختلفة على هذا السؤال . من ذلك أن أليس ديفدسن (١٩٨٠ م) اقترحت أنه «كلما كانت الصيغة غير مألوفة ، كثر احتمال أن يكون معنى ضمني معين هو المعنى المقصود من القول» ، حيث إن جملتها هذه أكبر دليل يجسّم بجمال الصنعة التي مكنتها من التلاعب بالتراكيب لغرض إبلاغ رسالتها . وهي تقترح أن يكون البناء للمعلوم هو البناء الطبيعي المألوف للجمل التقريرية وتزعم أن البناء للمجهول ربما يستعمل على سبيل المثال ليعطي وقعًا فكاهيًا أو للسخرية والاحتقار . وبالتالي فقد يردّ صديق حذر على السؤال «هل قبّل جون ماري؟» بقوله «أم م م . . . لقد تمّ تقبيل ماري من قبل جون» . ولكن من الواضح أن استعمال صيغة المبني للمجهول لا يؤدي بالضرورة إلى وقع غير مألوف .

من وجهة نظر محلّل الخطاب فإن أكثر المناهج شمولاً وأهمية يجب أن يكون ذلك المنهج الذي يفحص وقع استعمال صيغة جملية معينة بدلاً من صيغة أخرى في سياق الخطاب . فمن الواضح أن الجمل (أ - هـ) لا يمكن أن تكون كلها إجابات مفيدة على السؤال نفسه . فللمتكلم الذي يصدر مثل هذه الأقوال مسلمات مختلفة في كل حالة عن درجة علم المستمع ، أي عن فرضيات مستمعه .

هكذا فللإجابة عن السؤال «ماذا فعل جون؟» تبدو الجملتان (٣أ) و (٣هـ) إجابتين مناسبتين ، في حين تبدو بنية بقية الجمل أقل مناسبة . وتبدو (٣ ب) إجابة عن ماري بدلاً من جون . أما (٣جـ) فكأنها توحي أن المستمع يعرف أصلاً أن شخصًا ما قد قبّل ماري ، وأنه بالتالي حدّد جون على أنه هو الفاعل الذي قام بالعمل . وأما (٣د) فكأنها توحي أن المستمع يعرف أن جون قبّل شخصًا ما ، وأنه بالتالي تعرف على المفعول بها وهي ماري (وربما أدى به تعمد إضفاء النبر المنغّم على ماري إلى الإيحاء

أن التي وقع عليها الفعل كانت ماري وليست شخصا آخر) . وعلى النحو ذاته تفترض (٣ و) أن المستمع يعرف أن جون قد قبّل شخصا ما . أما (٣ ز) فيبدو أنها أقرب إلى أن تكون إجابة على السؤال : ماذا حدث لماري؟

في مثل هذه الأمثلة البسيطة يبدو من المعقول أن نقترح أن لبّ الموضوع هو الحكم الذي يصدره المتكلم على ما يعتقد السامع أنه يريد قوله . ونجد لدى هاليداي مثالا ممتازا يبرهن بشكل قاطع كيف يتقطع النص بمجرّد تغيير بنيته الموضوعية . وفي كل مثال يجب أن نفهم المناسبة على كونها تتمثل في إعلان مذيع أحد البرامج الإذاعية لما يدور من أحداث في حفل استقبال لثلاثة روّاد فضاء كانوا قد أنهوا مؤخرا رحلة ناجحة :

[٤] (أ) **الشمس بازغة. يا له من يوم رائع.**
ها هم الرواد قادمون. إنهم يمرّون الآن بالبهو الهائل. يخرج الرئيس لاستقبالهم. لا إن الأميرال هو الذي سيرعى الحفل...
(ب) **إن الشمس هي البازغة والنهار هو الرائع. الرواد قادمون إلى هنا. البهو الهائل هو ما هم بصدد المرور به. وربما سيخرج لاستقبالهم الرئيس. لا إن الحفلة هي التي سيرعاها الأميرال...**(٢)

المتكلم هنا في (أ) يقرر بكل بساطة مجموعة من الأحداث المتابعة ومن الآراء التي يرى أنها تهمّ السامعين . (لن نحلل البنية الداخلية لهذه السلسلة من التقارير بل سنكتفي بملاحظة أن المتكلم بعد أن هيأ المنظر يتوقع بكل وضوح أن ينقل الأحداث حسب وقوعها وتسلسلها الزمني ، وأن يملأ الفراغات بملاحظات عائمة في صورة عدم حدوث أي شيء يستحق الذكر . فيمكن فهم أقوال المتكلم على أنها إجابات على مجموعة من الأسئلة العامة جدًا من قبيل : ماذا يحدث الآن؟ ماذا ترى؟ أما المتكلم في (ب) فلا بدّ أن يكون يفترض معرفة كبيرة لدى السامع . فالتعبيران الأولان

(٢) قدم هاليداي هذا المقطع خلال ورشة بحث في اللسانيات السستيمية في بداية السبعينات . للحصول على مثال مشابه انظر هاليداي ١٩٧٨ م ، (المؤلفان) .

يبدوان إجابتين على أسئلة من نمط «ما هو البازغ الآن؟ ما هو الشيء الرائع؟». أما التعبير الأخير فيبدو أنه يناقض اعتقادًا يفترض المتكلم وجوده لدى سامعيه، وهو أنهم يفترضون أن الأميرال سيرعى حفلاً آخر غير هذا الحفل، فمن الصعب للمحلل أن ينشىء نموذجًا مترابطًا لما يحدث بالاعتماد على النص (ب) رغم كون المضمون هو مضمون (أ) ذاته ورغم الحفاظ على أدوات الترابط النصي (انظر ١, ٦). إن المشكل الذي مثّل له هاليداي هنا معروف لدى العديد من الكتاب الذين يتوقفون وسط الفقرة في حيرة من أمرهم كيف يربطون الكلام الجديد الذي يريدون قوله بالجملة السابقة. قد يتيسّر أحيانًا فرض الترابط باستعمال أداة ربط مثل «ولكن» أو «بالتالي»، ولكن يكون لزاما أحيانا على الكاتب أن يعيد صياغة الجملة الجديدة ويعيد تنظيم التراكيب. بينما لا نرى في اللغة الكتابية عمومًا إلا النتاج النهائي بحيث لا نجد لدينا أي مؤشر يدلّ على الموضع الذي يمكن أن يكون الكاتب أجرى فيه التعديل، فإننا نستطيع أحيانا في اللغة المنطوقة ملاحظة المتكلم وهو بصدد إعادة صياغة ما يريد قوله مما يؤدي إلى التفوه ببنية خبرية مختلفة.

[٥] (أ) **(مناقشة داخل مجلس القسم حول اوجه صرف بعض المال).**
الطرف الأول: كانت هناك هدية بقيمة ٨٤ جنيه تقريبا.
الطرف الثاني: في الواقع ليس ذلك بهدية + إنه مشروط لأنه + في الواقع+ المال هو + حوالي عام ١٩٧٥م كان بعض المال...
(ب) **(وزير نقل سابق في مقابلة بعيد حادث طريق سريع بسبب الضباب).**
إنني أعتزم اقتراح + إم م م+ ك + أكيد كمحاولة تجريبية و + هي وسيلة للتمييز + هذا سوف. لن يستطيع المرء أن يجعله إجباريًا + بسبب صعوبات التطبيق الفعلي...
(جـ) **(محادثة بين امرأة شابة وخالتها)**
كان هنالك رجل – والدي مشارك في الكشافة. هو الآن مندوب مقاطعة... و...أوه أحد أقدر معلميه في الكشافة...(٣)

(٣) لعلّنا نضرب مثالا على التدفق العفوي للكلام بكل ما فيه من تردد وتغير للموضوع من اللغة العامية:
في الواقع.. لست أدري هل هذا صحيح... أعني أن المشكل يتلخص في...

في المثالين (أ) و (ب) يبدو أن المتكلمين قد استعملا حديثهما ببنية ثم تجدهما يقرّران أن هذه البنية غير مرضية مما حدا بهما إلى تعديلها وسط الكلام والإتيان ببنية خبرية مختلفة. أما في المثال (جـ) فنجد تعديلاً أكثر شمولاً حيث يتضح أن المتكلمة قد تبيّن لها أن خالتها ربما لا تتوافر لديها المعلومة اللازمة لفهم الموضوع، وهي أن أباها في الكشافة. لذا نرى أنها قد توقفت عن الحديث عن هذا «الرجل» وأعلنت أن أباها في الكشافة، وبعد أن تبادلت بعض الأحاديث الجانبية مع خالتها عادت للحديث عن الرجل بصفته «معلم كشافة لأبيها».

ورغم أننا قد لا نتمكن من إدراك عملية ضبط النفس هذه وهي بصدد الحدوث في اللغة الكتابية، فإنه يمكننا إذا طلبنا من الأشخاص المشاركين في التجربة أن يختاروا جملة تكميلية واحدة من بين عدد من الجمل التكميلية الممكنة أن نثبت وجود لواحق تكميلية للخبر محبّذة على الأقل في بعض أنماط الخطاب، تدفع المتكلمين إلى اختيار الصيغ النظمية «غير المألوفة». هكذا فلو كان لدينا نص مركب مثل النص التالي:

[٦] (أ) **خطت رئيسة الوزراء خطوة خارج الطائرة.**
(ب) **فأحاط بها الصحفيون فورًا.**
أو (جـ) **وعلى الفور أحيطت بالصحفيين.**

فالجملة (ج) أكثر قبولاً من (ب) كجملة مكملة. ونحن نعزو ذلك إلى أن القراء يفضلون الإبقاء على الفاعل نفسه (أو الكيان الذي ينبني عليه مضمون الخطاب وهو مفهوم سندرسه بعمق أكبر في المبحث القادم) ويزداد الوقع وضوحًا في غياب أشخاص آخرين يمكن أن ينافسوها على هذه الوظيفة اللغوية كما في:

(د) **وقد تعرضت فورًا للفحات الريح.**
(هـ) **وعلى الفور لفحتها الريح.**

فالصيغة المبنية للمجهول (د) تبدو الخيار الطبيعي هنا، ولكن لو تمّ اختيار جملة مبنية للمعلوم تعود على الفاعل وتضفي على الموضوع وظيفة الفاعل المعنوي فيكاد يكون هنالك إجماع على تفضيل الصيغة المبنية للمعلوم:

(و) كل الصحفيين تعرضوا فورًا لابتسامتها.
أو (ز) وعلى الفور ابتسمت للصحفيين.

وقد نظرت بعض الدراسات الحديثة في توزيع بعض أنماط الجمل في أنماط خطابية مختلفة (انظر جونز ١٩٧٧م و برنس ١٩٧٨م). ويبدو من الواضح أن بعض أنماط الجمل تنفرد بأن لها مجالاً ضيقًا من التوزيع. هكذا نجد في النثر العرضي أن التراكيب التي تبدأ باسم موصول والتي تمتاز كما أشار إلى ذلك برنس بكون محتوى الجزء الأول منها معلومة مفترضة لها نسبة توزيع تكاد تكون مقصورة على ثلاث وظائف وهي:

[٧] (أ) تقديم الدراسة كما في:
الشيء اللافت للنظر في سلوك السحالي المائية هو...
ما يبعث بالخصوص على القلق في موقف الحكومة القائل بالمسؤولية الجماعية هو...
ما سأحدثكم عنه اليوم هو...
(ب) تلخيص الدراسة كما في:
إذن الشيء الذي كنت أحاول طرحه هو...
ما كنا بصدد دراسته هو...
(جـ) للإشارة إلى تباين واضح (وإن كانت هذه الوظيفة أقل استعمالاً)
ربما تجد الإحساس
بالسلام داخل العديد من الديانات. ولكن ما ينفرد به الإسلام[٤]
فيما لديه من عطاء هو...[٥]

لقد كنا ننطلق إلى الآن من المنطلق المبسط القائل إن أقصى عنصر في الجملة إلى اليسار هو الفاعل النحوي في الجملة التقريرية[٦]. وهو ما يسمح بخلط بسيط لدى

(٤) في النص الإنجليزي، يتحدث المثال عن النصرانية.
(٥) نحن ممتنان لمحمود عياد الذي اعتمدنا على تحليله واقتبسنا هذه الأمثلة من مجموعة الأمثلة الهائلة التي جمعها عن التراكيب التي تبدأ باسم موصول. (الملاحظة من المؤلفين)، والإشارة هنا إلى محمود عياد (Mahmoud Ayad) الذي يعترف المؤلفان (ص ١٣١) بأنهما استفادا كثيرًا من مدوناته عن الجمل الموصولة.
(٦) يتصل هذا الحكم طبعًا بالإنجليزية، بينما يقع الفاعل عادة بعد الفعل في العربية.

العديد من الدارسين بين وظيفتي الموضوع والفاعل النحوي. هكذا قد يجد الإنسان في صلب دراسة عن الخطاب اصطلاح «الموضوع» يستعمل بدلا من اصطلاح الفاعل النحوي (انظر على سبيل المثال كلارك وكلارك١٩٧٧م). ولكن من المهم أن نشير إلى أن العنصر القائم في أقصى اليسار (كما في ٣جـ) ليس دومًا الفاعل النحوي. ففي الكثير من الحالات نجد على سبيل المثال في الجمل التقريرية أن الظروف أو ما يقوم مقامها تسبق الفاعل النحوي كما في:

[٨] (أ) في وقت متأخر من تلك العشية استلمت برقية جوابية خالصة المعلوم... (٦٤)
(ب) في مكان ما شاهدت بائي بقايا خزانة الكتب (٦٤)
(جـ) بدون تردد أجابت بائي... (٦٤)
(د) بعد ذلك واصل سيره... (٦٥)
(هـ) في الأثناء سوف تتغلب على العون المحترف... وبعد ساعة وصلت امرأة جميلة المنظر متوسطة العمر وأخذت بزمام الأمور (٦٥).

(كل هذه المقتطفات مأخوذة من رواية «الرماد الذهبي» لفريمان ويلزكروفتس منشورات بنجوينز ١٩٥٩م)

هذه المقتطفات مأخوذة من رواية بوليسية تبرز دوما ظرف الزمان (وأشياء أخرى كذلك). إن العلاقة المباشرة بين ما حدث في السابق وما هو مقرر في متن الجملة الجديدة هي إذن العلاقة القائمة على ظرف الزمان. أما لو أخذنا مقاطع من كتيب للسفريات فمن المنتظر أن نجد نسبة أكبر من ظروف المكان تحتل الصدارة:

[٩] (أ) في بعض الجزر الأفضل أنك...
(ب) في اليونان وتركيا يتم استقبالك في المطار...
(جـ) في كل الأماكن الأخرى نقدم خدمات الحجز...
(د) في المراكز حيث يعمل ممثلونا يمكنك...
(هـ) في بعض المراكز لدينا أعوان محليون...
(و) في عدد قليل من الجزر يجب عليكم استلامها بأنفسكم (كتيب ناد إيجينا ١٩٨١م ص٣).

عموما يبدو من المعقول أن نقترح أن العنصر الذي يتصدر الجملة هو بشكل أو بآخر «ما تتحدث عنه الجملة» بصرف النظر عما إذا كان هذا العنصر هو الفاعل النحوي. فإذا كان الفاعل النحوي هو العنصر المبتدأ فهذا يبدو أمرًا طبيعيًا. لهذا ففي المثالين:

(أ) اقترض فريد مطرقة من جون.
(ب) أعار جون مطرقة لفريد.

تبدو الجملة (أ) «عن» فريد في حين تبدو الجملة (ب) عن جون. وعندما احتلت ظروف الزمان الواردة في المثال (٨) الصدارة كانت الجمل فيما يبدو تتحدث «عن» (أو بعبارة أخرى كانت تجيب على السؤال) «ثم ماذا حدث بعد ذلك؟». سنناقش ما يترتب على هذا البناء النصي في المبحث القادم.

وفي هذه الأثناء تجدر ملاحظة وجود مجموعة أخرى من الظروف أو ما يقوم مقامها، وكثيرا ما تتصدر الكلام لكنها ليس لها نفس الإسهام في بنية الخطاب. وتضمّ هذه المجموعة ما سنسميه التعاليق الماوراء لغوية التي يصرّح فيها المتكلم/ الكاتب بصفة خاصة بموقفه من الكيفية التي يجب أن يتلقى بها كلامه. فقد يعلق على بنية كلامه قائلا: أستهل حديثي بـ، في البداية أقول، دعني الآن انتقل إلى، في الختام، وآخر ما أختم به هو إلخ. وقد يعلق على درجة التزامه بصحة ما يقول: مما لا شك فيه، بطبيعة الحال، من الواضح أو ربما استعمل تعبيرا من جملة التعبيرات التي تشير إلى الكيفية التي يجب على المتقبل أن يلحق بها المضمون في ذاكرته: هذا سرّ بيني وبينك، صراحة، بإيجاز... إلخ (للحصول على دراسة موسعة لمثل هذه الظروف والحالات انظر براون ولافنسن ١٩٧٨م). فمن الواضح أن هذا الموقف ما وراء اللغوي الذي يحتل الصدارة لا يشكل جزءا من التصور الذي يبنيه المتقبل عن مضمون الخطاب. إنه فقط يعطيه توجيهات تتعلق في بعض الحالات بنمط وبنية التصور الذي يبنيه في ذهنه (فصيغة كان ياما كان في قديم الزمان تأمر المتقبل على الأرجح أن يبني في ذهنه نموذج القصة الخرافية) وفي أحيان أخرى يرتبط بالبنية الداخلية للنموذج (وذلك أهم من) ويعلق أحيانا على مصداقية ما هو مقرّر (ربما).

وبطبيعة الحال في بعض الأحيان لا تحتلّ مثل هذه «الأشياء المقحمة» مكان الصدارة بل تقحم داخل الجملة أو تأتي بعدها كما في المثال التالي:

[١٠] (أ) **بكل صراحة لا أظن أنه سيفعل ذلك.**
(ب) **لا أظن، بكل صراحة، أنه سيفعل ذلك.**
(جـ) **لا أظن أنه سيفعل ذلك، إن أردت الصراحة.**

فمن الصعب الحكم على الوقع الناجم عن استعمال مواقع مختلفة لما يقوم بوظيفة الظروف في جمل معزولة. فبعض السامعين لا يرون أن لهذه الاختلافات أي أثر على المعنى، في حين يرى البعض الآخر أن هنالك ظلالا دقيقة تفرق بين معانيها. هذا المشكل كالعديد من المشكلات المرتبطة بعمليات صياغة الخبر وتسلسل تقديمه واختيار البنية التركيبية يفتقر إلى الفهم الصحيح. لهذا سنفترض فيما بقي من دراستنا أن الموضوع هو أداة نحوية في تحليل الجمل (أو تحليل التعبيرات داخل جملة معقدة أو مركبة). وسنقتدي بدانيش (١٩٧٤م) لنفترض أن للموضوع وظيفتين أساسيتين هما:

١ - ربط الكلام بالخطاب السابق والمحافظة على وجهة نظر مترابطة.
٢ - أن يكون منطلقًا لما سيلي في الخطاب.

٤,٣ عملية صياغة الخبر و «الإخراج»

تسبب عملية التنظيم التسلسلي للمعلومات التي كنا بصدد دراستها إلى حد كبير على مستوى الجملة في (٤,٢) نمط المشكلات نفسها التي تواجه المتكلم/ الكاتب ولكن في تنظيم وحدات أكبر من الجملة. يمكننا عمومًا تعريف عملية صياغة الخبر بأنها عملية على مستوى الخطاب ككل لا على مستوى الجملة فقط. فالشيء الذي يستهل به المتكلم أو الكاتب حديثه يؤثر حتمًا في فهم كل ما يأتي لاحقًا. هكذا يؤثر العنوان في فهم النص الذي يتبعه. كذلك تحدّ الجملة الأولى في الفقرة الأولى ليس فقط من معنى الفقرة ولكن من معنى بقية النص. أي أننا نفترض أن كل جملة تشكل جزءا من تعليمات تتطور وتتراكم لتعلمنا كيف نبني تصورا مترابطا للخطاب.

٤,٣,١ «الإخراج»

هناك مصطلح أكثر عمومية وشمولاً من مصطلح عملية صياغة الخبر (الذي يشير فقط إلى التنظيم التسلسلي للمعلومات داخل النصوص). هذا المصطلح هو «الإخراج». وهي استعارة اقترحها غرايمز، حيث إن استعماله للكلمة يتماشى مع استعمالنا.

يقول غرايمز (١٩٧٥م ص ٣٢٣):

«تتمحور كل تركيبة، كل جملة، كل فقرة، كل حلقة وكل خطاب حول عنصر واحد خاص يكون هو نقطة الانطلاق. كأني بالمتكلم يقدم ما يريد قوله من وجهة نظر معينة».

وينصب اهتمام غرايمز هنا بالخصوص على كيفية التلاعب بنظام تسلسل المعلومات لإبراز بعض الأحداث وإعطائها أهمية أكبر من بعض الأحداث الأخرى. وبهذه الطريقة تشير التركيبة الأساسية إلى حدث مهم في حين تزودنا التراكيب اللاحقة التابعة لها بمعلومات ثانوية. وقد وسع بعض الدارسين الآخرين مدى تطبيقات استعارة «الإخراج» التي ابتدعها غرايمز، فهذا كلامنتسز (١٩٧٩م ص ٢٨٧) يقترح: «أن الإخراج هو ذلك الجانب من بنية الخطاب الذي يحدد نسبة الأهمية التي تعطى لمقاطع متعددة من الخطاب النثري».

ويفتح هذا التعريف الباب على مصراعيه لعمليات تتجاوز إلى حد كبير عمليات تسلسل تقديم المعلومات بحيث تشمل كلمة «الإخراج» أساليب بلاغية مثل اختيار المفردات والقافية والجناس والتكرار وضروب المجاز وأدوات التوكيد... إلخ. لن نستعمل كلمة «الإخراج» ككلمة ذات معنى اصطلاحي دقيق بل كاستعارة عامة تغطي استغلال مثل هذه الظواهر في الخطاب.

وقد حدا مفهوم الأهمية النسبية الناجم عن عمليات صياغة الخبر والإخراج بالعديد من الباحثين، خاصة في علم اللغة النفسي، إلى اعتبار الإخراج عاملاً بالغ الأهمية في بنية الخطاب، لأنهم يعتقدون أن كيفية إخراج مقطع من الخطاب لا بدّ أن تؤثر بشكل كبير على عملية الفهم، وكذلك على عملية التذكر فيما بعد. وسندرس في المبحث ٤,٣,٢ بعض البحوث المرتبطة «بإخراج» الخطاب.

٤,٣,٢ الموضوع: كفكرة رئيسة/ صلب الموضوع

في هذا المبحث نجد استعمالات لمصطلح الموضوع تختلف أساسا عن المفهوم الذي له تعريف نحوي محدد والذي نستعمله للإحالة على العنصر المائل إلى أقصى اليسار من الجملة أو التركيبة (متبعين في ذلك طرح هاليداي ١٩٦٧م). نجد أن الموضوع يستعمل أحيانا للإحالة على الفاعلين النحويين في عدد من الجمل المتتالية وفق ملاحظة كاتز (١٩٨٠م ص ٢٦): «إن مفهوم موضوع الخطاب هو ما يتعلق بالفكرة المشتركة بين الجمل السابقة في الخطاب، أي الموضوع الذي يتناول من جملة إلى جملة **بوظيفة فاعل لعملية الإسناد**[٨]». ونجد المصطلح نفسه مستعملاً في كتب علم اللغة النفسي لا للإحالة على عنصر مكوّن بل مباشرة على المسمى الذي يحيل عليه ذلك العنصر، هكذا كتب بارفاتي وغولدمان (١٩٧٤م ص ٧١) قائلين: «نعني بعملية صياغة الخبر تلك العملية الخطابية التي يتم خلالها تطوير **مسمى** على أنه الموضوع الرئيس للخطاب».

وبطبيعة الحال يؤدي بنا هذا الاستعمال الأخير للكلمة إلى فهم اصطلاح الموضوع على أنه يعني «الفكرة الرئيسة». إذن تؤدي عملية صياغة الخبر داخل الخطاب التي أشار إليها بارفاتي وغولدمان إلى إبراز المسمى، كما ذكر تشايف (١٩٧٢م) والتي بموجبها يتم وضع مسمى معيّن في واجهة الوعي، في حين تبقى بعض المسميات الأخرى داخل الخطاب في المؤخرة. ويمكن استعمال أدوات مختلفة من الصيغة النحوية للإحالة على الشخص المبرز أو المتصدر للخبر، كما يركز على ذلك بارفاتي وغولدمان. بهذه الطريقة يمكن إبراز شخص يدعى الدكتور جونز إذا تعرفنا عليه في الخطاب عن طريق عبارات «الدكتور» أو الجرّاح أو «هو» كما لو كرّرنا عبارة الدكتور جونز.

وقد أجرى بارفاتي وغولدمان مجموعة من التجارب (١٩٧٤م) سعيًا منهما إلى إثبات وقع استعمال كلمة تذكيرية تحيل على المسمّى المبرز مقابل أخرى تذكيرية تحيل على مسمّى غير مبرز يساعدنا على تذكر جمل غير واردة في النص. وقد تمكنا

---

(٨) التركيز للمؤلفين.

من إثبات أن استعمال مسمّى مبرز في محل فاعل نظمي كان أفضل الكلمات المساعدة على تذكّر الجملة. وتتماشى مثل هذه النتيجة مع الملاحظة القائلة بأن عددًا من المقاطع الخطابية التي تتحدث عن «الفكرة الرئيسة» تنتظم غالبًا في مجموعات من الجمل يشار فيها إلى الفكرة باستعمال تركيبة اسمية لها وظيفة الفاعل النحوي. تجدون مثالا طيبًا على هذا في عملية صياغة الخبر لكلمة «بيردي» في المقطع (١٤) من الفصل الثالث.

وقد تساعد النتائج التي توصل إليها بارفاتي وغولدمان على تفسير الكيفية التي تتمكّن بموجبها طريقة تنظيمية أساسية لإنتاج الخطاب من وضع المسمّى الرئيس موضع الفاعل. فمجموعات الجمل التي تبني بهذه الطريقة ربما تكون أسهل للتذكر. وتجد هذه الطريقة تحبيذًا لدى كتاب المداخل في الموسوعات كما في المثال (١١)، حيث وقع إبراز «أصحاب الأنوف المثقوبة» ولدى المؤبنين كما في المثال (١٢)، ولدى كتّاب قصص الأطفال كما في المثال (١٣). (وقد وضعنا سطرا تحت الكلمات لإبراز التعبيرات المستعملة للمسمّى المبرز في كل مقطع).

[١١] أصحاب الأنوف المثقوبة

لا يزال أصحاب الأنوف المثقوبة يحافظون على الاسم الذي أطلقه عليهم تجار الفرو الفرنسيون والذي يعود إلى عادتهم في ثقب أنوفهم لتعليق الحلي. وهم ينتمون إلى مجموعة صاهبتن اللغوية خلافًا لبقية شعوب المنطقة الذين يتكلّمون لغات تنتمي إلى فرع الشوشون من مجموعة يوتو أزتكان اللغوية. يعدّ أصحاب الأنوف المثقوبة أكثر من ١٥٠٠ نفر ممّا يشكّل نقصًا في عددهم عن الـ ٢٥٠٠ الذي كانوا عليه عند أول احتكاك لهم مع البيض. والغالبية العظمى منهم يعيشون في محمية في شمالي ولاية أيداهو، بينما يعيش ما يقلّ عن مائة منهم في محمية كولفيل في ولاية واشنطن.

(موسوعة المجموعات العرقية الأمريكية، مطبوعات جامعة هارفرد ١٩٨٠م).

[١٢] السيد متسوجيرو اشي

توفي السيد متسوجيرو اشي يوم ٢٠ سبتمبر عن عمر يناهز ٩٢ عامًا، وكان قد تولّى في السابق منصب رئيس مجلس النواب الياباني، وكان له دور فعّال في تنظيم الألعاب الأولمبية في طوكيو في صيف ١٩٦٤م والألعاب الأولمبية في سابورو في شتاء ١٩٧٢م. وكان إشي قد شغل كذلك منصب وزير للصناعة والتجارة ووظائف وزارية أخرى تحت رؤساء الوزراء الآخرين شيغارو يوشيدا، ونوبوسوكي كيشي، وآيساكو ساتا قبل أن يتقاعد عام ١٩٧٢م. وقد عمل رئيسًا لمجلس النواب من فبراير ١٩٦٧م إلى يولية ١٩٦٩م[٩].

(عن صحيفة التايمز ٢٥ سبتمبر ١٩٨١م)

[١٣] جاك يتسلّق ساق الفاصوليا مرة أخرى

ها هو يصل إلى بيت العملاق ويرى زوجة العملاق. (مقتطف من جاك وساق الفاصوليا) سلسلة كتب لايدي بارد، رقم ٧٧٧).

ويتبع تنظيم مقتطفات من اللغة المنطوقة نسقًا مماثلا كما في المثال (١٤):

[١٤] (أ) هل نزل لديكم أي ثلج + طيلة العطلة.

(ب) في الواقع كان هناك بعض الشيء + في هوجماناي لأن لنا بعض الأصدقاء هناك + كان أحد أصدقائنا اليونانيين في زيارة لنا وعندما غادر البيت + مباشرة بعد هوجماناي + كما تعلم فإنه لم يخرج أكثر من ربع ساعة ثم ما لبث أن دق الجرس مرّة أخرى + وقال الثلج ينزل + لقد كان فعلا مثارا كما تعلم.

لو نظرنا إلى المقطع (١٣) كمجموعة من التعبيرات فبإمكاننا توخي طريقة اقترحها دانيش (١٩٧٤م) لتصوّر بنية كما يلي:

[١٥] الموضوع (جاك) – المحمول ١ (يعاود تسلق ساق الفاصوليا)
الموضوع (هو) – المحمول ٢ (جاء إلى بيت العملاق)
الموضوع (هو) – المحمول ٣ (رأى زوجة العملاق)

---

(٩) ويقابله في العربية هذا المدخل الموسوعي في ملحق المورد للأعلام:
سعود، عبد العزيز بن (١٨٨٠م – ١٩٥٣م): ملك المملكة العربية السعودية ومؤسسها (١٩٣٢م – ١٩٥٣م). خطت البلاد في عهده خطوات واسعة في ميداني العمران والثقافة.
«قاموس المورد – إنجليزي – عربي – «المنير بعلبكي – (بيروت: دار العلم للملايين – ١٩٨٣) ص ٧٨ من ملحق الأعلام.
ومن أمثلة الحديث عن شخصية معروفة:
الملحن المعروف محمد المقبص أبدى استعداده للوقوف والتعاون مع أي موهبة فنية صادقة تبحث عن مكانة في الوسط الفني كي لا تفقد الثقة بقدراتها. مصححا بعض المفاهيم الخاطئة التي أشارت إلى أن له موقفا ضدهم.
(المدينة المنورة، العدد ٨٩٤٣ – ٣ جمادي الأولى ١٣١٢هـ)

في كل تعبير من هذا المقطع نجد نفس الموضوع أو «نقطة الانطلاق». فلو أردنا أن نزعم أن المسمّى «جاك» هو الموضوع في هذا النص فلا بدّ أن نعلم أننا نعتمد في زعمنا هذا على حقيقة كون «جاك» مبرزًا في كل الوحدات المكونة لهذا المقطع. ونظرا لاعتمادنا على مثل هذه النصوص التي تتميز ببنية ثابتة فإن مصطلح «الموضوع» يبدو قد وجد طريقه للاستعمال كمصطلح عام في علم تحليل الخطاب ويقصد به «الفكرة الرئيسة» وموضوع الجملة (بالإضافة إلى كونه العنصر الواقع إلى أقصى اليسار). إن احتمالات اللبس في المعاني الاصطلاحية المختلفة لنفس الكلمة لا تخفى على أحد. لقد قلنا فيما سبق إننا سنخصص اصطلاح «الموضوع» للحديث عما يأتي إلى أقصى اليسار في الجملة. أما للحديث عن الفكرة الرئيسة/ الموضوع/ الفكرة كما في الأمثلة المشار إليها «السيد متسوجيرو إشي» في (١٢) و«جاك» في (١٣) فسنستعمل مصطلح «صلب الموضوع» للكاتب/ المتكلم. وقد بني النص في تلك الأمثلة على جانب كبير من البساطة بحيث وقع إبراز صلب الموضوع على مستوى الأدوات النحوية. وسنلاحظ في المثال التالي أن العبارة التي تحيل على صلب الموضوع للكاتب هي نحويا الموضوع في بعض الجمل ولكن ليس فيها جميعها. لن ندرس التعبيرات غير الواقعة في بداية الجملة، لأن ذلك يعني الدخول في مناقشة واسعة المدى شديدة التخصص لموضوع عملية صياغة الخبر، وهو ما لا يتسع له المجال هنا (لكن انظر هاليداي ١٩٦٧م).

[١٦] **السيد وليام سوربي**

كان السيد وليام سوربي الذي توفي يوم ٢٠ سبتمبر عن عمر يناهز ٨٥ عامًا أمين صندوق بلدية باكنهامشير من ١٩٢٩م إلى ١٩٦١م.

وقد التحق بفوج آر. دبليو. ساري – سنة١٩١٥م وخدم تحت لوائه في فرنسا إلى أن جرح عام ١٩١٦م. وقد خدم من ١٩١٧م إلى ١٩١٩م ضابط تنسيق مع القوات الفرنسية والروسية في البعثة العسكرية لشمالي روسيا.

وفي عام ١٩٢٦م عيّن محاسبًا لدى بلدية كورنل. وأثناء الحرب العالمية الثانية، قاد الحرس الوطني في واندوفر وفي السنوات التي تلت تلك

كان له إسهام كبير في أنشطة الهيئة المالية لمجمع كنائس أكسفورد وهيئة بكس للكنائس التاريخية والعديد من الجمعيات في واندوفر. وفي ١٩٢٦م تزوج جان نورنز فولدت له إبنا وبنتين.

(عن التايمز/ ٢٥ سبتمبر ١٩٨١م)

تزودنا نصوص التأبينات كما في المثال (١٦) بأمثلة لها وضوح خاص لأنماط الخطاب التي لها صلب موضوع واحد يحتفظ به الكاتب على طول النصّ. وهي في هذه الحالة «السيد وليام سوربي».

لقد أبرزت العبارة المحيلة إلى هذا الشخص في العنوان لتغطي الخطاب كله أما في كل من الفقرة الأولى والثانية فقد جعلت العبارات المحيلة عليه «نقطة انطلاق» لما يليها. وقد كان بإمكان الكاتب كما في المثال (١٣) أن يواصل بعبارات تحيل على نفس الشخص المبرز في كل جملة وفقرة. ولكن في الواقع نجد أن الكاتب يبرز في الجمل والفقرات اللاحقة ظرف زمان. ويمكننا القول إن الكاتب، رغم مواصلته للحديث عن نفس «صلب الموضوع» ينظم ما يريد قوله عن هذا الجوهر حسب زوايا نظر مختلفة (ومحددة زمنيًا) على هذا الشخص المعني، فالعناصر المبرزة لا تقدم بكل بساطة تسلسلا زمنيًا للأحداث بل تقدم «نقاط انطلاق» مختلفة ينظر منها للشخص وهو يلعب أدوارًا مختلفة. ربما يعترض معترض بالقول إننا لسنا بحاجة إلى مصطلح صلب الموضوع وإننا نتحدث بكل بساطة عن صديقنا القديم «الموضوع». ولكننا نصرّ على حصول الفائدة من التمييز بين مفهوم الفكرة الرئيسة/ صلب الموضوع وبين المفهوم العام المتخلف عن كل تنظير والذي ينظر إلى «الموضوع» على أنه «ما يدور حوله الحديث». فمن غير المحتمل قطعًا أن نقول إن «موضوع» التأبين هو «الرجل» المشار إليه بالاسم في أعلى المدخل، إلا إذا كنا نريد بذلك نوعًا من الاختزال. «فللرجل» خصائص عديدة وبخاصة المادية منها لا يمكن اعتبارها مناسبة للحديث عنها في التأبين. بل يمكن تحديد «موضوع» التأبين بأكثر دقة بقولنا «هو تذوّق للأعمال والأحداث التي تستحق الذكر في حياة زيد من الناس».

٤,٣,٣ العناوين وصياغة الخبر

لقد قلنا في طرحنا في الفصل الثالث إنه يجب ألاّ ننظر إلى «عنوان» مقطع خطابي ما على أنه يساوي «موضوع» ذلك المقطع، بل هو تعبير ممكن واحد عن ذلك الموضوع.

والآن نودّ أن نقترح أن أفضل طريقة لوصف وظيفة عنوان خطاب ما هي كونه أداة إبراز لها قوة خاصة. ففي المقطع (١٦) كانت الفكرة الرئيسة هي المبرزة. أو لو استعملنا عبارة أكثر دقة للحديث عن هذه العلاقة لقلنا إننا عندما وجدنا اسم رجل مبرزا في عنوان النص توقعنا أن يكون ذلك الشخص محور الحديث. ويترتّب عن خاصية خلق التوقعات هذه والموجودة في عملية صياغة الخبر وخاصة صيغة العنوان أنّ العناصر المبرزة لا تمدّنا فقط بنقطة انطلاق نبني حولها كل ما يكمن في صلب الخطاب بل إنها تمدّنا كذلك بنقطة انطلاق تحدّ من إمكانات فهمنا لما يلحق. ويمكن التدليل على هذه النقطة باستعمال مثال مقتطع من نصّ اصطنعه أندرسن وزملاؤه (١٩٧٧م ص ٣٧٢) نسوقه هنا تحت (١٧ أ) و (١٧ ب) (وقد أضفنا العنوان في كلتا الحالتين).

[١٧] (أ) **سجين يخطّط للهرب**

تحرك روكي ببطء مرتفعًا عن السجاد وهو يخطّط للإفلات، تردّد لحظة وفكّر. لم تكن الأمور تجري على ما يرام. والذي ضايقه بشكل كبير هو هذه القبضة التي عاقت حركته خاصة وأن هذا الضغط الذي تعرض له كان ضعيفًا. فكّر روكي في وضعه الحالي، إن الوثاق الذي يكبّله قوي لكنه ظن أنّ بإمكانه الإفلات منه.

إن محور الحديث في هذا المقطع هو الشخص المسمّى «روكي» ونتيجة لوجود التعبير المبرز في العنوان فيمكننا قراءة النص وفهمه على أن روكي سجين في زنزانة يخطّط لكسر القفل الذي على الباب والهروب. وقد أجرينا تجربة استعملنا فيها هذا النص، ثم طلبنا من المشاركين فيها الإجابة على عدد من الأسئلة، فتبين لنا أن الفهم العام هو أن روكي كان بمفرده وأن رجال الشرطة كانوا قبل ذلك ألقوا القبض عليه وأنه كان يكره البقاء في السجن.

ولكننا عندما قدمنا الأسئلة نفسها لمجموعة أخرى من المشاركين الذين قرأوا النص التالي (١٧ ب) حصلنا على إجابات مختلفة إلى حدّ كبير:

[١٧] (ب) **مصارع في زاوية ضيقة من الحلبة**

تحرّك روكي ببطء مرتفعًا عن السجاد وهو يخطّط للهرب. تردّد لحظة وفكّر. لم تكن الأمور تجري على ما يرام والذي ضايقه بشكل كبير هو هذه القبضة التي عاقت حركته خاصة وأن هذا الضغط الذي تعرض له كان ضعيفًا. فكّر روكي في وضعه الحالي. إن الوثاق الذي يكبّله قوي لكنه ظنّ أن بإمكانه الإفلات منه.

ففي إجاباتهم على الأسئلة المتصلة بهذا المقطع أشار المشاركون أنهم ظنوا أن روكي كان مصارعًا وقع في قبضة منافسه، وكان يخطّط للإفلات منها. لم يكن روكي يجلس وحيدًا في زنزانة في السجن ولم تكن له أية علاقة بالشرطة. هكذا تكون بتقديمنا «نقاط انطلاق» مختلفة في الأجزاء المبرزة من العناوين المختلفة قد حدّدنا من كيفية فهم مقطع نصّي معين.

يناقش أندرسن وزملاؤه (١٩٧٧م) التأويلات المختلفة الممكنة لنفس المقطع النصي (دون عناوين) الذي قدمناه في (١٧ أ) و (١٧ ب) باستعمال البنى المعرفية أو الأنساق الذهنية الجاهزة التي يتم تنشيطها لفهم النصوص. وسوف ندرس هذه الأنساق الذهنية الجاهزة وغيرها من المفاهيم المرتبطة بها بتفصيل أكثر في الفصل السابع.

يعطي المثالان (١٧ أ) و (١٧ ب) تمثيلاً صارخًا على وقع عملية صياغة الخبر. وبطبيعة الحال يوجد العديد من أدوات صياغة الخبر التي يسهل التعرف عليها وهي تستعمل في تنظيم بنية الخطاب. فوضع العناوين الرئيسة والعناوين الفرعية داخل النص هي أداة إبراز للخبر معروفة في الوثائق العلمية أو الموجهة للعموم. هذه الطريقة تستعمل كذلك – ولا بدّ أنك لاحظت هذا – في كتب اللسانيات. إن القاسم المشترك في أدوات إبراز الخبر هذه ليس فقط تقديمها «نقط انطلاق» للفقرات داخل النص بل كذلك إسهامها في تقطيع النص بأكمله إلى مقاطع أصغر. هذا «التقطيع» هو من أول وأبسط الآثار الناتجة عن عملية صياغة الخبر.

٤,٣,٤ البنية الخبرية

لقد برهنا في المثالين (٨) و (٩) إمكان ورود عناصر أخرى غير الفاعل النحوي في موضع الموضوع في الجملة أو العبارة، وذلك بالنظر إلى مجموعة من ظروف الزمان

المستعملة في قصة بوليسية ومجموعة من ظروف المكان المستعملة في (كتيب سفريات) وفي المثال (١١) أوردنا مدخلاً من مداخل الموسوعة، وجدنا فيه أن بنية المدخل جعلت من الفاعل النحوي الذي يحيل على محور الحديث الذي اختاره الكاتب الموضوع الذي تحيل عليه الجمل اللاحقة على طول المدخل. ثم ناقشنا في المثال (١٦) تأبينًا تداخلت فيه الموضوعات المتعلقة بالشخص، وهو محور الحديث والموضوعات المتعلقة بأطر زمانية مختلفة وقد مكن هذا التداخل الكاتب من تقديم محور حديثه من زوايا مختلفة. ونحن هنا ننظر إلى البنية الخبرية لثلاثة مقاطع إضافية.

[١٨] **هذه الزربية من قرية شالامزار في تشهارمهال الجنوبية ولكن تصميمها يحاك في العديد من القرى. هذا التصميم هو واحد من تلك (التصاميم) التي تتناسق مع العديد من الأصناف الممكنة الأخرى والتي تشمل (كما هو الشان في هذا التصميم) عناصر مثل الطيور والأشجار والمزهريات وسجاجيد الصلاة. وربما يقع الاستغناء في بعض الأحيان عن سجادة الصلاة ولكن «المزهرية» والطيور التي رسمت بشكل يلفت الأنظار موجودة دومًا... وفي مثل هذه الزرابي نجد في الغالب أصباغًا طبيعية ممتازة. أما الجودة فتتراوح بين المتوسط إلى الجيدة جدًا أو تكاد... يا لها من نماذج مميزة...**
(بي. آر. دجلي – فورد، تصميم الزرابي الشرقية – منشورات تايمز وهدسون، ١٩٨١م ص ١١٣).

لاحظ التسلسل التالي:

هذه الزربية (مع صورتها).
تصميمها.
هذا التصميم
محراب الصلاة
المزهرية (تفاصيل عن التصميم)
وفي مثل هذه الزرابي
الجودة.
يا لها من نماذج متميزة.

فطريقة عرض المادة موضوعيا هنا توضح بجلاء:

- المجال الموضوعي الذي يتكلم الكاتب عنه.
- تنظيم الفقرة حيث تمّ الانتقال من مثال خاص لنمط من أنماط الزرابي مرورًا بتصميمها النموذجي ووصولاً إلى تعميمات عن زرابي من هذا النمط.

إن البنية الخبرية للأمثلة التي درسناها إلى حدّ الآن مفيدة نسبيًا في التصرف على المجال الموضوعي وتنظيم بنية الخطاب. لكن هنالك حالات أخرى أقل وضوحًا إلى حدّ كبير. فالنثر الصحفي على سبيل المثال له بنية أقل صلابة (من حيث تنظيم المعلومات).

[١٩] **توقعوا في المكتبات التجارية قريبًا كتيبًا صادرًا عن فابير وفابير يكشف النقاب عن حقيقة إنتاج المسرحيات في التلفزة البريطانية بطريقة أفضل من كل الندوات التي تعقد في آخر الأسبوع والأعمال الجامعية الهابطة التي حضرتها في العشر سنوات الأخيرة. وهو يتكون من سبعة مقاطع يحتوي كل واحد منها على.... أما العنوان آه، يا له من خداع ذكي، إنه مأخوذ من إسهام هار. فهو يخبرنا عن اعتزامه بزيارة...**

(صحيفة الليسنر ٢٩ أبريل ١٩٨٢م ص ١٢)(١١)

إن هذه المجموعة:
توقعوا في المكتبات التجارية/ العنوان/
هو/ هو
توضّح أن المجال الموضوعي للكاتب هو اهتمامه بكتاب وإن كانت بنية مساهمته أقل وضوحا بكثير. فمن الممكن، وأن كان ذلك يحتاج إلى برهان، أن تكون البنية الأقل وضوحا أصعب في فهمها على القارىء.

---

(١١) ومثل ذلك في العربية هذا الخطاب الدعائي:
الجميح: خبرة ٤٢ سنة في تسويق السيارات
جنرال موتورز: خبرة ٨٢ سنة في صناعة السيارات
استفيدوا من العرض الخاص
اشتر سيارة واربح سيارة (المدينة ٣ جمادي الأولى ١٤١٢هـ) العدد ٨٩٤٣.

وتعترض تحليل البنية الخبرية للحديث العفوي مشكلات كبيرة. وقد استعرضنا بعض المشكلات التي واجهتنا في إضفاء بنية خبرية عن نماذج من اللغة المكتوبة، وسوف نقوم بنفس الشيء مرة أخرى في سياق حديثنا عن نماذج من اللغة المنطوقة الحوارية التلقائية. إن الكثير مما قلناه لا يمس مباشرة الأصناف النظمية «للجملة» أو «العبارة» (خلافا للابوف ١٩٦٦م الذي قرر أن «حوالي ٧٥٪ من الوحدات الكلامية في أغلب المحادثة حسنة الصياغة مهما كان المعيار، فإذا طبقنا قواعد الحذف والتحرير العام فإن ٩٨٪ منها تقريبا تدخل في هذا التصنيف» سبق في لند ولابوف ١٩٧٥م). وقد حاولنا في المثال التالي أن نضفي على الكلام بنية خبرية:

[٢٠] كان المناخ الذي عشت فيه هو باركلي + وهو (مناخ) أكاديمي محض + لا لم يكن أكاديميًا محضًا. لقد كان آ م م + كان أكاديميًا أساسًا + أعني أغلب ما في باركلي هو الجامعة + إنها شبيهة بالمدينة + التي تهيمن فيها الجامعة على المدينة + مثل كامبردج + أو أكسفورد+ الجامعة هي قلب المدينة النابض + وأغلب الناس الذين تراهم هناك يتبعون الجامعة بطريقة أو بأخرى ++ أم م وأنت تجد هنا كذلك العديد من حالات الفشل أعني أولئك الذين انسحبوا من الجامعة ولكنهم لا يتحملون إمكان مغادرة المكان +

فالإطار الموضوعي هنا هو عمومًا أقل دقة:

المناخ الذي عشت فيه	هو
الذي	فيها
لا	الجامعة
هو	أغلب الناس الذين تراهم
هو	أنت
هو	أنا
أغلب ما في باركلي	الناس

مرة أخرى نجد أنه من الممكن التعرف على المجال الموضوعي للكاتب، ولكن ليس من الممكن معرفة تنظيم النص وهو يبنى بالنظر إلى بنية موضوعه. ويختص الكلام

الذي يغلب عليه الطابع التجادلي التحادثي في أمثلتنا بكون الجانب التبادلي فيه والذي يدل عليه استعمال ضمير المتكلم «أنا» وضمير المخاطب «أنت» كثير البروز (انظر كذلك (٢) في الفصل الأول حيث نقدم وصفا لقوس قزح). هذا الإبراز لهذه الخاصية يدلّ دلالة واضحة على وجهة نظر المتكلم وغرضه من استعمال اللغة. يبدو أن المتكلمين والكتاب يستغلون طريقة صياغة الخبر لإضفاء إطار بنيوي على خطابهم يعود على مقصدهم الأساسي ويمدّهم بنافذة تطل على ما يلحق. ففي القصة البوليسية المذكورة في (٨) نجد الكاتب يتحرك يمينا ويسارا وهو يعلق على نشاطات عدد من الأشخاص الموجودين في أماكن مختلفة من إنجلترا وأوروبا في مساحة لا تتعدى صفحتين. فالترابط المنطقي لبنية النص أمر حتمي وذلك يرجع على الأقل جزئيا إلى العناية التامة التي يعطيها الكاتب لربط الأحداث فيما بينها زمنيا. فكل ظرف زمان جديد يشير إلى أن السيناريـــو قد تغير. إلى هذا الحدّ مازال لم يتضح للقارىء ترابط هذه الأنشطة المختلفة فيما بينها أو تناسبها مع حبكة القصة. فعليه أن يثق في أن الكاتب لن يسوق إلا المعلومات المرتبطة بالموضوع، وما يبرر مثل هذه الثقة المتواصلة هو أن الكاتب يتكلف المصاعب لتزويده بتفاصيل العلاقات الزمنية المصورة للأنشطة التي يصفها.

وفي ورقة الدعاية للسفريات (٩) تمّ إضفاء بنية على قائمة من الحقائق ليس لها أساسا أية بنية، فتم تنظيمها في شكل فقرات موزعة على مبدإ اختلاف المواقع الجغرافية. فهذه المواقع الجغرافية التي تحققت لغويا بموقعها من الخبر هي التي تمثل الإطار الذي يتمحور الخطاب داخله. إن أي إنسان له شيء من الخبرة في كتابة المقال على دراية بمشكلة تحديد نقطة بداية المقال وكيفية ربط الفقرات بما قد قيل وكيفية ربط الجمل بما سبق. فنحن كلنا نواجه نثرا لا يكون الكاتب فيه قد انتبه بما فيه الكفاية لتنظيم عرض المعلومات، انظر هذا المثال المأخوذ من غلاف صابونة سويسرية مستخلصة من زيت الليمون:

[٢١] «لي مانغ» هو الاسم الذي أطلقه الصينيون على شجرة الليمون عام ١١٧٥م ويعتقد البعض أن المنغوليين اخترعوا شراب الليمون عام ١٠٩٩م. وكغيرها من أنواع الكروم زرعت ثمار الليمون على امتداد آلاف السنين وهي تتأصل في الجنوب الشرقي لآسيا.

يحتوي النص أكثر من مشكل ولكن يوجد سبب يفسر ركاكة هذا النص وهو استعمال «البعض» في العبارة الثانية المعطوفة على الجملة الأولى بعد استعمال بنية بارزة في العبارة الأولى.

٤,٣,٥ النظام الطبيعي ووجهة النظر

لقد سبق أن أشرنا إلى مفهوم «النظام الطبيعي» في تقديم سلسلة من الأحداث المروية. وكما يلاحظ لافلت (١٩٨١م) فمن الطبيعي أن نضع الحدث الذي وقع أولا قبل الحدث الذي تلاه. ففي الغالب يقع تقديم سلسلة من الأحداث المتتالية زمنيا والمروية في قصة مسرودة باللغة الإنجليزية حسب التسلسل الزمني لحدوثها، ويكون ذلك في الغالب مع اعتبار غير مصرح به لوجود علاقة يتبع بموجبها الحدث الثاني الحدث الأول (مثال «بسبب»). وقد أطلق هورن (١٩٧٣م) على هذا النمط من الاستدلال غير المنطقي عبارة «هذا يلي ذاك لهذا فيترتب عليه ما يلي»، انظر المقطع التالي: وكانت عاصفة قد هبت مباشرة قبله ونزلت أمطار جارفة.

[٢٢] لم تكن هناك سوى بضعة ياردات بين المكان الذي كنت واقفا فيه جانب الدربوز وبين الرواق ومع ذلك فقد أصبحت أتصبّب ماءً قبل أن أدخل تحت السقف. ثم نزعت ملابسي إلى أكثر حدّ تسمح به الحشمة، وبعد ذلك جلست لكتابة هذه الرسالة، ولكنني كنت أرتجف بكل قوة (وليام غولدين، طقوس العبور، منشورات فايبر وفايبر ١٩٨٠م ص ١٩١).

لا يصرح النص أن الراوي «كان يتصبّب ماءً» من جراء المطر (لا من جراء العرق على سبيل المثال) أو لماذا كان يسعى إلى الوصول إلى مكان يحميه. لم يوضح لنا لماذا نزع ملابسه أو لماذا وجد نفسه «يرتجف بشدة». ولكن القارىء الناطق بالإنجليزية يفترض بكل تلقائية وجود علاقة ذات معنى بين هذه الأحداث المتلاحقة وسيخلص إلى الاستنتاج المناسب بأن الراوي يتصبب ماءً من جراء المطر، ويسعى إلى الاحتماء من وقع المطر عليه وهو «يرتجف بشدة» تأثرا بالتجربة التي كان يعاني منها مباشرة وسط العاصفة الهوجاء (انظر دراسة عمليات الاستدلال في الفصل السابع).

وقد حصرنا قيام قارىء من الناطقين بالإنجليزية بهذه الاستنتاجات لأنه يبدو أن هناك قواعد أخرى للبنى القصصية في ثقافات أخرى. (قارن غرايمز ١٩٧٥م، غرايمز (محررا)، ١٩٧٨م)، (باكر ١٩٨٠م). لاشكّ أنه يوجد أنظمة تسلسل نموذجية في أنماط خطاب غير تلك التي تتمثل بكل وضوح في سلسلة من الأحداث المتتالية زمنيا. هكذا يخبرنا لند ولابوف أن ٩٧٪ من المشاركين في إحدى التجارب والذين طلب منهم فيها أن يصفوا تنظيم شققهم قد فعلوا ذلك باستعمال «جولات خيالية تحول الإشارات المكانية إلى قصص لها تنظيم زمني» (١٩٧٥م ص ٩٢٤). في كل مرة تبدأ الجولة القصصية عند الباب الرئيس كما لو كان السائل سيصل إلى الشقة للمرة الأولى. وبالطريقة نفسها يتبنّى المتكلمون الذين يطلب منهم تقديم إرشادات عن الطريق في مدينة لا يعرفها السائل وجهة نظر المستمع. فهم تعاونا منهم مع السائل يبدأون دوما من الموقع الذي سئلوا فيه، ومن ثم يحاولون وصف الطريق على أنها سلسلة من الأعمال المتلاحقة زمنيا. إذن نجد في كل حالة من هذه الحالات نقطة بداية «طبيعية» كما أن الوصف محاولة لاتباع تطور «طبيعي» للأحداث. ويقترح لافلت أن المتكلم بتبنيه للنمط السلوكي النموذجي للثقافة «يسهل على المستمع عملية الفهم» (١٩٨١م ص ٩٤) لأن المتكلم والمستمع يتقاسمان النموذج نفسه. يبدو أنه من المحتمل جدا وجود ضوابط أخرى على تنظيم الأحداث في أنماط خطابية لا يقتصر تنظيمها بكل بساطة على تسلسل الأحداث زمنيا. فهذا فان دايك (١٩٧٧م) يرى أن الذي يحدد وصف الحالات هو درجة بروزها للحواس بحيث يذكر الشيء الأكثر بروزا للحواس. وهو يقترح أن «النظام الطبيعي» يلتزم بالنمط التالي:

[٢٣] العام – الخاص
الكل – الجزء/المكوّن
المجموعة – الفرد/العنصر
الحاوي – المحوي
الكبير – الصغير
الظاهر – الباطن
المالك – المملوك

(فان دايك ١٩٧٧م ص ١٠٦).

انظر المقطع التالي على ضوء الضوابط التي اقترحها فان دايك :

[٢٤] (١) كان بالفعل منظرا شديد الفظاعة.(٢) فالجدران وحدها كانت تبدو عارية صماء ومسودة، حجارتها مغطاة بليقة متصدعة منشقة وفجوات في المواضع التي سحب فيها التسليح عند سقوط السقف. (٣) وفي الداخل كانت هناك أعمدة من الركام تتكون في الغالب من الطوب والحجارة التي تناثرت عند سقوط الجدران الداخلية، ولكنك تجد كذلك من حين لآخر بعض الأسياج المعدنية المعوجة وعددا من الزجاج المحطم. (٤) في أحد الأماكن رأت باتي بقايا خزانة المكتب وفي موضع آخر ثلاثة أشياء شبيهة بالعصيّ توصلت في النهاية إلى تصنيفها على أنها جعاب البنادق.

(فريمان ويلز كروفتس، الرماد الذهبي منشورات بنجوين ١٩٥٩م ص ٢٤).

فالجملة الأولى تصف ما هو عام، كلي، كبير وظاهر. وتنتقل الجملة الثانية إلى وصف الجدران أي ما هو جزئي حاو كبير وظاهر. وتنتقل الجملة الثالثة إلى الداخل، وتبدأ في ملاحظة الأشياء الصغيرة المحوية. أما الجملة الرابعة فتحتوي على الأشياء الخاصة الصغيرة المحوية التي لم يقع التعرف عليها في البداية ثم تمّ تخصيصها. يبدو معقولا أن نقترح أن الضوابط التي وضعها فان دايك قد انطبقت عموما على هذا النص الوصفي. لكن ماذا لو افترضنا أن النص لم يتقيد بهذه الضوابط؟ هذا يعني إذن أن المتكلم/ الكاتب عندما يقلب النظام «الطبيعي» للأحداث فإنه يحدث بذلك «وقعا خاصا».

ويقترح فان دايك أننا لو قلبنا النظام الطبيعي (العام - الخاص) كما هو الحال بين (٢٥ أ أو ٢٥ ب) فإن الجملة الثانية في (ب) ستفهم على أنها تقدم تفسيرا لما عليه الحال في الجملة الأولى :

[٢٥] (أ) بطرس يأتي دوما متأخرا. ولن يحل في الوقت هذه الليلة كذلك.
(ب) لقد تأخر بطرس مرة أخرى. إنه لا يأتي أبدا في الموعد.

لا شك أن اقتراح فان دايك مهم بالنسبة لمحلل الخطاب، ولكن علينا مع ذلك الانتباه إلى تحذير لافلت إذ يقول: «لن نجد أبدا إجابة شافية كافية على مسألة علاقة

النظام الطبيعي بالمجالات المختلفة للخطاب، إذ يوجد من الأنظمة الطبيعية ما يعادل عدد الأشياء التي نتحدث عنها. (١٩٨١م ص ٩٤).

هنالك قيد واضح على أسلوب تنظيم الخطاب يمكن أن يلغي مبدأ «درجة البروز للحواس» الذي وضعه فان دايك، وهو المحافظة على وجهة نظر واحدة في كامل الخطاب. فقد لاحظ فلمور (١٩٨١م) أن إحدى خاصيات الخطاب الأدبي هي الوقع الناتج عن استعمال وجهة نظر معينة أو «زاوية خاصة» على كيفية عرض الأحداث. لهذا فإننا نرى في بداية رواية هامنجواي «القتلة» أن الطريقة التي على القارىء أن ينظر بها إلى الأحداث مقيدة بتنظيم الجملة الأولى :

[٢٦] فتح باب غرفة طعام هانري ودخل رجلان.

لقد تم «فتح الباب» قبل ظهور الرجلين. ويتناسب هذا التنظيم للأحداث مع حقيقة دخول الرجلين، فبنية هذا المقطع تعكس النظرة للأحداث التي لا بد أن تكون لراو موجود داخل غرفة الطعام. وفي مثال آخر لفلمور وهو الذي نقدمه فيما يلي تحت رقم (٢٧) إن الذي يحدد البنية التسلسلية للأحداث المروية هو ترتيب إدراك الحاسة البصرية لها قبل أن يكون التسلسل المادي الأكثر طبيعية.

[٢٧] اشعل النور. كانت واقفة بجانب الباب.

وفي الأدب كثيرا ما يضفي الكاتب على أحد الأبطال في القصة وظيفة الراوي. وعلى هذا الأساس يجب على الكاتب حسن استغلال المعرفة اللازمة للقارىء حتى يتمكن توقع معرفتها من طرف الراوي وقولها على لسانه.

وقد جرب العديد من الكتاب الإمكانات الأدبية في رواية نفس الأحداث من منظور أبطال مختلفين لهم أفهام مختلفة لهذه الأحداث. (قارن بين نمطين أدبيين شديدي الاختلاف يتمثل أحدهما في رواية «حجر القمر» لولكي كولنز والثاني في «الرباعية الإسكندرية» للورنس دارل). فالمشكل الذي يعترض الكاتب هو المحافظة على وجهة نظر متناسقة لعالم خاص.

وبطبيعة الحال فإن المشكل يمس كل إنتاجنا اللغوي. وقد أشار كونو (١٩٧٦م) وكونو وكوراكي (١٩٧٧م ص ٦٢٧) إلى أن اختلاف ما يسميانه بـ «زوايا الكاميرا» يؤثر على نظم الجمل.

فلو كان المتكلم متعاطفا مع أحد الأطراف المشاركة في مشاجرة زوجية على حساب الطرف الثاني فإنه بإمكانه وصف الحدث نفسه على سبيل المثال إما باستعمال الجملة (أ) أو الجملة (ب):

[٢٨] (أ) ضرب جون زوجته.
(ب) ضرب زوج ماري زوجته.

كذلك يمكن لتعاطف المتكلم مع وجهة نظر على حساب وجهة نظر أخرى أن يؤدي إلى اختيار المتكلم لمفردة خاصة بدلا من غيرها.

انظر الأمثلة التالية:

[٢٩] (أ) اقيم الحدّ على ماري ملكة السكتلنديين من طرف ملكة إنجلترا.
(ب) اغتيلت ماري ملكة السكتلنديين عل يد ملكة إنجلترا.
(جـ) قتلت ماري ملكة السكتلنديين غدرا على يد ابنة عمتها إليزابيث.

ففي كل حالة من هذه الحالات الثلاث نجد أن الفاعلة المشار إليها هي الشخص نفسه والتي وقع عليها الفعل هي الشخص نفسه بحيث سببت الفاعلة موت المفعول بها (يمكن أن نعد المضمون الإدراكي واحدا). ولكن الفعل في (أ) مرويّ على أنه عمل شرعي (إقامة الحدّ) حصل على موافقة الملكة الدستورية (ملكة إنجلترا). أما في (ب) فالفعل مرويّ على أنه غير قانوني له دوافع سياسية (الاغتيال) ووافقت عليه الملكة الدستورية (ملكة إنجلترا). في حين إن الفعل في (جـ) مرويّ على أنه عمل إجرامي غير قانوني (القتل غدرا) قامت به قريبة (ابنة عمتها إليزابيث). فالكاتب يكشف النقاب في كل مثال على تقييم مختلف لطبيعة هذا الصنيع ودوافعه. (للدراسة مجال واسع من العوامل المؤثرة في اختيار المفردات في الخطاب انظر داونينغ ١٩٨٠م). إن مسألة «التعاطف» التي وصفها تشايف بإنها نتاج «لاستطاعة الناس أن ينظروا إلى

العالم بمنظار غيرهم بالإضافة إلى نظرتهم هم». (تشايف ١٩٧٦م ص ٥٤) تمكننا من تجاوز الدراسة الشكلانية نسبيًا لوقع عملية إبراز الخبر لنصل إلى فكرة «الإخراج» العامة التي نعود إليها في المبحث التالي.

٤,٣,٦ الموضوع، صياغة الخبر و«الإخراج»

لقد حاولنا طوال هذا الفصل أن نميّز بين مشكلة النظام التسلسلي باعتبارها مشكلة التنظيم المعرفي للأحداث ووصفها... إلخ، وبين هذه المشكلة باعتبارها مشكلة الوسائل اللغوية المتوافرة للمتكلم/ الكاتب للتعبير عن ذلك التنظيم الإدراكي وبالخصوص تنظيم عرض الخبر في الجملة والعبارة ولكن يبقى هذا التمييز مع ذلك صعبًا وذلك لسبب واضح وهو أن الباب الوحيد، الذي نطل منه على عملية البنية المعرفيــة للمتكلم/ الكاتب هو اللغة التي يستعملها للتعبير عن تلك العملية البنائية. لقد سلمنا أن مفهوم «الإخراج» يشمل مجالا أكثر اتساعا لم نناقش إلا بعض جوانبه وبإيجاز، فهو يشمل من جهة الخطة البلاغية الشاملة للمتكلم/ الكاتب لعرض الخطاب، وقد يكون وراءها مقصد يرتبط ببنية التشويق أو إقناع المستمع بصدق قوله عن طريق تقديم تفاصيل تعتبر براهين مساعدة قابلة للتصديق أو حمل المستمع على توخّي سلوك معين أو صدمه أو إدهاشه. بل ربما كان للمتكلم/ الكاتب كل هذه النوايا مجتمعة. إن «الإخراج» الذي قد يهم محلّل الخطاب هو ذلك الإخراج الذي تدلّ عليه اللغة المستعملة. ولكن لابد أن نوضح أنه في حين يمكن لمحلّل الخطاب أن يلفت الانتباه إلى وقع الإخراج الذي له تمييز خاص فإن مناقشته لـ «وقع» الإخراج أو حتى تجريده لبعض الصيغ اللغوية الخاصة بدلا عن صيغ أخرى على أنها تسهم في إحداث هذا الوقع سيفتقر بالضرورة إلى ضوابط صارمة إلى حد كبير، إن لم يكن في أوجه عديدة قريبا من التحليل الأدبي التقليدي والدراسة البلاغية. وسيشعر أغلب اللغويين بالحرج من هذا الجانب «غير الدقيق» في تحليل الخطاب، ومع ذلك فمن الواضح أن بإمكان محلّلي الخطاب أن يسهموا في وصف إخراج المقطع التالي:

[٣٠] (أ) أظن ان مظهرك الخارجي إن كان أم م لنقل أنيقا وو + حسن التنظيم إلى غير ذلك فإن هذا يعطي إحساسا + حتى وإن كان مصطنعًا فإن الإنسان سيقدم أداء متناسقا حسن التنظيم.

وبطبيعة الحال فإن المشكل يمس كل إنتاجنا اللغوي. وقد أشار كونو (١٩٧٦م) وكونو وكوراكي (١٩٧٧م ص ٦٢٧) إلى أن اختلاف ما يسميانه بـ «زوايا الكاميرا» يؤثر على نظم الجمل.

فلو كان المتكلم متعاطفا مع أحد الأطراف المشاركة في مشاجرة زوجية على حساب الطرف الثاني فإنه بإمكانه وصف الحدث نفسه على سبيل المثال إما باستعمال الجملة (أ) أو الجملة (ب):

[٢٨] (أ) ضرب جون زوجته.
(ب) ضرب زوج ماري زوجته.

كذلك يمكن لتعاطف المتكلم مع وجهة نظر على حساب وجهة نظر أخرى أن يؤدي إلى اختيار المتكلم لمفردة خاصة بدلا من غيرها.

انظر الأمثلة التالية:

[٢٩] (أ) أقيم الحدّ على ماري ملكة السكتلنديين من طرف ملكة إنجلترا.
(ب) اغتيلت ماري ملكة السكتلنديين عل يد ملكة إنجلترا.
(جـ) قتلت ماري ملكة السكتلنديين غدرا على يد ابنة عمتها إليزابيث.

ففي كل حالة من هذه الحالات الثلاث نجد أن الفاعلة المشار إليها هي الشخص نفسه والتي وقع عليها الفعل هي الشخص نفسه بحيث سببت الفاعلة موت المفعول بها (يمكن أن نعد المضمون الإدراكي واحدا). ولكن الفعل في (أ) مرويّ على أنه عمل شرعي (إقامة الحدّ) حصل على موافقة الملكة الدستورية (ملكة إنجلترا). أما في (ب) فالفعل مرويّ على أنه غير قانوني له دوافع سياسية (الاغتيال) ووافقت عليه الملكة الدستورية (ملكة إنجلترا). في حين إن الفعل في (جـ) مرويّ على أنه عمل إجرامي غير قانوني (القتل غدرا) قامت به قريبة (ابنة عمتها إليزابيث). فالكاتب يكشف النقاب في كل مثال على تقييم مختلف لطبيعة هذا الصنيع ودوافعه. (للدراسة مجال واسع من العوامل المؤثرة في اختيار المفردات في الخطاب انظر داونينغ ١٩٨٠م).

إن مسألة «التعاطف» التي وصفها تشايف بإنها نتاج «لاستطاعة الناس أن ينظروا إلى

العالم بمنظار غيرهم بالإضافة إلى نظرتهم هم». (تشايف ١٩٧٦م ص ٥٤) تمكننا من تجاوز الدراسة الشكلانية نسبيًا لوقع عملية إبراز الخبر لنصل إلى فكرة «الإخراج» العامة التي نعود إليها في المبحث التالي.

٤,٣,٦ الموضوع، صياغة الخبر و«الإخراج»

لقد حاولنا طوال هذا الفصل أن نميّز بين مشكلة النظام التسلسلي باعتبارها مشكلة التنظيم المعرفي للأحداث ووصفها... إلخ، وبين هذه المشكلة باعتبارها مشكلة الوسائل اللغوية المتوافرة للمتكلم/ الكاتب للتعبير عن ذلك التنظيم الإدراكي وبالخصوص تنظيم عرض الخبر في الجملة والعبارة ولكن يبقى هذا التمييز مع ذلك صعبًا وذلك لسبب واضح وهو أن الباب الوحيد، الذي نطل منه على عملية البنية المعرفيـة للمتكلم/ الكاتب هو اللغة التي يستعملها للتعبير عن تلك العملية البنائية. لقد سلمنا أن مفهوم «الإخراج» يشمل مجالا أكثر اتساعا لم نناقش إلا بعض جوانبه وبإيجاز، فهو يشمل من جهة الخطة البلاغية الشاملة للمتكلم/ الكاتب لعرض الخطاب، وقد يكون وراءها مقصد يرتبط بنية التشويق أو إقناع المستمع بصدق قوله عن طريق تقديم تفاصيل تعتبر براهين مساعدة قابلة للتصديق أو حمل المستمع على توخي سلوك معين أو صدمه أو إدهاشه. بل ربما كان للمتكلم/ الكاتب كل هذه النوايا مجتمعة. إن «الإخراج» الذي قد يهم محلّل الخطاب هو ذلك الإخراج الذي تدلّ عليه اللغة المستعملة. ولكن لابد أن نوضح أنه في حين يمكن لمحلّل الخطاب أن يلفت الانتباه إلى وقع الإخراج الذي له تمييز خاص فإن مناقشته لـ «وقع» الإخراج أو حتى تجريده لبعض الصيغ اللغوية الخاصة بدلا عن صيغ أخرى على أنها تسهم في إحداث هذا الوقع سيفتقر بالضرورة إلى ضوابط صارمة إلى حد كبير، إن لم يكن في أوجه عديدة قريبا من التحليل الأدبي التقليدي والدراسة البلاغية. وسيشعر أغلب اللغويين بالحرج من هذا الجانب «غير الدقيق» في تحليل الخطاب، ومع ذلك فمن الواضح أن بإمكان محلّلي الخطاب أن يسهموا في وصف إخراج المقطع التالي:

[٣٠] (أ) أظن أن مظهرك الخارجي إن كان أم م لنقل أنيقا وو + حسن التنظيم إلى غير ذلك فإن هذا يعطي إحساسا + حتى وإن كان مصطنعًا فإن الإنسان سيقدم أداء متناسقا حسن التنظيم.

على الخطاب، وفي الفصل الثالث وجهنا عنايتنا لوقع زوايا نظر مختلفة على بنية الموضوع. ثم خصصنا الفصل الرابع لمناقشة وقع تسلسل الكلام في الخطاب، كيف يحدّ ما يقال أولا من فهمنا لما يقال فيما بعد، وكيف أن القرارات عن كيفية إبراز الخبر تعطينا البنية العامة التي يقوم السامع في إطارها بفهم الخطاب.

أما في هذا الفصل فإننا نزيد من تضييق مصب اهتمامنا لنركّز على أصغر وحدات بنية الخطاب، وهي الوحدات المحلية الصغيرة على مستوى شبه الجملة أو العبارة. سندرس كيفية تشكيل المعلومات داخل هذه البنى، ونركّز بالخصوص على الأدوات المتوافرة بين يدي المتكلمين والكتّاب ليلفتوا نظر سامعيهم إلى وجه المعلومة التي يتم ذكرها في الخطاب.

٥,١,١ بنية المعلومات ومفهوم «مسلّم/جديد» في التنغيم

إن مؤسسي الدراسة الجدّية لبنية المعلومات داخل النصوص هم بعض الباحثين من مدرسة براغ قبل الحرب العالمية الثانية. فقد درسوا ما يسمّونه «بدينامية التواصل» للعناصر المساهمة في وضع الجملة في إطار وظيفية الجملة. (للحصول على دراسة شاملة لهذه الأعمال انظر فاتشيك، ١٩٦٦م وفارباس ١٩٧٤م).

وكان أول من لفت انتباه العلماء الغربيين للنتائج الجيدة العديدة التي توصّل إليها علماء براغ هو هاليداي في مقال يدين له الجميع نشر في ١٩٦٧م. فقد طور هاليداي وتوسّع في تلك الجوانب من بحوث براغ التي ترتبط مباشرة باهتماماته هو في بنية النصوص. وعلى وجه الخصوص، تبنّى هاليداي طرح مدرسة براغ القائل بأن المعلومات تنقسم إلى قسمين: معلومات جديدة وهي المعلومات التي يعتقد الباثّ أنها غير معروفة لدى المتلقّي، ومعلومات مسلّمة يعتقد الباث أنها معروفة لدى المتلقي (إما لحضورها المادي في المقام أو لسابق ذكرها في الخطاب). وإضافة إلى ذلك اتبع هاليداي مدرسة براغ في افتراضه أن إحدى وظائف التنغيم في الإنجليزية هي تحديد تلك المعلومات التي يعدّها المتكلم جديدة وتمييزها عن تلك المعلومات التي يعدّها مسلمة. ففي دراسته لبنية المعلومات ينصبّ اهتمام هاليداي بالخصوص على تحديد كيفية تنظيم المعلومات في الخطاب المنطوق في الإنجليزية وربط هذا التنظيم بكيفية تحقيقه فونولوجيًا وعلى وجه الخصوص بالتنغيم.

وقد قام العديد من الباحثين مؤخرا بتوسيع دراسة المعلومات «المسلّمة» و«الجديدة» لتشمل تشكيلة الصيغ النظميّة التي يعتقد أنها تحقق أنماط المعلومات هذه. وقد نتج عن ذلك تحوّل في دلالة تلك المصطلحات بحيث أصبحت مشمولاتها، وخاصة منها ما يتعلّق بـ «المعلومات المسلّمة» أوسع بكثير مما قصده هاليداي بل أكثر من ذلك لم تعد هذه المدلولات ترتبط بالظواهر التنغيمية التي كان همّ هاليداي وصفها.

هكذا نجد أمامنا مرّة أخرى تشكيلة واسعة من الدلالات المرتبطة بمصطلح واحد والتي يمكن أن تبعث على الحيرة واللبس. وسنحاول المحافظة على تميّز الدلالات وذلك بتنظيم دراستنا كما يلي: سنقوم أولا بشرح طرح هاليداي عن بنية المعلومات وكيفية تحقيقها تنغيميًا. (سنستشهد بشكل يكاد يكون كليًا بمقال هاليداي ١٩٦٧م نظرا لأن هذا المقال قد كان له بالغ الأثر في أعمال بقية الدارسين. وقد تغيرت نظرة هاليداي نفسه لبعض النقاط التي ندرسها تغيرا ملحوظا منذ ١٩٦٧م. قارن ذلك بهاليداي ١٩٧٨م). سنردف هذا الشرح بنقد لنظرة هاليداي ونقدّم طرحا بديلا يختلف عنها شيئا ما لكنه لايزال يرتبط ببنية المعلومات، كما تتحقق تنغيميًا. بعد ذلك سنوجه عنايتنا إلى التحقيق النظمي لبنية المعلومات وعند هذا الحدّ سنواجه التحوّل في مدلول مصطلحي «مسلّم» و «جديد».

٥,١,٢ طرح هاليداي عن بنية المعلومات: وحدات المعلومات

يفترض هاليداي أن المتكلّم ينوي تشفير محتوى العبارة (وهي أهمّ الوحدات في نظامه النحوي). إن ما يسمّيه هاليداي المحتوى «الفكري» لعبارة ما يمكن مقارنته من أوجه عديدة بما يسمّيه الآخرون المحتوى «الإخباري» لجملة بسيطة (انظر مناقشة المسألة في ٣,٧). مضمون العبارة هذا ينظّمه المتكلّم في بنية تراكيبية تقوم على العبارة يختار فيها المتكلّم من بين الخيارات الموضوعية المتوافرة لديه. أما في اللغة المنطوقة فمحتوى العبارة ينتظم في شكل وحدة أو وحدات معلومات تتحقق فونولوجيًا عن طريق التنغيم.

يرى هاليداي أن المتكلم مضطرّ لتقطيع كلامه إلى وحدات معلومات، إذ عليه أن يقدم رسالته في سلسلة من المقاطع الصغيرة. ولكن له حرية التصرف في تقرير كيفية تقطيعه للمعلومات. فهو «حرّ في تقرير موضع بداية ونهاية كل وحدة معلومات وتحديد كيفية تنظيمها داخليا» (١٩٦٧م ص ٢٠٠). هكذا فلو سلّمنا أن المتكلم قد

قرر أن يعلم السامع أن «جون دخل الحديقة ترافقه ماري» فبإمكانه تقطيع هذه المعلومة إلى مقطع واحد كما في :

[١] (أ) جون دخل الحديقة ترافقه ماري

أو مقطعين أو ثلاثة مقاطع كما في :

(ب) جون – دخل الحديقة ترافقه ماري
(جـ) جون – دخل الحديقة – ترافقه ماري

سندرس وسائل تحقيق هذا الفرق في التقطيع في المبحث القادم .

إن «التنظيم الداخلي» لوحدة المعلومات يرتبط بطريقة توزيع المعلومات المسلّمة والجديدة داخل الوحدة . فالوضع النموذجي كما يقترحه هاليداي هو أن يضع المتكلّم المعلومات المسلّمة قبل المعلومات الجديدة . فمن الطبيعي أن وحدات المعلومات التي تكون في بداية الخطاب لا تحتوي إلا على معلومات جديدة .

٥,١,٣ طرح هاليداي عن بنية المعلومات

الوحدات النغميّة والمقاطع اللفظية المنبورة

تتحقّق وحدات المعلومات مباشرة في الكلام في شكل وحدات نغميّة تسمّى في دراسات أخرى «مجموعات نفسيّة» و «مقاطع صوتية» أو «وحدات نبرية» (انظر لاهيست ١٩٧٠م) . فالمتكلّم يوزّع كمّ المعلومات التي يريد التعبير عنها على هذه الوحدات المعرّفة فونولوجيّا .

تتميّز وحدات النغمة فونولوجيّا باحتوائها على مقطع نبريّ واحد فقط . ويتّصف المقطع النبريّ باحتوائه على أعلى درجة في الطبقة الصوتيّة تنزل عليه . (ويطلق عليه في دراسات أخرى اسم «المقطع اللفظي» أو «نبر الجملة» وهو يعرّف باحتوائه على أقصى درجات تحرّك الطبقة الصوتيّة وأعلاها وأقصى درجات الحدّة و/ أو أطول مدة . انظر على سبيل المقارنة لاهيست ١٩٧٠م) . وبما أن وحدات النغمة تطرأ في اللغة المنطوقة فإنها كذلك ترتبط بإيقاع اللغة المنطوقة (انظر أبكرومبي ١٩٦٤م) . فلو استعملنا اصطلاح هاليداي فإن كل تفعيلة تبدأ بمقطع لفظيّ منبور يتبعه أيّ عدد من

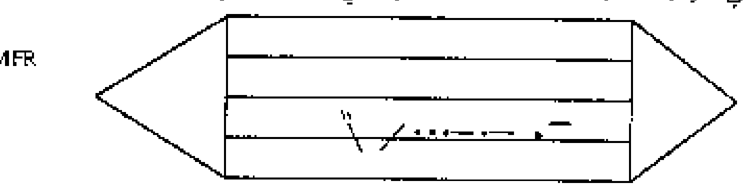
المقاطع اللفظية غير المنبورة . ويترتب على هذا أن الوحدات النغميّة لا بدّ أن تبدأ بمقطع منبور . وقد يحدث أحيانا أن يكون المقطع اللفظي الأول في التفعيلة الاستفتاحيّة في وحدة نغميّة غير منبور . عندئذ يفترض وجود منبور عروضي صامت (يعادل «الإيقاعة» في الموسيقى) في موضع الاستفتاح في الوحدة النغمية . في المثال التالي ندل على المقطع اللفظي المنبور بقوسين مربعين وعلى حدود الوحدة النغمية بعلامة // وعلى المنبور العروضيّ الصامت بعلامة ٨ :

// ٨ أرى / أن المسألة غير مف[هو]مة //

فالمقطع اللفظي المنبور له وظيفة إبراز المعلومة الجديدة في الوحدة النغميّة[٢] .

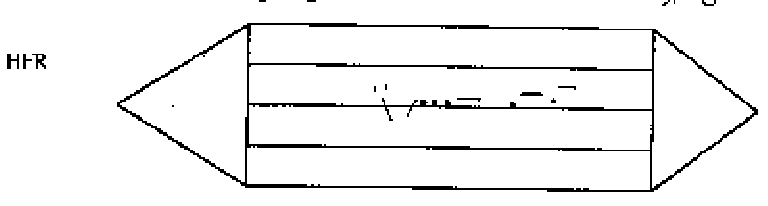
وفي الحالات العادية غير الموسومة يلعب المقطع اللفظي المنبور دور إبراز آخر كلمة في

(٢) من أمثلة ذلك في العربية هذا المثال الذي أورده الدكتور سعيد محمد محمد بدوي في أطروحته التي عنوانها «الدراسة التنغيمية للهجة العربية في مدينة الرياض» ص١٤٤ :



ما تعرف تقرا إنجليزي !

حيث أُلقيت الجملة بنغم متوسط نازل ثم صاعد ، وتوالت جملة من النبرات آخرها الذي وقع على المقطع قبل الأخير من (انجليزي) . وتضافرت تلك العوامل لتساعد على نقل ما يقصد المتكلم ، أي : لا تعرف كيف تقرأ الإنجليزية [فلماذا تتصرف وكأنك تعرفها؟] . ويمكن أن تقارن هذه الجملة بالجملة نفسها إذا قيلت في طبقة نغمية أعلى على نسق عال نازل ثم صاعد وبالعدد نفسه من النبرات ؛ فدلّت لاختلاف طبقتها النغمية على معنى مغاير :



ما تعرف تقرا انجليزي

[يقصد : يا للأسف ، لو كنت تعرف كيف تقرأ الإنجليزية ، لكنت نفعتنا الآن] .

الوحدة النغمية التي تكون عادة الكلمة الرئيسة في الجزء الذي يحتوي على المعلومة الجديدة. انظر إنشاد بنت عمرها ٤ سنوات لحكاية خرافيّة تعرفها حقّ المعرفة:

[٢] (أ) // ٨ كان / ياما [كان] // // ٨ في سالف / العصر والأ[وان] //
(ب) // ٨ جنية / خـ[بيـ]ثة // // ٨ ماكرة / شـ[ريـ]رة //
(جـ) // ٨ وكان / في العـ[قيق] // // ٨ أمير / أ[نيق]//
(د) // ٨ وكان / في الخـ[ميلـ]ة // // ٨ أميرة / جـ[ميـ]لـة //
(هـ) // ٨ يا لها / من حـ[قيـ]رة // // ٨ الجنية / الشـ[ريـ]رة //(٣)

فالبنت (التي تأثّرت لا محالة بالنسخة المقروءة بصوت عال التي سمعتها والتي تأثرت بدورها بتنقيط النسخة المكتوبة) تقطّع قصتها إلى وحدات معلومات تتحقق في شكل وحدات نغميّة. ففي الوحدات النغميّة (أ - د) تحتوي آخر كلمة على مقطع لفظيّ منبور يميّزها كنقطة تركيز المعلومة الجديدة. أما في الوحدة النغمية (هـ) فإن المقطع اللفظي المنبور لا ينزل على آخر كلمة (جنية) حيث إن «الجنية» معلومة مسلّمة في السياق النصّي السابق بحيث تعتبرها المتكلّمة مسلّمة. فالنّبر ينزل على آخر كلمة دالة على «معلومات جديدة» أي على «حقيرة».

من المهمّ ألاّ نذهب إلى الظنّ بأن حالة المعلومات نتاج حتميّ لمسألة ما إذا كانت تمت الإحالة على مسمّى أم لا داخل الخطاب. فكما لاحظ هاليداي باستمرار وهو محقّ في ذلك: «إن هذه خيارات لدى المتكلم وليست نتاجا حتميًا للمحيط الذي يفرضه النص أو المقام. إن ما يعدّ جديدا هو في آخر المطاف ما يختار المتكلم أن يقدّمه على أنه جديد، أما التنبّؤات القائمة على الخطاب فلا يتعدّى الأمر وجود احتمال كبير في تحقيقها» (١٩٦٧م ص ٢١١).

---

(٣) أقرب مثال على العربية هذه المقطوعة من أناشيد أطفال المدارس في تونس الصف الثاني - ابتدائي -

أهلا بكبش الـ[عيد] ونطحه الشـ[ديد]
غدا يكون [القـ]مة للابس الجـ[ديد]
يذبحه الجـ[ـزا]ر بمدية الحـ[ديد]

يقرّر هاليداي وجود علاقة وثيقة بين كيفية تحقيق وحدة المعلومات فونولوجيّا من خلال الوحدة النغمية وتركيبيًا من خلال العبارة «في الحالة العادية غير الموسومة (في المحادثة غير الرسمية) تكون وحدة المعلومات منطبعة على العبارة، ولكن المتكلم يملك خيار ربطها بأيّ عنصر منصوص عليه في بنية الجملة» (١٩٧٧م ص ٢٤٢). المثال (٣) مقتطف من كتابة صوتية قدمها هاليداي (١٩٧٧م ص ٢٠١) حيث نجد أن المتكلم قد قطّع معلوماته إلى مقاطع فونولوجية أي وحدات تنفّسية متساوية في الامتداد مع العبارة وشبه الجملة.

[٣] // كنت أملك بيتًا من تلك البيوت المدارية القديمة الجميلة // كنت محظوظا جدا // كان عمر البيت حوالي ثلاثين عاما // وكان قائما على أعمدة حجرية // وله سلّم طويل يصعد إلى فوق // وأبواب قابلة للطيّ // تفتح على شرفة. //

قارن بـ (٢) حيث نظمت البنت كذلك قصتها في وحدات نغميّة تتساوى في الامتداد مع العبارة وشبه الجملة.

سنعود في المبحثين القادمين إلى دراسة الجوانب التالية من طرح هاليداي:

(أ) طبيعة صنف «الوحدة النغمية»

(ب) طبيعة صنف «المقطع النبريّ»

(جـ) علاقة وحدة المعلومات بالأصناف الفونولوجية والتركيبية.

٤,١,٥ تحديد الوحدة النغمية

من الواضح عندما نستمع إلى الشيء الكثير من الكلام العفويّ أن المتكلّمين ينتجون وحدات مرتبطة فيما بينها إيقاعيًا، قد لا يكون دوما من الممكن ربطها بالمكوّنات التركيبيّة، ولكنها تبدو وكأن المتكلم قصد أن تؤخذ مجتمعة. يبدو من المعقول تسميتها «وحدات معلومات» كما فعل هاليداي. ولو أراد محلّل الخطاب تحديد كيفية تحقيق وحدات المعلومات فإنه بحاجة إلى نظام تحليل يمكنه من التعرّف على هذه الوسائل بطريقة منظمة يعتمد عليها. عندما ندرس الكلام الذي يقرأ بصوت عال أو في كلام

سبق التدرّب عليه يكون في الغالب ممكنا التعرف على وحدات نغمية في خضم هذا الكلام خاصة وأن الحدود التركيبية تتفق عادة مع الحدود الفونولوجية. ولكن من جهة أخرى توجد في الكلام العفوي التلقائي مشكلات في تحديد وحدة النغمة بالاعتماد فقط على معايير فونولوجية. من حيث المبدأ، لو كان صحيحا أن الوحدات النغمية يمكن تمييزها بالعودة إلى معايير فونولوجية دون الاعتماد على غيرها للزم أن نكون قادرين على تحديدها، انطلاقا من تسجيل واضح النغمة لكن محتواه طلسم. ولكن هذا في الواقع ليس صحيحا. إذن فهذا الزّعم بالصفة المنصوص عليها قويّ جدا.

إن المنحنى التطريزي التنغيمي للوحدات النغمية يتكوّن في رأي هاليداي حول المقطع المنبور إذ يقول: «يوجد دائما داخل الوحدة النغمية جزء معين يكون له بروز خاص. . . ويقع عبء تحمّل حركة الطبقة الصوتية داخل الوحدة النغمية على المقطع المنبور» (١٩٧٠م أ ص ٤)[٤].

يبدو جليّا إذن وجود حركة تنغيمية قوية واحدة فقط داخل الوحدة النغميّة. ومن الممكن العثور على مثل هذه المنحنيات التطريزية التنغيمية ذات النطق السّلس لكنها نادرة بالمقارنة حيث إننا نجد عادة بنى مقيّدة إيقاعيّا بإحكام لها عدة ذروات بروز. وقد ساق براون، كاري وكنوورذي (١٩٨٠م) سلسلة من التجارب تبيّن كيف عجز حكّام لغويّون ممّن لهم خبرة في تدريس نظام هاليداي عن التعرف جيدا على المقاطع المنبورة، وبالتالي كيف كانوا عاجزين عن التعرّف على وحدات النغمة جيّدًا.

إذا كنّا نشعر باستمرار بصعوبة أو حتى استحالة تحديد ذروة بروز واحدة تنبني حولها وحدة النغمة، فينبغي أن يكون من الممكن، من حيث المبدأ، تحديد حدود تلك الوحدة. ولا يحدّد هاليداي بالضبط المعايير التي نقيس عليها حدود الوحدة. ولكنه يصرّح مع ذلك أن حدود الوحدة تتحدّد، ولو جزئيّا على الأقل، بالبنية الإيقاعية للقول حيث يقول: «إن وحدة النغمة وحدة فونولوجية وظيفتها تحقيق بنية المعلومات. وليس لها (بالضرورة) نفس امتداد الجملة أو العبارة أو أي وحدة من بنية الجملة.

(٤) يختلف هذا النظام بالكامل عن الأوزان الشعرية في اللغة العربية التي تقوم على تواتر تفعيلات معينة بترتيب معين وكمّ مقطعي محدّد.

ولكن لها نفس امتداد وحدة المعلومات داخل حدود يحتّمها الإيقاع» (١٩٦٧م ص ٢٠٣: التركيز لنا). إن هذا الإصرار على ربط وحدة المعلومات مباشرة بصيغة تحقيقها فونولوجيا يعطينا وحدات معلومات غريبة كما في (٤):

[٤] **ليس هذا فحسب بل إنك// لم تكن تعلم / أين تبدأ في / البحث عن / الآخر مرة أخرى كما /أقول... (١٩٦٧م ص ٢٠٩).**

ونجد حدودا مماثلة لوحدة معلومات تقع في منتصف الكلمة في مثال آخر كتبه هاليداي صوتيّا، نسوقه في ما يلي تحت رقم (٥). إن هذه الحدود للوحدة النغمية تبدو مناقضة لحسّنا السّليم إن كنا نعتبرها فعلا التشفير المباشر لحدود وحدات المعلومات في الكلام. توجد إذن مشاكل في تحديد المقاطع المنبورة والوحدات التنفّسية في الكلام العفوي. سنقدّم في (٥,١,٥) و(٧,١,٧) طريقة تحليل بديلة يواجهها بطبيعة الحال نفس نمط الصعوبات ولكنها في اعتقادنا تزوّد محلّل الخطاب فعلاً بقاعدة أكثر وثوقًا لتحديد تصنيفاتها.

٥,١,٥ وحدة النغمة والعبارة

إن التزام هاليداي بالعبارة على أنها الوحدة الرئيسة في النظم يسبّب مشكلاً. فبالرغم من إقراره أننا «في الحالات الطبيعية غير الموسومة (في المحادثة غير الرسمية) نجد أن المعلومات تنطبع على العبارة» فإننا نرى في كتاباته الصوتية الموسّعة أن شبه الجملة تبدو المرشّح الأكثر احتمالا لهذا الغرض:

[٥] **// ٨ كانت / خطّا / سريعا و/ ممتعا جدا للسفر في / أكثر / الطرق أهمية / إلى الشمال // ٨ ولكن لـ/سبب معين /كانت مهملة... //**
(١٩٧٠م أ: ١٢٧)

ويدلّ المثالان (٢) و(٣) (المقتطفان كذلك من هاليداي) على الظاهرة نفسها. إن ما يبعث على القلق هنا هو ما إذا كان من المفيد أو الضروري في نظام تحليل لا يتخذ العبارة أهمّ وحدة نظمية كما يفعل هاليداي أن نحدّد وحدات تنطبع على أشباه الجمل بدلا من العبارات «لتسمها». فإن تبيّن أنها «موسومة» وكان لهذا الوسم أية دلالة

فينبغي عندئذ أن يوجد معنى خاص ضمنيّ يرتبط بها. فلو نظرنا بكل بساطة إلى جمل نموذجية نستشهد بها خارجا عن أيّ سياق (كما فعلنا في ١ أ و ١ ب) فيبدو من المعقول أن نقول إن:

(١ ب) // جون // ذهب إلى الحديقة ترافقه ماري //

هي بمعنى أو بآخر أكثر «وسمًا» [نقولها بتحفظ شديد] من:

(١ أ) // جون ذهب إلى الحديقة ترافقه ماري //[*]

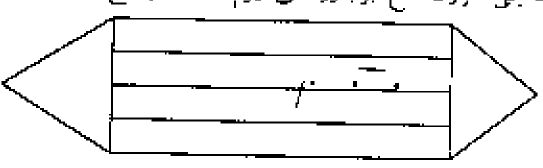
---

(٥) لعل هذا المثال الذي أورده د. سعيد محمد محمد بدوي (نفسه، ص ص ٢٠٢- ٢٠٣) مقابل ملائم لهذه الجملة في العربية.
يقول المتكلم الجملة (تزوّد... باليوم) بدرجة تنغيمية متوسطة تتجه إلى النزول قليلا مع وقفة بسيطة بين الكلمتين ونبر بارز على «يوم»؛ وذلك كما يوضحه هذا الرسم:



تزوّد (...) باليوم

يلاحظ هنا أن التركيز بعد الوقفة جاء على لفظة «يوم»، مما يدل على أن المتكلم يقصد أن الزيادة تتم يوميًا، أي كل يوم، لا كل شهر أو كل أسبوع مثلا.
ويمكن أن نقارن ذلك بالجملة نفسها إذا قيلت من غير وقف على طبقة نغمية متوسطة أكثر ارتفاعا بقليل وتتجه إلى النزول، مع نبر بارز على «يوم»، كما يوضح ذلك هذا الرسم:



تزوّد باليوم

يلاحظ هنا في غياب الوقفة بين الكلمتين ومع التركيز على «يوم» أن الجملة بمعنى «نعم، تزيد يوميا»، أي أنها جواب على السؤال: «هل تزيد يوميا»، مما يعني أن المعلومة «يوميا» حاصلة لدى السائل لكنها تحتاج إلى تأكيد.

ولكن، من جهة أخرى، لو استعملنا بدلا من جملة قابلة لتأويلات «مهمة» بعيدا عن التنغيم جملة أقلّ ثقلاً مثل (٦):

[٦] // الغرفة // تأخذ وقتًا طويلاً لندفأ //

فإن الدلالة «الموسومة» تبدو قد اضمحلّت. ربما كان من الممكن أن يؤدي التنغيم والوقف وغيرهما من معالم اللغة المحاذية المرتبطة بنوعية الصوت إلى تأويل «موسوم» للقول. ولكن الذي لا يزال بحاجة إلى إثبات هو التدليل على أن استخدام أشباه الجمل بدلا من العبارات كوحدات معلومات يسهم فعلا في فهمنا للقول على أنه «موسوم». ففي غياب مثل هذه الحجة فإننا لن نعترف بوجود مجال تركيبي غير موسوم لوحدات المعلومات.

مازال يترتب الكثير عن تخلّينا عن العبارة بصفتها المجال التراكيبي غير الموسوم لوحدة المعلومات. لا شكّ أنكم تذكرون أن هاليداي يزعم أن البنية غير الموسومة للمعلومات داخل وحدة المعلومات هي أن تسبق المعلومات المسلّمة المعلومات الجديدة. هذا الزعم معقول جدًا لو أخذنا العبارة (أو الجملة البسيطة) باعتبارها المجال التراكيبي غير الموسوم نظرا لإمكان اختيارك لأمثلتك من بين أنماط خطاب مثل تلك التي سقنا عليها أمثلة في (١١) إلى (١٦) من الفصل الرابع (التأبين، مداخل الموسوعات... إلخ) حيث يكثر فعلا احتمال عثورك على صيغة «مسلّمة» تحيل على المسمّى الرئيس في بداية العبارة ثم تليها المعلومات الجديدة. بل إنك تستطيع أحيانا العثور على هذا التنظيم داخل نتف من المحادثة كما في (٧):

[٧] لم نر الثلج حتى وصولنا إلى الطريق السريع

حيث إن ضمير المتكلم الجمع في «نر» و«وصولنا» مسلم في سياق الخطاب. لكننا من جهة أخرى لو نظرنا إلى أشباه جمل مقتطعة على أنها وحدات معلومات فمن النادر أن نعتبرها حاوية لمعلومات مسلّمة اللهم إلا إذا كان كل شبه الجملة مسلّمًا. (انظر أشباه الجمل المقتطعة كوحدات معلومات في (٢) و(٣)). ففي وحدات

المعلومات التي تتحقق في شكل أشباه جمل يكثر بالتالي احتمال حصولنا على معلومات جديدة .

سنعود إلى مسألة الوحدة النظمية التي تتحقق بها بنية المعلومات في ١ , ٢ , ٥ .

٥, ١, ٦ الوحدات التي يحددها الوقف

وجد عدد من الباحثين في تنغيم الخطاب مشكلاً في إيجاد طريقة منظمة لتحديد وحدات النغمة بالاعتماد فقط على معايير فونولوجية ، وعدلوا عن ذلك إلى العمل بنظام وحدات تحدّها الوقفات في تدفق الكلام (انظر على سبيل المثال تشايف ١٩٧٩م، براون وكاري وكانووردي ١٩٨٠م، باروورث (محرّرًا)، ١٩٨٠م، ديس ١٩٨٠م).

إن استخدام ظواهر الوقف كأساس لتحليل كيفية تقطيع الخطاب المنطوق ربما بدا لأول وهلة أمرا محفوفا بالمخاطر . فمن الواضح أن عدد الوقفات ومدتها لدى متكلم ما سيختلفان حسب سرعة كلامه . لهذا فمن غير المحتمل أن يكون لمدة وقف معيّنة، لنقل ثانية واحدة، نفس الوظيفة لدى كل المتكلمين في كل المقامات الكلامية (وهو) مشكل معروف لدى أي باحث يعمل على تحليل أي نوع من البيانات الفونولوجية . ولكن بالمقابل فإن استخدام الوقفات له مزيّة واضحة وهي أن الوقفات يسهل تحديدها، إضافة إلى عدم إحساس الحكام اللغويين بأي صعوبة في الاتفاق على موقعها، باستثناء الوقفات «التخطيطية» البالغة القصر . ثم إنها قابلة للتحليل الآلي فهي إذن قابلة لأن تقاس . إن ما يمكننا أن نرجو الحصول عليه في دراستنا لحدوث الوقفات هو وجود أنماط مختلفة من الوقفات لها نسق توزيعي قارّ.

يهمّ في مثل هذا النمط من الدراسات اختيار البيانات المستعملة في الدراسة بحيث يمكن التعميم على كل المتكلمين . هنالك نقطة عملية أخرى وهي أنه ينبغي في البداية التعامل مع بيانات تعتقد أنها ستدرّ عليك وحدات قارة يسهل عليك تحديدها . فلو بدأت دراستك في هذا المجال الدقيق ببيانات «لا تحدث إلا مرة واحدة وتكون خارجة عن تحكمك» فربما وجدت نفسك وجها لوجه مع بيانات من قبيل ما سنسوقه في (٨) حيث يصعب العثور على أي انتظام في استعمال الوقفات :

[٨] (تدلّ الأرقام على طول الوقفات بالثانية)(٦)

(أ) لكن (٠,٨)
(ب) كما (٠,٣) هو معروف (١,١)
(جـ) يحدث (٠,٢) باستمرار دائم أن تجد (٠,٣) تزامنا في حدوث (٠,٢) أداة مع (١,٠).
(د) صنف نحوي معترف به (١,٠)
(هـ) اممم (٠,٤) لنقل إنه صنف من أدوات الملكية أو صنف من (٠,٧).
(و) امم أدوات النفي مهما كان نوعها (٠,٦)
(ز) بحيث (٠,٤) اممم (١,١)
(ح) لا يمكننا حصر تنظيم المفردات (٠,٦)
(ط) كليّة في الأدوات كأدوات (١,١)
(ي) أمممم (٠,٦)
(ك) فمهما كان معنى ذلك في حدّ ذاته فقد يعني (١,٢)

هذا المقطع المأخوذ من محاضرة ألقيت على طلاب الدراسات العليا يعطينا عيّنة لكلام يقع قريبا جدًا من بداية المحاضرة قبل أن يتمالك المتكلّم أعصابه ويحكم طرحه . إنها ظاهرة معروفة حق المعرفة، ومن شأنها أن تعطينا كلاما يتميّز خصوصا بكونه متقطّعا (وحتى في هذه الأمثلة يمكننا تجريبيا التعرّف على بعض أوجه الانتظام . فالوقفات البالغة في القصر (٢ , ٠ – ٣ , ٠) تكاد لا تدرك . وهنالك أربع مرات يحدث فيها الوقف مباشرة بمحاذاة (أم)، وهذا مؤشر تقليدي عن «تخطيط المتكلم لكلامه» . وتقع الوقفات بانتظام بعد حدود «الجملة» (د، أ، هـ، ح) . ومن شأن المحلّل أن يسهّل على نفسه الأمر إلى حدّ كبير لو تعامل في البداية مع كلام يعرف ماذا يريد صاحبه أن يقول فيه، ويمكنه من خلاله مقارنة المتكلمين مباشرة (وقد تمّ استغلال هذه المنهجية لأغراض شتى على يد لند و لابوف ١٩٧٥م، جروس ١٩٨١م، تشايف (ناشرا) ١٩٨٠م، لافلت ١٩٨١م على سبيل المثال) .

(٦) طول الوقفات في هذه الأمثلة – والتي تأتي بعدها – يعكس نسق الخطاب المحليّ في اللغة الإنجليزية .

في دراستنا لكلام قاله اثنا عشر زوجا من طلبة البكالوريوس، حيث بين أحد أفراد الزوج رسما بيانيا لزميله الذي كان يستمع إليه. لكنه لا يرى الرسم بحيث يتمكّن السامع من تصوير هذا الرسم البياني، في هذه الدراسة تمكّنا من ملاحظة حدوث الوقفات في كلام متشابه لعدد من المتكلّمين. ونعرض في (٩) مقطعا كلاميًا نموذجيًا لما يقال في تلك الحالات:

[٩] (أ) في منتصف الصفحة (٠,٣) ارسم (٠,٦) خطا أفقيا (٠,٢) أحمر (٠,٤). يبلغ حوالي (٠,٥) بوصتين (١٦) وعلى أممم (١,١) بيمينك مباشرة فوق الخط (١,٩) بالأسود (٠,١) اكتب «على» (٣,٢)
(ب) على (٣,٤)
(أ) فوق الخط (١٤) ارسم (٠,٢) مثلثا (١,٠) أسود (٠,٦٥) أممم (١,٩) مثلث (١,٩) قائم الزوايا (٠,٢) يبدأ على يسار (٠,٢) الخط الأحمر (١٦٠) ما يقرب عن (٠,٩) نصف سنتمتر فوقه (٤,٠).

يمكننا أن نتعرّف في المقطع (٩) على أنماط الوقفات التالية التي تعرّف من حيث الطول:

١ - الوقفات المطوّلة: وهي وقفات طويلة تمتد في هذا المقطع من ٢,٣ ثانية إلى ١٦ ثانية. (وهي تطرأ في المواضع التي يكون المتكلّم قد زود السامع فيها بما يكفي من المعلومات لرسم أو كتابة ما يسمعه من مواصفات). ونرمز لمثل هذه الوقفات في كتابتنا الصوتية بعلامة + +

٢ - الوقفات الطويلة: تتراوح هذه الوقفات بين ٠,١ و ١,٩ ثانية في هذا المقطع. ونرمز لمثل هذه الوقفات بعلامة +

٣ - الوقفات القصيرة: هذه الوقفات تتراوح بين ٠,١ و ٠,٦ ثانية في هذا المقطع. ونرمز لمثل هذه الوقفات بعلامة -

نحن نفترض أنه بالإمكان اعتبار الوقفات المطوّلة والطويلة حدودا للوحدة، في حين يمكن اعتبار الوقفات القصيرة داخل الوحدة. بتبنّينا لهذا الطرح يمكننا تقديم (٩) في شكل (١٠):

[١٠] (أ) في منتصف الصفحة - ارسم - خطا أفقيا - أحمر - يبلغ حوالي - بوصتين + + وعلى أممم + بيمينك مباشرة فوق الخط + بالأسود - اكتب " على " + +
(ب) على ++
(أ) فوق الخط + + ارسم - مثلثا + أسود - أممم + مثلث + قائم الزوايا - يبدأ على يسار - الخط الأحمر + ما يقرب عن + نصف سنتمتر فوقه + +

(سندرس في ٨,١,٥ بنية المعلومات في بيانات من هذا القبيل، وسندرس في ٧,١,٥ دور البروز الفونولوجي في مجموعة البيانات نفسها).
نقدم في (١١) تلخيصًا لمدى طول الوقفات معمّما لدى المتكلّمين في بياناتنا هذه:

[١١] ٠ - ٠,٥ ١ - ١,٥ ٢ ٢,٥ ٣

وقفات قصيرة وقفات طويلة وقفات ضافية

نحن نقدم الوقفات على أنها لاحقة للأقوال وكأن الوقفات تمثل مؤشرات نهاية القول مثلما هو حال التنقيط. ولكن علينا ملاحظة أن تشايف (١٩٧٩م) الذي تشبه نتائج دراسته للوقفات إلى حد كبير نتائج بحثنا نحن يضع الوقفات قبل الأقوال نظرا لاعتباره طول الوقف نتاجا لكمية التخطيط التي يضعها المتكلم في قوله الموالي.[٧]

---

(٧) من الدراسات المفيدة لأشكال الوقف على اختلافها، من وجهة نظر علم اللغة النفسي، تلك الدراسة التجريبية التي أدارتها الأستاذة «جولدمان آيزلر» حول مظاهر الوقف المختلفة ومدتها الزمنية، وموقعها في سلسلة الخطاب، ومتى تقع... إلخ. ومن النتائج المفيدة التي توصلت إليها:
- أن الوقفات تمثل في متوسطها حوالي ٦٠٪ من مدة الخطاب الجملية.
- كلما كان الموضوع المتحدث عنه صعبًا أو معقدًا، كانت الوقفات أكثر وأطول.
- كلما قلّ علم المتحدث بموضوع حديثه، كانت الوقفات أكثر.
- تقع الوقفات بانتظام قبل ما تسميه آيزلر نقاط معلومات Information points
- لا تقع الوقفات عادة داخل «وحدات نحوية»، كما بين الفعل والفاعل مثلا، أو بين الضمير والفعل، أو بين الصفة والموصوف، أو بين العناصر المؤلّفة للعبارات الجاهزة... إلخ.
انظر سعيد محمد محمد بدوي ص ١٩٩، هامش ١.

ويروي تشايف تجربة طلب فيها من المشاركين إعادة رواية سلسلة من الأحداث التي كانوا قد شاهدوها في شريط صامت قصير. وقد لاحظ تشايف وجود «حالات تردّد كبير» (تعادل ما نسميه «الوقفات المطوّلة») . . . في تلك المواضع من القصة التي تظهر فيها حدود الفقرات. انظر على سبيل المثال المقطع التالي من أحد قصصنا المصورة ينهي فيه المتكلّم روايته لسرقة ولد لبعض ثمار الإجاص، ويبدأ سرد أشياء أخرى طرأت فيما بعد.

(المتكلم ٢٢):
ينطلق الولد كالسهم ممسكًا بالمقود (١,١) أممم – (٠,٧) فإذا بـ (٠,٤) أووه – (٢,١) بنت – على دراجة (١,١٥) تقود درّاجتها نحوه... في الاتجاه المعاكس.

إن «أممم» و «أووه» عمليات نطق مطوّلة لـ . . . «مالئات الوقف». ويبلغ إجمالي الوقت الضائع في التردد بين نهاية الجملة الأولى وبداية «بنت – على دراجة» ٢٥,٦ ثوان. فنحن نملك هنا حجة دامغة على وجود عمليات ذهنية مهمة تستهلك وقتا (١٩٧٩م ص ١٦٢).

لا شك أن هذه النظرة للوقفات على أنها دالة على الوقت الذي يستهلكه المتكلم في عملية إنشاء القول التالي مهمة. ولكننا في دراستنا لما ينبغي أن ينتهجه محلل الخطاب في تحليله للخطاب ستتبنى طرحا أكثر عقلنة يرى أن الوقفات المطوّلة والوقفات الطويلة تمثل حدودا للوحدات الفونولوجية التي يمكن أن تكون ذات علاقة بوحدات المعلومات.

٥,٦,٧ وظيفة بروز الطبقة الصوتية

ينطلق هاليداي من الفرضية الساذجة بأن الوظيفة الوحيدة لبروز الطبقة الصوتية و «الهدف الأساسي لحركات الطبقة الصوتية» هو إبراز موقع المعلومات الجديدة داخل الوحدة النغمية. والواقع أن الأدوات المحدودة لإبراز الطبقة الصوتية تمكّن المتكلم من التعبير عن أكثر من ذلك بكثير. فالمتكلمون يستغلونها كذلك للإعلان عن بداية دورهم في المحادثة أو بداية موضوع جديد أو للتركيز بصفة خاصة على شيء ما، أو لإبراز

تباين بالإضافة إلى المعلومات التي يقدّمها المتكلم على أنها جديدة. وفي رأينا نحن فإن للبروز الصوتي (الذي يمكن أن تختلف طرق تحقيقه من لكنة إلى أخرى) وظيفة لفت الانتباه، ومن ثم يستعمل من طرف المتكلمين للحديث عن المعلومات الجديدة نظرا لأنها تستدعي الانتباه إليها. وبالتالي يرتبط غياب البروز الفونولوجي بكل العناصر التي لا يطلب المتكلم أن ينتبه إليها السامع، وهذا لا يشمل المعلومات «المسلّمة» فحسب بل كذلك الكلمات النحوية التي لا تحمل النبر على سبيل المثال. (للحصول على دراسة ضافية لوجهة النظر هذه، انظر براون، كاري وكانوورذي ١٩٨٠م، يول ١٩٨٠م).

لقد سبق لنا الإشارة (٤, ١, ٥) أن حكاما لغويّين ذوي خبرة ممن أجريت عليهم سلسلة من التجارب لم يتمكنوا من التعرف على «المقاطع المنبورة» بنفس الأداء في كل الحالات. ففي حين أبدى بعض الحكام ثباتا في اختيارهم لآخر كلمة في شبه الجملة (والتي تتحقق عادة بالزيادة في طولها)، فإن بعض الحكام فقط في بعض الأوقات تمكّنوا من التعرف على أي كلمة تذكر معلومات جديدة في الخطاب على أنها «منبورة». ففي سلسلة موسّعة من عمليات القيس عن طريق الأجهزة أمكن إثبات أن المؤشرات الصوتية التي يزعم الباحثون عادة دلالتها على النبر (وهي أقصى حركة الطبقة الصوتية وأقصى درجات علو الطبقة الصوتية وأقصى درجات الحدّة) من النادر أن تجتمع في كلمة واحدة في الكلام العفوي (باستثناء حالات إبراز التباين) بل إنها تكون عادة موزعة بشكل منفصل أو في أزواج على الكلمات التي تذكر المعلومات الجديدة. وكلما تنافست هذه الدرجات القصوى كمؤشرات فإن الحكام تمكّنوا عادة من التعرّف على عدة مقاطع منبورة في أشباه الجمل القصيرة حتى تلك التي لا تتعدّى كلمتين. مثل هذه النتيجة لا تتنافى بطبيعة الحال مع ملاحظة هاليداي القائلة بأن «المتكلّم يملك الخيار» لربط وحدة المعلومات بـ«أيّ مكوّن يتم تحديده في بنية الجملة». ولكن الدرس الواضح من هذه النتيجة مع ذلك هو وجود كثافة في المقاطع المنبورة التي تمّ التعرّف عليها وبالتالي في الوحدات النغمية، وهذا أمر لا نجد له ذكرا في أي من كتابات هاليداي الصوتية للكلام، بل إن هذا الأمر يحطّم المفهوم القائل بوجود علاقة تلقائية «غير موسومة» بين العبارة (أو حتى شبه الجملة) وبين الوحدة النغمية. إن ما يترتب على هذه النتيجة هو المفهوم الذي يقول بأن أي كلمة تذكر معلومات جديدة

(مسمّى - اسم جديد، خاصية - صفة جديدة، حركة - فعل جديد) يغلب احتمال تحققها عن طريق البروز الفونولوجي مما يؤدي إلى احتمال كبير للتعرف عليها على أنها «نبرية».

وقد تخلّى العديد من الباحثين العاملين في حقل التنغيم الصوتي، وخاصة منهم أولئك الذين يدرسون دور التنغيم في لغة المحادثة عن الشرط الذي يتطلب أن تحتوي وحدات المعلومات، مهما كانت كيفية تحقيقها، على نقطة تركيز واحدة، وبالتالي فلا بدّ أن تتحقق باستعمال مقطع منبور واحد (هذا إن سلمنا أنهم كانوا أصلا يعتقدون بصحة هذا الزعم) (للمقارنة انظر على سبيل المثال بولنجر ١٩٧٠م، كريستال ١٩٧٥م، تشايف ١٩٧٩م، بالو وجونز١٩٧٩م، تومسون ١٩٨٠م). نحن كذلك نتخلّى عن المفهوم القائل بتحقيق نبري واحد لنقطة تركيز وحدة معلومات. بإمكاننا الآن أن نواصل دراستنا بتقديم تصوير أفضل لقصة الجنية التي ترويها بنت عمرها أربعة أعوام:

[١٢] (أ) كان ياما [كان] في سالف العصر والأ[وان]+
(ب) جنية خـ[بي]ثة ماكرة شـ[ريـ] رة + +
(جـ) وكان في العـ[قيق] أمير أ[نيق] +
(د) وكان في الخـ[ميـ]لة أميرة جـ[ميـ]لة + +
(ح) يا لها من حـ[قيـ]رة الجنيّة الشـ[ريـ]رة + +

لقد كتبنا في تصويرنا هذا بين أقواس المقاطع اللفظية البارزة صوتيًا. من هنا فصاعدا سنصوّر الكلمة التي تحمل بروزا صوتيا على أنها بارزة، متجاهلين بذلك ما نعتبره في ضوء اهتماماتنا الحالية غير مهم من حيث البنية الفونولوجية للكلمة. (في هذا الإلقاء الذي تلفظت به بنت لها لكنة يوركشر، كانت الكلمة الأخيرة في كل وحدة معلومات، سواء كانت بارزة صوتيا أم لا، تتحقّق بنغمة نازلة موسعة. وكانت كل كلمة بارزة صوتيا سابقة لها تتحقق بنغمة نازلة أقل توسعة. ولكن لو كان المتكلم من جلاسكو لكانت أغلب النغمات النازلة، إن لم نقل كلها صاعدة).

كنا في دراستنا لتعليمات تصوير رسم بياني (٦، ١، ٥) قد تعرّضنا لتوزيع البروز الفونولوجي على المعلومات التي كنا نعلم أنها تذكر في الخطاب للمرة الأولى

والمعلومات التي كنا نعلم أنها سابقة الذكر. أما العبارات التي تذكر معلومات جديدة فقد كانت تتحقق ببروز فونولوجي في ٨٧ ٪ من الحالات كما في:

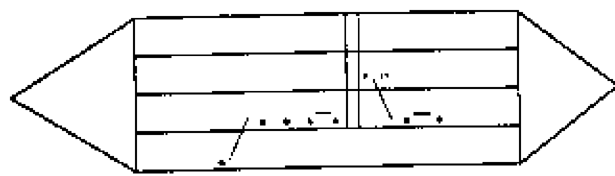
[١٣] (أ) ارسم [مثلثا] اسود
(ب) ارسم [خطا] مستقيما
(جـ) اكتب [«إلى الخارج»] و [بالأسود]
(د) هنالك [دائرة] في الوسط.[٨]

ولم تكن العبارات التي تذكر معلومات مسلمة تحمل بروزا صوتيا وذلك في ٩٨ ٪ من الحالات (باستثناء تلك الحالات التي تعرض تباينا) كما في:

[١٤] (العبارات التي تذكر معلومات مسلّمة مكتوبة بخط مائل)
(أ) [تحت] *المثلث*
(ب) في [نهاية]... *هذا الخط* اكتب كلمة [على] مباشرة [فوق] *الخط*
(جـ) [خط]... طوله [بوصتان] تقريبا + و[فوقه] اكتب [على]

كيف ستتمكّن من تفسير حقيقة عدم استعمال المتكلم للبروز الفونولوجي في ذكره لبعض المسميات التي نعرف نحن بطريقتنا الخاصة أنها تذكر في الخطاب للمرة الأولى؟ في الظاهر تنبع أغلب هذه الأمثلة من المصدر نفسه، ولكن رغم أن المسمّى

(٨) مثال ذلك في العربية هذه الجملة التي أوردها د. سعيد محمد محمد بدوي، ص ٢٠٣ من قول أحد المتكلمين بلهجة الرياض:



و بعدها (...) مشينا إلى لندن

ويلاحظ هنا الوقفة المتبوعة بنغمة متوسطة تتجه إلى النزول. وقد وقعت بعد ظرف الزمان (وبعدها) وقبل الجملة التي يضيف بها المتكلم معلومة جديدة من خلال بروز فونولوجي واضح.

المذكور هو مسمّى جديد لا ريب، فإن الصيغة المستعملة لذكره قد استعملت لتوّها في الخطاب لذكر مسمّى يسبقها مباشرة، هكذا نرى أن أحد المتكلمين تذكر «المثلث» ثم تذكر مثلثا جديدا مغايرا مع المحافظة على رتابة تكاد تكون كاملة في الصوت واستعمال طبقة صوتية منخفضة (داخل مجالها الصوتي) إذ تقول:

«مثلث ذو زوايا قائمة مثل المثلث الأسود». ويمكننا تفسير هذا الغياب للبروز الفونولوجي بالقول إن المتكلم يعتقد أن السامع في الوقت المناسب من الخطاب على علم تام بمهمته ويتوقع ذكر مثلث آخر، أي أن المثلثات «حاضرة في ذهنه». وتقترح شمارلين (١٩٧٤م ص ٧٢) أن بإمكان المتكلمين انطلاقا من توقعات عامة جدا يسمح بها السياق أن يختاروا وسم جوانب مختلفة من رسالتهم بطابع «الجدة». وعليه فهي تقترح أن بإمكان متكلم أن يلفت نظر سامعه إلى رجل في الشارع بقوله:

هذا هو [الطبيب] الذي كنت أحدثك عنه

ولكن لو كان المتكلم يعمل في أحد المستشفيات وكان يخاطب موظفا آخر في المستشفى فإن الاحتمال يكون أكثر في أن يقول:

هذا هو الطبيب الذي كنت أحدثك عنه.

وبالطريقة نفسها إن كنت بصدد الحديث عن مثلث وكانت المثلثات «مدار الحديث» فقد لا تحبّذ وسم عنصر آخر من المجموعة نفسها، بطابع الجدة. يبدو هذا على الأقل تفسيرا معقولا للظاهرة التي نلاحظها. إلاّ أن هذا يجرّنا مع ذلك إلى ملاحظة أخرى أكثر شمولا، وهي أنه لا ينبغي أن نتوقع انطباعا مباشرا وتامّا (مائة بالمائة) بين تصانيف مستوى وصفي معيّن وتصانيف مستوى وصفي آخر. فلقد سبق لنا ملاحظة وحدات المعلومات الغريبة التي لم يكن لهاليداي بدّ من تحديدها نتيجة تطبيقه لها مباشرة على وحدات تنفّسيّة تتحدد حدودها بإيقاع الكلام (انظر مناقشة هذه المسألة في ٤, ١, ٥).

ونحن نقول من واقع تجربتنا العامة في مجالات أخرى من التحليل اللغوي إنه لا بدّ من التوفيق إلى حدّ ما بين الوحدات التحليلية في مستوى وصفي معيّن والوحدات التحليلية في مستوى آخر. هكذا فالخبر الذي يتحدّد في مستوى التحليل الدلالي لا يمكن تطبيقه مباشرة على الوحدات التركيبية دون أن يكون لذلك مخلّفات تركيبية.

كذلك نجد أن الوحدة الفونولوجية في الإنجليزية يمكن تحديد خاصياتها فونولوجيا على أنها " مجهورة شفوية انفجارية " ولكن على مستوى إخراجها الفعليّ صوتيّا فيمكن وصفها أحيانا بـ «السكوت» أو بالاحتكاك، ولا ينبغي أن نتوقع أن تكون الأمور مغايرة في مستوى بنية المعلومات. فيبدو معقولا أن نزعم أن بنية المعلومات تتحقق جزئيا بالنظم (في بنية تنظيم المعلومات أي التركيب) وجزئيا بالأنظمة الفونولوجية بما فيها بروز الصوت والوقف. فلنا أن نتوقع الحصول على استعمالات مطّردة في تحقيق بنية المعلومات داخل هذه الأنظمة. ولكن ينبغي مع ذلك ألا يخدعنا حجم الدراسات الهائل في مجال تنغيم الجمل المقروءة بصوت عال ويحملنا (خطأ) على الظنّ بوجود قوانين تصنيفية تطبع وحدات المعلومات على الوحدات التركيبية التي تصبّ في نفس مصبّ الوحدات المعرّفة تنغيميا وبالوقف أو أن نظن أن الكلام العفويّ ناقص شيئا ما مقارنة بهذا الوضع المثالي وهو بالتالي غيرمهم بل هو «مجرّد أداء». والواقع هو أنه مع الإقرار بأن البنية التركيبية والبنية الإيقاعية والتنغيم والوقف قابلة كلها للإسهام في تحديد وحدات المعلومات في الكلام إلا أنها لا تحدّد بشكل نهائي في كل الأحوال حدود تلك الوحدات.

إن وظيفتنا كمحلّلي خطاب هي التعرّف على اطراد الاستعمالات الموجود في اللغة المنطوقة. في الوقت الراهن نحن لا نملك تفسيرا مرضيًا تمامًا لتوزيع تلك الكلمات التي تذكر مسميات جديدة، ولكنها لا تحمل بروزا في الطبقة الصوتية. علينا أن نعترف بهذا على أنه مشكل لم يحلّ بعد بدلا من تجاهله واعتباره بكل بساطة تنوّعا في الأداء.

في بياناتنا عن تعليمات تصوير رسم بياني كانت المحادثات التي تلتقط بها المتكلمون قصيرة نوعا ما (تراوحت بين ١٥٠ و ٢٠٠ كلمة) وكانت المسميات التي تصفها محدودة جدا. ليس من الغريب إطلاقا أن يتوقع المتكلم أن تظلّ المسميات القليلة الواردة في مثل هذه المحادثات القصيرة في متناول السامع خاصة، وأن السامع يتمتع بسجلّ مصوّر لما قد قيل في شكل الرسم البياني الذي هو بصدد رسمه. أما في المحادثات الأكثر طولا فربّما أحسّ المتكلمون بالحاجة إلى إعادة ذكر معلومات سابقة الذكر. لدينا تسجيل لمحادثة تحدثت فيها (أ) إلى (ب) عن امرأة كانت التقت معها في الحافلة. تستطرد المحادثة للخوض في موضوعات أخرى. وبعد ذلك بثلاث دقائق

تقريبا تحيل (أ) مرة أخرى على المرأة ولكنها الآن تستعمل عبارة «هذه السيدة» تلفظها ببروز صوتيّ. فيبدو من المعقول أن نفترض أنها قدّرت أن المسمّى المحال إليه لم يعد بارزا في ذاكرة سامعتها.

من المهم أن نذكّر كما أكّد هاليداي أن الذي يحدّد ما إذا كان المتكلّم يعتبر المعلومة جديدة فيميّزها ببروز فونولوجي أو يعتبرها مسلّمة فلا يبرزها فونولوجيًا ليس بنية الخطاب بل هو على العكس تقييم المتكلم الآني (لحظة بلحظة) للعلاقة بين ما يريد قوله وبين ما يتطلبه السامع من معلومات، فعلى سبيل المثال، ليس صحيحا أن المتكلم إذا فرغ لتوّه من ذكر مرجع فعليه بالضرورة إعادة ذكره في طبقة صوتية منخفضة معتبرا إياه «مسلما»، انظر:

[١٥]

حتى ذلك الشيء الراقص ، الراقص ليس في الواقع مضيعة للوقت

١٠٠ دورة في الثانية ١٩٠ – ٢٠٠ دورة في الثانية

فالمتكلم (وهو اسكتلندي) كان يتحدث عن «الرقص»، ثم ختم تعليقه الأول في مستوى منخفض داخل مجال طبقته الصوتية، ثم نراه يبدأ بالحديث عن جانب جديد من «الرقص» دالاّ على بداية هذا الجانب الجديد باستعماله للبروز الفونولوجي.

كما سبق أن قلنا، نحن نفترض أن الوسائل المحدودة التي يوفرها التنغيم الصوتي يستغلها المتكلم بانتظام للدلالة على تشكيلة من وظائف الخطاب تضم وسم المعلومات بصفة «الجدة» أو «التسليم»؛ فمن زاوية بنية المعلومات يُعد التنغيم الصوتي مفتاح تشغيل وإطفاء. فالمتكلّم إما أن يُعد المعلومة «جديدة» فيميّزها ببروز فونولوجي أو أنه يعتبرها «مسلّمة» فلا يميّزها ببروز فونولوجي. وبالمقابل فلو نظرنا للمسألة من وجهة نظر التنغيم الصوتي، فإن المعلومة تنسب عادة إلى أحد الصنفين اللذين يقوم المتكلّم بلفت انتباه السامع لهما. هكذا نجد أن هاليداي كان محقّا مائة بالمائة في تحديده لصنفين

فقط من المعلومات (معلومات «مسلّمة» ومعلومات «جديدة») إذا اعتمد التحليل على تحقيق التنغيم الصوتي لبنية المعلومات.

٥,٢ بنية المعلومات والصيغة النظمية

في هذا المبحث نبتعد عن دراسة بنية المعلومات من زاوية الصيغ الفونولوجية التي تحققها ونوجه عنايتنا إلى كيفية تحقيق هذه البنية تركيبيا.

٥,٢,١ المسلّم / الجديد والصيغة النظمية

تمت الإشارة - في غالب الأحيان - إلى أن الطابع المميز للإنجليزية في تنظيم المعلومات هو استعمال تعبيرات نكرة في أول الكلام، تقع الإشارة إليها فيما بعد باستعمال تعبيرات معرفة (نحن نقتصر مبدئيًا على التعبيرات التي تقدم أشياء جديدة في الخطاب). ومنذ أكثر من قرنين كان هاريس قد خلص إلى الملاحظة نفسها:

«هنا يكمن سرّ أداتي التنكير والتعريف. فأداة التنكير تحترم إدراكنا الحسي الأساسي وتقدّم الأشخاص على أنهم غير معروفين. أما أداة التعريف فتحترم إدراكنا الحسّي الثانوي وتقدم الأشخاص على أنهم معروفون. لنأخذ مثالا توضيحيًا: لو أنني رأيت رجلا لم أره قطّ من قبل، ماذا يمكنني قوله؟ «ها هو شحّاذ ذو لحية طويلة». ينصرف الرجل ويعود بعد أسبوع. ماذا أقول عندئذ؟ «ها هو ذلك الشحاذ ذو اللحية الطويلة». لم يتغيّر شيء سوى أداة التنكير التي أصبحت أداة تعريف.

(هاريس ١٧٥١م ص ٢١٥ – ٢١٦)

في (١٦) نقدم تشكيلة من الأمثلة عن الصيغ النظمية التي يشار إليها في أدبيات الموضوع باستمرار على أنها تعبيرات محيلة على أشياء مسلمة. وقد أبرزنا بقوسين مربعين في كل مثال العبارة التي يزعمون أنها «مسلمة»:

[١٦] (أ) (١) بالأمس رأيت بنية صغيرة يعضّها كلب.

(٢) حاولت الإمساك بـ[الكلب]ولكنـ[ـه] هرب.

(تشايف ١٩٧٢م ص ٥٢)

(ب) (١) أحضرت مريم شيئا من العصير من السيارة

تقريبا تحيل (أ) مرة أخرى على المرأة ولكنها الآن تستعمل عبارة «هذه السيدة» تلفظها ببروز صوتيّ. فيبدو من المعقول أن نفترض أنها قدرت أن المسمّى المحال إليه لم يعد بارزا في ذاكرة سامعتها.

من المهم أن نذكّر كما أكّد هاليداي أن الذي يحدد ما إذا كان المتكلّم يعتبر المعلومة جديدة فيميّزها ببروز فونولوجي أو يعتبرها مسلّمة فلا يبرزها فونولوجيا ليس بنية الخطاب بل هو على العكس تقييم المتكلم الآني (لحظة بلحظة) للعلاقة بين ما يريد قوله وبين ما يتطلبه السامع من معلومات، فعلى سبيل المثال، ليس صحيحا أن المتكلم إذا فرغ لتوّه من ذكر مرجع فعليه بالضرورة إعادة ذكره في طبقة صوتية منخفضة معتبرا إياه «مسلما»، انظر:

[١٥]

حتى ذلك الشيء الراقص
١٠٠ دورة في الثانية

الرقص ليس في الواقع مضيعة للوقت
١٩٠ – ٢٠٠ دورة في الثانية

فالمتكلم (وهو اسكتلندي) كان يتحدث عن «الرقص»، ثم ختم تعليقه الأول في مستوى منخفض داخل مجال طبقته الصوتية، ثم نراه يبدأ بالحديث عن جانب جديد من «الرقص» دالاّ على بداية هذا الجانب الجديد باستعماله للبروز الفونولوجي.

كما سبق أن قلنا، نحن نفترض أن الوسائل المحدودة التي يوفرها التنغيم الصوتي يستغلها المتكلم بانتظام للدلالة على تشكيلة من وظائف الخطاب تضم وسم المعلومات بصفة «الجدة» أو «التسليم»: فمن زاوية بنية المعلومات يُعد التنغيم الصوتي مفتاح تشغيل وإطفاء. فالمتكلّم إما أن يُعد المعلومة «جديدة» فيميّزها ببروز فونولوجي أو أنه يعتبرها «مسلّمة» فلا يميزها ببروز فونولوجي. وبالمقابل فلو نظرنا للمسألة من وجهة نظر التنغيم الصوتي، فإن المعلومة تنسب عادة إلى أحد الصنفين اللذين يقوم المتكلّم بلفت انتباه السامع لهما. هكذا نجد أن هاليداي كان محقا مائة بالمائة في تحديده لصنفين

فقط من المعلومات (معلومات «مسلّمة» ومعلومات «جديدة») إذا اعتمد التحليل على تحقيق التنغيم الصوتي لبنية المعلومات.

٥,٢ بنية المعلومات والصيغة النظمية

في هذا المبحث نبتعد عن دراسة بنية المعلومات من زاوية الصيغ الفونولوجية التي تحققها ونوجه عنايتنا إلى كيفية تحقيق هذه البنية تركيبيا.

٥,٢,١ المسلّم / الجديد والصيغة النظمية

تمت الإشارة - في غالب الأحيان - إلى أن الطابع المميز للإنجليزية في تنظيم المعلومات هو استعمال تعبيرات نكرة في أول الكلام، تقع الإشارة إليها فيما بعد باستعمال تعبيرات معرفة (نحن نقتصر مبدئيا على التعبيرات التي تقدم أشياء جديدة في الخطاب). ومنذ أكثر من قرنين كان هاريس قد خلص إلى الملاحظة نفسها:

«هنا يكمن سرّ أداتي التنكير والتعريف. فأداة التنكير تحترم إدراكنا الحسي الأساسي وتقدّم الأشخاص على أنهم غير معروفين. أما أداة التعريف فتحترم إدراكنا الحسّي الثانوي وتقدم الأشخاص على أنهم معروفون. لنأخذ مثالا توضيحيا: لو أنني رأيت رجلا لم أره قطّ من قبل، ماذا يمكنني قوله؟ «ها هو شحّاذ ذو لحية طويلة». ينصرف الرجل ويعود بعد أسبوع. ماذا أقول عندئذ؟ «ها هو ذلك الشحاذ ذو اللحية الطويلة». لم يتغيّر شيء سوى أداة التنكير التي أصبحت أداة تعريف.

(هاريس ١٧٥١م ص ٢١٥ - ٢١٦)

في (١٦) نقدم تشكيلة من الأمثلة عن الصيغ النظمية التي يشار إليها في أدبيات الموضوع باستمرار على أنها تعبيرات محيلة على أشياء مسلمة. وقد أبرزنا بقوسين مربعين في كل مثال العبارة التي يزعمون أنها «مسلمة»:

[١٦] (أ) (١) بالأمس رأيت بنية صغيرة يعضّها كلب.
(٢) حاولت الإمساك بـ[الكلب]ولكنـ[ـه] هرب.
(تشايف ١٩٧٢م ص ٥٢)

(ب) (١) أحضرت مريم شيئا من العصير من السيارة

طريقة التحضير

قطّعي البصل ناعما، حمصيه في الزبدة ثم ضعيه في صحن صغير. ضعي البهارات المطحونة في كوب ماء من الحجم الذي يستعمل في الفطور، أضيفيهما إلى الدهن في القدر واطبخي لثلاث دقائق مع التحريك. الآن أضيفي الدجاج، اخلطيه جيدا. احرصي على أن يكون اللحم مغطى بالماء فقط واسلقيه ٢٠ دقيقة مع إبقاء الغطاء فوق القدر.

عندما يوشك السائل على التبخر، واصلي الطبخ لكن حرّكي الدجاج إلى أن يصبح لونه بنيًا مذهبًا.

اهرسي البصل المحمص بملعقة واضيفيه إلى الدجاج مع الزبادي والملح حسب ذوقك وبقية البهارات. أضيفي كوبا من الماء، ضعي الغطاء واغليه على نار هادئة إلى أن يستوي الدجاج. (إذا تبخّر الماء ولم ينضج الدجاج،أضيفي قليلا من الماء واطبخي لفترة أخرى).

(هارفي داي، الكتاب الشافي في طهي الكاري، نادي كتاب الطهي ١٩٧٠م ص ١٢٨)(١١)

تمّ إقحام أغلب الأشياء «الجديدة» في صلب الخطاب في قائمة المقادير. وكلما تم ذكر هذه المكونات السالفة الذكر لأول مرة في طريقة التحضير فإنها تأخذ بانتظام صيغة كلمة معرفة:

---

(١١) ومن الأمثلة الحية على كيفية التحضير في العربية، هذه الوصفة التي تقترحها شركة (ماجي) لطبق الأرز البخاري:

طريقة التحضير:

يتبل اللحم بالبهارات ويوضع في مصفاة مع الثوم ويترك لمدة ساعة. يقلى البصل في الزيت الحار إلى أن يحمر. يضاف إليه اللحم والثوم ويقلب إلى أن ينشف الماء. يضاف الجزر وقشر البرتقال ويقلب الخليط. تضاف الطماطم وصلصة الطماطم وتقلب لمدة ١٠ دقائق. يضاف ٥ أكواب ماء ساخن.

ومرقة الخروف بالطماطم ماجي:

مكعب عدد ٢ ويترك على النار حتى ينضج اللحم. يضاف الأرز المغسول ويخلط مع اللحم. تخفض النار عن غليان الماء ويترك الأرز على نار هادئة حتى ينضج. يزين الأرز البخاري باللوز والصنوبر والزبيب.

[٢٣ أ] البصل، الزبدة، البهارات المطحونة (وهو اسم جنس شامل لكل البهارات المذكورة في قائمة المقادير)، الدجاج، الزبادي.

يمكننا وصف خيارات هذا الكاتب في تنظيم الخطاب بأنه يحدّد كيانا بصفته «الكيان الرئيس» (أو صلب الموضوع) لسلسلة من الأحداث داخل الجملة، ومن ثم عدم ذكر ذلك الكيان مرة أخرى داخل تلك الجملة معتمدا في ذلك على أسلوب الحذف كما في (٢٣ ب):

[٢٣ ب] **قطعي البصل ناعما. حمّصيـ(ه)في الزبدة ثم ضعي(ه) في صحن صغير.**

ولو حاولنا تطبيق «ترقيم أولوية الذكر» على الأشياء المذكورة في هذه الجملة فإن تحليلنا يفترض أن يتخذ شكل ٢٣جـ:

[٢٣ جـ] **قطعي البصل (١) ناعما، حمّصي (ه) (١) في الزبدة (٢) ثم ضعي(ه) (١) في صحن صغير (٣).**

لكن تبدو طريقة العرض هذه غير مقنعة. فحتى لو غضضنا الطرف عن ركاكة ترقيم الفراغات المحذوفة داخل الجمل، فإن الترقيم لا يعرض بطريقة مقنعة الشيء المحال عليه. فالشيء الذي «يوضع في صحن صغير» لا يحتوي بكل بساطة على «البصل» ولكن على «البصل المحمص في الزبدة». بمجرد دراستنا لبيانات تعتمد على مسانيد فيها تغيير للموضع فإن طريقة ترقيم أولوية الذكر التي طبقناها في وضع الرسوم البيانية تصبح غير مجدية. نحن بحاجة إلى آلية أكثر تعقيدا إلى حدّ كبير تكون قادرة على «حمل» مسانيد وسلخها بالفعل تدريجيا كلما تقدمنا في الخطاب. (سنعود إلى المشكل العام عن «الاستبدال عن طريق الضمائر» و «الاستبدال عن طريق الحذف» في المبحث ١, ٦).

ففي الوقت الذي كنا نتمتع فيه في تعاملنا مع البيانات المتعلّقة بالرسوم البيانية بأساس مضمون يسمح بتحديد الإشارة الأولى والإشارات اللاحقة لشيء ما، ويمكننا من أن نميّز بثقة بين ما هو جديد وما هو مسلّم وبين ما هو قائم وما هو محوّل إلا أن هذا المنهج لم يعد بالإمكان تطبيقه عندما نتعامل مع بيانات أكثر ثراء. ومع ذلك فقد أدّى التحليل الذي تمّ تطويره للتعامل مع البيانات المحدودة الغرض المطلوب حيث إنه مكّننا من إيجاد تمييز مقنّن بين التعبيرات المحيلة على أشياء «قائمة» وأخرى «محوّلة». فإن عممنا هذا التمييز على (٢٢) أمكننا ملاحظة أن الأشياء المحوّلة يشار إليها بانتظام باستعمال صيغ اسمية معرفة كاملة.

في صورة التعامل مع بيانات محدودة يمكن للمحلل أن يحدّد أي التعبيرات تستعمل لتقديم الأشياء الجديدة في الخطاب، وأيّ التعبيرات تستعمل للحديث عن أشياء سبق ذكرها تحديدًا. وبمجرّد حدوث ذلك تصبح صيغ تلك التعبيرات متوافرة بين يدي التحليل اللساني. لاحظ أن اهتمامنا لا ينصبّ بكل بساطة على وصف الصيغة اللغوية الذي يعدّ أهمّ مشاغل نحاة الجملة، بل إن هدفنا هو ملاحظة الصيغ في السياق الذي تستعمل فيه. نحن نريد أن نعرف كيف يحدّد المتكلّمون وينظّمون معلوماتهم التي بحوزتهم ويودّون إبلاغها لغيرهم.

٥,٢,٢ بنية المعلومات وبنية الجملة

في المبحث السابق قمنا بدراسة صيغة التعبيرات الاسميّة المستعملة للإحالة على أشياء بمناسبة ذكرها للمرة الأولى أو لمرّات لاحقة. لقد أشرنا أنه بمجرّد أن تصبح البيانات أكثر ثراء وأن تحتوي على مسانيد فيها تغيير للوضع، فإن الخط الفاصل بين الإشارة الأولى والإشارات اللاحقة يصبح غير واضح. لم يعد بإمكان المحلّل بكلّ بساطة أن يقوم بعدّ المرات التي ذكر فيها شيء ما في النص، وأن يجزم بأن هذا الشيء السابق الذكر هو بالضرورة معلومة «مسلمة» (وقد قمنا بهذه الملاحظة كذلك في سياق حديثنا عن (١٥)). وكما رأينا في ٥,١,٥ فقد ركّز هاليداي على وجه الخصوص على أهمية تبنّي هذا الطرح إذ يقول: «إن الشيء الجديد هو في آخر المطاف ما يختار المتكلّم أن يقدّمه على أنه جديد، فالتنبؤات القائمة على طبيعة الخطاب نفسه ليس لها إلا احتمال عال في أن تتحقق» (١٩٦٧م ص ١١).

وفي السنوات الأخيرة تبنّى عدد من علماء اللغة النفسيين ممن يهتمون بدراسة بنية المعلومات التمييز الذي طلع به هاليداي بين المعلومات «المسلمة» والمعلومات «الجديدة» وطبّقوه على الجمل المكتوبة وهي عادة ما تكون جملا مكتوبة تساق بمعزل عن السياق. وبما أن الجمل المكتوبة لا تحمل تنغيمة، فقد أضفى هؤلاء الكتاب عليها بنية تنغيمية. ثم هم بعد ذلك يعتمدون على تركيب التعبيرات الاسمية - كما رأينا في المبحث الأخير - وعلى بنية الجملة لتحديد ما يحمل داخل الجملة وضع «الجديد» ووضع «المسلّم». فهم يرون أن بنية المعلومات محددة بشكل نهائي لا رجعة فيه بصيغة العبارة المستعملة. هذه المقاربة لبنية المعلومات أدت إلى إعادة تأويل لما يقصد بوضع «المسلّم»، كما سنرى فيما يلي وفي ٥,٣.

ويروي كلارك وكلارك (١٩٧٧م ص ٩٣) وقائع تجربة قام بها هورنبي (١٩٧٢م). فقد قدّم هورنبي إلى المشاركين في التجربة مجموعة من الجمل المكتوبة مقروءة بصوت عال. وقد نقلنا هذه الجمل في (٢٤) كما ظهرت في دراسة كلارك وكلارك.

[٢٤] المعلومات المسلمة والمعلومات الجديدة

خمسة أنماط جمل مع تحديد معلوماتها المسلمة والجديدة:

الجملة	تحديد معلوماتها المسلمة والجديدة
١. [الولد]هو الذي يربت على القط	المعلومة المسلمة: شخص ما يربت على القط المعلومة الجديدة: هذا الشخص هو الولد
٢. [القطّ] هو الذي يربت عليه الولد.	المعلومة المسلمة: الولد يربت على شيء ما المعلومة الجديدة: هذا الشيء هو القطّ
٣. إن الذي يربت على القط هو [الولد]	المعلومة المسلمة: الولد يربت على شيء ما المعلومة الجديدة: هذا الشخص هو الولد
٤. إن ما يربت عليه الولد هو [القطّ]	المعلومة المسلمة: الولد يربت على شيء ما المعلومة الجديدة: هذا الشيء هو القطّ
٥. [الولد] يربت على القطّ	المعلومة المسلمة: شخص ما يربت على القطّ المعلومة الجديدة: هذا الشخص هو الولد.

أما وضع العناصر المبرزة فنجد تفسيره في الصفحة ٣٢ : «تشير الجمل إلى كون المعلومات داخلها مسلّمة أو جديدة عن طريق النّبر النازل على بعض الكلمات (انظر هاليداي ١٩٦٧م) . . فالكلمة التي يقع عليها النّبر أو العبارة التي تحتويها هي التي تقدّم دائما المعلومة الجديدة» .

ولنا على هذا العرض عدد من المآخذ . أولاً : ليس من الواضح تماما ما إذا كان وضع المعلومة (إن كان مسلّمًا أو جديدًا) يتحدّد بصيغة الجملة (كما يوحي بذلك العنوان الجانبي للجدول) أو نتيجة وقوع «النّبر» على مكوّنات مختلفة للجملة أو نتيجة تفاعل بين هذين النظامين المتميّزين . ثانيا : إن نسبتهم إلى هاليداي القول بأن «الجمل هي التي تشير إلى كون المعلومة مسلّمة أو جديدة» فيه شيء من الإجحاف بحق هاليداي إذ إن هاليداي لم ينفك عن التأكيد بأن المتكلّمين هم الذين يحدّدون وضع المعلومات . ثالثا : إن هورنبي وعلى ما يبدو كلارك وكلارك ، ينسبون إلى كل جملة معلومة مبرزة واحدة . ولكن الجملة الوحيدة في هذه المجموعة من الجمل والتي ترتبط مباشرة بطرح هاليداي عن العبارة هي الجملة الخامسة ، إذ إن كل الجمل الأخرى قد تحققت في مقطعين . فحسب مقاربة هاليداي يتوقع من كلا هذين المقطعين أن يحتوي على معلومة مبرزة ، كما أثبت ذلك هاليداي من خلال دراسته لأمثلة مشابهة (١٩٦٧م ص ٢٢٦) :

[٢٥] (أ) **// إن الرجل الذي دهن السقيفة الأسبوع الماضي // كان جون.**

(ب) **// جون // هو الذي دهن السقيفة // الأسبوع الماضي.**

وقياسًا على ذلك ، فمن المتوقع على سبيل المثال أن تتحقق الجملة الثالثة بمركزي تركيز :

(جـ) **// إن الشخص الذي يربت على القط // هو الولد //.**

رابعا : إن مصطلح «مسلم» لم يعد يستعمل كمصطلح تحليليّ يصف وضع المراجع التي تحيل عليها التعبيرات المستعملة داخل العبارة (أو الوحدة النغمية) . ولكنه يستعمل حاليا للحديث عن الفرضيات المنسوبة إلى العبارات التي تتكون منها الجمل . وقد لقي هذا الفهم لما هو «مسلّم» رواجا لدى علماء لغة نفسانيين آخرين نذكر منهم

على سبيل المثال سانفورد وجارود (١٩٨١م) . ففي صفحة ٩٢ نجدهما يستشهدان بهاليداي وينسبان إليه في زعمهما «اقتراحه بأن التمييز بين ما هو «مسلم» وما هو «جديد» قابل لأن ينطبق على أي جملة في خطاب معيّن ، وتتم الإشارة إليه عن طريق نظم الجملة وعن طريق التنغيم . فلو أخذنا مثالا بسيطا وهو جملة «أن ماري هي التي ذهبت» لرأينا أنها قابلة لأن تنقسم إلى مقطعين : مقطع مسلّم (شخص ما ذهب) ومقطع جديد (هذا الشخص الذي ذهب هو ماري)» . ولكنهما يواصلان قولهما في صفحة ٩٣ : «لو رجعنا إلى المثال الذي قدّمناه لرأينا أن الفهم الطبيعي له هو «أن ماري // هي التي ذهبت //» بمعنى أن «ماري» و «ذهبت» تحملان النبر ، وبالتالي تعتبران معلومات جديدة في حين «إن» و «التي» لا تحملان النّبر ، وبالتالي تعتبران معلومات مسلمة» .

إن التحليل المقدم في صفحة ٩٢ يشبه تحليل هورنبي وكلارك وكلارك . أما التحليل في صفحة ٩٣ فهو أقرب إلى أن يكون مدينا إلى هاليداي (علما بأنه ليس من المحتمل أن يعتبر هاليداي «إن» و «التي» «معلومات مسلمة» ، قارن هذا بطرحه في ١٩٦٧م ص ٢٢٩ وما بعدها) . فالتحليل الأول يهتمّ بما هو مفترض في الجملة الموصولة وهو نتاج لعمليات إبراز الخبر في الجملة ، في حين إن التحليل الثاني يقتصر على تحديد وضع المعلومة عن المراجع التي تحيل عليها التعابير داخل العبارة وهو نتاج للبنية التنغيمية المنسوبة للجملة . كلا هذين التحليلين معقولان لكنهما يحللان ظواهر مختلفة يجب ألا نخلط بينها رغم أنها يمكن أن تتفاعل لخلق وقع معيّن .

سنرى في المبحث ٣ ,٥ إلى أي مدى وسّعت هذه الطريقة التي تأخذ ما هو «مفترض» في جملة وتلحقه في صلب تصنيف «المعلومات المسلّمة» ، وسّعت من معنى مصطلح «مسلم» في أدبيات علم اللغة النفسي بحيث لم يعد يرتبط بشكل واضح بكيفية استخدام هذا المصطلح في أدبيات اللسانيات .

٥,٣ كيف تكون المعلومة «مسلمة» نفسيًا؟

في هذا الجزء نوجه عنايتنا بعيدًا عن دراسة الصيغ التنغيمية والتركيبية التي يستعملها المتكلّمون للإشارة إلى كون المعلومة مسلّمة أو جديدة لنركّز هنا على ما يعنيه الباحثون الذين يستعملون هذين المصطلحين بهما . كيف يصبح للمعلومة وضع «اعتبارها مسلّمة»؟

٥,٣,١ ماذا يعني كون المعلومة «مسلّمة»؟

قدّم هاليداي تعريفات لما هو مسلّم وما هو جديد، مبنيّة على توقّعات المتكلم وهي توقعات قابلة بالأحرى أن تفهم في نطاق ضيق كما نظن أن هاليداي قصدها. فالمعلومة «المسلمة» هي تلك التي يعتبرها المتكلّم «قابلة لأن نحصل عليها، إما بالإحالة إلى ما سبق من النص أو بالعودة إلى المقام» (١٩٦٧م ص ٢١١). أما المعلومة «الجديدة» فهو يراها رئيسة «لا بمعنى أنها لا يمكن أن تكون قد سبق ذكرها، وإن كان هذا هو الغالب، بل بمعنى أن المتكلم يقدّمها وكأنها غير قابلة لأن نحصل عليها من الخطاب السابق» (١٩٦٧م ص ٢٠٤). ولكن في الوقت الذي ينجح فيه هذا التعريف في التمييز بين المعلومات التي يتعمّد المتكلم إضفاء صيغة «الجدّة» أو «التسليم» عليها فإنها قابلة لأن تؤوّل بشكل يمكنها من الانطباق على عدد كبير من الظواهر الأخرى المختلفة. فكما لاحظ داهل (١٩٧٦م ص ٣٧): «يستعمل مفهوما المعلومة القديمة و«المعلومة الجديدة» لتفسير ظواهر لغوية مختلفة مثل التنغيم والنّبر والنظم واستعمال الأدوات المحيلة إلى الخطاب السابق». هنالك باحث حافظ على التأويل الضيق لما يعتبر معلومة مسلمة، وحاول بالفعل إعادة تعريف هذا المصطلح لحصره بالقوة في فهم ضيق وهو والس تشايف في سلسلة من منشوراته (١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ١٩٧٤م، ١٩٧٦م) إذ يقول:

«كان هذا المصطلح ولا يزال مضلّلا لعلماء اللغة وعلماء النفس الذين يستعملونه. فإن تسميتك لشيء أنه «معلومة قديمة» يوحي أن هذا الشيء هو «ما يتوقع من المستمع معرفته مسبقا». (١٩٧٦م ص ٣٠)

يصرّ تشايف على ضرورة حصر مفهوم «المعلومة المسلّمة» في «تلك المعلومات التي يفترض المتكلم وجودها في ذهن المخاطب في لحظة التفوه بالكلام» (١٩٧٦م ص ٣٠). وقد طوّر تشايف مجموعة من الصور لهذا الغرض كقوله «في واجهة العقل» (١٩٧٠م ص ٢١١) و «التي عليها الضوء في حاضر انتباه السامع» سعيا منه إلى إثبات بروز المعلومة المسلمة زمانيا ومكانيا في حاضر الكلام. ويؤكد تشايف ضرورة اعتبار المعلومة المسلّمة وقتية عابرة حيث يقول: «هنالك خاصية للذهن غير قابلة للجدل وهي أن قدرته محدودة جدا. فكلما جاءت معلومات جديدة ذهبت معلومات قديمة. لهذا من الطبيعي أن يتوقف اعتبار المتكلم المعلومة مسلمة بمجرّد أن يقرر في تقييمه

للأمور أن تلك المعلومة لم تعد حاضرة في ذهن المخاطب» (١٩٧٦م ص ٣٢) ففي تحليل تشايف كما في تحليل هاليداي لا يستغرب أبدا أن يقول متكلّم «رأيت أباك البارحة» حيث تعتبر صيغة «أباك» معلومة جديدة إذا قدّر المتكلم أن أبا المخاطب ليس في ذهن المخاطب وقت الحدث الكلامي.

ولكننا نجد لدى هورب كلارك (على سبيل المثال في كلارك وكلارك ١٩٧٧م) طرحا مخالفا عن المعلومات المسلّمة. فكلارك ينطلق من مقاربة تشايف العامة للمعلومة المسلمة على أنها «ما يتوقع من المستمع معرفته مسبقا» ليحدد وضع المعلومات كما يلي:

ينبغي أن تكون المعلومة المسلّمة قابلة للمعرفة وأن تكون المعلومة الجديدة مجهولة. . . ينبغي أن يكون المستمعون على ثقة بأن المعلومة المسلّمة تعطينا معلومات يمكننا التعرف عليها بعينها دون أن نخطئها. فالمستمعون يفترضون أنها معلومات يعتقد المتكلّم أنهم يتفقون عليها فيما بينهم وأن المتكلم بصدد تأكيد قناعاته حولها. (كلارك وكلارك ١٩٧٧م ص ٩٢).

هذه المقاربة تشبه إلى حدّ كبير تعريفنا للفرضية المسبقة في ٢,١ (انظر كذلك مناقشتنا للمسألة في ٥,٢,٢). ربّما وجدنا لدى سانفرد وجارود (١٩٨١م) أشمل توسعة لطرح كلارك وكلارك في وضع المعلومة المسلّمة. فهما يقترحان نموذجا للعمليات الذهنية يعتمد على مفهوم المخطط الذهني (الذي نناقشه في ٧,٦) يمكننا هنا تعريف المخطط الذهني بأنه تخزين نموذجي خاص للخبرات السابقة. هكذا نجد أن قاعة المحكمة على سبيل المثال تخزّن في الذهن مع ما يتبعها من أشخاص نموذجيين وإجراءات نموذجية. فسانفرد وجارود يقترحان في هذا المضمار (١٩٨١م ص ١١٤): «يمكّننا المخطط الذهني من الإحالة على أشخاص للمرة الأولى في الخطاب مستعملين رغم ذلك صيغة اسمية معرّفة، نظرا لأن هؤلاء الأشخاص مسلّم بهم مسبقا في التصوّر الذهني». لهذا تصبح المعلومة مسلّمة لا لأن المتكلم / الكاتب أرادها أن تكون كذلك ولا لكونها بارزة في المقام أو سابقة الذكر في السياق النصّي بل نظرا لوضعها داخل المخطط الذهني الذي يثيره الاستعمال اللغوي. بهذه الطريقة لو كان لنا مخطط ذهني عن قاعة المحكمة لأمكن اعتبار «المحامي» جزءا من هذا المخطط الذهني وبالتالي يمكن اعتباره «معلومة مسلمة».

من الواضح أن المفهوم الذي نحن بصدد دراسته هنا يختلف كل الاختلاف عن المفهوم الذي تحدث عنه هاليداي أو تشايف. فموضوع النقاش هنا هو كيفية تنظيم المعلومات العامة في الذهن (قارن ٦,٧). ولكن تشايف في سياق دراسته للجمل المتابعة التي سقناها في (١٦ ب و ١٦جـ):

(ب) ١. أحضرت ماري شيئا من العصير من السيارة
٢. كان العصير دافئًا.

(جـ) ١. أحضرت ماري بعض لوازم النزهة من السيارة
٢. كان العصير دافئًا.

يعلق على تجربة هافيلاند وكلارك (١٩٧٤م) التي وجدا فيها أن المشاركين في التجربة احتاجوا لوقت أطول لفهم جـ ٢ من الوقت الذي احتاجوا له في ب ٢ حيث يقولان:

في الحالة الأولى عندما تم ذكر العصير في الجملة السياق، كان العصير فعلاً مسلّمًا به في الجملة الهدف، بحيث يحق لنا أن نتوقع من المشاركين في التجربة لو طلب منهم قراءة الجملة الهدف بصوت عال أن ينطقوا الكلمة بطبقة صوتية منخفضة... أما في الحالة الثانية حيث لم يذكر العصير في الجملة الهدف، فلو طلب من المشاركين في التجربة أن يقرأوا الجملة الهدف بصوت عال لقرأوا الكلمة بطبقة عالية... إن العامل المسبّب لتعريف العصير في الجملتين الهدف ليس واحدًا. (١٩٧٦م ص ٤١)

يقول تشايف في تعليقه إن مصبة اهتمام هافيلاند وكلارك ليس سبب تسليمنا بالمعلومة (حسب اصطلاح تشايف) ولكن سبب تعريفها (١٩٧٦م ص ٤٢). ويشير تشايف إلى أن كون المعلومة مسلمة ربما صادف كونها معرفة، بل هذا هو الغالب ولكن من المحتمل جدا كذلك أن تجد تشكيلات من التعريف والجدة (كما في جـ ٢ السابق) أو كما في: «رأيت بائع الحليب بالأمس لأول مرة منذ سنوات طويلة» التي تقال دون سابق ذكر لبائع الحليب أو وجود أي بائع أمام المتكلّم.

هنالك مجال كبير للخلط واللبس بين استعمال كلمة «معلومة مسلمة» بمعنى ضيق ينحصر في تحديد وضع المعلومة داخل وحدة نغمية ومعنى موسّع يشمل كل المعلومات المشتركة بين المتكلمين والسامعين. في الجزء القادم، سندرس محاولة قامت

بها برنس (١٩٨١م) لتطوير تصنيف جديد لوضع معلومات أدخلت فيها مصطلحات جديدة لم يطعن فيها أحد إلى حدّ الآن.

٥,٣,٢ تصنيف لأحوال المعلومات

لو أردنا أن ندخل بالحسبان الأطروحات المختلفة عن طبيعة المعلومات، كما عبّر عنها اللسانيون أمثال هاليداي وتشايف من جهة، وعلماء اللغة النفسيون أمثال كلارك وكلارك وسانفرد وجارود من جهة أخرى لاحتجنا إلى تصنيف أكثر ثراء من مجرّد التفريق بين المعلومات المسلّمة والمعلومات الجديدة الذي استعملناه فيما سبق. وها هي برنس (١٩٨١م) تزوّدنا بأرضية جيدة لتصنيف موسّع فهي تقترح أن ننظر إلى النص باعتباره «مجموعة تعليمات عن كيفية إنشاء نموذج خاص للخطاب. سيشتمل النموذج على مسميات وصفات وعلاقات بين المسميات» (١٩٨١م ص ٢٣٥) كيف يمكننا بناء مثل هذا النموذج؟

ترى برنس أن بإمكان المتكلم أن يدخل في صلب الخطاب مسميات جديدة. وتنقسم المسميات الجديدة إلى صنفين. فهنالك مسميات جدّ جديدة يفترض المتكلم ألا تكون بأي طريقة معلومة ويقع الحديث عنها نموذجيًا باستعمال كلمة نكرة مضافة كقولك «رجل أعرفه» أو «حافلة في شارع برنس». وهنالك ثانيا المسميات غير المستعملة التي يفترض المتكلم أن تكون معلومة لدى السامع كجزء من معلوماته العامة ولكنها ليست حاضرة في ذهنه لحظة الحدث الكلامي. ولعل مثال تشايف «رأيت أباك بالأمس» (١٩٧٦م ص ٣٠) يدخل في هذا الصنف كما هو الحال بالنسبة لتعبير آخر مثل تشومسكي أو جاكندوف حين تقال لطالب في اللسانيات يعتقد المتكلم أن تفكيره منصب حاليا على علم الأصوات الآلي لا على علم النظم على سبيل المثال.

أما الصنف الثاني للمسميات فتسميه برنس المسميات القابلة للاستنتاج وهي مسميات يفترض المتكلم قدرة السامع على استنتاجها من الأشياء التي سبق ذكرها في الخطاب. هكذا نرى أنه يمكن استنتاج «السائق» من فهمنا لكلمة «السيارة» طالما انطلقنا من خلفية التسليم أن «السيارات يقودها سائقون». ولهذا فليس لدينا أية مشكلة في فهم كلمة «السائق» في (٢٦):

[٢٦] كانت هناك سيارة تقترب من التقاطع + لكن السائق لم يقف عند إشارة إعطاء أفضلية المرور للغير.

فحسب طرح برنس إن ما يمكننا من فهم ارتباط الجملة الثانية بالجملة الأولى في كل من الأمثلة (١٦ ج – خ) هي علاقة قابلية الاستنتاج. ويغلب الظن أن يشمل هذا الصنف من المسميات القابلة للاستنتاج تلك المسميات التي يصنفها سانفورد وجارود (١٩٨١م ص ١١٤) على أنها «مسلمة» (كاستنتاجك للمحامي من مخططك الذهني عن قاعة المحكمة على سبيل المثال).

أما الصنف الثالث من المسميات فهي المسميات المشار إليها، وهي تنقسم إلى قسمين. أولاً: تلك المشار إليها في المقام وتكون بارزة في سياق الخطاب (كقولك «أنا» و«أنت» على سبيل المثال). ثانيا: تلك المشار إليها في النص وهي مسمّى سبق ذكره في الخطاب، وتقع الآن الإشارة إليه للمرة الثانية أو مرات لاحقة كما في المثالين (١٦ أ) و(١٦ ب). إن المسميات «المشار إليها» هي تلك المسميات التي يتوقع هاليداي وتشايف أن يعدها المتكلمون «مسلمة». نحن بحاجة إلى إدخال تقسيم إضافي على صنف المسميات المشار إليها في النص لدى برنس. كنا في ١, ٢, ٥ ميزنا بين المسميات القائمة والمسميات المحولة، وقلنا إن كلا هذين الصنفين سبق ذكرهما في الخطاب، ولكن المسمى القائم المشار إليه هو ذلك المسمّى الذي كان «جديدا» مباشرة قبل الحديث القائم عن المسمّى الجديد. أما المسميات المحولة فهي تلك التي سبق ذكرها قبل ذلك. ويجد هذا التمييز تبريره كما لاحظنا في توزيع الصيغ التي تحققها في بياناتنا في اختلاف الصيغ النموذجية التي تحقق كلاً من هذين الصنفين. فإذا جمعنا تصنيف برنس مع تمييزنا بين ما هو قائم وما هو محول فإننا نحصل على التصنيف التالي للمعلومات:

[٢٧]

جديدة قابلة للاستنتاج	**مشار إليها**
جدّ جديدة	**في المقام**
غير مستعملة	**في النص – قائمة**
	– محوّلة

سنحاول في الجزء ٣, ٣, ٥ أولا تطبيق هذا التصنيف على بياناتنا المحدودة التي سبق لنا دراستها، ثم سننظر في مدى استعمالات أوسع له.

٥,٣,٣ تطبيق نظام تصنيف المعلومات على البيانات

يمكن أن نلاحظ داخل البيانات المحدودة المتعلقة بالرسم البياني والتي سبقت الإشارة إليها في مباحث سابقة الأصناف المختلفة للمسميات كما حددتها برنس حسب طريقة حدوثها في النص، وأن نوجه عنايتنا للصيغ المستعملة للإحالة عليها. تجدون في (٢٨) تلخيصا لنتائج مثل هذا التحليل (للحصول على دراسة مفصّلة لمختلف جوانب هذا التحليل انظر يول ١٩٨١م وبراون ١٩٨٣م).

[٢٨] الصيغ المستعملة للإحالة إلى:

١ – المسميات الجديدة

(أ) جدّ جديدة

- **ارسم مثلثا أسود**
- **ارسم خطا مستقيما**
- **اكتب «خارج» بالأسود**
- **هنالك دائرة في الوسط**

(ب) غير مستعملة لا يوجد أمثلة في هذه البيانات المحدودة

٢ – المسميات القابلة للاستنتاج

- **انها تقطعه في الوسط (دائرة)**
- **ابدأ بالضلع (مثلث)**
- **في الضلع الأيمن (مثلث)**
- **في الزاوية(مثلث)**

٣ – المسميات المشار إليها:

(أ) في المقام

- **في منتصف الصفحة**
- **أصبح لديك مثلث**

(ب) في النص: قائمة

- **إلي يسار الخط الأحمر فوقه بنصف سنتيمتر تقريبا.**
- **هنالك دائرة سوداء... وفوقها يوجد...**
- **ارسم خطا في الوسط وفوقه اكتب على**
- **إنه مثلث ذو زوايا قائمة... الخط السفلي من المثلث**

(أ) إنه بالأحمر

[٢٦] كانت هناك سيارة تقترب من التقاطع + لكن السائق لم يقف عند إشارة إعطاء أفضلية المرور للغير.

فحسب طرح برنس إن ما يمكننا من فهم ارتباط الجملة الثانية بالجملة الأولى في كل من الأمثلة (١٦ ج – خ) هي علاقة قابلية الاستنتاج. ويغلب الظن أن يشمل هذا الصنف من المسميات القابلة للاستنتاج تلك المسميات التي يصنفها سانفورد وجارود (١٩٨١م ص ١١٤) على أنها «مسلمة» (كاستنتاجك للمحامي من مخططك الذهني عن قاعة المحكمة على سبيل المثال).

أما الصنف الثالث من المسميات فهي المسميات المشار إليها، وهي تنقسم إلى قسمين. أولاً: تلك المشار إليها في المقام وتكون بارزة في سياق الخطاب (كقولك «أنا» و «أنت» على سبيل المثال). ثانيا: تلك المشار إليها في النص وهي مسمّى سبق ذكره في الخطاب، وتقع الآن الإشارة إليه للمرة الثانية أو مرات لاحقة كما في المثالين (١٦ أ) و (١٦ ب). إن المسميات «المشار إليها» هي تلك المسميات التي يتوقع هاليداي وتشايف أن يعدها المتكلمون «مسلمة». نحن بحاجة إلى إدخال تقسيم إضافي على صنف المسميات المشار إليها في النص لدى برنس. كنا في ١, ٢, ٥ ميزنا بين المسميات القائمة والمسميات المحولة، وقلنا إن كلا هذين الصنفين سبق ذكرهما في الخطاب، ولكن المسمى القائم المشار إليه هو ذلك المسمّى الذي كان «جديدا» مباشرة قبل الحديث القائم عن المسمّى الجديد. أما المسميات المحولة فهي تلك التي سبق ذكرها قبل ذلك. ويجد هذا التمييز تبريره كما لاحظنا في توزيع الصيغ التي تحققها في بياناتنا في اختلاف الصيغ النموذجية التي تحقق كلاً من هذين الصنفين. فإذا جمعنا تصنيف برنس مع تمييزنا بين ما هو قائم وما هو محول فإننا نحصل على التصنيف التالي للمعلومات:

[٢٧] جديدة قابلة للاستنتاج	**مشار إليها**
جدّ جديدة	**في المقام**
غير مستعملة	**في النص – قائمة**
	– محوّلة

سنحاول في الجزء ٣, ٣, ٥ أولا تطبيق هذا التصنيف على بياناتنا المحدودة التي سبق لنا دراستها، ثم سننظر في مدى استعمالات أوسع له.

٥,٣,٣ تطبيق نظام تصنيف المعلومات على البيانات

يمكن أن نلاحظ داخل البيانات المحدودة المتعلقة بالرسم البياني والتي سبقت الإشارة إليها في مباحث سابقة الأصناف المختلفة للمسميات كما حددتها برنس حسب طريقة حدوثها في النص، وأن نوجه عنايتنا للصيغ المستعملة للإحالة عليها. تجدون في (٢٨) تلخيصا لنتائج مثل هذا التحليل (للحصول على دراسة مفصّلة لمختلف جوانب هذا التحليل انظر يول ١٩٨١م وبراون ١٩٨٣م).

[٢٨] الصيغ المستعملة للإحالة إلى:

١ – المسميات الجديدة

(أ) جدّ جديدة
- **ارسم مثلثا أسود**
- **ارسم خطا مستقيمًا**
- **اكتب «خارج» بالأسود**
- **هنالك دائرة في الوسط**

(ب) غير مستعملة لا يوجد أمثلة في هذه البيانات المحدودة

٢ – المسميات القابلة للاستنتاج
- **انها تقطعه في الوسط (دائرة)**
- **ابدأ بالضلع (مثلث)**
- **في الضلع الأيمن (مثلث)**
- **في الزاوية(مثلث)**

٣ – المسميات المشار إليها:

(أ) في المقام
- **في منتصف الصفحة**
- **أصبح لديك مثلث**

(ب) في النص: قائمة
- **إلى يسار الخط الأحمر فوقه بنصف سنتيمتر تقريبا.**
- **هنالك دائرة سوداء... وفوقها يوجد...**
- **ارسم خطا في الوسط وفوقه اكتب على**
- **إنه مثلث ذو زوايا قائمة... الخط السفلي من المثلث**

(أ) إنه بالأحمر

الفصل السادس

طبيعة الإحالة في النص وفي الخطاب

لقد كان اهتمامنا منصبا بشكل أساسي على تحديد بنية مقاطع نحوية لغوية صغيرة، وبالأخص منها الصيغ الاسمية، وكذلك دراسة الطرق التي جعلت بعض الصيغ الخاصة في الإنجليزية ترتبط بوضع معلوماتي خاص. هذه البنى النحوية تشكل علامات تدل المستمع/ القارىء على الكيفية التي يريده المتكلم/ الكاتب أن يفهم بها الخطاب.

نفتتح هذا الفصل بدراسة الطريقة التي تجعلنا نفهم وحدات لغوية كبيرة على أنها نصوص. وسنفحص التعبيرات النحوية (وقد ناقشنا بعضها في الفصل الخامس) المتوافرة لدى المتكلم/ الكاتب ليستعملها كعلامات تدل علينا على كيفية فهم بعض أجزاء الخطاب، وبالخصوص التعبيرات التي تحيل على ما سبق. ثم ننتقل إلى دراسة المسألة الأساسية وهي معنى الإحالة في الخطاب.

٦,١ ما هو «النص»؟

لقد اعتمدنا إلى الآن في كتابنا على تعريف أقرب ما يكون إلى البساطة لما يشكل نصًا كنا قدمناه مع عدد من المحاذير في الفصل الأول. لقد عرّفنا النص على أنه التسجيل الكلامي لحدث تواصلي. ولكن عددا من الكتاب سعوا إلى الإتيان بتفسير أكثر ضبطا وأكثر تقنينا للكيفية التي تمكن الناطقين بالإنجليزية من التعرف على نص على أنه نص (انظر على سبيل المثال: فان دايك ١٩٧٢م جاتونسكي ١٩٧٦م، دي بوجراند ودراسلر ١٩٨١م، هاليداي وحسن ١٩٧٦م).

يهتم هؤلاء الكتاب بمبادىء الترابط (الوصل والفصل) التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض، وتفرض اعتمادنا في فهم جزء على معاني الأجزاء الأخرى. وسنقدم في هذا المبحث عرضا موجزا لطرح هاليداي وحسن (١٩٧٦م) لكونه إلى حدّ كبير أكثر الأطروحات شمولا في مناقشة الموضوع إلى حدّ أنه أصبح مرجعا في هذا المجال.

٦,١,١ الترابط النصي

يرى هاليداي وحسن أن أهم ما يحدد ما إذا كانت مجموعة من الجمل تشكل نصًا يعتمد على علاقات الترابط النصي داخل الجمل وفيما بينها مما يخلق بنية النص: «للنص بناء نصي مما يميزه عما لا يمثل نصًا. . نحصل على هذه الحبكة عن طريق علاقة الترابط» (١٩٧٦م ص ٢) وتتكون علاقات الترابط داخل النص:

«حينما يعتمد فيه عنصر معين في الخطاب على عنصر آخر. فالأول يفترض الثاني، بمعنى أننا لا يمكننا فك شفرته بنجاح إلا بالعودة إلى الثاني». (١٩٧٦م ص ٤) ومن الأمثلة النموذجية على مثل هذه العلاقة الرابطية (١٩٧٦م ص ٢):

[١] **اغسلي ونقّي ستّ تفاحات للطبخ، ضعيها في إناء يتحمل حرارة النار.**

حيث يقولان عن هذا النص:

«من الواضح أن الضمير (ها) في الجملة الثانية (تحيل إلى الوراء) على التفاحات الستّ في الجملة الأولى. هذه الوظيفة الإحالية إلى ما سبق للضمير (ها) تضفي ترابطا على الجملتين بحيث نفهمهما على أنهما كل لا يتجزأ يكوّنان معا نصا». (١٩٧٦م ص ٢).

وقد قدّم هاليداي وحسن تصنيفا لأنماط العلاقات الترابطية التي يمكن تحقيقها على مستوى الأدوات داخل النص والتي تزودنا بعلاقات ترابطية تربط بين أجزاء النص، وسنقتصر هنا على عرضها بإيجاز.

ويتم التعبير عن نمط معروف من العلاقات الترابطية المعلنة بأدوات نحوية تربط ما يقال الآن بما يقال آنفا، مثل «الواو» و«لكن» و«بالتالي» و«ثم». ويزودنا هاليداي وحسن بدراسة موسعة وناقبة في الغالب. هذه الدراسة تهتم بالعلاقات التي تدل عليها مثل هذه العلامات وتقدم تصنيفا موسعا، وتجدون في المثال (٢) تصنيف أنماط العلاقات المعلنة لعلاقات العطف:

[٢] (أ) **للعطف: الواو، أو، بالإضافة إلى ذلك، كذلك، إضافة.**
(ب) **للمقابلة: لكن، إلا أن، من جهة أخرى، ومع ذلك.**
(جـ) **للسببية: هكذا، وكنتيجة لذلك، لهذا السبب، ويترتّب على هذا.**
(د) **زمنية: ثم، بعد ذلك، بعد ساعة، أخيرا، في آخر المطاف.**

وبطبيعة الحال لا تختص أية أداة نحوية من هذه الأدوات بشكل اقتران بسيط مباشر بعلاقة ترابطية معينة: فلو أخذنا «الواو» على سبيل المثال لرأينا أنها يمكن أن تأتي بين جمل تربط بينها أية علاقة من العلاقات الأربع المذكورة أعلاه في (٢). وليس صحيحا كذلك أنه لا يمكننا الحصول على هذه العلاقات المطروحة في غياب أدوات ربط نحوية. فلننظر إلى المقطع التالي المأخوذ من رسالة:

[٣] **انتهى بنا المطاف إلى دخول خان من خانات برني لتناول قدح من الشراب ثم وجبة طعام. رحنا لدى جين لتناول القهوة والحديث. أوينا إلى الفراش حوالي منتصف الليل.**

ومع أن تسلسل الأحداث لم يظهر بشكل معلن إلا باستعمال الأداة «ثم» بين «لتناول قدح من الشراب» و«وجبة طعام» فإن هذا التسلسل وارد بالتضمين لا بالتصريح في تتالي الأحداث. ويعترف هالداي وحسن أن «التي تملك قوة الترابط في الواقع هي العلاقة المعنوية الضمنية. . .» (١٩٧٦م ص ٢٢٩) قبل أن تكون الأداة النحوية الخاصة بالربط. ومع ذلك فهما يصرّان على أن الشيء الذي يشكل «دعامة النص» هو وجود أدوات الربط فيه.

وأهم ما يركزان عليه من علاقات الترابط (الوصل والفصل) هي ما يندرج تحت ما يسميانه بالإحالة(Reference)، والاستبدال (Substitution)، والحذف (Ellipsis)، وارتباط المفردات. وبما أن استعمالهما لكلمة الإحالة خاص بهما فلن نتردد في استبداله

بمصطلح الإحالة داخل النص (Co-reference) (علما بأننا سنخصص دراسة أكثر دقة للإحالة في المبحث ٢ ,٦). فالأدوات التي تحيل داخل النص هي الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها لا على معناها الخاص بها بل على إسنادها إلى شيء آخر . . . (١٩٧٦م ص ٣١).

هذه الأدوات تجبر المستمع / القارىء على البحث في مكان آخر عن معناها. فمتى كان الشيء المحال عليه خارج النص في السياق أو المقام فإن العلاقة تسمى خارجية حيث إنها لا تلعب دورا في ترابط النص (١٩٧٦م ص ١٨). ومتى كان الشيء المحال عليه داخل النص فلدينا علاقة تسمى داخلية وهي تلعب دورا في تماسك أجزاء النص.

وتنقسم العلاقات الداخلية بدورها إلى قسمين: بعضهما يلتفت إلى الوراء أي إلى ما سبق في النص حتى يفهم ويسميها هاليداي وحسن علاقات إحالة إلى الوراء، وبعضها يلتفت إلى الأمام، أي إلى ما يلحق في النص حتى يفهم وتسمى إحالة إلى الأمام. وللتمثيل على هذه العلاقات انظر (٤)

[٤] أنماط الإحالة داخل النص (Co -reference)

(أ) إحالة خارجية: انظر الى ذلك الشيء (ذلك الشيء: ______)

(ب) إحالة داخلية: ● إلى الوراء: انظر إلى الشمس. إنها تغرب بسرعة (الضمير (ها) يعود إلى الوراء على الشمس).

● إلى الأمام: إنها تغرب بسرعة، الشمس (الضمير (ها) يعود إلى الأمام على الشمس)(١)

في المثالين السابقين مثلنا علاقة الترابط النصي(Co-reference) بين مفردة كاملة «الشمس» وضمير «ها». كذلك يمكن أن نثبت وجود نفس العلاقة بين صيغ أخرى كما في (٥) (في كل حالات الترابط النصي co-reference الممثل عليها فإن العلاقة هي إحالة إلى الوراء فهي بالتالي داخلية).

(١) ومن ذلك قول فرعون: «فلسوف تعلمون: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف» حيث يحيل التهديد في «لسوف تعلمون» إلى الأمام، إلى محتوى العذاب. (سورة الأعراف الآية ١٢٤).

[٥] (أ) تكرار الصيغة: سجلت [رئيسة الوزراء] شكرها لوزير الخارجية، كانت [رئيسة الوزراء] فصيحة في خطابها.

(ب) تكرار جزئي للصيغة: ترأس الدكتور إي سي آر [ريف] الاجتماع. وقد طلب [الدكتور ريف] من السيد فيلبس أن يقدم تقريرا عن وضع الحدائق.

(جـ) استبدال مفردة محل مفردة أخرى: لقد عاود [ابنة رو] المرض مرة أخرى. [هذه البنية] قلما تكون بخير.

(د) الإضمار: قالت [رو] إن[ها] ستضطرّ إلى أخذ صوفيا إلى الطبيب.

(هـ) استبدال مفردة بأداة نحوية: تحتفل جولز بعيد ميلادها في الشهر القادم ولأليسبث [واحد] كذلك.

(و) الحذف: تحتفل جولز بـ[عيد ميلادها] في الشهر القادم وكذلك أليسبث.

في المثالين الأخيرين تجبر البنية نفسها «أي العلاقة الأساسية بين أجزاء النص» (١٩٧٦م ص ١٤٣) القارىء عندما يجد أمامه استبدالا أو حذفا على العودة إلى الوراء داخل النص للبحث عن عبارة سابقة يستبدلها بها في حالة الاستبدال أو يضيفها من عنده في حالة الحذف. (يجدر بنا التأكيد أن الحذف مفهوم نحوي لا ينطبق بكل بساطة على أي شيء حدث أن ترك دون ذكر). (انظر هاليداي وحسن ١٩٧٦م ص ١٤٢ وما بعدها، وانظر بالأخص الدراسة المفيدة في ماثيوز ١٩٨٢م ص ٣٨ وما بعدها). فهاليداي وحسن يريان أن هذين الصنفين يشتملان على «ترابط الشكل» في حين تشتمل الأمثلة الأخرى على «ترابط الإحالة» (١٩٧٦م ص ٣٠٤) مما يمثل «استمرارية لمعنى المفردات» داخل النص (١٩٧٦م ص ٣٢٠). وبطبيعة الحال يمكن الحصول على الترابط النصي داخل النص بالاعتماد على علاقات أخرى غير علاقات الإحالة النصية Co-reference التي اخترناها كأمثلة. إذ يمكن أن نحقق الترابط النصي باعتماد علاقات بين المفردات مثل علاقة الكل بالجزء (فالنرجس ضرب من الورد) وارتباط الجزء بالكل (فالذراع جزء من الإنسان) وحسن الجيرة (ارتباط يوم الإثنين بيوم الثلاثاء) وغيرها من العلاقات البنيوية مثل استبدال تركيبة كاملة بتركيبة أخرى (إن سارة شديدة الإعجاب برايتشل. وكذلك الحال بالنسبة لي)، والمقارنة (إن إبهامي أقوى من تلك

المطرقة) وتكرار النظام نفسه (دخلنا ودخلوا) والمحافظة على نفس الزمن اللغوي، واختيار الأسلوب (السجل اللغوي). قارن بين «التقى السيد بأحد معارفه» وبين «ذاك الولد لقي ها الرجال الذي يعرفه» إلى غير ذلك. ويحتوي النص (٦) على بعض أنماط الترابط:

[٦] لم يكن اللّورد مالبورن، الذي كان رئيساً للوزراء عندما أصبحت فكتوريا ملكة عام ١٨٣٧م، يحب تغريد العصافير حتى إنه لم يكن يميّز بين القنبرة والشحرور؛ وعلى كل حال كان يحبّذ أصوات الطيور السوداء، وخاصة نعيق الغربان. فهو لا يملّ من مراقبتها لمدة ساعات وهي تحلّق عند الغروب. وقد اندهشت فكتوريا لهذا: فقد كانت تكره صريرها ونداءها الذي لا يتوقف.

(مارينا وارنر: مذكرات الملكة فكتوريا، منشورات، ماكميلن ١٩٧٩م ص ٧٧).

يمكننا في هذا النص ملاحظة عدد من حلقات الإحالة النصية

[٧] (أ) اللّورد مالبورن، رئيس الوزراء، كان يحب – لم يكن يميز – كان يحبّذ – فهو لا يملّ.

(ب) أصبحت فكتوريا ملكة – اندهشت – فكتوريا – كانت تكره.

(جـ) الطيور السوداء – نعيق الغربان – مراقبتها – وهي تحلق – صريرها – نداءها.

ويمكننا كذلك ملاحظة سلسلات من الألفاظ المتجانسة

[٨] (أ) تغريد العصافير – القنبرة – الشحرور – الطيور السوداء – الغربان.

(ب) تغريد العصافير – أصوات – نعيق – صرير – نداء.

هناك استعمال لأداة التقابل «على كل حال» والمقارنة (يحبّذ – وخاصة) وأداة إشارة تعود على محتوى الكلام السابق (وقد اندهشت فكتوريا لهذا) والمحافظة على نفس الزمن اللغوي وتكرار صيغة النفي (لم يكن – لم يكن). وربما كان من المفيد أن

نضيف وقع أدوات التنقيط الخاصة (؛) و (:) التي تدل على وجود علاقة بين ما قيل وما سيقال كما هو الحال في استعمال أدوات العطف. تحتوي أغلب النصوص على أبنية مترابطة على هذه الشاكلة. ولكننا نطرح هنا سؤالين: أولا: هل يحتاج النص إلى مثل هذا الترابط على مستوى الأدوات حتى يكون نصا؟ ثانيا: هل إن وجود مثل هذا الترابط على مستوى الأدوات كاف لضمان اعتبار النص نصا؟ ويتفرع عن هذا السؤال الثاني سؤال آخر: لو تعرفنا في النص على هذه المعايير فهل يضمن وجودها الترابط المنطقي للنص؟ هل من الضروري لنص أن يبرز على الأقل بعض أنماط التماسك النصـــي التي كنا بصدد دراستها حتى نتعرف عليه كنص؟ يبدو أن هاليداي وحسن يقترحان أن الأمر كذلك. وهما يعترفان أن مفهوم الترابط النصي يحتاج إلى أن يكمل بمفهوم السّجل (أن يتناسب مع مقام معين) ولكنهما يقولان: إن مفهوم الترابط النصي يفسّر وجود العلاقات المعنوية الأساسية التي بموجبها يمكن أن نعتبر أي مقطع منطوق أو مكتوب نصا.

ويمكن تقنين هذا المفهوم وذلك بتصنيفه إلى عدد صغير من الأصناف المتميّزة داخل النص باستعمال خصائص معينة... والتي لها خاصية مشتركة، وهي الإشارة إلى أن فهم المقطع المقصود يعتمد على شيء آخر. ولو كان هذا الشيء الآخر معبّرا عنه بشكل معلن، فإننا نحصل على الترابط النصي. وبطبيعة الحال توجد أصناف أخرى من العلاقة المعنوية المرتبطة بالنص والتي لا تدخل ضمن هذا المفهوم. ولكن العلاقة الأساسية التي تدخل فيها هي إلى حدّ ما أهم العلاقات لأنها العلاقة الموجودة في كل أنماط النصوص. وهي في الواقع ما يجعل النص نصّا. (١٩٧٦م ص ١٣).

لا بد من الخلوص إلى تمييز فشل الكثير من الطلبة الذين يتبنون طرح هاليداي وحسن في الوصول إليه بل ليس لدى هاليداي وحسن نفسيهما وضوح في خصوصه كما يدل على ذلك الاستشهاد الذي سقناه، ألا وهو التمييز بين «العلاقات المعنوية» القائمة بين مكونات النص من جهة وبين الأدوات المعبرة عن هذه «العلاقات المعنوية» داخل النص من جهة أخرى. إنه تمييز سبق أن سقناه في دراستنا لعلاقات العطف وقلنا «أن قوة الربط تكمن حقيقة في العلاقة المعنوية المضمنة»... ولن يختلف اثنان في ضرورة وجود مثل هذه العلاقات المعنوية داخل الخطاب لكي يتيسر فهمه منطقيا. ولكننا نشك في أن يكون تحقيق هذه العلاقات المعنوية علنا (على مستوى الأدوات)

مطلبا أساسيا حتى يكون النص نصًا. يبدو أن هاليداي وحسن يصران على ضرورة وجود مثل هذا التحقيق العلني، كما يتضح من تصريحهما «للنص مقوّمات نصّية وهو ما يميزه عما لا يعدّ نصا» (١٩٧٦م ص ٢) أو قولهما «تظهر الروابط الأدواتية بين الجمل أكثر وضوحا، لأنها المصدر الوحيد لخاصية النص» (١٩٧٦م ص٩). ففي مثل هذه التصريحات يبدو أنهما يتحدثان عن وحدات لغوية ظاهرة في سطح الكلام لا عن علاقات معنوية ضمنية.

وبطبيعة الحال فمن السهل أن نجد نصوصًا أي جملا متلاصقة نفهمها بكل تلقائية على أنها مترابطة لا تظهر إلا قليلا - إن وجد - من الأدوات الظاهرة المعبرة عن علاقات الترابط، فبالإضافة إلى المثال المصطنع الكثير الاستعمال:

[٩] (أ) هذا جرس الباب يرنّ
(ب) إنني في الحمام

سنسوق المزيد من الأمثلة

[١٠] (أ) شكرا لك على ملاحظاتك عن الجهورة. سأرجع في نهاية المطاف إلى ذلك الدرس. (بداية رسالة)
(ب) سعيا مني لجسّ النبض قمت باتصال هاتفي بالأمس مع ناشر بريطاني مشهور له مكاتب في نيويورك. كان هنالك تجاوب فوري مع (كتاب) الكلام الواضح. (رسالة من وكيل أدبي)
(جـ) ها إني أقبع مرة أخرى أرقا في الثلث الأخير من الليل يقضّ مضجعي ضميري الاجتماعي. يذهب الفكر أحيانا إلى الأمهات القابعات بمفردهن وينصرف أحيانا إلى الطبقات الدنيا أو رعاة الغنم المحرومين في الأراضي المرتفعة (السكتلندية) ولكن التفكير انصب اليوم على المشردين الذين ليست لهم بيوت. (مقتطف من مذكرة أوبرن وو)

في كل مثال من هذه الأمثلة نقترح أنه لا يوجد تعبير مباشر عن العلاقات القائمة بين الجملة الأولى والجملة الثانية. ومع ذلك فإن القارىء العادي يفترض بكل تلقائية أن تتالى هذه الجمل يشكل نصًا (بما أننا نعرض هذه الجمل وكأنها نص) وهذا القارىء

سيفهم الجملة الثانية على ضوء الجملة الأولى. فهو سيفترض وجود (علاقات معنوية) قائمة بين الجمل في غياب أي تقرير معلن عن وجود مثل هذه العلاقة (انظر مناقشتنا لـ «الحلقات المفقودة» في المبحث ٨, ٧).

هكذا إن «خاصية النص» بمعنى التحقيق السطحي المعلن للعلاقات المعنوية ليست شرطا للتعرف على النصوص وفهم أجزائها بالرجوع إلى البعض الآخر. نعود الآن إلى السؤال الثاني الذي طرحناه: هل إن الترابط النصي عن طريق الأدوات كاف لضمان التعرف على النص؟ ولاختبار صحة هذا الكلام فلنأخذ أي نص روائي تاركين الجملة الأولى (حتى لا نغش في اللعبة وحتى نتعرف على الأطراف المشاركة) ثم لنبعثر ما تبقى من الجمل القليلة. فهل إن ما ينتج عن ذلك يعدّ نصًا؟ هل سيجد القراء سهولة في فهم المجموعة الجديدة من الجمل المركبة؟ لن نغير أي أداة من أدوات الربط النصي. فلننظر في المقطع التالي:

[١١] (١) كان رجل يرتدي ملابس بيضاء، ولا يمكن أن يكون إلا أحد المخضرمين الناجين يجري هربا جري الفارّ من الموت.
(٢) وقد بقي الجسم الأبيض هامدا بلا حراك وسط السهل الشاسع.
(٣) وكان وراءه على بعد أمتار قليلة يقتفي أثره الجسم الأسود سواد شجر الأبنوس لزامبو الزنجيّ الوفيّ.
(٤) وبعد ذلك بقليل نهض زامبو، ونظر إلى الرجل الملقى هامدا على الأرض، ثم قام يجري نحونا يلوّح بيديه في سرور.
(٥) وبدآ يتقلبان ويتمرغان على الأرض.
(٦) ولما نبدأ النظر حتى وثب على ظهر الرجل الهارب وطوق رقبته بذراعيه.
(هذا المقطع لو أعدنا ترتيبه ١, ٣, ٦, ٥, ٤, ٢ مأخوذ من مؤلف السير آرثر كونن دويل – العالم الضائع ١٩١٢م) (٢)

---

(٢) ومن الأمثلة على الفرق بين الترابط الشكلاني والترابط المعنوي ضمير المتكلم الجمع «نحن» الذي يعود على مرجعين مختلفين في هاتين الآيتين: «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا» - «وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا» - (مريم ٦٣ - ٦٤).
حيث يعود في الآية الأولى على الله سبحانه وتعالى، وفي الآية الثانية على الملائكة، في حين أن تحليل هاليداي يستلزم وجود علاقة ترابط بين الضمائر في الآيتين.

من الواضح أن الرابط على مستوى الأدوات لا يضمن التعرف على مجموعة الجمل كنص، ومن الواضح كذلك إجابة على سؤالنا المتفرع عن هذا السؤال، أن الترابط على مستوى الأدوات لن يضمن الترابط المنطقي.

ولإعادة تركيب هذا «النص» (١١) دون الحفاظ على تنظيم الجمل، الأصلي المذكور أعلاه، يمكن للقارىء بطبيعة الحال استعمال بعض الأدوات المعبّرة عن علاقات الترابط الموجودة بين الجمل ولكن الاحتمال أكبر في أن يحاول أن يبني تصوّرا منطقيا لتسلسل الأحداث الموصوفة بحيث ينسق في ذهنه بين الأحداث قبل أن يقتصر فقط على أدوات الربط اللغوية.

وقد أمدّنا أنك فيست (١٩٧٨م ص ١١٠) بمثال مقنع يدل على عدم كفاية وجود أدوات الربط بين الجمل كأساس يضمن «أنها تشكل نصا» وهو ما سنسوقه هنا كمثال (١٢):

[١٢] **اشتريت سيارة فورد. كانت السيارة التي قادها الرئيس ولسن على طول طريق الشانزلزيه سوداء. لقد تمّ بحث إنجليزية السود من طرف الكثير. انتهت المباحثات بين الرؤساء في الأسبوع الماضي. يوجد في الأسبوع سبعة أيام. كل يوم أطعم قطّي. تمشي القطط على أربع. القطّ جالس على السجاد. تتكون (كلمة) «سجاد» من خمسة أحرف.**

يلاحظ أنكفيست وجود «شبه» للترابط من جرّاء وجود تجانس ظاهري بين «سيارة فورد» و«السيارة» وبين «سوداء» و«السود» وبين «قطّي» و«القطط» وغيرها، ولكنه يضيف أننا نميل إلى عدم اعتبار هذه المجموعة من الجمل نصا متماسكا منطقيا. (يجدر بنا أن نضيف عرضيّا أن المقطع (١٢) يزوّدنا بمثال طيّب عن السبب الذي يجعل المعادلة البنيوية» (S) + S غير ذات فائدة تذكر في تحديد خصائص النص (قارن أوستن ١٩٧٨م).

في الواقع ربّما يكون القارىء قد اكتشف وهو يقرأ (١٢) أنه حاول فعلا إقامة روابط بين الجمل القليلة الأولى، وكان لديه استعداد كبير ليعتقد أن الجملة التي تليها ستزوده بالعناصر التي تمكنه من فهم الجمل على أنها كل متماسك منطقيا. ويمكن للكتاب أن يستغلوا هذا التوقع بأن وجود جمل متلاصقة لها شيء من علاقات التجانس

من شأنه أن يكوّن نصا متماسكا منطقيا وذلك للحصول على وقع معين. فلننظر في المجموعة التالية من الجمل المأخوذة من مقدمة إحدى الروايات:

[١٣] **من خلال السياج وبين الفراغات التي بين الزهور تمكنت من رؤيتهما وهما يضربان. ها هما يقتربان من موضع العلم. مشيت حذو السياج. كان لستر يتشمم طريقه في الأعشاب عند موضع شجرة الورد. لقد انتزعا العلم وها هما يضربان. ثم أعادا العلم ورجعا إلى المرتفع وضرب الأول ثم ضرب الثاني. واستمرا كذلك ومشيت حذو السياج. جاء لستر من شجرة الورد وأخذنا نمشي بمحاذاة السياج وتوقفا فتوقفنا ونظرت من خلال السياج في حين كان لستر يصطاد في العشب.**

عندما نقرأ هذه الفقرة الأولى من رواية: «صوت الغضب» لوليام فولكنر، نعدّها نصا ويمكننا لو احتاج الأمر لذلك أن نشير إلى عدد من علاقات الترابط الموجودة بين الجمل. ولكن، لو عدنا إلى السؤال الذي طرحناه سابقا، هل تمكننا هذه العلاقات الترابطية من فهم منطقي لما قرأناه؟ والجواب هو بالنفي لأن الكاتب، بكل بساطة، حجب في الواقع بعض المعلومات البالغة الأهمية لحقائق عن العلم الموصوف، التي نحتاج إليها للوصول إلى ذلك الفهم. ولعله يكون من المفيد أن نشير إلى أنه لا يمكن التعرف أصلا على بعض الروابط الموجودة في النص (مثل تلك القائمة بين الضرب والعلم والمرتفع) إلا إذا أخبر القارىء بأن الشيء الموصوف هو لعبة جولف. هذا يعني أن موجب الربط الأدواتي يوجد إلى حد ما خارج النص ولا ينبغي البحث عنه في الكلمات المخطوطة على الورقة. إنه من الأهمية بمكان أن نفرق بين «العلاقة المعنوية الضمنية» التي سنناقشها بطريقة أخرى فيما تبقى من هذا الفصل وفي الفصل السابع، وبين تلك الأدوات المحققة لذلك والمتوافرة للمتكلم/ الكاتب، ولكنه لا يستعملها بالضرورة في تركيب ما يريد قوله. سنؤكد أن المستمعين والقراء لا يعتمدون على الأدوات النحوية للرّبط حتى يسمّوا النص نصا. فكما لاحظ هاليداي وحسن محقين: «نحن نصرّ على فهم أي مقطع على أنه نص طالما كان ذلك ممكنا إلى أبعد الحدود» (١٩٧٦م ص ٢٣). فكلما تجاور الكلام زمانيا ومكانيا فإننا نحاول أن نفهم بعضه على ضوء بعضه الآخر.

ولكننا رغم ذلك مقيدون في محاولاتنا هذه إلى حدّ كبير بالطرق التقليدية لإخراج النص. فنحن على سبيل المثال لا نهمل وجود الأعمدة في الصحيفة اليومية، ولهذا فإننا لا نقرأ أفقيًا على امتداد السطر. من الممكن كذلك أن تجد «نصوصًا» شديدة الترابط لو أنك قرأت عبر أعمدة الدعاية أو التقارير الرياضية على سبيل المثال:

[١٤] شقة / منزل ٣ - ٥ غرف مجلس جميل مشمس، غرفة نوم
الحالة غير مهمة كبيرة بها خزانات مثبتة، داخل
على استعداد للتزويق فيها كل السجادات.

(الإيفنينج نيوز، أدنبره، ٢٣ يونيو ١٩٨٢م)

ومع ذلك يبدو من التناقض بمكان أن نحاول أن نفهم مثل هذا «النص» بالإحالة بين أجزائه، فنحن في تحليلنا للنصوص المكتوبة نأخذ بعين الاعتبار وجود الأعمدة والمسافة بين السطور ونوعية الخط . . . وفي تحليلنا للغة المنطوقة نأخذ بعين الاعتبار نوعية الصوت والتنغيمة والوقفة. إن المستمع أو القارىء لن يدخر جهدا لغرض فهم منطقي داخل مقاطع لغوية تعرض عليه تقليديا على أنها نصوص، أي أنه «يتعامل» مع اللغة المعروضة عليه بهذه الطريقة على أنها تمثل «نصًا». لهذا لا نرى فائدة في تحديد عدد من الخصائص النحوية الأساسية التي لابدّ أن تتوافر في النص حتى يكون النص «نصا». فالنصوص هي ما يعدّه المستمعون والقراء نصوصًا.

وفي الأجزاء اللاحقة من هذا المبحث سنعود إلى مناقشة عدد من النقاط الواردة في بحث هاليداي وحسن عن الإحالة داخل النص إذ اقتصرنا في هذا المبحث على نقل وجهة نظرهما دون أن نعقّب على ذلك.

٦،١،٢ الإحالة الداخلية

نودّ في هذا المبحث أن نشكّك في صحة تمييز هاليداي وحسن بين الإحالة خارج النص والإحالة داخل النص (على الأقل لأنها تنطبق على بنى أخرى غير تلك البنى التي تتضمن الاستبدال (مثل كذلك فعل فلان) ولعلك تذكر أن الإحالة إلى الخارج النصي تتطلب من المستمع أن يلتفت خارج النص حتى يتعرف على الشيء المحال

عليه. أما الإحالة داخل النص فهي تطلب من المستمع أو القارىء أن ينظر داخل النص للبحث عن الشيء المحال عليه. ولو رجعت إلى تحليل المثال (٦) لرأيت أن سلسلة الإحالة الداخلية الأولى تحتوي على الحذف والإضمار واستبدال مفردة محل مفردة أخرى وفي آخر المطاف تعود على اللورد ملبورن. هذه العبارة الأولية للإحالة يفترض أنها تمكن القارىء من الإحالة على «اللورد ملبورن» الذي يعرفه من خلال ثقافته العامة. ويترتب على هذا أن القارىء مهما غاص في النص فإن أي إحالة لاحقة على «اللورد ملبورن» لابدّ أن تحلّ بالعودة إلى الوراء عن طريق سلسلة الإحالات حتى نصل إلى العبارة الأولى التي تملك بمفردها القوة التي تسمح للقارىء بالإفلات من قبضة النص وربط ما يقرأه بالعالم الحقيقي. يقول هاليداي وحسن في هذا المضمار: «اعلم في الختام أن من خصائص صيغ الغيبة أنها يمكن أن تأتي بعدد تراكميّ كبير من الإحالات على الكلام السابق، فقد يتبع استعمال كلمة جون في بداية النص عدد كبير لا حدّ له من ضمائر هو، عنه، له، وهي كلها تفهم بالعودة إلى جون الأصلي. إن هذه الظاهرة تسهم بشكل كبير في الترابط الداخليّ للنص بما أنها تخلق نوعا من الشبكة من خطوط الإحالة بحيث يرتبط كل استعمال بكل الاستعمالات السابقة التي تصل إلى الإحالة الأولى (الأصلية) (١٩٧٦م ص ٥٢).

إن وجهة النظر المعبّر عنها هنا تبدو-إلى حد كبير-نظرة محلّل حلّل مرارا وتكرارا مقاطع نظمية صغيرة نسبيا يمكن إخراجها على صفحة واحدة. ولكن تدبّر معنا للحظة ماذا يعني هذا الكلام للمحلّل البشري العادي. انظر أولا موقع المستمع، فقد تلتقي مع صديق يحدثك عن غرابة سلوك رجل كان قد قابله في الحانة. ربما أخبرك عن سلسلة طويلة من الأحداث مستعملا ضمير الغائب «هو» للإحالات اللاحقة على ذلك الشخص. فهل تعتقد أنك في نهاية هذه القصة الخيالية الثرية بالمعلومات ستظل قادرا على تذكر الصيغة الأصلية لعبارة الإحالة بالضبط؟ ولو كنت عاجزا عن تذكر الصيغة بالضبط فهل يعني هذا أنك كنت عاجزا عن فهم ما قيل لك؟ إن أي شخص يدور الحديث عنه يمكن التعرف عليه عن طريق عدد هائل من عبارات الإحالة. يبدو من غير المحتمل بتاتا فيما يخص السيناريو الذي ذكرناه هنا أن يكون المستمعون قادرين على تذكر الصيغة (العبارة) الأصلية. وبالطريقة نفسها، لو أنك تقرأ رواية ويعترضك

بطل جديد تمّ إقحامه في أسفل إحدى الصفحات ثم تقلب الصفحة، وتجد أن هذا الشخص يحال عليه فيما يلحق بضمير «هو»، فمن غير المحتمل كذلك أنك تحتاج أن تعود مسافة طويلة إلى الوراء كل مرة عن طريق سلسلة الإحالة إلى الكلام السابق، حتى تعود إلى العبارة الأصلية لكي تفهم الشيء المحال عليه.

فهذا لا شك أنه غير مقنع كنموذج لعملية التحليل. ولكنه معقول جدا كخطة وقتية (غير دائمة) للتأكد من الفاعل ومن العملية في سلسلة من الأحداث أو التثبت بالعودة إلى الوراء في حالة «إضاعة» الإنسان للمعنى وهو يقرأ شيئا ما. ولكن هذه الطريقة لا يمكن أن تكون الطريقة المثلى.

سنقترح أن التفسير الأكثر احتمالا هو أن المحلل يثبت مرجعا في تصوّره العقلي للخطاب ثم يربط الإحالات اللاحقة لهذا بتصوره العقلي لا بالصيغة الأصلية في النص. ولو اعتبرنا هذا الرأي صحيحا فإن التمييز بين الإحالة داخل النص والإحالة خارجه يصبح أمرا أكثر صعوبة. فنحن مضطرون إلى افتراض أن المحلل في كلتا الحالتين يملك تصورّا عقليا. فهو في إحدى الحالات يملك تصوّرا عقليا كما هو موجود في العالم، وهو في الحالة الأخرى يملك تصوّرا عقليا عن عالم خلقه الخطاب في ذهنه. وعليه في كلتا الحالتين أن يعود إلى تصوّره العقلي لتحديد موضع الإحالة.

٦,١,٣ الاستبدال

يتبنّى هاليداي وحسن نموذجا مباشرا للإحالة داخل النص فنظرتهما للاستبدال بسيطة، إذ يريان أنه يمكن استبدال عبارة بعبارة أخرى داخل النص. (ولا تختص هذه النظرة بهما، فهنالك توجّه عام في تحليل النص يسمّى «علم لسانيات النص الاستبدالية» انظر هاروغ ١٩٧٨م) لننظر في تعليقهما على النص (١) الذي نسوقه هنا تحت رقم (١٥):

[١٥] نظّفي ونقّي ستّ تفاحات للأكل. ضعيها في طبق يتحمل حرارة النار.

فمن الواضح أن الضمير (ها) في الجملة الثانية يعود (يحيل إلى الوراء) على التفاحات الستّ في الجملة الأولى (١٩٧٦م ص ٢). ولقد سبق لنا أن علقنا على

مثال مشابه لهذا في المبحث السابق في سياق مناقشتنا لسلسلة الإحالات داخل النص والتي تعود على «اللورد ملبورن». فإذا كان لدينا اهتمام بمعرفة كيفية تناول القراء لمثل هذا النص، وهو ما ينبغي أن يوجد لدينا كمحلّلي خطاب، فلا بدّ لنا من التساؤل عما إذا كان الضمير «ها» في الجملة الثانية يعود في الواقع وبكل بساطة على «التفاحات الستّ» الواردة في الجملة الأولى، وكما يلاحظ كالقرن:

«ليس مضمون النص مجرّد قائمة من المراجع، فالعلاقات التي يقيمها النص بين المراجع هي جزء مهم من المضمون». (١٩٧٨م ص ١٥٠)

ورغم كون الأمر في الجملة الثانية يتعلق بالفعل «بالتفاحات الست» نفسها فمن المفيد أن نشير ويجدر بالقارىء أن يفهم أن وضع هذه التفاحات قد تغيّر. ففي حين كانت التفاحات في الجملة الأولى طازجة وقادمة مباشرة من السوق فإنها في الجملة الثانية «مغسولة ومنقاة». لقد تغيّر وصفها، ولكي يفهم القارىء هذا الأمر فليس من المحتمل أن يبني فهمه على مبدإ الاستبدال، وهو رأي مورغن (١٩٧٩م). ولنأخذ مثالاً مصطنعًا أكثر عنفًا:

[١٦] اذبحي دجاجة نشيطة سمينة. جهّزيها للفرن، قطّعيها إلى أربع قطع، واشويها مع الزعتر لمدة ساعة.

من المفترض أن الدجاجة لم تتغيّر على الأقل إلى أن وقع تقطيعها إلى قطع ولكن وصفها قد تغير حتما، فالقارىء الذي يعود بكل بساطة عبر سلسلة الإحالة الداخلية ويأتي بالعبارة «دجاجة نشيطة سمينة» على أنها الشيء الذي يعود عليه الضمير «ها» في الجملة الأخيرة يكون إلى حدّ كبير قد فشل في فهم النص. وبما أن عرض الأطباق يتميز بالخصوص بتغييرات سريعة وواضحة في مجرى الأمور، فسوف نعيد دراسة جزء من الطبق الذي كنا قدمناه في الفصل الخامس تحت رقم ٢٢:

[١٧] قطّعي البصل ناعما، ثم حمّريه في الزبدة، وبعد ذلك ضعيه في صحن صغير. ضعي البهارات المطحونة في كأس من الماء (من حجم فطور الصباح)، أضيفيه إلى الدهن الذي في القدر واطبخيه لمدة ثلاث دقائق

مع عدم التوقف عن التقليب. والآن أضيفي الدجاج واخلطيه جيدا مع التأكد من أن اللحم مغطى قليلا بالماء، ثم اغليه لمدة عشرين دقيقة تاركة الغطاء على القدر. عندما يوشك السائل على التبخّر واصلي الطبخ ولكن قلّبي الدجاجة، إلى أن يصبح لونها بنيّا ذهبيّا، اسحقي البصل المحمّر باستعمال ملعقة...

لا تنسى أن قائمة المحتويات كانت تضم البصل والزبدة... إلخ. سندرس بعض النقاط الواردة في النص، وخاصة تلك المتعلقة بالحذف والتي تؤخذ لو اتبعنا هاليداي وحسن على كونها تعليمات للقارىء للبحث عن عبارة سابقة للاستبدال داخل النص.

[١٧] (أ) **حمّري. في الزبدة ثم ضعي. في صحن صغير.**

فمن الواضح أن الشيء المراد تحميره هو «البصل المقطع» والشيء المراد وضعه في صحن صغير هو «البصل المقطع المحمّر». لابد أن يكون من الممكن إلحاق بعض التغييرات بالمرجع والمحافظة عليها (أو على بعضها) على امتداد الخطاب وإلا فكيف نفسّر ظهور عبارة البصل المحمّر في الجملة الأخيرة التي سقناها هنا؟ لأننا غير قادرين على تفسير ظهور المسند «محمّر» على سطح الخطاب بدلا من «مقطع» بما أننا لم ندرس هذه الظاهرة بالتفصيل). ولكن ظهور الأشياء المسماة من جديد وقد ألحقت بها أوصاف مختلفة يدل لا محالة أننا بحاجة إلى نموذج محدّد لعملية الفهم يسمح بتراكم الخاصيات الملحقة بالأشياء أو بتغيير حالها أثناء سير الخطاب. (إن القارىء الذي لا يتوصل في قراءته لرواية دايفد كوبرفيلد إلى معرفة أن البطل لم يعد ذلك الطفل الصغير الذي ذكر في المقدمة هو قارىء فاشل). لنأخذ مثالا آخر عن الحذف البنيوي الذي يطلب من القارىء البحث عن عبارة سابقة في النص:

[١٧] (ب) **والآن أضيفي الدجاج.**

إن فعل «أضاف» يتطلب مكوّنين: أي إنك تضيف شيئا (أ) إلى شيء آخر (ب) ولهذا فعلينا أن نضيف من عندنا ذلك الشيء – مهما كان – الذي يضاف إليه «الدجاج»

ماذا سيكون هذا الشيء يا ترى؟ يبدو أننا نحتاج إلى إضافة «الدجاج» إلى «الدهن الذي في القدر الذي كنا قد طبخنا فيه البصل ثم نقلناه منه (وهو ما يعطي نكهة البصل) والذي أضفنا إليه بهارات مطحونة مخلوطة في كأس ماء من الحجم المعروف في فطور الصباح والذي طبخناه لمدة ثلاث دقائق مع تقليبه داخل القدر طوال الوقت». لا يوجد شيء سابق بسيط في النص يعود عليه الكلام. وإنه لمن الجنون أن يفترض القارىء أنه يستطيع إضافة الدجاج إلى «الزبدة» التي كانت في الأصل غير مذوبة. والآن انظر المفردة التالية:

[١٧] (جـ) **عندما يوشك السائل على التبخر.**

أيّ «سائل» هذا؟ من الواضح أنه ليس بكل بساطة السائل الوحيد المذكور في (١٧ ب) بل يحتوي كذلك على المستخلصات التي أفرزت طيلة عشرين دقيقة من غلي الدجاج في ذلك الخليط وعلى النكهة الناتجة عن تلك العملية، وكذلك على تركيز للطعم الأصلي بما أن الكثير من «الماء» قد تبخر أو كاد. بإيجاز لو كان القارىء ينوي استثمار ماله في شراء طباخ آلي مبرمج يحضر الأطعمة انطلاقا من وصفها، فعليه أن يتجنب النموذج الذي يعمل على برنامج من نمط الترابط على مستوى الأدوات الظاهرة.

لقد حاولنا أن نعطي أمثلة على بعض المشكلات التي تعترض النظرة القائلة بأن الترابط لا بدّ أن يكون على مستوى الأدوات الظاهرة في نمط واحد من الخطاب (أطباق الطعام) حيث يمكن إيراد الأمثلة ببيانات توضيحية. ولكن النقاط التي أوردناها لا تخص كيفية إحضار الطعام فقط. فالمثالان اللذان سنسوقهما (أحدهما مقتطع من كتاب مقرر في حين إن الثاني مأخوذ من إعلان للعموم) هما للدلالة على أن الاستبدال لا يحد بمجرّد تعويض صيغة محيلة إلى الوراء بسابقة لها. فمثل هذا الاستبدال لا بدّ أن يتم تحت شرط التساوي في الوظيفة النظمية. وبهذه الطريقة لا تستقيم الصفة «إجباري» في الموقع الإعرابي الذي تشغله العبارة «واحدة» كما في المثال ١٨:

[١٨] ربما يحدث الطفل السرعة. وبما أن ما كتب في الموضوع إخباريّ في محمله فنحن لا نرى مانعا من تقديم واحدة من عندنا...

(مقتطع من دوفيلباي ودوفيلباي ١٩٧٨م ص ٢٠٦)[٣]

وفي المثال التالي علينا أن نفترض أن «ذلك» يعود على أعمال التخريب التي ينبغي الإخبار عنها:

[١٩] أوقفوا مخرّبي الحافلة.
بإبلاغ تلك فورًا إلى السائق أو القابض.
(إشارة معلقة في حافلات أدنبره)

لا بدّ لكل نموذج سليم لوصف الخطاب من القدرة على استيعاب مختلف الروابط الموجودة في النصوص ١٧ و ١٨ و ١٩. وليس لنموذج «الترابط على مستوى الأدوات» هذه القدرة. ولكن لابدّ أن ننصف هاليداي وحسن بالإشارة إلى أنهما ليسا مهتمين بإنتاج وصف لكيفية فهم النصوص. بل إن اهتمامهما منصبّ بالأحرى على فحص الموارد اللغوية المتوافرة للمتكلم / الكاتب، للتعبير عن علاقات الترابط. ولا شك أن دراستهما لهذه الموارد ثرية ومهمة وعميقة. ولكن من المهم أن يكون لدى محلل الخطاب وضوح عما يفعله هاليداي وحسن، وعليه ألا يفترض أن تحليل العلاقات النصية بعد صدورها مبنية داخل نص مكتمل سيفسر بالضرورة كيف يعايش محلل للخطاب في لحظة صدوره هذا الخطاب.

٦,٢ الإحالة داخل الخطاب

إن النظرة الدلالية التقليدية للإحالة هي تلك النظرة التي ينظر فيها إلى علاقة الإحالة على أنها تربط العبارات في النص بكيانات في العالم في حين أن علاقة الإحالة داخل النص تربط العبارات في أجزاء مختلفة من النص. سنقدم في المبحث ٦,٣

(٣) ومن ذلك قولنا في العربية: «جميلة بنت صائعة لا تحترم الآخرين. وهذا ما لا يقرّه رجل عاقل». حيث لا تتماشى أداة الإشارة للمذكر «هذا» مع «جميلة» المؤنث.

طرحا بديلا لعلاقة الإحالة داخل النص، مع التركيز على وجه الخصوص على الضمائر. يستعمل مصطلح «الإحالة» في الطّرح التقليدي كما هو الحال لمصطلح «معنى لغوي» للحديث عن معنى المفردات. فإن معنى مفردة مثل «دجاجة» يحدد جزئيا بمعناه في اللغة أي خاصياته المميزة مثل «حيوان»، «له ريش» . . . إلخ. وكذلك بإحالته إلى شيء ما، أي إلى مجموعة الأشياء في العالم التي يصح أن تنطبق عليها العبارة. ونجد لدى لاينز (١٩٧٧م الفصل السابع) طرحا مفصلا عن خلفية هذا التمييز والمسائل المرتبطة به، وهو يقترح أنه من الأفضل استبدال مصطلح «الإحالة» بمصطلح «المعنى الأساسي» عند مناقشة معاني المفردات. سنتبنى هذا الطرح ونقول في دراستنا لعلم دلالة المفردات إنه ربما يكون من المفيد أن نزعم أن لمفردة ما (الكسيم إن أردنا أن نكون أكثر دقة) معنى ذاتيا (الخاصيات المميزة التي يتكون منها معنى الكلمة) ومعنى أساسيًا (وهو مجموعة الأشياء التي يصح أن تنطبق عليها التسمية).

كذلك تغطي كلمتا (intension) «المفهوم» و (extension) «مدلول نطاقي» المستعملتان عادة في علم الدلالة الشكلاني هذا التمييز بشكل عام، إلا أنه توجد فروق اصطلاحية دقيقة لن نبحث فيها في هذا المقام. (انظر لاينز ١٩٧٧م ص ٢٠٧ وما بعدها). لهذا يمكن إبعاد مصطلح «الإحالة» عن دراسات معنى المفردات وتخصيصه بتلك الوظيفة التي تمكن المتكلمين (الكتاب) من الإشارة من خلال استعمالهم لعبارة لغوية إلى الأشياء التي يتحدثون (يكتبون) عنها. وتجدر الإشارة إلى تمييز آخر قام به لاينز (١٩٧٧م ص ١٨٢). فأهل علم الدلالة الشكلاني يركزون في الغالب على أهمية أن تكون العبارة المستعملة للإحالة على شيء صادقة / صحيحة في وصفها لذلك الشيء. أي أننا لو أطلقنا على رجل ما عبارة «ملك إنجلترا» فلا بدّ أن يكون الوصف الذي تتضمنه هذه العبارة صادقا / صحيحا ينطبق على الشخص المذكور حتى نحصل على عملية إحالة صحيحة.

ولكن ليست «الإحالة الصحيحة» بهذا المعنى عادة المعيار الذي يستخدمه مستعملو اللغة عندما يحيلون على أشخاص في الخطاب. فلو كان المتكلم والمستمع يعتقدان أن الرجل المتزوج من ملكة إنجلترا الحالية هو فعلا ملك إنجلترا، فإن المتكلم يستطيع في بعض الأحيان أن يحيل بنجاح على ذلك الشخص باستعمال تلك العبارة.

في الواقع لا يحتاج المتكلم أصلاً إلى الاعتقاد بصحة العبارة. كل ما يحتاجه هو أن يعتقد أنه باستعماله لهذه العبارة سيمكن للمستمع أن يتعرف على المسمّى المقصود. لهذا فإن المفهوم الذي يهم محلل الخطاب ليس صحة الإحالة بل الإحالة الناجحة. ويعتمد نجاح عملية الإحالة على قدرة المستمع على التعرف على المسمى الذي قصده المتكلم باستعمال العبارة المحيلة، وذلك لفهم الرسالة اللغوية الموجهة إليه.

لقد أوردت هذه النقطة الأخيرة مفهوم «التعرف على المسمّى الذي قصده المتكلم» وهو مفهوم ذو أهمية قصوى في أي تحليل لعملية فهم التعبيرات المحيلة في الخطاب. ورغم احتواء بعض الدراسات على الفكرة القائلة بأن لبعض التعبيرات اللغوية إحالة فريدة ومستقلة، فإننا نصرّ على القول إنه مهما كانت صيغة العبارة المحيلة فإن وظيفتها الإحالية تعتمد على مقصد المتكلم في مقام استعمالها الخاص. فعلى ماذا يعتمد المستمع في تعرفه على المسمّى الذي قصده المتكلم وما هي الصيغ التي تكتسيها العبارات المحيلة؟

١,٢,٦ الإحالة وطرق تصوّر الخطاب

لقد برزت فكرة «طرق تصوّر الخطاب» في مراحل مختلفة من سياق هذا الكتاب (انظر المباحث ٧,٣ و ٣,٥ و ٢,١,٦). ولئن لم يتمّ التوسّع في سبر أغوار هذه الفكرة فإن ذلك يعود لسبب عمليّ وهو أننا لا نملك حاليا أية طريقة لوصف طرق تصور الخطاب وصفا له ضوابط. فبشكل من الأشكال يمكن القول إن كل ما في هذا الكتاب هو عما يجب اعتباره داخلا في وصف طريقة تصور الخطاب.

دعنا نقل بإيجاز إن بالإمكان أن نميز منطقيا بين ما هو موجود في العالم وما يمكن وصفه بالتصوّر الذي في ذهن الإنسان عما هو موجود في العالم. ويمكن اعتبار هذا المفهوم الأخير تصورّ أو نموذج ذلك الإنسان للعالم. (علما بأن تصور إنسان معيّن ربما يحتوى على كائنات مثل «الأب نوال» أو «الجنية صاحبة السن» مما يصعب التأكد من وجودها في العالم أصلا). لنعد إلى صميم الموضوع. نقول إن الإنسان عندما ينصبّ اهتمامه على مقطع معيّن من الخطاب على أنه عينة لتجربة عن العالم فهو بذلك قدْ يكوّن لديه تصوّرا خاصا لهذه التجربة عن العالم، وهو تصوّر سيدمج بطبيعة الحال

إلى حدّ ما داخل تصوره العام للعالم. هذا التصور أو النموذج الخاص الناشىء عن خطاب معين هو الذي يمكننا تسميته بطريقة الإنسان في تصور الخطاب. (أما المصطلح البديل «نموذج الخطاب» فيستعمله بعض المحلّلين مثل وابر (١٩٧٨م، ١٩٨١م) لوصف المفهوم نفسه). وانطلاقا من هذا الوصف البالغ البساطة لما يمكن أن يكون طريقة تصوّر الخطاب يمكننا أن نمضي قدما، ونقترح أن الكاتب (المتكلم) عندما ينتج مقطعا خطابيا، فإن ذلك سيكون مبنيا على تصوره الخاص لحال من الأحوال. أما القارىء (المستمع) فهو يسعى عادة أثناء تلقيه للخطاب أن يكوّن لديه تصورا (نموذجا) للوضع الذي أبلغه عنه المتكلم. ولكن من الواضح أن هذا الوصف البسيط الذي يسير في اتجاه واحد للتواصل الخطابي هو تجريد بعيد عن التفاعل المعقد الذي يحدث بالفعل بين فهم المتكلم لفهم المستمع لفهم المتكلم (إلى غير ذلك) للتصورات وذلك في مقامات خطابية عادية. ولكن هذا الوصف البسيط ينبغي أن يمكننا من أن نرى قوة احتمال وجود عدم تكافؤ فطري بين ما يحتويه تصور المتكلم وتصور المستمع.

وفي أفضل الأحوال يحتمل أن يصل المستمع إلى تصور لا يشابه إلا جزئيا تصور المتكلم، بالإضافة إلى كونه مجرد انعكاس جزئي لما يسمى بالأوضاع «الحقيقية» الموجودة في العالم. ولو تبنينا وصفا أكثر قوة لهذا الموقف لقلنا إن «البشر يفهمون ما يقال لهم على ضوء معرفتهم ومعتقداتهم عن العالم» (شانك ١٩٧٩م ص ٤٠٠). عندما يستعمل متكلم عبارة ما - انطلاقا من تصوره - للإشارة إلى كائن معين فإنه، سيأخذ بعين الاعتبار - كما هو متوقع منه - تلك الخاصيات التي تميز تصور المستمع للخطاب وهو بصدد التطور، والتي يمكنه الاعتماد على قدرة المستمع على استعمالها للتعرف على المسمى المقصود وقد تم ذكر العديد من هذه الخاصيات في الفصول الأولى من هذا الكتاب. ومن الخاصيات المهمة نذكر افتراض وجود تجربة عامة مشابهة للعالم، والأعراف الاجتماعية الثقافية، والوعي بالسياق وبالأعراف التواصلية. ومن جانبه، فسيفترض المستمع عموما أن المتكلم يعمل بمقتضى هذه الفرضيات (إلا إذا أبدى ما يخالف ذلك)، وسيعتمد في تعرفه على المسمى المقصود على فهم للتعبير (أو الرمز) اللغوي يكون متماشيا مع تلك الخاصيات التي تمثل أساس العالم الذي أوجده تصوره للخطاب أثناء تطوره. ينبغي الاحتراز من استعمال مصطلح «التعرف» في هذه

الدرامية. فالاحتمال ضعيف جدا أن يكون تعرف المستمع على كائن معين في تصوره نسخة مطابقة تماما لما يوجد في تصور المتكلم. ففي الغالب يمكن أن يكون «تصور المستمع للكائن» مجرد صيغة مثل «الكائن (أ) الذي أشار إليه المتكلم باستعمال التعبير اللغوي (ب)»

ويمكن التدليل على هذا بمثال كنا سقناه سابقا ونسوقه هنا تحت رقم (٢٠):

[٢٠] سيعود عمي إلى البيت من كندا.

قد تحتوي «هوية» الشخص المشار إليه بعبارة «عمي» على عدد كبير من الخاصيات («اسمه جاك»، «أصلع»، «يدخن سجائر كبيرة» ... إلخ) في تصور المتكلم. أما من وجهة نظر المستمع فقد لا تزيد هوية هذا الشخص على كونه «الشخص المشار إليه على أنه عم المتكلم». وبطبيعة الحال يمكن لهذه «الهوية» أن تكتسي عددا من الخاصيات مثل «سيعود إلى البيت من كندا»، أثناء الحديث أو حتى بعض الخاصيات غير المتوقعة والنابعة قياسا من تصور المستمع لنمط الكائن الذي تعود عليه كلمة «عم» في أغلب الحالات.

هكذا وعلى وجه العموم، نرى أن المستمع يكوّن لديه تصورا للخطاب يحتوي على تصورات لكائنات تحدث عنها المتكلم باستعمال صيغ محيلة. ومن الواضح أن المستمع، لكي يتمكن من فعل هذا، فإن عليه أن يستعمل (وأن يعتقد أن المتكلم يستعمل كذلك) مفهوما معتادا لماهية أنماط التسميات المستعملة في أي ظرف للإحالة على الكائنات.

٦,٢,٢ التعبيرات المحيلة

كُتب الشيء الكثير في الفلسفة واللسانيات عن طبيعة ووضع التعبيرات التي يمكن أو لا يمكن استعمالها للإحالة. ونظرا لأن الجدل قائم حول مسائل الصدق والوجود والتفرد ويدرس جملا أحادية النظام تساق بعيدة عن أي سياق اتصالي، فلربما بدا هذا الجدل لمحلل الخطاب العملي أقرب إلى التفلسف الذي لا طائلة منه، فمحلل الخطاب أولا وقبل كل شيء يهتمّ إلى حدّ كبير بدراسة بيانات ناتجة عن

استعمالات حقيقية للتعبيرات اللغوية في إطار سياقات قابلة للتعريف ولأغراض خاصة، لا بالاستعمالات الممكنة لمثل هذه التعبيرات. ولقد قدمنا في سياق هذا الكتاب كمّا هائلا من المقتطفات البيانية يمكننا أن نأخذ منها بعض الأمثلة على التعبيرات المحيلة.

هناك بعض التعبيرات النكرة مثل: رجل، بنت جميلة، خطّ، التي تستعمل في الغالب لتقديم كيانات جديدة في الخطاب، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الخامس. ففي كل مثال من هذه الأمثلة يمكننا القول إن المتكلم يريد من السامع أن يتفطن إلى وجود كائن مفرد تحيل عليه العبارة المستعملة. ولا يبدو من الضروري كشرط لفهم هذا الصنف من الإحالة التي تستعمل في البداية أن يكون السامع قادرا على التعرف «بشكل دقيق فريد» ليس فيه لبس على الشخص المشار اليه. ولكن توجد بطبيعة الحال حالات يسهل التعرف عليها لا يحتمل أن تفهم فيها العبارة النكرة كعبارة محيلة:

[٢١] كان أبي بنّاء.

فنحن لا نريد أن يفهم عنا أننا نقول إن المتكلم يحيل هنا على شخصين مختلفين باستعمال عبارتي «أبي» و«بناء» وأنه يقرر أن هذين الشخصين هما في الواقع الشخص نفسه. بل إننا نقول بالأحرى إن خبر كان النكرة قد أسند إلى المسند إليه (اسم كان) بطريقة تشبه إلى حدّ كبير إسناد بقية الصفات (مثل: أشأم / أيمن) ولهذا يمكن الخلوص إلى أن إحدى الحالات التي لا تستعمل فيها التعبيرات النكرة كتعابير محيلة هي عندما تستعمل في الظاهر خبرا.

والحالة الثانية المعترف بها إجمالا والتي لا يمكن فيها أن نعدّ التعبيرات النكرة إحالية الوظيفة هي عندما تستعمل في سياقات لغوية «ضبابية إحاليا» حسب رأي كواين (١٩٦٠م). ويمكن الحصول على الضبابية الإحالية عندما تأتي العبارة النكرة بعد عدد من الأفعال مثل «يبحث عن» و«يريد» ومن الأمثلة الشائعة على ذلك قولك:

[٢٢] تبحث ماريون عن ممحاة.
[٢٣] تريد فرجينيا عملا جديدا.

قد يحدث أن يكون في ذهن المتكلم عند تفوهه بهذه الجمل في مناسبة خاصة مرجع «معين». أي أننا في تحليلنا نقرّ بوجود ممحاة معينة تبحث عنها مريم. ولكن يمكن في الحقيقة استعمال التعبير النكرة «ممحاة» لنعني بها «أي ممحاة» وهي في هذا المعنى غير المحدد لا تستعمل إحاليًا. (انظر لاينز ١٩٧٧م ص ١٨٧ وما بعدها حيث تجد دراسة أكثر شمولا للفرق بين المحدد وغير المحدد). قد يكون السبب في «الغموض» المزعوم في جمل مثل (٢٢) و(٢٣) هو كونهما سيقتا دون سياقات. ولهذا نقترح أن محلل الخطاب، في تحليله لخطاب طبيعي سيجد مؤشرات سياقية أو نصية واضحة تهديه إلى القول بأن هذه العبارات النكرة مستعملة إحاليا أم لا. وقد يحتاج إلى الاعتماد على مؤشرات صوتية أو حتى مؤشرات فوق لغوية عامة للفصل فيما إذا كانت التعبيرات النكرة الأخرى مثل «شخص» و«شيء» تستعمل في هذا السياق للإحالة على شخص ما أم لا. أي أن المتكلم في تلفظه بجمل مثل (٢٤) و(٢٥) بإمكانه أن يشير بتنغيم صوته على سبيل المثال إلى أنه يقصد الإحالة على شخص معين:

[٢٤] هنالك شخص (وأنا أعرفه جيدا) لن يعجبه هذا الاقتراح.
[٢٥] هنالك شخص (وأنا لا أعرف مَنْ) سرق دراجتي.

يعدّ استعمال أسماء الأعلام كعبارات محيلة عموما أمرا أقل مدعاة للجدل. ومن الأمثلة السابقة نذكر روزانا سيرمان، السيد بانت، إليزابيث، الشيخ المسنّ ماكارثر وأفلاطون. هنالك من يقترح أحيانا أن أسماء الأعلام تستعمل لتحديد الأشخاص على وجه التخصيص والتفرد. ولنا أن نضيف تحذيرا لطيفا وهو أن هذه الأسماء لا يمكن أن تستعمل بهذا الشكل إلا في سياقات محددة. فمن السهل أن نفهم لماذا يعتمد اسم مثل إليزابيث مستعمل للإحالة على شخص للتعرف على شخص محدد في سياق محدّد حتى يتيسّر إعطاؤه طابعا إحاليا. فلا شك أن العالم مليء بمن يحملن اسم إليزابيث. ومع ذلك فإن بعض أسماء الأعلام تفهم على أنها تحيل على مرجع واحد، بصرف النظر عن أي سياق، ولعل أفلاطون مثال جيد على ذلك. إلا أن هذا الطرح خاطىء ومغلّط. يمكننا القول بوجود نزعة شاملة إلى اعتبار أن الاسم

أفلاطون يحيل على الفيلسوف اليوناني، لكن بإمكان الاعتبارات السياقية أن تلغي هذه النزعة. فلو أخذنا المسألة بشيء من البساطة لأمكن بكل وضوح أن تتصور شخصا تطلق على ابنها أو كلبها أو حتى سفينتها اسم أفلاطون، أخذا بالاعتبار القيم الثقافية الاجتماعية المتعارف عليها للتسمية وبطريقة أكثر لطفا ودقة، واعتمادا على اقتراح لانبورج (١٩٧٨م) يمكننا أن نلاحظ أن التعبير اللغوي أفلاطون يستعمل للإحالة على كيان غير الفيلسوف اليوناني كما في (٢٦):

[٢٦] يوجد أفلاطون على الرف السفلي من المكتبة.

فمن الواضح أن الشيء المحال عليه ليس الرجل نفسه بل أحد مؤلفاته المنشورة. لاحظ أن القارىء يعتمد في تعرفه على المرجع على نوع المسند الذي يرتبط بالعبارة المحيلة. وسندرس هذه النقطة بشيء من التفصيل في المبحث ٣,٣,٦، وبما أنه بإمكاننا استعمال أسماء الأعلام بهذه الوظيفة الإحالية الموسعة، فلن يكون من الحكمة في شيء أن نواصل الزعم بأن لهذه الأسماء وظيفة تحديدية فريدة. ولنا كذلك أن نشير إلى إمكان استعمال أسماء الأعلام، كما هو الحال بالنسبة للتعبيرات النكرة المشار إليها سابقا بوظيفة وصفية، وبالتالي غير إحالية. ونستدل على مثل هذه الاستعمالات عموما بوجود ألف ولام التعريف أو تنوين النكرة كما في (٢٧):

[٢٧] إن سميث الصغير هو أفلاطون الدرجة الخامسة.

هنالك ملاحظة أخيرة عن استخدام أسماء العلم كتعبيرات إحالية، وهي تتعلق باختيار وظيفة اجتماعية من بين الوظائف التي يشغلها المرجع كما ذكرنا في الفصل الثاني. فالناس في العالم ليس لهم أسماء وحيدة لا تتغير ولا حتى ألقاب ثابتة، ولهذا فإن استعمال اسم العلم للإحالة على شخص ما إنما ينتقي الشخص وهو يلعب «دورا» خاصًا. فيمكن الإشارة إلى شخص ما بأنه الأستاذ الدكتور يونغ، السيد جون يونغ، جون... إلخ. في مناسبات عديدة من طرف متكلمين مختلفين. ولعل نجاح العملية الإحالية - في سياق - يعتمد أساسًا على حسن اختيار «الاسم» الأكثر تناسبا لتحديد شخص معين أمام سامع معين أو جمهور معين.

أما نمط العبارات المحيلة الأكثر تعرضًا للدراسة فهو الاسم المعرف. ونسوق من الأمثلة الواردة في بقية أجزاء الكتاب: القيمة، القس، المثلث الأحمر، الجسم الأبيض، البصل المحمر، العربة، الرجل الذي التقط الصور. هذه التعبيرات هي بلا شك خاصة بالخطاب في وظيفتها الإحالية ولها - كما أثبتنا ذلك في الفصل الخامس - توزيع مميز في بعض أنماط الخطاب. إن الاستعمالات النموذجية للأسماء المعرفة هي في الإحالة اللاحقة إلى شيء سبق ذكره في الخطاب أو في الإشارة إلى أشياء بارزة في السياق المادي. وهنالك استعمال مرتبط بهذا المعنى وهو يتعلق بالإحالة على أشياء يسميها برنس (١٩٨١م) «الأشياء القابلة للاستنتاج» (سيارة - السائق)، وهو مفهوم سندرسه بتفصيل أكبر في المبحث ٧,٨ لاحقا. (للمزيد من الدراسات الموسعة عن أوجه «التعريف» ننصح القارىء بالاطلاع على كرستوفرسن (١٩٣٩م) هوكنز (١٩٧٨م) والإسهامات التي يحتويها كتاب فان دير آورا ١٩٨٠م).

لنقتصر هنا على ذكر خاصية أو خاصيتين مهمتين للأسماء المعرفة، حيث إنه سبق لنا أن درسنا العديد من القضايا المرتبطة بالإحالة المعرفة في سياق حديثنا عن عمليات خطابية أكثر شمولا في مواضع أخرى من الكتاب (انظر المباحث ٢,٣؛ ٢,٥؛ ٧,٨). وقد أشار دونالن (١٩٦٦م) إلى نقطة لقيت حظًا وافرًا من الدراسة وهي أن بعض الأسماء المعرفة، حتى وإن كانت في موضع فاعل نحوي في الجمل التي ترد فيها يمكن أن تستعمل لغرض غير إحالي. فدونالن يميز بين موقف نحيل فيه على فرد بعينه باستعمال تعبير مثل «القاتل» لا للإحالة على شخص بعينه ولكن «بمعنى» ذلك الذي قام بعملية القتل بصرف النظر عن هويته». فالاستعمال الأول حسب دونالن «إحالي» في حين إن الاستعمال الثاني «نعتي» - هكذا عندما يستعمل المتكلم عبارة لغرض «نعتي» كما يسميه دونالن فإن نيته ليست بالضرورة إحالية. ولعلنا نجد مثالا جيدا للدلالة على وجهة نظر دونالن في الجملة الافتتاحية لمقال صحفي نسوقه هنا تحت رقم (٢٨) صدر أثناء مطاردة الشرطة لرجل إثر مصرع شرطي بالرصاص:

[٢٨] **إن السفاح الذي تأصل حب استعمال المسدسات في قلبه والمسؤول عن جريمتي قتل والذي تسلّل خلسة في إحدى الغابات ربما يكون الآن بصدد إجبار أحد المختطفين على إطعامه وإخفائه.**

(صحيفة الدايلي ميرور ٢٨/ ٦/ ١٩٨٢م)

وتستهدف حجة دونالن المتطلب المسبق الذي تتطلبه بعض الاتجاهات الفلسفية في تحليلها للمسميات المعرّفة، وهو ضرورة أن يستعمل المسمى لانتقاء شخص مفرد بعينه في العالم، وهذا شرط حتى تكون عملية الإحالة صحيحة. ولكن الوصف المطول في (٢٨) لا يفي بهذا الشرط لو أردنا الدقة في تعريفاتنا، لأن الشخص الذي له هذه الصفات ربما لا يمكن التعرف عليه إطلاقًا. فعلى سبيل المثال لا يعرف أحد ما إذا كان المسمى المعرف ينتقي شخصًا يدعى جيم ميلّر. فهذا الشخص - مهما كانت هويته - لا يمكن مناقشته إلا من خلال «الصفات» المعروفة عنه. ولكن هذا التمييز رغم أنه يمكننا إلى حد ما من فهم كيفية تكوين بعض المسميات المعرّفة، إلا أنه في الواقع لا يهم محلل الخطاب إلا قليلا في تحليله للإحالة في الخطاب. فمحلل الخطاب، شأنه في ذلك شأن السامع (والقارىء)، عليه طوال الوقت أن يقبل حقيقة كون المسميات المعرفة التي يستعملها متكلم (أو كاتب) تهدف إلى الإحالة على شخص في العالم. فعند سماعه لقصة تبدأ مثل (٢٩) ليس باستطاعة السامع عموما الخلوص إلى نتيجة تحدد ما إذا كانت عبارة «الرجل» تنتقي «بشكل صحيح» رجلا من العالم أم لا.

[٢٩] في الليلة البارحة قدم رجل وبنت إلى البيت لجمع الصدقات. وكان الرجل يتصرف تصرف المخمور...

ولكن الفرضية المسلم بها مع ذلك حتى نفهم الخطاب الذي أمامنا، هي أن المتكلم يريد من استعماله لعبارة «الرجل» الإحالة إلى شخص - وبالإضافة إلى ذلك - وكما أشار سيرل (١٩٦٩م) - فإنه يريد من السامع أن يتعرف على هذه النية. ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن كاتب (٢٨). ستعامل استعمالات دونالن «الوصفية» عموما في تحليل الخطاب على أنها عمليات إحالة مقصودة، وهي رغم أنها لا تنتقي رجلا من «العالم» إلا أنها تنتقي بل إنها تقرر حقيقة وجود شخص في تصور السامع للخطاب.

إن الفكرة القائلة بأن السامعين ينتقون المراجع التي قصدها المتكلمون بناء على فهم موسّع إلى حدّ كبير لتلك «الصفات» المضمنة في المسميات المعرفة، هذه الفكرة ضرورية دون شك لتفسير مجموعة مهمة من الأمثلة قدمها نانبورغ (١٩٧٨م، ١٩٧٩م). ويزعم نانبورغ الذي يتبنّى مفهوم كواين (١٩٦٠م، ١٩٦٩م) «للظهور

المؤجل» أننا ننجح غالبا في الإحالة باستعمال عبارة معرفة تحتوي على وصف له علاقة خاصة بالمرجع الخاص المقصود. ويفترض في هذا معرفة السامع بهذه العلاقة الخاصة. هكذا يمكن أن يخاطب نادل قد أنهى عمله اليومي في المطعم النادل الذي يعوّضه قائلاً (٣٠):

[٣٠] سندويتش شريحة اللحم موجود على الطاولة ٢٠.

من الواضح أن أي تحليل يعتمد على وجود علاقة مباشرة بين المعنى المباشر للمسميات المعرفة وخصائص المرجع لن ينجح إطلاقا في التوصل بنجاح باستعمال جمل من هذا النمط. بل إن نانبورغ يزودنا بمثال أكثر أهمية، حيث يقترح أن النادل نفسه يمكنه بالسهولة نفسها أن يشير إلى ساندويتش شريحة اللحم قائلا (٣١):

[٣١] موجود على الطاولة ٢٠.

سندرس هذا الأمر وغيره من استعمالات الصيغ الاسمية في المبحث ٣, ٦. يتمثل رأي نانبورغ في أن مثل هذه الاستعمالات للمسميات المعرّفة كعبارات محيلة لا تقتصر على أمثلة «شبه – مجازية» مثل (٣٠). بل هي عادية إلى حدّ كبير كما في الجمل التي نسوقها أدناه تحت رقمي (٣٢) و (٣٣).

[٣٢] (أ) نقرت الدجاجة الأرض.
(ب) كانت الدجاجة مع صلصة اللوبية لذيذة.
[٣٣] (أ) تزن الجريدة خمسة أرطال.
(ب) أنهت الجريدة عقد جون
فصلت الجريدة جون عن العمل

فنحن نفهم الدجاجة في (٣٢أ) عادة على أنها تحيل على ضرب من الطيور، وفي (٣٢ب) على نوع من اللحوم. أما الجريدة فهي في (٣٣أ) نسخة أو طبعة من الورق، وفي (٣٣ب) الشركة أو حتى الناشر. يستهدف طرح نانبورغ الهجوم على

معالجة الإحالة من منظور دلالي بحت واستبداله بطرح وظيفي أو مقاميّ، ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى مناصرتنا لمثل هذا الطرح. ولقد أشار نانبورغ إلى نقطة مهمة وهي أن فهمنا لتعبيرات مثل الدجاج والصحيفة عندما تستعمل للإحالة يعتمد على معرفتنا المقامية بالمجال الإحالي لمثل هذه العبارات، وهو مجال يكون في أي مناسبة استعمال شديد التحديد «والتأثر بطبيعة الإسناد وبسياق المحادثة» (١٩٧٨م ص ٣١). ولنا أن نقول هنا إن هذه العوامل تؤثر في تصوّر السامع (القارىء) للكيانات الواردة في الخطاب، ليس فقط عند استعمال النعوت المعرفة وأسماء العلم، بل بشكل أكثر أهمية عندما نتعامل مع الصيغ الاسمية في الخطاب. وقبل أن ننتقل إلى دراسة الوظيفة الإحالية للضمائر في الخطاب، دعنا ندرس مثالا ذا فعالية خاصة يبيّن كيف يتم استعمال مجموعة غير عادية من الصيغ الاسمية المعرفة للإحالة فيما سبق من الخطاب إلى عدد من الأشخاص:

[٣٤] سعى نسوة على رؤوسهن عمائم بخطى عرجاء نحو المبنى، وكن يذرن الغبار وهنّ يجررن أقداما مفلطحة قاسية لم تعد تصلح للبس الأحذية. وكانت أقمشة ملابسهن القطنية تحمل رسوما ا لأوراق الشجر والأسد وصور الجبابرة العسكريين. ثم دخلن وهن يتثاقلن في صفوف المقاعد المصنوعة من خشب الساج... [تصف الفقرات الست التي تلي هذا المقطع نساء أخريات عند الوصول إلى المبنى نفسه]
وعند بداية الاجتماع تنهدت السيدات وتحركن إلى الأعلى ثم وقفن على أقدامهن. فإذا بصوت خشخشة ينطلق من الحروف والأسد وأوراق الشجر والجبابرة العسكريين ليعود الهدوء بعد ذلك من جديد.
(بروس تشاتوين، نائب ملك عويضة بيكادور ١٩٨٢م ص ١٤ – ١٥)

إن «المجال الإحالي» لعبارات «الحروف» و«الأسد» و«الجبابرة العسكريين» واسع لو أخذناه بمعزل عن هذا النص. ولكن المسند «صدر عنها خشخشة ثم عدن إلى الهدوء من جديد» بالإضافة إلى السياق النصي يزوّدان القارىء بتصور فوريّ ممتع للخطاب عن هوية هؤلاء النسوة بالنسبة إلى «النساء» اللاتي سبق وصفهن والتحركات التي يقمن بها.

٦,٣ الضمائر في الخطاب

من وجهة نظر نحوية نعدّ الضمائر - كما أثبتنا ذلك في الفصل الخامس - أفضل الأمثلة على الأدوات التي يستعملها المتكلمون للإحالة على كيانات معطاة. وتلفظ الضمائر في الغالب بطبقة صوتية منخفضة في اللغة المنطوقة، وهي بذلك أصناف من العبارات المحيلة التي ليس لها بروز صوتيّ ولفظي ملحوظ. ونظرًا لفراغها من «محتوى» فقد أصبحت الضمائر الأدوات التي لا غنى لأي نظرية في الإحالة عن تفسيرها.

فلو أردنا تحرّي الحقيقة، على ماذا يحيل ضمير المفرد الغائب «هو» لو أخذ منعزلا؟ وبما أنه لا يوجد جواب معقول على هذا السؤال فقد أدى هذا بالعديد من اللغويين إلى القول بأن صيغة اسمية مثل «هو» ليست في الواقع أداة محيلة وأنها لاتستعمل إلا في الإحالة داخل النص، أي داخل نص يحتوي كذلك على صيغة اسمية كاملة، من هنا يتمّ وصف العلاقة بين الصيغة الاسمية الكاملة والضمير بكونها علاقة (سابقة – أداة محيلة على الوراء) كما سبق أن أشرنا في المبحث ١,١,٦. إن استعمال الضمير أحيانا في مواقف مثل (٣٥) يعدّ مثالا لأدوات الإشارة، ويستبعد في معظم الأحوال من الدراسة لكونه لا يرتبط بالمسمى الأكثر أهمية، وهو كيفية فهم الضمائر المحيلة إلى الوراء. (ويستثنى من هذا التوجه العام لاينز ١٩٧٩م الذي يرى، وهو محقّ في ذلك، أن استعمال الضمائر للإحالة إلى الخطاب السابق ينحدر من استعمال إشاريّ أكثر تأصلا في اللغة).

[٣٥] (كلب كبير يقترب من (أ) و (ب). (أ) تقول لـ (ب):) ارجو أن يكون هذا غير شرس.

هنالك أطروحات أخرى ترى أن استعمال «هذا» في (٣٥) هو مثال على الإحالة إلى الوراء المحكومة مقاميًا (قارن هانكامر وساك ١٩٧٧م، بارتي ١٩٧٨م، بول ١٩٧٨م). في هذا الاستعمال لكلمة الإحالة إلى الخطاب السابق لا يعدّ متطلب وجود تعبير سابق في النص أمرا لازما لا غنى عنه. وفي هذا المعنى تغطي «الإحالة إلى خطاب سابق» أية أداة يستعملها المتكلم للإحالة، ويتمكن السامع بموجبها من انتقاء المرجع

المقصود شريطة توافر شروط سياقية خارج النص وداخله. ولأسباب تاريخية غامضة يقتصر إطلاق اصطلاح «الإحالة إلى الخطاب السابق» كما هو مستعمل في الغالب، بشكل يكاد ينحصر في «الضمائر المحيلة». وسنتبع هذا العرض طوال هذا المبحث. ينبغي ملاحظة خاصية أخرى في التعامل مع الضمائر أو الأدوات المحيلة إلى الوراء وذلك لأنها تحدد طبيعة الدراسة التي ستتبع كلامنا هذا. إن كل الدراسات النظرية والتجريبية على الضمائر قد ركزت بشكل يكاد يكون مطلقا على عملية فهم لإنتاج الضمائر. وهذا يعكس - في أغلب الظن - الحقيقة العامة التي صاغها تايلر (١٩٧٨م ص ٢٢٧) والقائلة بأن «أغلب المؤلفات اللغوية مكتوبة من وجهة نظر السامع». ولهذا فإننا في تعاملنا مع الآراء والتحليلات التي تتناول الضمائر في الخطاب سنهتم أولا - وبالذات - بتحديد ما هو مطلوب للوصول إلى تفسير مناسب لعملية فهم الضمائر في الخطاب.

٦,٣,١ الضمائر والصيغ الاسمية السابقة

يبدو في البداية معقولا أن نقول إننا نتوصل إلى فهم ضمير المفرد الغائب المستتر في «يبدو» في المثال (٣٦) باتباع عملية بسيطة تتمثل في استبدال «شعري» بهذا الضمير كما في (٣٦ أ).

[٣٦] فرغت لتوّي من تسريح شعري على شكل تموّجات بحيث يبدو دائما للناظر وكأنه تعرض لزخّات الريح.

[٣٦] (أ) يبدو شعري للناظر كأنه معرض لزخات الريح طول الوقت.[4]

لقد سبق وصف هذا الطرح في المبحث ٢,١,٦، ويتم التعبير عنه عادة بالقول إن الضمير يحيل إلى الوراء، إلى الصيغة الاسمية التي تسبقه (قارن كاربنتر ودجاست

(٤) ومن أمثلة الإحالة إلى الوراء قوله تعالى: «هذا ما توعدون» التي تحيل على ما سبق ذكره من النعم.
﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ﴾ - سورة ق، الآيتان: ٣١-٣٢.

١٩٧٧م ص ٢٣٦) أو بالقول إن الضمير «يحل بدل» السابقة (قارن تايلر ١٩٧٨م ص٣٣٦). ويسمى هذا الطرح «بفرضية البديل الضمائري» لدى ماكاي وفالكرسن (١٩٧٩م). وقد أثبتنا من خلال إحدى التجارب أنه ليس من الصحيح القول إنّ طبيعة السابقة تؤثر بشكل مطلق في فهمنا للضمير (١٩٧٩م ص ٦٦١). وفي هذا المضمار حاولنا أن نثبت من خلال مناقشتنا للمثال (١٥) الذي اقترحه هاليداي وحسن عن التفاحات الست والضمير «ها» أن مفهوم الاستبدال خاطىء. وقلنا في مناقشتنا هذه إنه في صورة إلحاق مسند يفترض «تغييرا في الأوضاع» بصيغة اسمية، فإنه يترتب على ذلك ضرورة فهم الضمائر اللاحقة من زاوية ذلك المسند. ويجد هذا الرأي سندا ودعما في الدراسات التجريبية التي قام بها جارفي وزملاؤه (١٩٧٥م) وكارامازا وزملاؤه (١٩٧٧م) بالاعتماد على ما يسمونه «بالأفعال التي تحتوي على سببية ضمنية»

ولعلّنا نقترح إذن أننا لو حللنا استعمال الضمير المستتر في المقطع (٣٦) بطريقة أفضل لأخذنا بعين الاعتبار ليس فقط الصيغة الاسمية السابقة، بل كذلك المسند المرفق كما هو الحال في (٣٦ ب). (طريقتنا طوال هذه الدراسة هي أننا لا نشير إلا إلى المسندات البارزة اللازمة لعملية الفهم. ولكن توجد بطبيعة الحال مسندات أخرى عديدة يمكن ذكرها كلما تم تصوير ضمير بهذه الطريقة).

[٣٦] (ب) إن شعري الذي فرغت لتوّي من تسريحه متموّجا يبدو للناظر دائما وكأنه تعرض لزخات الريح.

لاحظ أن طبيعة الكيان الذي تنطبق عليه صيغة «يبدو للناظر وكأنه تعرض لزخات الريح» تختلف بين (٣٦ ب) و(٣٦ أ).

وتأتي ملاحظة تشاستين القائلة بأننا نجد في بعض أنماط الخطاب أن «المحتوى الوصفي للمفردات التي ترتبط فيما بينها بعلاقة إحالة إلى الوراء يتراكم بمرور الزمن» (١٩٧٥م ص ٢٣٢) دعمًا لهذا الطرح. (انظر كذلك التصوير الكامل للمفردات المحيلة إلى الوراء في الخطاب في وابر ١٩٧٨م).

٦,٣,٢ الضمائر والمسندات السابقة لها

إن التصور المقترح في (٣٦ ب) عن الضمير في (٣٦) ربما بدا وكأنه يعقّد المعلومات التي يحملها الضمير تعقيدا لا فائدة منه. ومع ذلك فهنالك من الأدلة ما يثبت أن استعمال المتكلمين للضمائر يتأثر فعلا بالمسندات الملحقة بالصيغ الاسمية السابقة، ونقدم المقطعين (٣٧) و(٣٨) مثالين على ذلك:

[٣٧] هناك سيدتان تلعبان الورق وكان لكلٍّ واحدة منهما باروكة و[كانتا] تبدوان طبيعيتين جدًا.

[٣٨] حتى الصانع الحديث العهد بصنعته يمكنه أن يكسب ما يفوق عشرين جنيها في الأسبوع و[هم] لا يدفعون ضرائب تذكر من كسبهم هذا.

إن الفهم الصحيح لما يحيل عليه مؤشر المثنى في «تبدوان» في (٣٧) يعتمد على فهم السامع لوجود باروكتين وليس باروكة واحدة، كما قد توهم بذلك الصيغة الاسمية السابقة (باروكة) إذا أخذناها منفردة. وفي (٣٨) نجد مشكلا مشابها حيث إن السابقة صيغة اسمية مفردة، في حين إن الضمير الذي يحيل عليها في صيغة الجمع. إن كلمة «صانع حديث العهد بصنعته» إذا أخذت منفردة ربما تؤوّل على أنها تقحم في صلب الخطاب شخصا معينا. ولكن عندما نأخذها في سياق المسند «يمكنه أن يكسب ما يفوق العشرين جنيها في الأسبوع» فلا بدّ أن نفهمها على أنها تحيل لا على شخص معين، بل على أي شخص من مجموعة من الأفراد يمكن أن تنطبق عليهم كلمة «صانع حديث العهد بصنعته». لهذا فإن اختيار الضمير فيما يلحق (أي «هو» أو «هم») يعكس بكل بساطة وجهة نظر المتكلم في (٣٨) الحل الثاني. إن المثالين (٣٧) و(٣٨) يحتويان على عدم ملاءمة نحوية في مجال العدد بين الصيغة الاسمية السابقة والضمير اللاحق، أما المثالان (٣٩) و(٤٠) المأخوذان من حديثين يصفان حوادث طرقات، فيبدو أنهما يحتويان على حالة عدم ملاءمة نحوية في مجال الجنس اللغوي.

[٣٩] كانت السيارة تسير إلى نهاية الطريق حتى وصل إلى مفترق طرقات.

[٤٠] لم يكن للسيارة الثانية الوقت الكافي لتجنب الرجل الذي مال فجأة بعيدا عن السيارة التي كانت بصدد التوقف فاصطدم بها.

من الواضح في المثال (٣٩) أن السامع مطالب بأن يستنتج أن أي سيارة تتحرك على الطريق لابدّ أن يقودها سائق، وهذا هو السائق الذي يحيل عليه الضمير المستتر في «وصل». أما المثال (٤٠) فهو يقدم لنا مشكلا أكثر تعقيدا. فعلى الرغم من وجود سابقتين بشرية وغير بشرية للضميرين «هو» و«هي» (المستترين)، فإن التأويل الأكثر تلقائية لما حدث يتطلب منّا إجراء ملاءمة بين الضمير البشري نحويا مع السابقة «غير البشرية» والضمير «غير المكتوب» مع السابقة «البشرية». ويبدو أن هذه الملاءمة قد تمت على أساس الأدوار المنوطة بالمرجعين، بالنظر إلى وجود مسند سابق ومسند لاحق (أي زيد ليس له الوقت الكافي لتجنب عمرو، وبالتالي ضرب زيد عمروا). وعلى كل حال مهما كان التفسير الصحيح لعملية الملاءمة الطبيعية في (٤٠) فمن الأكيد أنها لا تبدو قائمة على أساس علاقة استبدال صيغة اسمية سابقة بضمير لاحق يحيل إلى الوراء.

٦,٣,٣ الضمائر والمسندات «الجديدة»

عند تناولنا للأساس الذي يمكّننا من تمييز المراجع عن الضمائر، كان تركيزنا إلى الآن منصبًا على أمثلة يوجد فيها شيء ما من السابقة الاسمية في سالف الخطاب قبل استعمال الضمير. ولكن خطأ نظرية الاستبدال يصبح أكثر وضوحا في تلك الحالات التي نجد فيها ضميرا في خطاب دون أن يحتوي ذلك الخطاب على أية سابقة اسمية له على الإطلاق. ربما كان من المفيد التعامل مع مثل هذه الأمثلة بالرجوع إلى بنيتها «المعطاة / الجديدة» كما رأينا ذلك في الفصل الخامس. أي أن المتكلم بإمكانه صياغة رسالته بحيث يلحق معلومات «جديدة» بعنصر «معطى» (أي بضمير) بنيّة تزويد السامع بطريقة فهم «معطى / جديد». ولكن السامع قد يجد نفسه في الواقع مضطرا لقلب تلك الطريقة واستعمال المعلومات «الجديدة» لتقرير ماهية المرجع «المعطى» في أغلب الظن.

ويعطينا استعمال الضمير المستتر «هي» في «فقدت» قرابة نهاية المقطع (٤١) مثالا عن هذه العملية:

[٤١] **(في سياق الحديث عن الحرب العالمية الأولى): كنت أخرج إلى الأسواق مع رجل – لست أدري إن كان ما يزال على قيد الحياة أم لا – ولكن – كان هناك تسعة – عشرة – أحد عشر نفرًا في العائلة – بنتان – وتسعة أولاد – وقد فقدت ثمانية من أبنائها الواحد تلو الآخر.**(٦)

لا توجد في المثال (٤١) عبارة لغوية يمكن أن نعدها سابقة مباشرة للضمير المستتر «هي» في «فقدت». بطبيعة الحال يمكننا أن نشير أن المتكلم، بما أنه يتكلم عن عائلة وحيث يوجد مرجع مؤنث «هي» فقدت ثمانية من أبنائها، فبإمكاننا أن نستنتج أن المتكلم يحيل على «الأم». لاحظ أنه إذا كان السامع يتبع هذه الطريقة، فإنه بذلك يكون قد استعمل معلومات «جديدة» لتحديد مرجع «مُعطى».

يترتب على المثال (٤١) مشكل كبير يواجه أي تحليل للضمائر يرى أنها تعطينا معلومات «معطاة»، وهي في ذلك تعتمد على الإحالة على معلومات موجودة في الخطاب السابق. ومن المؤسف حقا أن أكثر الآراء أهمية وتأثيرا عن كيفية تحليلنا للضمائر في الخطاب، وهو مرجع «المعطى – الجديد» لكلارك وكلارك (١٩٧٧م)، يعتمد على تبعية من هذا النمط. في الأمثلة اللاحقة المأخوذة من خطاب المحادثة ينبغي أن تؤخذ الأمثلة عن الضمائر المستعملة لتحقيق معلومات «معطاة» على أنها خطاب يوجه المستمع إلى المكان الذي ينبغي أن تكون المعلومات «الجديدة» مخزنة فيه (هافيلاند وكلارك ١٩٧٤م ص ٥٢٠).

[٤٢] **إن أحد أهمّ أعمالنا في علم النبات هو الكتابة عن نباتات تركيا + ولكنهم...**

[٤٣] **لي ابنة عمّ شديدة الصمم + فهي لا تستطيع سماع جاسي + لأن جاسي تتكلم بصوت عالٍ جدًا + فهي كما ترى...**

[٤٤] **أوه كنت في الحافلة + أما هو...**

(٦) ومن الأمثلة على غموض إحالة الضمائر قوله تعالى (في سورة طه: ٨٨) «فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي»، حيث نحتاج إلى معرفة الشخص الذي يحيل عليه فعل «نسي».

ينبغي أن يكون واضحا في اعتقادنا أنه لا توجد في أي من هذه المقاطع (٤٢ – ٤٤) حالة واحدة يمكن «للمستمعين أن يكونوا فيها على ثقة تامة أن المعلومات المعطاة تزودهم بمعلومات يسهل عليهم التعرف عليها مباشرة ودون أي لبس». (كلارك وكلارك ١٩٧٧م ص ٩٢). فالأحرى يوجد في كل حالة أكثر من مرجع ممكن للضمير. إن تأويل مرجعية هذه الضمائر يعتمد على نوعية الإسناد المسند إليه من خلالها ولا يعتمد فقط على المعلومات المتوافرة في الخطاب السابق. بإمكان القارئ بطبيعة الحال التنبؤ بما ستؤول إليه إحالة هذه الضمائر، انطلاقا من المقاطع (٤٢ – ٤٤) بمفردها. ولكن هذه التنبؤات يمكننا تأكيدها (أو تكذيبها) بالنظر إلى المسندات اللاحقة كما في (٤٢ أ – ٤٤ أ).

[٤٢] إن احد أهم أعمالنا في علم النبات هو الكتابة عن نباتات تركيا + ولكنهم يفتقرون إلى العلماء للقيام بذلك.

يبدو في هذا المثال أن المتكلم قد افترض أنه مادام يتكلم عن بلد ما، فبإمكانه الإحالة على مجموعة من الناس في ذلك البلد دون أن يكون لزاما عليه الافصاح بالجزم أنه «يوجد في تركيا أناس». إذا كان هذا استنتاجا مطلوبا من السامع، فإنه لا يمكن أن يحصل إلا بعد سماع السامع للمسند «الجديد» الملحق بالضمير «هم». ويمكننا كذلك الإشارة أنه إن كان «شعب تركيا» جزءا من المجال الإحالي الموسّع لعبارة مثل «تركيا»، فإن زعما آخر من مزاعم التحليل اللغوي النفسي عن الضمائر أصبح ضعيفًا. فإن سانفرد وجارود (١٩٨١م) يزعمان أن «الضمائر لا يمكن أبدا استعمالها للتعرف على كيانات ضمنية في المجال الإحالي الموسّع». والواقع الجليّ أن ذلك ممكن كما في المقطع (٤٢ أ) وكذلك في المقطع (٤٤ أ).

نجد في المقطع (٤٣ أ) مشكل كيفية حل العقدة بشكل يشبه المشكل المطروح في المثال (٤٠) الذي درسناه سابقا، حيث إن الأمر لا يتعلق بغياب سابقة بل بوجود خيار بين سوابق ممكنة:

[٤٣] (أ) لي ابنة عمّ شديدة الصمم + فهي لا تستطيع سماع جاسي + لأن جاسي تتكلم بصوت عال جدًا + فهي كما ترى تصيح في وجهها.

فعلى ضوء المسند «الجديد» في (٤٣ أ) يمكن للسامع اختيار المراجع الأكثر احتمالاً لـ «هي» والمرجّح أن يتمّ ذلك على أساس «الأدوار» التي يؤديها كلا الطرفين المشاركين في هذه الحالة.

[٤٤] (أ) أوه كنت في الحافلة + أما هو فلم ينزل في الموقف الصحيح.

فكما أن وجود سيارة تسببت في حادث اصطدام يفترض في غالب الظنّ وجود سائق، كما في (٣٩)، فكذلك يفترض في الحافلة أن تحمل ركّابًا. وربما كان صحيحًا، بطبيعة الحال، أن عدد مثل هذه «الحالات» التي يمكن فيها استعمال الضمائر للإحالة على كيانات ضمنية محدود. ولكن المفروض عندئذ أن نقوم بتحديد خصائص هذه المجموعة المحدودة بدلا من تصوير عملية فهم الضمائر، وكأن هذه المجموعة غير موجودة (كما في طرح كلارك وكلارك، ١٩٧٧م) أو أن نزعم أن مثل هذه العملية التأويلية لا تحدث أبدًا (كما في طرح سانفرد وجارود، ١٩٨١م).

لقد قدّمنا الأمثلة (٤٢ – ٤٤) للتدليل على حاجتنا إلى إدخال مسندات «جديدة» في اعتبارنا عند تبنّينا تأويلاً معينًا لمدلول بعض العناصر «المعطاة» مثل الضمائر في الخطاب. ويمكن لهذه الأمثلة أيضًا أن تكون حجة على صحّة نقطة كنا أشرنا إليها في المبحث ١، ٢، ٦، ومفادها أن تصورات المتكلمين والسامعين لخطاب معين ليس من المحتمل أن تكون متطابقة تمامًا. إن كان على السامع أن يبني، انطلاقا ممّا يقوله المتكلم، تأويلا للمرجع الذي يغلب الظن على كونه المرجع المقصود، فإن عملية تأويل الضمائر يمكن أن يترتب عنها مشكلات خاصة. فالمتكلم (د) في المقطع التحادثي التالي، يشير -من خلال سؤاله- إلى المشكل الذي هو بصدد مواجهته في محاولته تحديد أحد المراجع التي قصدها المتكلم (جـ).

[٤٥] (كلا المتكلمين بصدد النظر إلى صورة في كتاب)
(جـ): في الواقع هذا كتاب مهم + لقد كان جرّاحًا ومصوّرًا في الوقت نفسه+
(د): (هل قلت) جرّاحًا ومصوّرًا؟
(جـ): أعني الرجل الذي صوّر هذه الصور
(د): آه فهمت فهمت

وبطبيعة الحال فخلافًا للمتكلم (د) في المقطع (٤٥) ربما لا يكون دومًا بوسعنا من جهة أخرى يصعب أن نتصور أي نمط من الحجج (غير تدخل أحد أطراف الإشكال لبيان مقصده) يمكننا الاعتماد عليه لبيان خصائص مثل حالات الفشل هذه في مناسبات أخرى كما في الأمثلة (٣٧ - ٤٤).

٦,٣,٤ عملية تأويل إحالة الضمائر في الخطاب

على ماذا يعتمد السامع في تأويله للمرجع الذي يحيل عليه ضمير في الخطاب؟ لقد اقترحنا في هذا المبحث القول بأنه ربما كان عليه استعمال معرفته بـ(بعض) العناصر التالية:

صيغة اسمية سابقة
و / أو صيغة إسنادية سابقة
و / أو مسند ضمنيّ سابق
و / أو «الوظائف» التي تقوم بها الصيغ الاسمية السابقة.
و / أو المسندات «الجديدة» الملحقة بالضمير

وقد أشرنا كذلك في المبحث ١,٢,٥ إلى أن الضمائر في بعض أنماط الخطاب تستعمل نموذجيًا للإحالة على كيانات قائمة الآن. ربما كان باستطاعة السامعين الاعتماد على هذا النمط من الاستعمال المتداول كأساس لفهمهم للإحالة. بهذه الطريقة يمكن للسامع، في المقطع (٤٦) تأويل الضمير «هو» على أنه إحالة على «الكيان القائم حاليًا» (المربع) وليس على «الكيان الذي تمّ استبداله» (الصفحة) رغم أن الخصائص النحوية (العدد) لا تسعفنا بأي مؤشر يعيننا على التمييز.

[٤٦] **يوجد في منتصف الصفحة + مربع + كبير + ويوجد قرب أسفله + رقم خمسة + بالأحمر.**

ومن جهة أخرى ربما أمكن وجود نزعة شاملة في أنماط أخرى من الخطاب لحصر استعمال الضمائر للإحالة على «جوهر الموضوع» في الخطاب، كما سبق لنا الإشارة إليه في المبحث ٤,٣,٢. ففي المقطع (٤٧) يمكن للسامع تأويل كل استعمال

ضمائر المؤنث كإحالات على البطلة الرئيسة (المرأة) لا على البطلة الثانوية (السيدة العجوز).

[٤٧] **عندما وصلت المرأة إلى الصندوق + كانت امرأة عجوز تقتفي أثرها و + دفعت معلوم كل المشتريات ماعدا + القارورة في حقيبتها + فيما أظنّ + خارج المتجر المركزي + ألقت السيدة العجوز القبض عليها + واستخرجت الشنطة - والقارورة و + أظن أنها لا بدّ أن تكون قد اتهمت بالسرقة +**

تدل هاتان الخطّتان الأخيرتان المتمثلتان في الإحالة وكيفية الحل أن الاتجاه الصحيح للبحوث المستقبلية في هذا المجال ينبغي ألاّ ينحصر في المزيد من الدراسات التي تفحص كيفية تأويل الناس للضمائر في أزواج من الجمل خارج أي سياق، بل الأحرى أن ينبني البحث على أنماط عديدة من الخطاب الطبيعي (المنتج في ظروف تلقائية). ونرجو أن يسهم عرضنا هذا لبعض التعقيدات المترتبة على عملية تأويل إحالة الضمائر في تنشيط مثل هذه البحوث وإقناع القارئ بعدم جدوى القبول بأي طرح ساذج ينبني على مبدإ «الاستبدال» في فهمه لوظيفة الضمائر في الخطاب.

التماسك المعنوي في فهمنا للخطاب

٧,١ التماسك المعنوي في الخطاب

من أكثر المفاهيم الخاطئة انتشارا في تحليل اللغة القول إننا نفهم معنى رسالة لغوية بالاعتماد فقط على الكلمات والجمل المستعملة لإبلاغ تلك الرسالة. نحن نعتمد دون شكّ على البنية النظمية وعلى المفردات المستعملة في رسالة لغوية للتوصل إلى فهم معين لها، ولكن من الخطأ أن نظن أننا نقتصر على الاعتماد على هذا الاستعمال الظاهري للغة لكي نفهم الرسالة. فبإمكاننا -على سبيل المثال- معرفة إنتاج كاتب لجملة مكتملة الصحة نحويا نعتمد عليها لاستنتاج معنى مباشر لها، ولكننا لن نزعم أننا فهمنا الجملة وذلك بكل بساطة لأننا نحتاج إلى المزيد من المعلومات. ولعل المقطع (١) وهو الجملة الأولى لإحدى الروايات يزودنا بمثال يوضح هذه النقطة.

[١] **في حدود خمس دقائق، أو عشر، لا أكثر، كان ثلاثة من الأخرين قد اتصلوا بها هاتفيا للسؤال عما إذا كانت قد سمعت أن شيئا ما قد حدث هناك.**
(طوم وولف، البضاعة المناسبة، منشورات بانتم ١٩٨١م)

فالروائي يسعى هنا بطبيعة الحال إلى استدراج القارىء للمزيد من القراءة حتى يعرف ما وصفته الجملة الأولى جزئيا رغم كونها في معناها المباشر مكتملة المعنى (مفيدة).

وفي المقابل (في أقصى النقيض)، يمكننا الإشارة إلى رسائل لغوية غير واردة في جمل، وبالتالي لا يمكن دراستها من وجهة الصحة النحوية الإعرابية، ومع ذلك

نفهمها بسهولة. إن حياتنا اليومية مليئة بمثل هذه «المقاطع الصغيرة» كما في المقطع (٢) المأخوذ من معلقة جامعة أدنبره وفي المقطعين (٣) و (٤) المأخوذين من إعلانات دعائية في الجرائد.

[٢] **محاضرة اللسانيات الإبستيمية: الخميس ٣ يونيو الثانية ظهرا. ستيف هارلو (قسم اللسانيات: جامعة يورك).**
«نحو لغة بلاد الغال والنحو المعمم لبنية الجملة».

ومع أن المعلومات الآتية غير مصرح بها علنا في هذا المقطع الخطابي، فنحن نعلم أن ستيف هارلو (وليس رجلا آخر يدعى محاضرة اللسانيات الإبستيمية) سيلقي محاضرة (بدلا من أن يكتب أو يغني أو يعرض شريطا) تم إبراز عنوانها بعلامات تنصيص، (فجامعة يورك هي الجامعة القادم منها) في الثالث من يونيو الأقرب من تاريخ الإعلان المعلق وهكذا . . .

[٣] **منجِّد يعمل لحسابه الخاص.**
خدمات حسابات أولية مجانية ٣٣٢٥٨٦٢

[٤] **فتش عن الكرة. اربح منزلاً. ص ٤**

فعند تعاملنا مع (٣) من المتوقع منا أن نفهم أن المصدر وراء الإعلان هو المنجِّد، وأنه هو الذي سيقدم خدمات حسابات أولية مجانية في تكلفة خدمة التنجيد المتوقعة، والتي ربما يكون القارىء في حاجة إليها. ليس المثال (٣) تشكيلا عشوائيا لكلمات وأرقام. ورغم كون المثال (٤) لا يصرح بذلك، فينبغي أن نتوقع أن نجد في الصفحة ٤ من الجريدة مسابقة تنص على التعليمات الواردة في الجملة الأولى مقابل جائزة فصلتها الجملة الثانية. ورغم استعمال صيغة الأمر فإن الفهم المطلوب للجملتين الأوليين يستلزم أن تكون الجملة الأولى شرطا للجملة الثانية. يمكننا القول إننا نملك بالإضافة إلى معرفتنا ببنية الجملة معرفة بقوالب ثابتة أخرى تحمل المعلومات. ونحن نعتمد كذلك على مبدإ ما يقول بأن تجاور مقاطع لغوية يؤدي بنا إلى فهمها على أنها مترابطة حتى في غياب أدوات رابطة بينها. لقد سبق أن ذكرنا هذه النقطة الأخيرة في سياق

حديثنا عن افتراض التماسك المعنوي الذي يعتمد عليه الناس في فهمهم للرسائل اللغوية. ومع ذلك فإن افتراض التماسك المعنوي لن يؤدي إلا إلى فهم واحد تُعَدُّ عناصر الرسالة فيه مترابطة سواء وجدت الأدوات اللغوية الرابطة بين هذه العناصر أم لم توجد. فإذا انطلقنا من فرضية التماسك المعنوي فيمكن تأويل المثال (٣) على أنه إعلان دعائي قام به رجل يبحث عن منجّد. ولا يوجد شيء في صريح النص يمنع هذا التأويل. ولكن توجد لدى القارىء عدة عوامل تمنعه من الوصول إلى هذا التأويل. وأهم هذه العوامل هو المجهود الذي يقوم به القارىء (أو السامع) للوصول إلى المعنى الذي أراده الكاتب (أو المتكلم) من وراء تلفظه بالرسالة اللغوية. ولقد سبق لنا استعمال هذا المفهوم في سياق دراستنا للإحالة في الخطاب في الفصل السادس، ويمكن الحصول على حجج أكثر تجريدا في غرايس(١٩٥٧م) وشيفر (١٩٧٢م).

على ماذا يعتمد القارىء في عملية فهمه للمعنى الذي يريده الكاتب؟ بالإضافة إلى فرضية التماسك المعنوي ومبدإ القياس والفهم المحلّي والخصائص العامة للسياق، والتي سبقت دراستها في الفصل الثاني، توجد استعمالات قارة للبنية الخطابية تمت دراستها في الفصلين الثالث والرابع، إضافة إلى الخصائص العادية لتنظيم بنية المعلومات والتي تمّ تفصيلها في الفصل الخامس. هذه جوانب من الخطاب يمكن للقارىء استعمالها في عملية فهمه لمقطع خطابي معيّن. ومع ذلك فالقارىء يملك كذلك معرفة تفوق معرفته بالخطاب. فهو على سبيل المثال يعلم أن ستيف هارلو أكثر احتمالا أن يكون اسما لشخص من محاضرة عن اللسانيات الإبستيمية. وهذا شكل من أشكال المعرفة الاجتماعية الثقافية التقليدية وهو كذلك يعلم أن الهدف من الرسالة اللغوية - أي وظيفتها الاتصالية - هو إعلان وليس تحذيرا (أو وعدا، إلى غير ذلك)، وهذا يعود جزئيا إلى موقع هذه الرسالة اللغوية، وجزئيا إلى صيغتها، وجزئيا إلى تلك المعرفة الاجتماعية الثقافية نفسها التي تمكنه من معرفة ما يُعدّ أسماء بشر وما لا يُعدُّ أسماء بشر. وربما كانت له - على سبيل المثال - معرفة خاصة جدا بحيثيات الموضوع، نظرا لكونه عالم لغويات، وقد سبق له مقابلة ستيف هارلو ويعرف اهتمامه بنحو بنية الجملة، إلى غير ذلك.

انطلاقا من هذه المعلومات، يمكن للقارىء أن يستدل أن ستيف هارلو سوف يستعمل اللغة العالية للتدليل الحسي على بعض جوانب نحو البنية الشبجملية[1] مثلما فعل جزدار باللغة الإنجليزية (علما بأن معرفتنا بجزدار هي عنصر آخر نابع من معرفتنا المحلية الخاصة). وبعملية الاستدلال هذه يمكن القول إن القارىء قد تجاوز الرسالة التي أرادها منتج الخطاب. ولكن- كما سنثبت ذلك فيما يلي - يبقى هنالك عدد كبير من الاستنتاجات الممكنة التي يقوم بها القارىء في عملية فهمه للخطاب وليس دائما من السهل تحديد تلك الاستنتاجات التي قصدها منتج النص، وتمييزها عن تلك التي لم يقصدها. لقد عزلنا ثلاثة جوانب من عملية فهم المعنى المقصود من طرف المتكلم/ الكاتب عند إنتاجه للخطاب ألا وهي تحليل الوظيفة الاتصالية (كيفية التعامل مع الرسالة) وتوظيف المعلومات الاجتماعية الثقافية (حقائق عن العالم) وتحديد الاستنتاجات التي ينبغي القيام بها. سندرس هذه الجوانب بتفصيل أكبر في سياق هذا الفصل مركزين على مناهج تم اقتراحها لتفسير هذه الجوانب من عملية فهم الخطاب.

٧,٢ تحليل الوظيفة الاتصالية

كما أشرنا في الفصل الأول تعارف علماء الأنثرو بولوجيا والأجناس العرقية لزمن طويل في دراستهم للمجموعات اللغوية على افتراض إرسال المتكلمين لمعان اجتماعية وموضوعية في الوقت نفسه عند استعمالهم لصيغ قولية معينة في سياقات معينة. (للاطلاع على دراسة مبكرة نسبيا من هذا النمط اقرأ مالينوفسكي ١٩٣٥م). وقد ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة بجانب «التفاعل الاجتماعي» في استعمال اللغة. كما قام بهذه الدراسات علماء لغة اجتماعيون، حاولوا وصف الكيفية التي يمكن بها «اعتبار» قول ما عملا اجتماعيا مثل: السلام أو الوعد أو الإعلان لا التحذير (في المقطع ٢). سندرس بعض الأمثلة المختصرة والمستعملة لإثبات الرأي

(١) نحو توليدي يتضمن قواعد بناء ينتج عنها سلسلة من العناصر على ترتيب معيّن تدعى السلسلة النهائية، وهو يمكّن كذلك من تحليل مقوّمات تلك السلسلة.

القائل بضرورة اعتبار الأقوال «إفعالا» من أصناف شتى، وسنستعرض الأطر النظرية والوصفية التي تم تطويرها لدعم هذا الطرح.

يقول لابوف (١٩٧٠م) إن هناك «قواعد لعملية الفهم تربط ما يقال بما يفعل» ونحن نعتمد على مثل هذه القواعد الاجتماعية لا اللغوية، لفهم بعض المقاطع المتابعة في المحادثة، والحكم عليها بأنها متماسكة معنويا، وعلى غيرها بأنها غير متماسكة معنويا. ويستشهد لابوف بالمثال التالي حيث يتحادث طبيب مع مريض مصاب بانفصام الشخصية المأخوذ من لافال (١٩٦٥م ص ٨٥):

[٥] (أ) ما اسمك؟
(ب) حسنا، دعنا نقل ربما خطر ببالك أنك حصلت على شيء من قبل ولكنك لا تملكه الآن.
(جـ) سأسميك دين.

يشير لابوف إلى أن تعرفنا على وجود أو عدم وجود تماسك معنوي في المقاطع المتابعة في المحادثة لا يعتمد على وجود علاقة بين الأقوال بل «بين الأفعال التي تنجز بالتلفظ بتلك الأقوال». وقد حاول باحثون آخرون تطوير هذه النقطة مستعملين بكثرة في دراساتهم أمثلة من نمط (٦) و (٧):

[٦] (أ) كم الساعة؟
(ب) حسنا. لقد مرّ ساعي البريد.

يستعمل هذا المثال المأخوذ من براون وليفنسن (١٩٧٨م ص ٦٣) للتدليل على أن افتراضنا لصحة مدارك (ب) العقلية يقودنا إلى التسليم بأنه يقدم هنا جوابا على السؤال المطروح وهكذا حتى نصل إلى النتيجة، وهي أن الساعة هي الحادية عشرة صباحا على سبيل المثال. أما المثال التالي فهو مقتبس من ويدوسن (١٩٧٩م ص ٩٦) ونرى فيه مقطعا خطابيا متماسكا معنويا، رغم غياب أي روابط لغوية بين الجمل المستعملة:

[٧] (أ) **هل يمكنك الذهاب إلى أدنبره غدا؟**
(ب) **لقد أضرب قائدو طائرات الخطوط الداخلية البريطانية.**

يزعم ويدوسن أن ردّ (ب) ينبغي أن نعدّه جوابا بالنفي على السؤال، لأن الإضراب من شأنه أن يمنع المتكلم من الطيران إلى أدنبره. لا شكّ أن هذا أحد تأويلات مقصد المتكلم، ولكن يمكننا كذلك اقتراح تأويلات أخرى، فقد يكون المتكلم يقصد على سبيل المثال ردًا بعدم معرفته للجواب لأنه ليس متأكدا إلى الآن إن كان سيحاول استعمال وسيلة نقل بديلة. ولكن مهما كان المعنى المقصود، فليس لدينا شك أن قول (ب) يعدّ ردًا جوابيا وليس مجرد تصريح مجاني عن سير الأمور في العالم.

لعلنا نزعم أن استعمال بعض الأدوات اللغوية، مثل أداة الربط «لأن» في المقطعين التاليين، لا يجد تفسيرا إلا باتباع طريقة تحليل الأقوال كأفعال.

[٨] (أ) **لكن كانت المواقف موجودة آنذاك.**
(ب) **أمممم – أي نعم... لقد كان لدي هاتف منذ ١٩٣٨م (أمممم) على فكرة أظن أنها كانت موجودة قبل ذلك بكثير.**
(أ) **لأن رجلا كان...**
[٩] **كم الساعة، لأنني مضطر للخروج الساعة الثامنة؟**

المثال (٨) مأخوذ من محادثة مسجلة سبق لنا تقديمها بصورة أكمل في المثال (١٢) في الفصل الثالث. أما المثال (٩) فهو مقتبس من ليفنسن (١٩٨٠م ص ٨). وقد أورد ليفنسن المثال الثاني كدليل على أن أداة ربط مثل «لأن» لا تستعمل فقط للربط بين عبارتين مكوّنتين لجملة معقدة، إذ يمكن استعمالها لعرض الداعي إلى توجيه السؤال كما في (٩)، أو لتقديم موضوع معين في سياق المحادثة كما في (٨). بمعنى آخر ليست بنية المثالين السابقين بالبنية التي ترتبط عادة باستعمال «لأن» كأداة ربط منطقي (أ لأن ب) ولكنها كما يلي:

إنني أذكر / أسأل (أ) لأن (ب).

وبالتالي فإن فهمنا للمثالين (٨) و (٩) لا يعتمد على تأويل للجمل المخطوطة على الورق بل على افتراضنا أننا أمام سبب مقدم يعرض داعي القيام بفعل من خلال

المتكلم، على أن يتم التعرف على الفعل والداعي إلى القيام به من خلال موقعهما في صلب بنية متعارف عليها للمحادثة الشفوية. هذه البنية المتعارف عليها تقدم تفسيرا للكيفية التي يتم بها فهم أقوال تبدو في الظاهر غير مترابطة على مستوى الأدوات اللغوية (ينقصها الترابط اللغوي) على أنها أقوال يمكن أن تكوّن تسلسلا متماسكا معنويا في إطار نمط معين من أنماط التبادل الشفوي، لنقل على سبيل المثال إنه المحادثة. ويقدم ويدوسن (١٩٧٨م ص ٢٩) المثال التالي:

[١٠] (أ) **الهاتف يرنّ**
(ب) **إنني في الحمام**
(أ) **حسنا.**

يقترح ويدوسن أننا لا يمكن أن نقبل هذه المقاطع المتتالية كخطاب متماسك معنويا، إلا بالتعرف على الفعل الذي قام به كل واحد من هذه الأقوال في إطار التتالي المتعارف عليه لمثل هذه الأفعال. ويمكن تقديم هذا التتالي المتعارف عليه كما في (١١):

[١١] (أ) **يطلب من (ب) القيام بفعل.**
(ب) **يصرح بالداعي الذي يمنعه من تلبية الطلب**
(أ) **يأخذ على عاتقه القيام بالفعل.**

مثل هذا العرض يفرز وصفا للخطاب التحادثي كشكل من أشكال التفاعل الاجتماعي. ويمكن تطبيق تحليل مماثل على سلسلة من الحركات كما في (١٢):

[١٢] **(مشهد سهرة منزلية: الزوج والزوجة يشاهدان التلفاز)**
(أ) **يلمّح بالإشارة وبالرّبت الخفيف على أذنيه إلى أنه يسمع الهاتف يرن.**
(ب) **تشير إلى القطة النائمة في حجرها.**
(أ) **يحرك كتفيه للتعبير عن اللامبالاة وينتصب واقفا.**

يمكن تحليل هذا التبادل دون الرجوع إلى اللغة المستعملة من طرف المتكلمين. إن الخاصية المميزة للعديد من الدراسات عن بنية الخطاب التي تعتمد على تحليل سلسلة

من الأعمال هي قلة اهتمامها بالجوانب اللغوية لطرق تحقيق تلك الأفعال. فهذا كولتهارد (١٩٧٧م ص ٧) يقول في سياق دراسته لبنية الخطاب من هذه الزاوية «لا يمكن التعبير عن البنية أو عن الضوابط المفروضة على المتكلم التالي **نحويا** . . . إن **الصيغة اللغوية** للقول تكاد تكون معدومة الأهمية» (التركيز موجود في الأصل). وقد تبنّى سنكلير وكولتهارد (١٩٧٥م ص ١٣) موقفا يكاد يكون مماثلا إذ يقولان «إن مستوى الوظيفة اللغوية التي تعدّ مصبّ اهتمامنا هو مستوى وظيفة قول معيّن في مقام اجتماعي معيّن وفي موقع معين، من سلسلة أحداث تشكل إسهاما في خطاب بصدد الصّيرورة». يهتم سنكلير وكولتهارد بدراسة بنية الخطاب في المبادلات الكلامية في الفصل الدراسي، وقد حددا خمسة أنماط خطابية وهي: الدرس والمعاملة والتبادل والتحرك والفعل. وفي حين يجوز من حيث المبدأ أن يكون لديهما القدرة على تحديد بعض الصيغ القولية التي تميّز حدود الدرس (٥٩ - ٦٠) فإنه من الواضح أنه لا توجد أية صيغة تنفرد بها «الدروس». «فالدرس» هو بلا شك تصنيف اجتماعي وليس تصنيفا لغويا. وقد عرفا الصنف «الخطابي» «المعاملة» كما يلي (١٩٧٥م ص٢٥):

[١٣] (أ) **يجب أن يكون هنالك تحرك في بداية كل معاملة.**
(ب) **يجب أن يكون هنالك تحرك في الوسط ولكن يجوز أن يرتفع دون قيد.**
(جـ) **يمكن أن يوجد تحرك ختاميّ ولكن ليس بالضرورة.**

من الجلي أن البنية المصورة هنا قد تنطبق على «معاملة» مثل تلك الممثلة في (١١) والتي يمكن أن تستعمل بالدرجة نفسها (كما أثبتنا في (١٢)) لدراسة بنية التبادل الاجتماعي غير اللغوي. ويمكن إثبات كيفية انطباق التصنيفات «التبادل والتحرك والفعل» بشكل مرض على تحليل لتبادل غير لغوي مثل مقابلة كرة المضرب. فبالإمكان استعمال هذه التصنيفات لوصف «كسب نقطة»/ «الضربة الافتتاحية»/ ؟ أو «الضربة الطائرة» و «فعل القيام بالضربة الافتتاحية» أو «فعل ضرب الكرة بباطن المضرب»، على التوالي. بإمكان هذا التوسع في تطبيق هذا الطرح أن يثمر تصنيفات مفيدة في استقصاء بنية السلوك الاجتماعي، وهو يعني بلا شك فهمنا لنسب توزيع لمفردات

مفرغة من المعنى مثل «حسنا» و«الآن». . . ولكن من جهة أخرى ليس من الواضح أن يكون إيجاد نظام تصنيف معقد قادرا على إنارة السبيل أمام فهمنا لكيفية فهم المشاركين في تبادل اجتماعي لما يريد المتكلم قوله عند تلفظه بما يقول بنفس نجاعة الاعتماد بصفة عامة على مبادىء غرايس ومبدأي القياس والفهم المحلّي. ونجد طرحا أكثر إفادة في حلّ مشكل المعنى الاجتماعي من وجهة نظر محلّل الخطاب، يتمثل في تقصي ذلك الجانب في مجال تحليل المحادثة الذي يدرس تبادل الأدوار. ونجد نقلا لأهم الدراسات في هذا المجال عند ساكس وزملائه (١٩٧٤م) وسكاغلوف (١٩٦٨م) وسكاغلوف وساكس (١٩٧٣م) وجافرسن (١٩٧٢م و ١٩٧٣م) والدراسة الأكثر حداثة لـ شانكين (ناشرا) (١٩٧٨م). ويهدف هذا النمط من التحليل لخطاب المحادثة إلى التعرف على الأنماط الشائعة لبنية المحادثة عن طريق وصف الطرق التي يتبادل بها المشاركون في الحديث الأدوار عند التكلم. فهنالك أنماط شائعة لتنظيم تلك الوحدات القائمة على تبادل واحد يسهل التعرف عليها تعرف بالثنائيات المتلازمة. ويمكن لهذه أن تأخذ شكل التحية / تحية كما في (١٤) أو سؤال/ جواب كما في (١٥):

[١٤] (أ) **السلام عليكم**
(ب) **وعليكم السلام.**
[١٥] (أ) **كيف حالك؟**
(ب) **بخير**

فمع هذا النمط من البيانات يبدو مفهوم «التبادل» كوحدة تحليل أمرا معقولا. ولكن أغلب البيانات المأخوذة من المحادثات تتكون من «تبادلات» أكبر حجما يمكن أن تحدث داخلها عدة أقوال أو يصعب داخلها تحديد نظام الثنائية المتلازمة الأساسي. ففي المقطع (١٦) يمكننا الإشارة إلى أن لبعض الصيغ الاستفهامية وظيفة الإجابات والأسئلة في الوقت نفسه وأن الصيغة الخبرية الأخيرة ليست في الواقع إجابة على أيّ من الأسئلة.

[١٦] **جورج: هل استقرّ رأيك على آيس كريم أم لا؟**
زي: ماذا لديهم؟

جورج: ما رأيك في نكهة البرتقال؟
زي: أليس لديهم بازوكات؟
جورج: حسنا هذه عشرون بنسا + اساليه بنفسك.

يمكن وصف بنية هذا المقطع جزئيا كسلسلة متتابعة، وذلك باتباع اقتراح قام به سكاغلوف (١٩٧٢م) بما مفاده أن بنية الثنائية المتلازمة يمكن أن يدخل عليها خلل من جراء «إقحام سلسلة من المبادلات» تؤخر الجزء الجواب إلى الجزء السؤال من الثنائية إلى أن تقع الإجابة على سؤال آخر مغاير. هذا الاقتراح معقول من حيث إحساسنا الداخلي به، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه مباشرة هو كيف يستطيع المحلل أن يحدد متى يمكن أن يعدّ صيغة استفهامية الجزء السؤال من الثنائية المتلازمة أو جزءا من سلسلة مقحمة أو حتى إجابة؟ لا يطرح هذا النمط من الأسئلة إطلاقا لدى أولئك الذين يقومون بتحليل التفاعل في المحادثة، وذلك يعود أساسا إلى قلة اهتمامهم بدراسة العلاقة القائمة بين الصيغة اللغوية والوظائف التبادلية المقترحة.

فكما يشير إلى ذلك كولتهارد (١٩٧٧م ص ٩٢) أفرزت دراسات ساكس وسكاغلوف وجافرسن العديد من الدراسات الثاقبة التي بصّرتنا بجوانب عديدة من بنية المحادثة، ولكن تبقى منهجيتهم في التحليل وتصنيفاتهم المستعملة على درجة عالية من عدم الدقة والضبط، بحيث يصعب استعمالها عمليا من طرف غيرهم. فأقصى ما يمكن لمحلل الخطاب أن يكسب من الطرح الذي يعتمد تحليل التبادل في المحادثة في تحليله لمثال مثل (٧) الذي سقناه في موضع سابق من هذا الفصل، هو أن التماسك المعنوي في هذا المقطع يعود جزئيا إلى توقعنا بأن ما يتبع السؤال ينبغي أن يعدّ جوابا على ذلك السؤال حسب مقولة الثنائية المتلازمة. ربما بدت هذه النقطة بديهية، ولكنها من النقط التي يندر التصريح بها في تحليل اللغة نظرا لكونها بديهية. فهي تفسّر جانبا مهما وهو لماذا نفترض أن قولين تنعدم بينهما أدوات الربط يشكلان مقطعا خطابيا مترابطا عندما نضعهما جنبا إلى جنب. إن تماسكهما المعنوي يعود إلى افتراضنا وجود بنية خطابية متماسكة تتعدّى بنية صيغة الجملة التي تعدّ أكثر عرضة للوصف.

٣,٧ الأفعال القولية

لقد درسنا في ٣,٧ أطروحات تدعو إلى تحديد المعنى الاجتماعي بالرّجوع إلى النشاط الذي يقوم به متكلم معين عند تلفظه بالكلام، وهذه الأطروحات جزء من منظومة التحاليل التي تحدّد الأعمال على ضوء المسلسلات ذات البنية المتعارف عليها التي ترد فيها. وفي هذا المبحث نلفت الانتباه إلى دراسة مفهوم الأفعال القولية. هذا المفهوم هو ثمرة بحوث فلاسفة اللغة.

تعود نظرية الأفعال القولية أصلا إلى ملاحظة أوستن (١٩٦٢م) أنه في حين يمكن في الغالب استعمال الجمل للحديث عن أوضاع وأحوال معينة، فإن التلفظ ببعض الجمل مثل (١٧) و (١٨) لا بدّ أن يعدّ في سياق بعض المواقف الخاصة إنجازا للعمل:

[١٧] أراهنك على ستة بنسات أن المطر سينزل غدا.
[١٨] (بسم الله) سميت هذه الباخرة «الملكة إليزابيث».

أطلق أوستن على مثل هذه الأقوال اصطلاح «الأفعال الإنجازية» وعلى الظروف المحددة المطلوب توفرها كشرط لنجاح هذه الأفعال الإنجازية اصطلاح «شروط النجاح». ولنكون أكثر دقة فإن القولين (١٧) و(١٨) مثالان على الأفعال الإنجازية المعلنة التي ليست مجرّد مجموعة خاصة من الصيغ الجملية الثابتة (طقوس). ولكنها مجموعة مصغرة من الأقوال داخل اللغة التي يمكن استعمالها لإنجاز أعمال. وتوجد مجموعة مصغرة أخرى من الأقوال يمكن وصفها بمجموعة الأفعال الإنجازية الضمنية، كما في الأمثلة من (١٩) إلى (٢٢):

[١٩] «برّا»![٢]
[٢٠] ستة بنسات
[٢١] سأكون هناك الساعة الخامسة.
[٢٢] سيحاكم كل المتطفلين.

---

(٢) اخترنا هذه الصيغة الدارجة لترجمة قوة الكلمة الإنجليزية ! Out

لا يحتوي أي من هذه الأمثلة على فعل إنجازي ولكن يمكن أن تستعمل (١٩) من طرف حكم لعبة الكريكت لإنجاز فعل إقصاء و (٢٠) من طرف لاعب الورق ليقامر بهذا المبلغ، و (٢١) من طرف أي شخص ليقدّم وعدًا، و(٢٢) من طرف مالك لعقار للتحذير.

وهكذا بتوسيع مدى هذا المفهوم أصبح من الممكن القول إن المتكلم عند تلفظه بأي جملة يمكن أن نقول عنه إنه أنجز بذلك عملا ما. ولو أردنا المزيد من الدقة لقلنا إن هذا العمل هو العمل الدلالي. ويرتبط عادة بكل عمل دلالي شحنة القول التي يمكن وصفها بكونها فعلاً إنجازيًا مثل «الوعد» أو «التحذير». وقد أشار أوستن كذلك إلى أن المتكلم حين تلفظه بجملة يكون كذلك قد أنجز عملا تأثيريا يمكن وصفه بالتأثير الذي يحدثه العمل الدال على السامع إذا أخذ في مناسبة استعمال خاصة.

كان هذا عرضًا ملخصًا شديد الاختصار للمبادىء الأساسية لما أصبح معروفا منذ أوستن وسيرل (١٩٦٩م، ١٩٧٩م) وغيرهما الكثير بنظرية الأفعال القولية، وقد أضاف سيرل كذلك (١٩٧٥م) تمييزا بين الأفعال القولية المباشرة وغير المباشرة يعتمد على تحديد الوقع التأثيري المقصود لقول معين في مناسبة استعمال معينة. فالأفعال القولية غير المباشرة هي تلك «الحالات التي يتمّ فيها إنجاز عمل دالّ معين بشكل غير مباشر عن طريق إنجاز عمل آخر» (١٩٧٥م ص ٦٠). هكذا يمكن اعتبار المثال (٢٣) من جهة سؤالا عن استطاعة السامع، ولكن من جهة أخرى طلبا لعمل ما:

[٢٣] هل يمكنك رفع صوتك لو سمحت؟

إن جملة من نوع (٢٣) رغم استعمالها لصيغة الاستفهام تستعمل عادة ـ كما أشار إلى ذلك سيرل ـ للطلب (للحصول على كشف حديث للمسائل البارزة في نظرية الأفعال القولية، انظر ليفنسن (١٩٨٠م سيصدر قريبا)) إن أهمية نظرية الأفعال القولية لمحلل الخطاب تكمن بالخصوص كما أشرنا في ٧,٢ في كونها تزوّده بتفسير للكيفية التي تجعل بعض الأقوال من خطاب المحادثة غير المترابطة في الظاهر على مستوى الأدوات تشكل تسلسلا متماسكا معنويا. ومع ذلك فإن تطبيق نظرية الأفعال القولية في تحليل خطاب المحادثة محاط بعدد من المشكلات. وقد عبر ليفنسن (١٩٨٠م

ص ٢٠) عن نقطة ضعف مهمة قائلا: «لو نظرنا حتى نظرة خاطفة على تسجيل مخطوط لمحادثة فإنه يصبح جليًا على الفور أنه ليس بوسعنا تحديد الأفعال القولية فيها بطريقة غير عشوائية».

ولكن وجود مشكلات في تحديد الأفعال القولية ينبغي ألاّ يحمل المحلل بالضرورة على التخلي عن دراستها. والمفروض بالأحرى هو أن تحمل المحلّل على الاعتراف بأن التصنيف الشائع للأفعال القولية على أنها أنماط أفعال خفية مثل «الطلب» و«الوعد» و«التحذير»... إلخ ربما يعطينا نظرة خاطفة عما يفعله المتكلمون بأقوالهم. فمن وجهة نظر المتكلم يمكن للعديد من الجمل (أو المقاطع التركيبية) المرتبطة فيما بينها أن تشكل عملا واحدا. بهذه الطريقة يمكن فهم قول مطول نسبيا على أنه تحذير أو اعتذار ولكن من جهة أخرى يمكن أن ينجز قول واحد عدة أعمال في الوقت نفسه. انظر القول التالي الذي قاله رجل لزوجته:

[٢٤] اسمعي يا ميشال، لقد نجحت في الامتحان.

فهو هنا قد يكون «حقق» أشياء عديدة في نفس الوقت. فقد يكون في الوقت نفسه «يقرّر» و «يهنّىء» و«يعتذر» (عن شكوكه)... إلخ. إن نظرية الأفعال القولية في وضعها الحالي لا تقدم لمحلل الخطاب طريقة تمكنه من تحديد كيفية حصول مجموعة من الأدوات اللغوية عند التلفظ بها في سياق محادثة خاص على معنى خاص مفهوم.

٧,٤ استعمال معرفتنا بالعالم

يمكننا القول إن المعرفة التي نملكها كمستعملي لغة ما عن التفاعل الاجتماعي عن طريق اللغة ليست سوى جزء من معرفتنا الاجتماعية الثقافية العامة. هذه المعلومات العامة عن العالم هي أساس فهمنا لا للخطاب فحسب بل ربما لكل جوانب خبراتنا الحياتية، وكما يلاحظ دي بوجراند، (١٩٨٠م ص ٣٠): «إن مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري داخل نصّ هي حالة خاصة من مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري في العالم بأسره».

كنا أشرنا في الفصل الثاني إلى أن عملية فهم الخطاب تقوم إلى حدّ كبير على مبدإ بسيط عن القياس مع خبراتنا السابقة. فنحن ككهول قابلون لأن نملك قدرًا كبيرًا من الخبرات والمعلومات الأساسية. كيف نتمكن من تنظيم هذه المعلومات والاقتصار على توظيف قدر محدود منها عند الحاجة؟ سندرس بعض الإجابات المقترحة على هذه المسألة في المبحث ٧,٦. وقبل دراسة هذا الباب، سنحاول توضيح العلاقة بين هذا الطرح القائل بأن فهمنا للخطاب يتم عن طريق «معرفتنا بالعالم» وبين الطرح القائل بأن عملية الفهم تكون مباشرة عن طريق «الكلمات المخطوطة على الورق».

٧,٥ التحليل نزولاً والتحليل صعودًا

هنالك تشبيه يصف طريقة تحليلنا للخطاب وفهمنا له، وهو مأخوذ من الأطروحات الحاسوبية التي تحاكي عملية فهمنا للغة. فبإمكاننا أن نعدّ عملية تحليلنا لما يأتينا من خطاب جمعا لنشاطين (على أقلّ تقدير). فنحن في أحد أجزاء التحليل نبحث عن معاني الكلمات وبنية الجملة لنبني معنى إجماليا متكاملا للجملة (أي التحليل صعودا). ولكننا في الوقت نفسه ونحن نقوم بهذا العمل نكون بصدد التنبؤ بما ستعنيه الجملة التالية في غالب الظن اعتمادا على السياق، إضافة إلى المعنى الإجمالي للجمل التي سبق تحليلها (أي التحليل نزولا). وبما أن التوجّه الأساسيّ في اللسانيات العامة كان ومايزال يسعى إلى تطوير وصف نحويّ لصيغة الجملة ومعناها فإن أي طرح قدم لوصف كيفية تحليل الجمل يغلب عليه أساسا، كنزعة عامة، صنف «التحليل صعودا». ونجد وجهة نظر مماثلة لدى بعض أطروحات الذكاء الاصطناعي عن البيانات اللغوية حيث يهدف البحث إلى تطوير جهاز إعراب يستطيع تحليل الجمل الإنجليزية المقبولة. وفي كلا هذين التوجّهين يقع رفض أي جملة تحتوي على خطإ نحوي بدلا من إضفاء تأويل معيّن عليها. فلو قدّمنا النص التالي (٢٥) إلى جهاز إعراب معدّ تمام الإعداد للتعامل مع الجمل (الإنجليزية)[٣] من منظور نحوي، وطلبنا منه تحليل هذا

(٣) تعمّدنا صياغة المثال بلغة ركيكة مليئة بالأخطاء النحوية لنصوّر نفس الإشكال في اللغة العربية.

النص، فإن ردّ الفعل المتوقع هو أن يتوقف بسرعة فائقة ويقدم الجملة الواقعة في السطر الثاني على أنها «غير نحوية» أو «غير مقبولة». ومن شأن النحوي أو باحث الذكاء الاصطناعي الذي صمّم برنامج هذا الجهاز أن يكون راضيا عن هذه النتيجة، لأن الجهاز قد تمكّن - في الواقع - من إنجاز عمله المراد منه بكل دقة.

[٢٥] **النحافة جميلة**
يوجد لدى الناس اسباب كثيرة تجعلهم يحبّون أن تكون أجسامهم
نحيفة. فهم جميعًا يصبحون خفيفي الوزن ولكن من الصعب أن يحافظوا
علي وزنهم الطبيعي.
والآن توجد في بلادنا السوَيد ، أطباق كثيرة وأصناف عديد من الطعام
تجعل الرجل الخفيف يزيد وزنه ليصبح سمينا. ما العمل؟
(نحن ممتنّان لجانل ملتشز من قسم اللغة الإنجليزية بجامعة ستوكهولم
الذي لفت انتباهنا إلى هذا النص).

ولكن في الواقع نجد أن المحللين الآدميّين، خلافا لجهاز الإعراب، لا يرفضون النص غير النحوي، بل يحاولون فهمه. فنحن نظن أن القارىء يملك فهمًا معقولا للرسالة التي يريد الكاتب إبلاغها من خلال المقطع الخطابي (٢٥). ما هو الشيء الذي يمكّن المحلل الآدميّ من تحقيق ذلك؟ هنالك جواب جزئيّ على هذا السؤال، وهو أن المحلل الآدميّ يقوم بالفعل «بإعراب» جمل النص الذي يتعامل معه. فمن الحمق القول إننا عندما نقرأ السطر الأول من (٢٥) لا نحاول أن نبني (أي صعودا) نوعا من المعنى الإجمالي للسلسلة المتكونة من ثلاث كلمات، بالاعتماد على بنيتها وعلى معنى المفردات المستعملة. ولكننا في الوقت نفسه نضيف أن القارىء يقوم كذلك باتباع خطة تحليل نزولا تكوّن توقعات عما يغلب الظن على احتمال وروده لاحقا في النص. (ولقد أثبتنا في الفصل الرابع كيف تقدم العناوين نقطة انطلاق ناجحة لفهم النصوص). إن القدرة على التنبؤ التي يمنحها التحليل نزولا هي التي تمكّن القارىء أثناء تحليله صعودا على ضبط العناصر الخاطئة نحويا أو إملائيا في النص وتحديد الرسالة المقصودة الأكثر احتمالا.

وعلى الفور يخطر بالبال سؤال يطرح نفسه . فلو سلمنا أن التحليل صعودا يعتمد على قواعد مثل تلك التي نجدها في علم نظم الجمل وعلم دلالة الألفاظ ، فما هو أساس التحليل نزولا ؟ كنا قدمنا جزءا من الإجابة في الفصل الثاني ، حيث اقترحنا أن سياق الخطاب يولّد توقّعات ترتبط بمحتوى الخطاب . هنالك جزء آخر من الجواب وهو أننا بمجرّد أن نبدأ في تحليل مقطع خطابي فإننا لا نعتبره أول مقطع خطابي نتعامل معه . فنحن نملك من مجموع خبراتنا إحساسا بأننا قد حلّلنا سابقا مقاطع خطابية أخرى ربما تكون لها عناوين شديدة الشبه بالمقطع الذي نتعامل معه . وبإمكاننا كذلك الاعتماد على خبرتنا بالعالم أي معلوماتنا العامة . فكما سبق لنا الإشارة إليه فنحن نكتسب طوال حياتنا قدرا هائلا من «المعلومات» و«الخبرات» . فإذا كان التحليل نزولا يعتمد على توظيفنا في مناسبة واحدة لقدر صغير فقط من هذه المعلومات العامة فلا بدّ إذن من وجود طريقة لتنظيم تلك المعلومات وتخزينها ، لكي يسهل الوصول إليها . وقد مثل السّعي لتقديم تصور عن كيفية تخزين المعلومات العامة في الذاكرة هدف قدر لا بأس به من الأبحاث الحديثة .

٧,٦ طرق تصوير المعلومات العامة

تمّت محاولات عديدة لتقديم تصوّرات شائعة أو نموذجية عن «معلوماتنا عن العالم» كأساس لفهمنا للخطاب . وتستعمل هذه التصوّرات الموجودة في المناهج النفسية والحاسوبية في فهم الخطاب بالخصوص لتفسير نمط المعلومات التي يمكن توقعها والتي بإمكان الكاتب / المتكلم افتراض توفرها لدى السامع / المستمع كلما تمّ وصف موقف معين . فإذا كان لدينا موقف معيّن ، مثل مشهد لمطعم فإن الكاتب / المتكلم لا يحتاج إلى إخبار القارىء / السامع عن وجود طاولات وكراسي في المطعم أو أن الإنسان يطلب الطعام للاستهلاك داخل المطعم ويدفع ثمنه . إن مثل هذه المعلومات عن المطاعم مسلمة عموما . وفي التصورات المقدمة عن هذه المعلومات يمكن أن نعدّ الجوانب الشائعة من المواقف مثل الطّاولات والكراسي في المطعم عناصر موجودة بالضرورة . هذه العناصر المفروغ منها يفترض وجودها حتى عندما لا تذكر علنا إلا إذا تمّ إعلام القارىء / السامع بغير ذلك بصريح العبارة . وقد أثبتنا عن طريق مثال جيد

قدرة القراء آليا على توفير المعلومات التي يعتبر وجودها أمرا مسلما ، وذلك في سياق دراستنا للنص الذي يصف كيفية تحضير طبق طعام (المثال ٢٢ في الفصل الخامس) .

إن الخاصية المميزة لهذه التصويرات للمعلومات هي أنها منظمة بطريقة ثابتة كوحدة متكاملة من المعارف النموذجية الراسخة في الذاكرة ، هكذا تعدّ معرفتنا بمشهد في مطعم مخزنة في الذاكرة كوحدة واحدة يسهل الوصول إليها بدلا من كونها مجموعة مشتتة من الحقائق المنفردة نحتاج إلى تجميعها من أجزاء مختلفة من الذاكرة كلما تم ذكر مشهد في مطعم . ويتفق هذا الجانب من تصوير المعلومات عموما مع خاصيّة ذات علاقة به نجدها في الأطروحات التي سنناقشها . ووجه الاتفاق هو أن كل هذه المناهج تتعامل مع عملية فهم الخطاب على أنها تحليل للمعلومات في الذاكرة . فهذا رايسباك على سبيل المثال يقرّر دون تردّد أن «عملية الفهم هي من عمل الذاكرة» . فمن هذا المنظور تُعدّ عملية فهم الخطاب أساسا عملية استرجاع المعلومات المخزنة في الذاكرة ، وربطها بالخطاب الذي نتعامل معه . ونتيجة لذلك فقد أخذ منحى البحوث في هذا المجال منعطفا مهما نحو البحث عن أفضل مفهوم للتخزين ، قادر على معالجة المعلومات المعروفة الموجودة مسبقا في الذهن . وتجدر الملاحظة أننا أمام هذا التركيز على كيفيت «التخزين» نفتقر إلى محاولات تسعى لبيان كيفية اكتسابنا للمعلومات المخزنة في الذاكرة . فإذا تبيّن في آخر المطاف أن طريقة استعمالنا للمعلومات المخزنة تتأثر إلى حدّ ما بكيفية اكتسابنا لتلك المعلومات ، فإنه يصبح من الممكن القول بأن مفهوم نظام تخزين ثابت كان مغلطا بالأحرى .

ويظهر التركيز على تخزين معلوماتنا عن العالم في أقصى درجات وضوحه في الأطروحات الحاسوبية عن عملية فهم الخطاب . فسعيا منهم إلى تزويد الحاسوب بالمعلومات العامة المطلوبة «لفهم» الخطاب ، عمد العديد من العاملين في حقل الذكاء الاصطناعي إلى إنشاء بنى معلوماتية أو ذاكرات ثابتة هائلة ، تكون المعلومات فيها منظمة ومخزّنة . ولكن اتضح بسرعة أن المعلومات العامة عن العالم على درجة من الضخامة والتنوّع بحيث يستحيل إدراجها بشكل موسوعي في ذاكرة الحاسوب . وكان الحلّ يتمثل لدى بعض باحثي الذكاء الاصطناعي في إنتاج بنى معلوماتية مختصة للتعامل مع أنماط خطاب تتطلب نوعا معينا من المعلومات . بعبارة أخرى ، يمكن إدماج

معرفتنا بالعالم إذا كان هذا «العالم» محدودا جدًا. ومن الأمثلة على ذلك نجد «عالما» يحتوي على عدد ثابت من القوالب وغيرها من الأشكال الملوّنة (انظر وينوجراد ١٩٧٢م) و«عالما» خاصا بوكالة سفريات تسمى جي يو آس لتنظيم الرحلات الجوية في كاليفورنيا (انظر بوبرو وجماعته ١٩٧٧م). وبذلك أصبح من الممكن أن نعدّ أن معلوماتنا عن العالم تنتظم في مجموعات من مجالات معرفة مختلفة لكنها مترابطة فيما بينها. هذه المجموعات، عندما ننظر إليها مجتمعة، تشكل المعلومات العامة التي يبدو أن البشر يستعملونها في فهمهم للخطاب. تبدو هذه الفكرة لقريحتنا معقولة جدا، بما أننا في قراءتنا لأحد النصوص من المفترض أن نقتصر على استعمال جزء محدود من معلوماتنا، هو ذلك الذي نحتاج إليه لفهم ذلك النص. بعبارة أخرى، عندما نقرأ قصة تتحدث عن زيارة إلى طبيب الأسنان، فإننا نعتمد على معرفتنا بحيثيات زيارة طبيب الأسنان. ولا نعتمد عادة على معلوماتنا عن طباعة رسالة أو الذهاب إلى حفلة عيد ميلاد، إلا إذا استوجبت بعض جوانب النص استعمال أجزاء أخرى من معرفتنا بالعالم. سنخصّ بالدراسة مفهومين اقترحتهما دراسات الذكاء الاصطناعي عن كيفية تنظيم المعلومات في الذاكرة، وهما مفهوم **الإطارات المعرفية** و**المدارات**. ولقد اخترنا هذين المفهومين نظرا لتأثيرهما البالغ على الدراسات التي تهتمّ بكيفية فهم الخطاب، ونظرا لكونهما يمثلان عموما كمّا هائلا من البحوث في هذا المجال. (للمزيد من الدراسات العامة عن هذه الأبحاث انظر ولكس ١٩٧٧م، ونستن ١٩٧٧م، فندلر (محرّرا) ١٩٧٩م، ماتزيغ (محرّرا) ١٩٧٩م).

وسنستعرض كذلك مجموعة أخرى من الأبحاث في علم النفس ترتبط بالموضوع، وذلك للحصول على طرق لتصوير المعلومات المخزنة في الذاكرة، وكيفية ارتباطها بعملية تحليل الخطاب. إن الخط المميز لهذه الأبحاث هو قلة تركيزها على طرق تخزين المعلومات، وتركيزها في المقابل على كيفية استعمال المعلومات العامة في عملية التحليل أثناء حدوثها. سندرس بإيجاز مفهوم **السيناريو** والاصطلاح الأكثر انتشارا وهو **الأنساق الذهنية**. سنناقش كذلك **النماذج الذهنية**. ورغم هذا الاختلاف الظاهر في استعمالات الباحثين لمصطلحات مختلفة فيوجد مجال كبير للاتفاق في مدلول هذه المصطلحات (انظر ثانن ١٩٧٩م).

ولا بدّ من الاعتراف بأن استعمال مصطلحات مختلفة والنظر إلى أنماط معلومات مختلفة في مجالات البحوث المختلفة هذه لا تشكل عموما نظريات متنافسة، بل من الأفضل اعتبار هذه المصطلحات المختلفة إشعارات بديلة لوصف كيفية تنظيم المعلومات عن العالم في ذاكرة الإنسان، وكذلك كيفية تنشيطها في عملية فهم الخطاب.

٧,٦,١ الإطارات المعرفية

يمكن أن نجد طريقة لتصوير المعلومات العامة التي نستعملها في إنتاج الخطاب وفهمه في نظرية الإطارات المعرفية لمنسكي. فمنسكي يرى أن معلوماتنا مخزنة في الذاكرة في شكل بنى مخصّصة للبيانات يسمّيها «إطارات معرفية» تمثل مواقف نموذجية وهي تستعمل بالطريقة التالية:

عندما يعترضنا موقف جديد (أو نغيّر أو نغيّر نظرتنا للمسألة القائمة تغييرا ملموسا) فإننا نحتاج ممّا هو متوفّر في ذاكرتنا إلى بنية تسمى إطارا معرفيا، وهي عبارة عن إطار نتذكره يتم تكييفه ليتناسب مع الواقع، وذلك بتغيير التفاصيل حسب الحاجة (منسكي، ١٩٧٥م).

تجدر الملاحظة أن دراسة منسكي لا تهتم أساسًا بالظواهر اللغوية (حيث إن قدرا كبيرا منها يهتم بالإدراك البصري وذاكرة البصريات) بل تتوجّه نحو إيجاد طريقة لتصوير المعلومات. وبما أن معرفتنا بلغة معينة من جملة معارفنا، فتوجد بالتالي إطارات «للحقائق» اللغوية. فعلى سبيل المثال يضرب منسكي وجها للقياس بين إطار لغرفة في مشهد منظور وإطار لعبارة اسمية في خطاب معين. فكلا الإطارين يحتويان على عناصر ضرورية (حائط / صيغة اسمية أو ضمير) وعناصر اختيارية (زينة على الحائط / أداة تعريف عددية). وتحتوي البنية الأساسية للإطار على خانات مبوبة يمكن تعبئتها بالتعبيرات وهي مالئات (يمكن أن تكون إطارات أخرى). فعلى سبيل المثال نجد في إطار يمثل منزلا نموذجيا خانات مبوبة «للمطبخ» و«الحمام» و«العنوان» إلى غير ذلك. ويمكن أن نعد أي منزل خاص موجود في العالم أو مذكور في نص مثالا على إطار المنزل، ويمكن تصويره بملء الخانات بالخاصيات المميزة لذلك المنزل الخاص.

فإذا صغناه بهذه الطريقة يمتاز الإطار المعرفي بكونه تصويرا ثابتا لمعلوماتنا عن العالم. وقد صرّح بعض الباحثين في مجال الذكاء الاصطناعي بهذه النقطة علنا حيث قال: «الإطار المعرفي في نظري بنية ثابتة للبيانات تخص موضوعا نموذجيا» (تشارنياك ١٩٧٥م ص ٤٢). ويعد آخرون الإطار المعرفي أداة حاسوبية لا تقتصر على تخزين البيانات بل هي قادرة على إنجاز برامج «لتنظيم عمليات البحث والاستدلال التي تتلاعب بالتصوّرات المخزّنة» (هايز ١٩٧٩م).

إذا نظرنا إلى مفهوم «الإطار المعرفي» من منظور عام جدًا، فإنه يزوّدنا باستعارة مغرية تصوّر اعتبارنا لعملية فهم الخطاب، ولو جزئيًا على الأقلّ: «عملية تنسيقنا بين ما نسمعه وبين الإطار الذي ثبته معلوماتنا الحاصلة» (تشارنياك ١٩٧٥م). هكذا إذا حصلت على بطاقة بريدية تعلمك أين ينبغي عليك تسجيل تصويتك في أحد الانتخابات المحلية فإن «فهمك» لهذه المعلومات المستقبلة يمكن وصفه «بإطار التصويت» والذي ربما يكون لديه خانة «لمكان الاقتراع» وتمثل المعلومة الخاصة عن المكان (مركز سان برنار) المكتوبة على البطاقة الخانة الموقعية النموذجية في الإطار المعرفي لديك. وبالمثل عندما تنظر إلى ما يتبقّى من الخطاب المخطوط على هذه البطاقة البريدية، فإنك ترى أدلة إضافية عن المعلومات المرتبطة بـ«إطارك الاقتراعي» كما في (٢٦):

[٢٦] عندما تذهب إلى مركز الاقتراع أدل باسمك وعنوانك إلى الموظف.
(بطاقة الاقتراع في الانتخابات البلدية المحلية بلوثيا، مايو ١٩٨٢م).

فالتعبيرات الاسمية المعرّفة تنبع من «الإطار الاقتراعي» نفسه حيث تفترض معلوماتك النموذجية عن التصويت بوجود مكان الاقتراع (مركز الاقتراع) وموظف مسؤول (الموظف) في ذلك المكان. بعبارة أخرى لست في حاجة لأن تعلم بوجود شيء يسمى مركز الاقتراع، وأنك ستجد موظفا هناك. يفترض منتج هذا المقطع الخطابي أن تكون لديك هذه المعلومات، وتقدم لنا نظرية منسكي عن الإطارات المعرفية تفسيرا عن الكيفية التي يؤثر بها هذا التوقع على الخطاب المنتج. ومع ذلك فإننا نجد مشكلا في هذا التفسير الذي يبدو حسن التركيب عن كيفية فهم المقطع الخطابي (٢٦).

فلو كان منتج الخطاب يتوقع بالفعل من القارئ أن يحلّل هذا الخطاب بالاعتماد على إطار نموذجيّ للاقتراع، فلعلنا إذن نتساءل ما الذي دعاه لإنتاج هذا الخطاب أصلا؟ فإذا لم يكن ضروريا إعلام المخاطب بوجود مركز اقتراع وعون، نظرا لعلمه النموذجيّ بهذه الأشياء فلماذا يجب إعلامه بالأعمال التي ينبغي عليه القيام بها؟ فإطار الاقتراع يحتوي دون شك على أعمال نموذجيّة، بالإضافة إلى الكيانات النموذجية. فإن كان ذلك صحيحا فإن المخاطب لا يحتاج إلى أن يعطي المعلومات المقدمة في (٢٦) إطلاقا. هنالك نتيجة مؤسفة ولكنها منطقية لطرح نظرية الإطارات المعرفية عن كيفية استعمالنا لمعلوماتنا المخزنة، ألا وهي أنها تتنبأ أن يكون إنتاج الخطاب أقل بكثير مما هو منتج فعلا. والحال أنه يوجد العديد من الحالات التي يتنج فيها الخطاب حيث يمكن أن نفترض دون أن نضمن للمخاطبين المعنيين معلومات نموذجية عما سيشكل مضمون الخطاب. ويجعل منتجو الخطاب ـ كما الحال بالنسبة لكاتب (٢٦) ـ خطابهم يعكس هذه الحقيقة، حيث يقدمون المعلومات في صيغة تلعب دور الذكرى لمن يملكون معرفة ما سيقال والتعليمات الجديدة لمن ليس لهم علم به. هنالك مشكل ثان لم يحلّ بعد يواجه «الأنظمة التي تستعمل الإطارات المعرفية» حسب تسمية ولكس (١٩٧٩م) وهو مشكل يتعلق بحقيقة إمكان وجود العديد من الإطارات التي يتم تنشيطها عندما يستعمل نظام للفهم مؤشرا في النص لتنشيط إطار معرفي. لنتذكر معا اقتراح منسكي القائل «بأننا عندما نواجه موقفا جديدا فإننا نختار من ذاكرتنا بنية تسمى إطارا معرفيًا». لنفحص الآن الموقف الجديد التالي الوارد في بداية مقال صحفي:

[٢٧] كان المصلّون في الكاثيدرائية قد شاهدوا على شاشات التلفاز البابا وكبير الأساقفة يلتقيان أمام طائرة مروحيّة تابعة لشركة بريتش كاليدونيون على العشب المبتلّ بقطر الندى في أحد المنتزهات بكانتربري».

(الصاندي تايمز ٣٠ مايو ١٩٨٢م)

لا بدّ أن المشكل قد أصبح واضحا على الفور. هل وقع الاختيار على إطار «كاثيدرائية»؟ ولم لا يكون الإطار عن «مشاهدة التلفاز» أو «اللقاء» أو «الطائرة

المروحية» أو «المتنزه»؟ ليست هذه بالأسئلة الهيّنة، ففي الواقع من المحتمل أن يكون من الضروري تنشيط شيء قريب من إطار «المتنزه» حتى يتسنّى تفسير وجه التعريف في كلمة العشب المذكورة في النص. ومع ذلك فإن جزءا لا بأس به من هذا الإطار ربما يحتوي عددا هائلا من الإطارات الأصغر التابعة له والتي تغطي جوانب لا نهاية لها من معرفتنا النموذجية «بالترفيه» ولكنها لا تلعب أي دور في فهمنا لهذا المقطع الخطابي. فكما يقول ولكس (١٩٧٩م ص ١٥٣): «تخطر بالذهن إطارات عديدة ولكن لا نختار منها إلا عددا قليلاً».

ورغم هذه المشكلات والانتقادات التي مفادها أن نظرية الإطارات المعرفية «لا تعدو أن تكون نظاما متعارفا عليه ثقيل الظلّ لسرد قائمة من الحقائق» (دراستر وهورنشتاين، ١٩٧٦م ص ٣٥٧)، فإن المفهوم الأساسي الذي يعدّ الإطارات المعرفية مأوي ذات بنية لتخزين معلوماتنا العامة قد زوّد المحللين بطريقة عمل مفيدة لا تقتصر فائدتها على مجال الذكاء الاصطناعي بل إنها تتعدّاه إلى علم الاجتماع (انظر مثلا غوفمان ١٩٧٤م) وعلم اللّسانيات (مثلا فلمور ١٩٧٥م؛ وجنسلر ١٩٧٧م).

٧,٦,٢ المدارات

لقد تمّ تطوير مفهوم المدار(٤) بالقياس مع نظرية الإطارات المعرفية التي جاء بها منسكي، غير أن مفهوم المدار «اختصّ بأنساق التعاقب الحدثي» (انظر شانك وإيبلسون ١٩٧٧م). كما اعتمد إيبلسون (١٩٧٦م) على مفهوم المدار لتحري العلاقة بين المواقف والسلوك. وإذا استعمل في فهم النص، فإن هذا المفهوم يضمّ تحليلا معيّنا لعملية الفهم اللغوي يقترح شانك (١٩٧٢م) تسميته بالـ«تبعية التصورية».

(٤) المدار، ترجمة للمصطلح script، ويعني الأحداث المميّزة لسياق معيّن، والتي تدرس من حيث أثرها في فهم النص أو حفظه. فمدار السفر بالطائرة، مثلا، يفترض في العادة الذهاب إلى المطار وإجراء المعاملات الإدارية، والصعود إلى متن الطائرة، ثم النزول منها، . . . إلخ. فمعرفة هذه الأحداث تؤثر في فهم القارئ لنص يذكر فيه السفر بالطائرة دون تفصيلاته، فتسعفه في تصوّر المجريات تصورا لا يستطيعه من يجهل هذا المدار بعينه.

لتمثيل معاني الجمل تمثيلا تصوريّا، جعل شانك لكل جملة من الجمل شبكة تبعيّة تصوّرية سمّاها «المخطط التصوري». ويضم هذا المخطط تصورات أو دلالات تربط بينها علاقات تعرف بالعلاقات التبعية. وهناك نظام مفصّل جدا، لكنه سهل الاستعمال، من الأوليات الدلالية لضبط التصورات، كما أن هناك إشارات سهميّة مصنفة تمثل العلاقات التبعية لن نتطرّق لوصفها هنا (لتفصيل ذلك، انظر: شانك ١٩٧٢م، ١٩٧٣م). وسنقتصر هنا على نمط واحد من الجمل التي ساقها شانك والشكل غير التخطيطي الذي أورده لعملية التصور الدلالي التي ينبني عليها ذلك النمط من الجمل، مع العلم أن المثالين الآتيين (٢٨) و (٢٨ أ) مقتبسان من شانك (١٩٧٣م).

[٢٨] اكل جون المثلج القشدي (الأيس كريم) بالملعقة.
[٢٨ أ] تناول جون المثلج القشدي (الأيس كريم) بنقله إلى فمه على ملعقة.
(استعمل اللفظ «نقل» هنا بمعنى «التحويل العادي». انظر شانك (١٩٧٣م) لمناقشة أكثر توسعا لهذا الموضوع)

لعلّ مزية من مزايا المقاربة التي يقترحها شانك تتضح لنا هنا منذ البداية. ففي الصيغة «التصورية» (٢٨ أ) التي يقترحها للجملة (٢٨)، يقدّم شانك جزءا من فهمنا لتلك الجملة لا يبدو صريحا في نصها المكتوب، وهو أن الفعل المذكور في (٢٨) قد صار ممكنا من خلال «عقد صلة بين المثلج القشدي والفم» (١٩٧٣م، ص ٢٠١). وعلى هذا النحو، يضمّن شانك مظهرا من مظاهر معرفتنا بالعالم في نمطه التصوري الذي ساقه لفهمنا للجملة (٢٨)، وهو أمر لم يكن ليتحقق لو قام تحليله على مجرّد العناصر التركيبية والمعجمية في تلك الجملة. وفي محاولة لتوسيع دائرة التحليل التصوّري للجمل، يقدم كل من ريزبك وشانك (١٩٧٨م) وصفًا يبيّنان من خلاله كيف أن فهمنا لما نقرأ أو نسمع إنما يقوم إلى حد كبير على «التوقع». فحين نقرأ المثال (٢٩) مثلا، تكون لدينا توقعات كبيرة لما يمكن من الكلمات أن يحتل الموقع س، من وجهة نظر تصورية.

[٢٩] اصطدمت سيارة جون بالسياج. فلما جاءت سيارة الإسعاف، نقلت جون إلى س.

يشير ريزبك وشانك (١٩٧٨م، ص ٢٥٢) إلى أن توقعاتنا تصورية أكثر مما هي معجمية، وأن أيًا من المفردات التي سنختارها لتحتل الموقع س (كالمستشفى أو الطبيب أو المركز الصحي، إلخ) تقع جميعا ضمن توقعاتنا. ومن الأدلة على أن الناس يقومون بتحليل النصوص بناء على توقعاتهم أننا قد نخطىء في التكهن بما قد سيأتي من الكلمات في الموقع الموالي. والمثال (٩) الذي أوردناه في الفصل الثاني: (كان جون في طريقه إلى المدرسة) والذي فهمنا من خلاله بادىء الأمر أن جون تلميذ لنكتشف بعد ذلك أنه أستاذ، يوضح جيّدا هذه النقطة. ومن جهتهما، يقدم ريزبك وشانك المثال الآتي:

[٣٠] (أ) **ذهبنا في رحلة صيد**
(ب) **اصطدنا غزالتين**

في تمثيلنا التصوري لهذا «النص»، نستحضر بلا شك بنادق وعبارات وحيوانات ميتة. لكننا نكتشف عند مجيئنا إلى الجملة الثالثة (٣٠ جـ) أن توقعاتنا كانت مخطئة، وأن علينا أن نرجع من جديد إلى تشكيل ذلك التصور.

(جـ) **فإذا بنا نقع في حبّهما.**

في دراستهما للقصة، يضيف ريزبك وشانك إلى التحليل التصوري للجمل أداة أعمّ للفهم تعرف بالمدار، ولها وظيفة شبيهة بالإطار الذي يقترحه منسكي. ففي حين يعامل الإطار عموما على أنه أساسا مجموعة من الحقائق بشأن العالم، يتسم المدار بأنه أكثر برمجة من حيث كونه يضمّ «نسقا قياسيا من الوقائع جاء في وصف ظرف معيّن» (١٩٧٨م، ص ٢٥٤). (انظر شانك وإيلسون، ١٩٧٧م، من أجل مناقشة مفصلة لهذا الموضوع). ويستعمل مفهوم المدار من بين ما يستعمل في «فهم» الأخبار التي توردها الصحافة حول حوادث السيارات. فمن الأدلة على «فهم» جهاز

الكمبيوتر لمثل هذه الأخبار بتطبيق نظرية المدار قدرة ذلك الجهاز على الإجابة عن أسئلة تتعلق بخبر معين. فبإعطائه تفاصيل الخبر الوارد في (٣١)، يستطيع جهاز الكمبيوتر الإجابة عن الأسئلة التالية. ومما تجدر ملاحظته أن الإجابة عن السؤال الأول تتطلب من الجهاز أن يقرر ما إذا كان «المرافق» و «ديفد هول» شخصا واحدا أم لا، وأن الإجابة عن السؤال الثاني هي حصيلة استنتاج بأن الشخص إذا عولج في مستشفى ثم غادره، فذلك يعني أنه «جريح» أو «مصاب قليلا».

[٣١] انحرفت سيارة مساء الجمعة خارج الطريق ٦٩، واصطدمت بإحدى الأشجار. وقتل أحد راكبيها إثر الحادث. وهو أحد مواطني نيوجيرسي، ويدعي ديفد هول، وهو في السابعة والعشرين. وقد قررت وفاته في مكان الحادث الطبيبة دانا بلا نشرد. أما السائق، ويدعى فرانك ميلر، وهو في الثانية والثلاثين من العمر، ويقيم في ٥٩٣ شارع فوكسون، فقد نقل إلى مستشفى ميلفورد، على متن سيارة إسعاف من شركة فلاناجان. وقد تلقى هناك العلاج اللازم ثم غادر المستشفى...
س ١: هل قتل أحد إثر الحادث؟
ج ١: [نعم، توفي ديفد هول].
س٢: هل جرح أحد؟
ج ٢: [نعم أصيب فرانك ميلر إصابة طفيفة].

قد يبدو نجاح هذه الإجابات أمرًا واهيًا بالنسبة للفهم البشري، ومع ذلك فقد لا تكون عادة حصيلة لمجرد تحليل قائم على المكونات التركيبية والمعجمية للجمل داخل النص. أي أن النص، بعبارة أبسط لا يذكر أن فرانك ميلر قد أصيب، فكيف أدرك الكمبيوتر (أو أي معالج آخر للمعلومات) ذلك؟ إنه يستعمل رصيدًا جزئيًا من معرفته بالعالم فيطبّقه على قطعة النص التي يصادفها. ويقترح ريزبك وشانك أننا نقوم بالشيء نفسه، وأن تحليلهما القائم على التوقع يقدّم «نظرية قابلة للتطبيق على الأسلوب الذي تتم به معالجة اللغة الطبيعية بين البشر» (١٩٧٨م ص ٢٩٠). يمكننا أن ننتقد الدعاوي التي يقترحها شانك وزملاؤه على أسس شبيهة بتلك التي وجهناها سابقا إلى منسكي. فإذا كانت المدارات عبارة عن أنساق حدثية نمطية على هذا النحو، فهل لنا حاجة أبدا

إلى وصف حادث سيارة غطي ، بما أن لنا معلومات عنه ضمن المدارات التي لدينا؟ مع الإشارة إلى أن مسألة المدارات الخاصة - كسؤال ابنة شانك عما إذا كان سيقتني سلسلة مفاتيح جديدة تناسب سيارته الجديدة (انظر شانك وإيبلسون ، ١٩٧٧م ص ٦٨) تدخل ضمن هذا النقد ، ولكننا لن نتوسع كثيرا في معالجتها . هذا مع اعتبار أنه قد تكون المدارات التي لدينا ، بطبيعة الحال ، من قبيل المدارات الخاصة أكثر مما هي من قبيل المدارات النمطية .

هناك انتقاد محدّد جدًا وخطير وجّهه كل من درستر وهورنشتاين ١٩٧٦م) إلى نظرية التبعية التصورية التي جاء بها شانك . فحينما يضع شانك الشرط الآتي لنحوية الصياغات التصورية بقوله :

«إن المخطط التصوري الذي لا يضم سوى المعلومات المنقولة عبر الجمل لا يعدّ نحويا من وجهة نظر تصورية - أي أن الصياغة التصورية لا تُعدّ كاملة إلا إذا شرحت فيها كل الحالات التصورية التي يتطلبها فعل (الخطاب)» (١٩٧٢م ص ٥٦٩) .

يلاحظ درستر وهورنشتاين على حقّ بأن مثل هذا الشرط يمثل وصفة ممكنة لعدد لا حصر له من الصياغات التصورية . فإذا كنا نورد «قم جون» ضمن صياغتنا التصورية للجملة (٢٨) الواردة سابقا في هذا الفصل ، أو لسنا كذلك نأتي بيد «جون» و «أصابعه» و «عضلات ذراعه» و «العمليات التي تدور في ذهنه» ، وما إلى ذلك لكي نشكل صياغة تصورية «كاملة» لتلك الجملة؟ إن هذا المأخذ خطير ، وهو يطرح مشكلة بالنسبة تقريبا لكلّ محاولة من أجل إقحام معرفتنا بالعالم في فهمنا للخطاب . تستطيع أن نرى كيف أن لبعض المعلومات غير اللغوية علاقة بفهمنا ، أو تشكيلنا التصوّري للجمل ، كما أننا قادرون على اقتراح أشكال لإقحام تلك المعرفة ضمن تحليلنا . غير أن ما يشكل علينا هو تحديد تلك المعرفة بمجرد الجزئيات ذات العلاقة التي يتطلبها فهم جمل معينة في ظروف معينة . إن المشكل البارز الذي يواجه نظرية شانك (ونظرية منسكي كذلك ، كما لاحظنا سابقا) هو إيجاد وسائل «مبدئية» لتحديد عدد التشكيلات التصورية التي يتطلبها فهم جملة معيّنة ، أي إننا - بعبارة أعمّ - بحاجة إلى وسيلة مبدئية نحدد بها اتساع أي شكل من أشكال التحليل يضمّ معلومات غير لغوية في وصفه للعملية التي يتم بها فهم المواد اللغوية .

على الرغم من هذا النقد العام للمبادىء النظرية التي يقوم عليها استعمال «المدارات» ، فقد بيّنت بعض الأبحاث التجريبية أن معالجة المدارات بوصفها «أنماطًا فعلية» (انظر باور وزملاءه ، ١٩٧٩م) تنظم معرفة الناس بشتى الأنشطة الروتينية يمكن أن تقدم نتائج تجريبية تدعم آراء شانك وزملائه . فقد وجد باور وزملاؤه (١٩٧٩م) لما طلبوا من بعض الأفراد أن يتذكروا نصوصا تتعلق بنشاطات روتينية (كالذهاب إلى مطعم ، أو التسوق عند أحد البقالين ، أو زيارة طبيب) ، أنه اختلطت في ذاكرة هؤلاء ، شيئا ما ، أفعال ورد ذكرها في النص بأفعال أخرى يوحي بها «المدار» . كما وجدوا أيضا أن هؤلاء الأفراد ، حين تعرض عليهم نصوص تم المزج بينها على نحو أخرج الأفعال المدارية من نسقها المتوقّع ، يتذكرون النصوص وقد جاءت الأفعال المدارية فيها على ترتيبها المألوف . مما يبيّن بالتالي وجود بعض الأدلة على أن مفهوم المدار قد تكون له بعض المبرّرات النفسية التي تزيد على وظيفته كأداة تنظيمية لتخزين المعلومات على نحو ما نرى في أجهزة الكمبيوتر . وهناك أدلة أخرى يقدمها سانفورد وجارود (١٩٨١م) اللذان يقيمان نظريتهما حول «المخطط الذهني» إلى حدّ كبير على أساس من مفهوم المدار الذي اقترحه شانك .

٧,٦,٣ المخططات الذهنية

اختار سانفورد وجارود (١٩٨١م) مصطلح «المخطط الذهني» للحديث عن «المجال المرجعي الموسّع» الذي نعود إليه في تأويل النصوص المكتوبة «إذ نستطيع أن ننظر إلى معرفتنا بالظروف المحيطة والمواقف على أنها تمثل المخطط الذهني الذي يكمن وراء تأويلنا للنص» . وهما يهدفان من ذلك إلى «تأكيد صلاحية نظرية المخطط الذهني لأن تمثل نظرية نفسية» (١٩٨١م ، ص ١١٠) تقابل نظرية كنتش (١٩٧٤م) القائمة على عامل الإخبار والتي تطرّقنا إليها سابقا في الفصل الثالث . ففي إطار المقاربة الإخبارية ، فإن وجود «النادل» مثلا ضمن الصورة الذهنية التي تتكون لدى القارىء بعد قراءته نصا حول «الذهاب إلى المطعم» ، يعتمد كليا على ما إذا كان النادل قد ذكر في النص صراحة أم لا . أما في إطار المقاربة على أساس المخطط الذهني ، فإن نصا حول «الذهاب إلى المطعم» سيخصّص بشكل تلقائي خانة للنادل ضمن الصورة الذهنية

[التي ستتكون لدى القارىء] . وكدليل على أن بعض الخانات المتعلقة بـ«الأدوار» تمثل مخططات ذهنية يقع تنشيطها ، يبيّن سانفورد وجارود أن هناك فروقا جوهرية في المدة الزمنية التي تستغرقها قراءة الجمل المستهدفة ، وذلك في الظرفين الآتيين :

[٣٢] (أ) العنوان: في المحكمة
كان فريد تحت الاستجواب
كان متهما بارتكاب جريمة قتل.
الجملة المستهدفة: كان المحامي يحاول إثبات براءته.
(ب) العنوان: قول الكذب.
كان فريد تحت الاستجواب.
لم يستطع قول الحقيقة.
الجملة المستهدفة: كان المحامي يحاول إثبات براءته.

في الظرف أ ، حيث تم تنشيط المخطط الذهني الخاص بالمحكمة ، لوحظ أن المدة الزمنية التي استغرقتها قراءة الجملة المستهدفة التي ذكر فيها المحامي كانت أسرع بكثير مما هي عليه في الظرف ب حيث نرى تنشيط مخطط ذهني غير مميّز .

يؤكد سانفورد وجارود أن نجاح عملية الفهم القائمة على المخطط الذهني يعتمد على درجة النجاعة التي يحققها صاحب النص في تنشيط المخططات الذهنية المناسبة . وهما يلاحظان أن «قطعة من النص لا بد أن تمثّل وصفا جزئيا محددا لعنصر من المخطط الذهني ذاته حتى يمكن لها أن تظهر ذلك المخطط للعيان» (١٩٨١م ص١٢٩) . ومن شأن هذه الملاحظات ، وكذلك بنية الأمثلة الواردة في (٣٢) ، أن تدعم وجهة نظرنا التي عبّرنا عنها في الفصل الرابع والتي مفادها أن العرض الناجع ، والتقديم الموضوعي بصفة خاصة ، هما اللذان يسهّلان معالجة النص . ولعل من وظائف التقديم الموضوعي على مستوى النص أن ينشط لدى القارىء مخططا ذهنيا معيّنا .

لا بدّ أن نؤكّد أن دعاوى سانفورد وجارود تتصل بالسهولة أو السرعة التي تتم بها معالجة نصوص قائمة على مخطط ذهني متماسك . وهما لا يقترحان أن النصوص التي لا يتوافر لها مباشرة بناء مخطط ذهني [متماسك] غير قابلة للمعالجة . من هنا ، فنظريتهما القائمة على المخطط الذهني ستواجه المشكلات نفسها التي تواجهها نظرية

الإطار إذا طبقناها على نص «البابا يقابل كبير الأساقفة» الوارد في المثال (٢٧) من الفصل السابع . إنهما سيقترحان بلا شك أن معالجة مثل هذه النصوص تستغرق مدة من الزمن أطول .

معظم النصوص التي يناقشها سانفورد وجارود تأتي في شكل نص مؤلف شديد الاختصار ، تم إعداده لكي يستعمل في الدراسات الموجهة التي تجري داخل مختبر لعلم النفس التجريبي . وهذه في الواقع ظاهرة عامة تميّز «النصوص» الواردة في أعمال علماء النفس المهتمين بدراسة تمثيل المعرفة . وعلى الرغم من أن سانفورد وجارود يفضلان مصطلح «المخطط الذهني» ، فهما يشيران إلى أن هناك جوانب مشتركة كثيرة بين فهمهما لمعالجة النصوص القائمة على أشكال سابقة من التمثيل المعرفي ، وبين دراسات أخرى يستعمل فيها عامة مصطلح «الأنساق الذهنية» ، وإذا كان هناك من فرق بين هذين المصطلحين في الاستعمال ، فيبدو أنه يكمن في أن المخططات الذهنية خاصة بسياق الحال (في السينما ، في المطعم) ، بينما تتّسم الأنساق بأنها أصناف من التمثيل المعرفي أكثر عمومية .

٧,٦,٤ الأنساق الذهنية(*)

سبق أن تطرقنا إلى مجال من دراسات الخطاب له علاقة بما [سمّيناه] نحو القصص (انظر الفقرة ٣,٩) وهناك أشرنا إلى وجود نوع خاصّ من النسق الذهني . ويرى القائلون بوجود نحو للقصص أن هناك لكل قصة نسقا ذهنيا محددا اجتماعيا وثقافيا ولها هيكل اصطلاحيّ محدد يضم مجموعة محددة من العناصر . ومن هذه العناصر عنصر «الإطار» ، ولعلّ الجملة الأولى من قصة بسيطة (مثل : كان الهدوء مخيّما على قاعدة سكوادرون في ليتل باكستون) تصلح لأن تكون مثالا على عنصر

(*) مع إدراكنا لما في معنى schemata من ارتباط بالخطط الجاهزة ، فقد اخترنا مصطلح «أنساق ذهنية» لترجمتها وذلك لسببين : أولا : أن في كلمة «نسق» ما يوحي بمعنى القالب الجاهز . ثانيا : أنها أيسر في الاشتقاق ، حيث يمكن أن نشتق منها (نسقي ، نسق . . . الخ) .

الإطار. وعلى الرغم من أن القصة البسيطة قد تقدم أمثلة عديدة من النسق الذهني القصصي، فمن الواجب الإشارة إلى أننا لا نقصد هنا أن النسق يكمن في القصة، بل إن الناس بالأحرى هم الذين لديهم أنساق ذهنية يستعملونها من ضمن أمور أخرى لإيراد قصص بسيطة وفهمها (مثال ذلك: أوصاف الأماكن لدى بروورا وتربنز، ١٩٨١م).

وتعدّ الأنساق الذهنية «هياكل معرفية مركّبة (بل وحتى اصطلاحية أو معتادة) من المستوى العالي» (فان دايك، ١٩٨١م، ص١٤١) تمثل «مسرحا للأفكار» (أندرسن، ١٩٧٧م) في عملية تنظيم التجربة وتأويلها. وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن لتلك الأنساق وظيفة حتمية تعدّ الفرد مسبقا لممارسة تجربته بشكل محدّد. فقد ننظر إلى التحيّز العنصري مثلا على أنه مظهر لنمط محدّد من التفكير بشأن أفراد نصادفهم لعهد قريب فنمنحهم صفات وأفعالا مخصوصة على أساس نسق ذهني مسبق رسمناه لأفراد جنس معين. وقد تكون هناك أيضا أنساق حتمية نعود إليها ونحن على وشك الوقوف على أصناف معينة من الخطاب، كما تدل على ذلك هذه الفقرة التالية من حوار:

[٣٣] (أ) سيبثّ الآن بيان لأحد الأحزاب السياسية، هل تريد أن تشاهده؟
(ب) كلاّ، أطفىء الجهاز، فأنا أعرف مسبقا ما سيقولون.

ومع ذلك، فالصورة العامة التي نجدها عن الأنساق الذهنية في إطار تحليل الخطاب أضعف بكثير. فبدلا من اعتبارها قيودا حتمية تحدّد كيفية فهمنا للخطاب، يمكن اعتبار الأنساق الذهنية بمثابة الخلفية المعرفية المنظمة التي تقودنا إلى أن نتوقّع أو نتنبّأ بمظاهر معينة في تأويلنا للخطاب. وبالفعل، فإننا نجد تانن (١٩٧٩م ص ١٣٨) يستعمل عبارة «هياكل التوقع» (اقتباسا من روس، ١٩٧٥م) للحديث عن الأثر الذي تمارسه الأنساق الذهنية على تفكيرنا. كما نجد لدى تاننن كذلك (١٩٨٠م) أدلة على أن مثل تلك التوقعات تؤثر في نوع الخطاب الذي نقوم بإصداره. فبعد مشاهدة فيلم (بدون حوار)، قامت مجموعة من الأمريكيين بوصف أحداث ذلك الفيلم والتقنيات السينمائية التي استعملت فيه بقدر كبير من التفاصيل. وفي المقابل، قامت مجموعة

أخرى من اليونانيين بإيراد قصص مطوّلة أضيفت إليها أحداث وتفاصيل عن الأغراض والأحاسيس التي صدر عنها أبطال الفيلم نفسه. ذلك أن تباين الخلفيات الثقافية قد تنتج عنه أنساق ذهنية مختلفة في وصف أحداث مشاهدة.

غير أن هذا الأثر ليس ناتجا فقط عن تباين الخلفيات الثقافية. فقد قدم أندرسن وزملاؤه (١٩٧٧م) نصا، نورده جزئيا هنا تحت المثال (٣٤) إلى مجموعة من الطالبات يفكرن في العمل في مجال تعليم الموسيقى، وكذلك إلى مجموعة من الطلاب ينتمون إلى فوج من المتخصصين في رياضة حمل الأثقال. ولدى كلتا المجموعتين خلفيات ثقافية متشابهة لكن المتوقع أن تكون لهما «اهتمامات» مختلفة:

[٣٤] في مساء كل سبت، ينظم أربعة من الأصدقاء الحميمين لقاء فيما بينهم. حين وصل جيري ومايك وبات، كانت كارين في غرفة الجلوس تدوّن بعض المحاضرات. فقامت سريعا بجمع الورق وأقبلت للتحية على أصدقائها عند الباب. فتبعوها إلى غرفة الجلوس، وكالعادة لم يتفقوا على ماذا سيلعبون. لكن جيري حسم الأمر في الآخر ورتّب الأمور، وبدأوا اللعب. كان مسجل كارين يملأ الغرفة بأنغام الموسيقى العذبة الرقيقة. ومن أول السهرة، لاحظ مايك ما في يد بات من ورق الديناري...
(أندرسن وزملاؤه، ١٩٧٧م ص٣٧٢)

لعلّ القارىء قد تشكّلت لديه الآن ومن غير شك «خطة» لتحليل الخطاب وأن لديه توقعات بأن جماعة الطالبات اللائي لهن اهتمام بالموسيقى سيأوّلن النص على أنه وصف لأمسية موسيقية. وذلك بالفعل ما اكتشفه أندرسن وزملاؤه، كما اكتشفوا أن جماعة الطلاب المختصين في حمل الأثقال قد فضلوا تأويل النص على أنه وصف لجماعة يلعبون الورق لا الآلات الموسيقية. ويقترح أندرسن وزملاؤه بأن التاريخ الشخصي للأفراد واهتماماتهم (وربما جنسهم) تسهم في تشكيل «أنساق ذهنية من المستوى الأعلى تجعلهم» ينظرون «إلى الرسائل [الخطابية] بأشكال معيّنة» (١٩٧٧م ص ٣٧٧).

يقتبس كل من تانن وأندرسن مفهومهما عن «النسق الذهني» من كتابات بارتلت (١٩٣٢م) الذي يرى أن ذاكرتنا في صياغة الخطاب لا تقوم على الترديد الأمين أو

[٣٥] إن جون لمجنون حقا، وهو يقوم بأشياء غريبة أحيانا. فقد ذهب البارحة إلى مطعم ساردي للعشاء. وبعد أن جلس وفحص قائمة المأكولات، طلب شريحة من اللحم المشوي ثم قام وغادر المطعم.

٥,٦,٧ النماذج الذهنية

اقترح جونسون - ليرد في سلسلة من المقالات رؤية معينة إلى كيفية تأويلنا للخطاب (وممارستنا له) تختلف عن وجهة النظر القائلة بوجود أشكال نمطية أو أنظمة تخزين ثابتة للمعرفة. ففي مقاله (١٩٨١م)، يرفض جونسون - ليرد تلك المعالجة المعنوية للجمل التي تقوم بالضرورة على التفكيك المعنوي للمفردات. ومن الأمثلة على هذا التفكيك ما يقترحه كل من فودور وكاتز (١٩٦٣م) من تفكيك «معنى» (رجل) إلى إنسان، بالغ، ذكر. كما أن تحليل شانك (١٩٧٢م) القائم على مفهوم التبعية التصورية الذي ناقشناه سابقا مثال آخر على هذه النظرة. ويرى جونسون - ليرد أننا قادرون بالفعل على تفكيك معاني المفردات، لكننا لا نفعل ذلك بصفة مميّزة في فهمنا العادي للجمل. فهو يقترح مثلا أن جملة من قبيل المثال (٣٦) تأوّل مباشرة على نحو يفهمه معظم الناس على أنه ثناء على الكتاب:

[٣٦] هذا الكتاب يسدّ فراغا ضروريا جدا.

لكننا نكتشف بعد التمحيص أن الجملة تقول في الواقع إن الفراغ هو الضروري، لا الكتاب. ولتفسير هذه العملية غير التحليلية التي نمارسها كل يوم في فهمنا للغة، يرى جونسون - ليرد أننا نستعمل المفردات داخل الجملة بمثابة «الإشارات إلى بناء نموذج ذهني مألوف» (١٩٨١م أ، ص ١٢٢). والنموذج الذهني عبارة عن تمثيل يتخذ شكل نموذج داخلي لواقع الأمر كما تعرضه الجملة. ومن الواجب أن نلاحظ أن تلك النماذج على الرغم من أنها لا توصف بأنها نمطية، فإن عبارة «مألوف» تتسلّل إلى وصفنا لها دون أي تفسير لما يتضمنه معنى تلك العبارة. وهناك علاوة على ذلك مشكلات نظرية يطرحها مفهوم النموذج «الداخلي» ويعترف جونسون - ليرد بوجودها (١٩٨١م أ، ص ١١٧). لكنه يلاحظ أن الأدلة التجريبية التي تقدمها الأمثلة (انظر

أندرسن وأورتوني، ١٩٧٥م، وأندرسن وزملاؤه، ١٩٧٦م وجارنهام، ١٩٧٩م) تدعم ما ذهب إليه من حصول الفهم عن طريق نماذج ذهنية أكثر مما هو عن طريق التفكيك المعنوي للمفردات. فحين طلب من بعض الأشخاص أن يتذكروا جملة من قبيل (٣٧)، وجد أندرسن وزملاؤه أن كلمة (القرش) قد ساعدتهم على تذكر الجملة أفضل بكثير من كلمة (سمكة):

[٣٧] هاجمت السمكة السبّاح.

ويفسّر جونسون - ليرد هذه الحقيقة باقتراح أن القرّاء قد أوّلوا الجملة بتأليف نموذج ذهني يكون الحدث والعناصر ذات العلاقة فيه ممثّلة. علينا أن نلاحظ هنا أن هذا المثال يتّسم على الأقلّ بأنه نموذج نصّيّ يتّصل بنص محدّد، بما أنه من السهل جدا تصوّر نصوص لا تذكر فيها كلمة (سمكة) بالقرش مطلقا.

وفي (١٩٨٠م، ١٩٨١م ب)، يعود جونسون-ليرد إلى أفكار من نظرية علم الدلالة النموذجي النظري لدعم مفهومه عن النماذج الذهنية. ففي إطار هذا العلم، يمكن استعمال بنية النموذج لتمثيل حالة ممكنة من الحالات عند نقطة معيّنة في الزمان والمكان يمكن أن توافق «معنى» جملة من الجمل (انظر: تومسون، ناشرا، ١٩٧٤م، بارتي، ناشرا، ١٩٧٦م). لن نستفيض هنا أكثر في وصف نظرية علم الدلالة النموذجي النظري، ونكتفي بالإشارة إلى أن المقصود منها ليس إعطاء تفسير نفساني للمعنى والفهم. وكما يلاحظ جونسون-ليرد، فإن نظرية النموذج تربط اللغة بالعالم، ولكن ليس عن طريق العقل البشري. إن ما يجدر بنظرية نموذج طريفة من وجهة نظر نفسانية أن تلتفت إليه هو إبراز أن «اللغة الطبيعية بوصفها رباطا بيننا وبين العالم إنما تفعل ذلك من خلال قدرة العقل الفطرية على تأليف نماذج من الواقع» (جونسون ليرد، ١٩٨١م ب، ص ١٤١).

وبطبيعة الحال، فهذه النماذج من الواقع أشكال مختلفة لتمثيل العالم من حولنا، وقد تختلف من فرد لآخر. ذلك لا محالة هو ما يحدث حين تكون تلك النماذج نتيجة لفهم المتلقي (أو القارىء) للخطاب. يقول جونسون - ليرد (١٩٨١م

ب، ص ١٣٩): «من أهمّ وظائف اللغة أن تمكّن الفرد من ممارسة تجربة الآخر مع العالم بالوكالة: فبدلا من أن يستوعب وضعا معينا من الأوضاع بشكل مباشر، يقوم المتلقي بإنشاء نموذج من تلك الأوضاع بناء على ملاحظات المتكلم».

وكمثال على ذلك، يلاحظ جونسون - ليرد وجارنهام (١٩٧٩م) أن تأويل وصف محدّد لا يتقرّر بكون الموصوف فريدا من نوعه في العالم، وإنما بكون النموذج الخاص الذي تمّ إنشاؤه لخطاب معيّن هو الفريد من نوعه. فإذا قال المتكلم:

[٣٨] ذهب الرجل المقيم في البيت المجاور إلى عمله بالسيارة.

فقد يتشكل لدى المتلقي نموذج معيّن لوضع معين من الأوضاع يمثل شخصا ما (هو جار المتكلم، وله سيارة، وله عمل... إلخ). ولكن من غير المحتمل أن يفترض المتلقي أن للمتكلم جارا واحدا فحسب.

ويؤدي اقتراح جونسون - ليرد بأن عملية الفهم تتمّ عن طريق إنشاء نماذج ذهنية إلى رؤية للفهم والاستنتاج تختلف كثيرا عن تلك التي تطرقنا لها حتى الآن. وطبقا لهذه الرؤية، هناك مستوى للفهم يعتمد على نموذج ذهني لا ينتج بالضرورة، كما لاحظنا في المثال (٣٦)، عن معالجة مفصّلة للنص الذي أمامنا. غير أن هناك مستويات أخرى للفهم تنتج عن معالجة النموذج الذهني الذي تم إنشاؤه، وقد تؤدي إلى التخلّي عن ذلك النموذج واستبداله بآخر. وليست هناك في خلال هذه العملية قواعد للاستنتاج، وإنما مجرّد طرق لاختبار النموذج الذهني الجديد لمعرفة ما إذا كان يلائم الوضع الذي يصفه النص. وكمثال على ذلك، يورد جونسون - ليرد المثال (٣٩) وهو من نوع الأمثلة المستعملة في مناقشات الاستنتاج القياسي.

[٣٩] كل المغنّين أساتذة.
كل الشعراء أساتذة.

اعتمادًا على المقدمتين المبدئيتين الواردتين في (٣٩)، يمكننا إنشاء نموذج فيه، على سبيل المثال، ستة أشخاص داخل غرفة، ثم نمنحهم أدوار المغني والشاعر والأستاذ

على نحو يلائم الوضع الذي تصفه الجملتان الواردتان في (٣٩). أحد النماذج التي تتبادر إلى الذهن مباشرة، بالنسبة للأشخاص الستة، هو أن التمثيل الوارد فيما يلي تمثيل صادق:

[٤٠] المغني = الأستاذ = الشاعر.

وفقًا لهذا النموذج، فإن الاستنتاج بأن «كل المغنّين شعراء» أو أن «كل الشعراء مغنّون» استنتاج له ما يبرّره. وقد ذكر جونسون - ليرد و ستيدمان (١٩٧٨م) أن هذا بالنسبة لكثير من الناس هو الاستنتاج الطبيعي. على أنه من الممكن اختبار النموذج الوارد في (٤٠) بالقياس مع الوضع الذي يصفه المثال (٣٩) لنكتشف أن ذلك التمثيل ليس بالضرورة صحيحا. فلو أحدثنا تعديلا في ذلك النموذج، فإنه من الممكن التوصل إلى الصيغة التمثيلية (٤١) حيث تكون المعادلة أ صادقة بالنسبة لثلاثة أشخاص، والمعادلة ب صادقة بالنسبة للثلاثة الآخرين.

[٤١] (أ) المغني = الأستاذ
(ب) الشاعر = الأستاذ

فبناء على (٤١)، يمكن لأحدنا أن يستنتج بأنه ليس من بين المغنّين أي شاعر. فإذا أحدثنا تعديلا إضافيا، فقد نتوصل إلى النموذج (٤٢) حيث تصدق المعادلة أ على أربعة أشخاص، والمعادلة ب على شخص واحد، والمعادلة ج على الشخص المتبقي.

[٤٢] (أ) المغني = الأستاذ = الشاعر
(ب) المغني = الأستاذ
(جـ) الشاعر = الأستاذ

وهكذا يمكن لأحدنا أن يستنتج بأن بعض المغنّين شعراء.

لعلّه بات من الواضح أن الجملتين الواردتين في (٣٩) يمكن أن تولّدا نموذجا ذهنيا له عدة أشكال مختلفة يتصل بالأشخاص الستة ذوي الهويّات المختلفة. ويصف

جونسون – ليرد (١٩٨٠م، ص ٨١) عملية التعديل التي أجريناها منذ حين بأنها «اختبار لمدى قابلية نموذجك الذهني للهدم». قد لا يكون اهتمام محلّل الخطاب على قدر اهتمام عالم المنطق بمتابعة عملية «الاختبار» هذه إلى مداها الأقصى، لكن يجب عليه الإقرار بأن مفهوم جونسون – ليرد للفهم عن طريق إنشاء نماذج ذهنية وإجراء تعديلات عليها يمثّل مجازا مفيدا لتحديد الكيفية التي يمكن بها «فهم» نصّ معيّن على مستويات مختلفة. كما أن هذا المفهوم يتلاءم مع ذلك المظهر من مظاهر فهمنا للخطاب (الذي سبق أن أبرزناه في الفقرة ٢ ,٦) والذي يسمح باختلاف التأويلات الحاصلة لدى عدد من المتلقين عن التأويل الذي يقصده صاحب الخطاب. إن النموذج الذهني المشكّل عن الخطاب لدى المتلقي الواحد قد يختلف عن ذاك الذي لدى صاحب الخطاب، وليس هناك ما يدعو لأن يكون النص بأيّ حال هو النموذج.

قد يكون من الواضح من خلال مناقشة الجملتين الواردتين في (٣٩) كيف أن جونسون-ليرد يريد منّا أن ندرك على نحو معيّن دعواه بأن ليس هناك قواعد للاستنتاج ضمن المقاربة التي يقترحها لعملية الفهم، والتي تقوم على مفهوم النموذج الذهني. ففي حين تعتبر المعادلات الواردة في (٤٠)، (٤١) و(٤٢) عادة استنتاجات مستخلصة من (٣٩)، فإنها تمثّل ضمن تحليل جونسون – ليرد أشكالا مختلفة من نموذج ذهنيّ معين أنشيء للنص. أي أن ما نصفه عادة بأنه استنتاج لوضع معيّن بناء على وضع آخر معروض ضمن هذه الرؤية البديلة على أنه نموذج معين لوضع من الأوضاع، أو بناء نموذج آخر انطلاقا من وضع آخر مغاير. وهذا الفرق من وجهة نظر محلّل الخطاب قليل الجدوى من الناحية العملية.

لا أثر في نظرية جونسون – ليرد حول فهم الخطاب عن طريق النماذج الذهنية لتلك المجموعات من العناصر النمطية التي شاهدناها في «الإطارات الذهنية»، ولا لتلك المجموعات من الأحداث المميزة الموجودة في «المخطط الذهني» السرديّ. ولعلّ بقاءنا في حيرة ونحن نحاول اكتشاف الجوانب العملية للنماذج الذهنية يعود لهذا السبب. يبدو أن تلك النماذج تمثل طريقة في التفكير حول كيفية فهمنا للخطاب أكثر مما هي طريقة في ممارسة تحليل الخطاب. ومع ذلك فالمشكلة التي كثيرا ما واجهتنا مع الطرق الأخرى المتعلقة بمعالجة الخطاب وفهمه – تلك التي تضبط القيود على نوع

المعرفة التي نستعملها – لا بدّ أن تكون قائمة كذلك بالنسبة للنماذج الذهنية. فحينما نبني نموذجا ذهنيا معيّنا لخطاب ما، فنحن نستعمل جزءا من معرفتنا وتجربتنا المسبقة لنشكل لأنفسنا «صورة» عن الوضع الذي يصفه ذلك الخطاب. فما الذي يجعلنا لا نستعمل كامل معرفتنا المسبقة؟ وحتى نصوغ هذا السؤال بعبارة أكثر تحديدا، هل يمكن لنظرية النماذج الذهنية، حين نطلب من بعض الأشخاص أن يتذكروا جملة من قبيل (هاجمت السمكة السبّاح)، أن تحدّد مسبقا أن كلمة (قرش) ليست فقط أفضل تلميحا إلى الإجابة من (سمكة)، بل وأن كلمات مثل (دم) أو (أسنان) أو (محيط) أو (عضّ) أو (لطخ) هي كذلك أفضل؟ ليست لدينا في الوقت الراهن إجابات عن هذه الأسئلة. إن نظرية النماذج الذهنية - كما حدّدناها هنا - تعرّفنا مسبقا في الواقع بأشكال ذهنية بالغة التفصيل لتمثيل أي حدث نصادفه سواء في حياتنا أو عبر نصّ من النصوص. يمكن أن نذكر بأن من مزايا مفهوم النموذج الذهني أنه يتيح المجال لتمثيل أكثر غنى من تلك الأشكال النمطية الجرداء نوعا ما، والتي رأيناها في المدارات والمخططات الذهنية. فالمثال (٣٢) الذي أوردناه سابقا للدلالة على وجود رباط (تلازم) بين «في المحكمة» وبين «المحامي»، يصف لنا فيما يبدو مشهدا في قاعة محكمة تبدو خالية ومجرّدة إلى حدّ الغرابة من كل الجزئيات، وهذا مما يتناقض مع التجربة التي لدى معظم الناس [عن قاعة المحكمة]. لكن طاقة النموذج الذهني غير المقيّدة تنقلنا إلى النقيض الآخر. فهي تؤدي إلى عجز مميّز عن معالجة النصوص. ويقدّم لنا لوريا (١٩٦٩م) مثالا حسن التوثيق لحالة مريض «النماذج الذهنية» لديه تفتقر إلى ضوابط. ولعلّنا نستشفّ الآثار المعوّقة لهذا النقص ضمن التقرير الآتي:

> في العام الماضي، قرىء عليّ نصّ واجب يتحدث عن بائع باع كميات كبيرة من القماش.. بمجرّد سماعي كلمة (بائع) و(باع) شاهدت المحلّ وصاحب المحلّ وهو واقف وراء المنضدة ولا يظهر لي منه سوى الجزء الأعلى من جسمه. وكان يتعامل مع ممثل لأحد المصانع. كما رأيت المشتري واقفا عند باب المحلّ وقد أدار ظهره نحوي. وحين تحرك قليلا نحو اليسار، لم أشاهد المصنع فحسب بل وكذلك عددا من دفاتر الحسابات – وهذه تفاصيل لا علاقة لها تماما بالواجب المطلوب. ولهذا لم أتمكن من معرفة أساس القصة.
> (لوريا، ١٩٦٩م ص ٦٦)

المشكلة البارزة بالنسبة لمريض لوريا، وكذلك بالنسبة لمحلّل الخطاب الذي يرغب في تمثيل التفاعل القائم بين المعرفة السابقة / التجربة واستيعاب الخطاب الذي بين يديه هي أن يتوصّل إلى حلّ وسط يكون عمليًا. ومن الواجب في هذا الحلّ الوسط أن يكون هناك قدر كاف من الغنى في التفاصيل لاستيعاب تلك الطاقة الكامنة من التعقيد الذي يميّز معرفتنا / تجربتنا المسبقة، بل يجب أيضا أن يكون هناك قيد يحدّد القدر الذي نستعمله فعلا من تلك التفاصيل أثناء معالجتنا للخطاب الذي نصادفه.

٧,٧ تحديد الاستنتاجات اللازمة

ينتمي قدر كبير من الأمثلة المعروضة في هذا الفصل إلى ذلك الصنف الذي يعدّ عامة مما يتطلب من القارىء القيام باستنتاجات معينة من أجل التوصل إلى تأويل خاص. ومفهوم الاستنتاج الذي نقصده والذي يتّسم بالعمومية شيئا ما يتصل بتلك العملية التي يجب أن يقوم بها القارىء (أو السامع) للانتقال من المعنى الحرفي لما هو مكتوب (أو مقول) إلى ما قصد الكاتب (أو المتكلم) من وراء الخطاب. فالنظرة العامة، على سبيل المثال، إلى تأويل قول من قبيل المثال (٤٣) – وهو جملة جاءت للتعبير عن طلب غير مباشر – هي أن السامع قد انتقل من المعنى الحرفي إلى معنى معيّن نجده مثلا في (٤٣أ) وذلك عن طريق عملية (أو عمليات) استنتاج لما قصد المتكلم قوله:

[٤٣] إن الجو بارد حقًا هنا وهذا الشباك مفتوح.
[٤٣ أ] اقفل الشباك من فضلك.

أي أن الجملة (٤٣)، بعبارة أخرى، لا «تعني» (٤٣ أ)، وإنما على السامع بالأحرى وهو يتلقى الجملة (٤٣) في سياق معين أن يستنتج أن المتكلم قصد بها ما جاء في (٤٣أ). وللتدليل على أن هناك عملية استنتاج أو استدلال من نوع ما لا بدّ منها في تأويل صيغ الطلب غير المباشر، فقد برهن كلارك ولوسي (١٩٧٥م) بالاعتماد على نماذج متنوّعة من الصيغ غير المباشرة ومقابلاتها المباشرة أن القرّاء وهم يمحّصون الخطاب يقضون مدة زمنية أطول في التعامل مع الصيغ المباشرة، وقد لوحظ ذلك بشكل منتظم. ويزعم كلارك (١٩٧٨م) أن المدة الزمنية الإضافية التي يحتاج إليها

القارىء تمضي في المعالجة الاستنتاجية أو الاستدلالية التي يجريها على صيغة الطلب غير المباشر.

كما يقدم هافيلند وكلارك (١٩٧٤م) أدلة شبيهة جدا ليبيّنا أن «التعرف على المسميّات التي تحيل إليها الأسماء المعرفة يمثل نشاطا استدلاليا إلى حدّ كبير» (كلارك، ١٩٧٨م ص ٣١٣). وقد وجد هافيلند وكلارك أن تحديد المسمّى الذي يحيل عليه لفظ «العصير»[٧] في المثال (٤٥ ب) قد تطلب من القراء وقتا أطول بكثير مما في (٤٤ب):

[٤٤] (أ) أخرجت ماري من السيارة شيئا من العصير.
(ب) كان العصير ساخنا.
[٤٥] (أ) أخرجت ماري من السيارة بعض المدخرات لتتناولها أثناء النزهة.
(ب) كان العصير ساخنا.

وقد فسّرا هذا بوجود مظهر خاص من مظاهر العملية الاستدلالية وصفاه بأنه عبارة عن «جسر افتراضي»، وتبين الجملة (٤٥ج) الجسر الافتراضي الذي يتطلبه الربط بين (٤٥ أ) و (٤٥ ب):

[٤٥] (ج) تتضمن المدخرات المذكورة التي سيتناولونها أثناء النزهة شيئا من العصير.

وتتطلب إقامة هذا الضرب من الجسور الافتراضية شيئا من الوقت مما يفسّر بالتالي وجود تفاوت في آماد الاستيعاب التي لوحظت بين (٤٤ب) و(٤٥ ب). وهكذا فما يترتب على هذا النوع من النتائج هو أن عمليات الاستدلال تستغرق وقتا.

٧,٨ الاستدلال بوصفه اكتشافا للحلقات المفقودة

يمكن اعتبار المعلومة الواردة في (٤٥ جـ)، من وجهة نظر شكلية، الحلقة الضائعة المطلوبة لإقامة علاقة صريحة بين (٤٥أ) و(٤٥ب). فهل من الممكن بالتالي تصوّر

(٧) المثال في الأصل يتحدث عن «الجبنة».

عملية الاستدلال على أنها اكتشاف للحلقة (أو الحلقات) المفقودة التي تربط بين قولين؟ يبدو أن هذا وارد ضمنيا في أبحاث كلارك وزملائه، كما يبدو كذلك أنه الأساس لصنف «المستدلات» الذي ذكره برينس (١٩٨١م) والذي تطرقنا إلى وصفه في الفقرة ٢,٣,٥ . وبالفعل، فإن هناك أمثلة عديدة فيما كتب من أبحاث حول الأوصاف المحددة يمكن أن نعالجها من زاوية «الحلقة المفقودة» هذه. لننظر في بعض هذه الأمثلة التي سنقدم كلاً منها في شكل الجملتين (أ) و (ب) («النص») وتربط بينهما المعلومة الواردة في الجملة (ج) («الحلقة المفقودة»).

[٤٦] (أ) اشتريت دراجة البارحة.
(ب) إطارها من الحجم الكبير جدا (تشيف،١٩٧٢م)
(جـ) للدراجة إطار.

[٤٧] (أ) ألقيت نظرة في داخل الغرفة
(ب) كان السقف عاليا جدًا. (كلارك، ١٩٧٧م)
(جـ) للغرفة سقف.

[٤٨] (أ) جاءني إلى مكتبي اليوم بعد الظهر رجل غريب.
(ب) كان أنفه تقريبا أرجوانيًا. (فان ديك، ١٩٧٧م)
(جـ) للرجل أنف.

[٤٩] (أ) امتطيت البارحة حافلة.
(ب) وكان سائقها في حالة سكر. (برينس، ١٩٨١م)
(جـ) للحافلة سائق.

في كل من هذه الأمثلة، تعبّر جملة الحلقة المفقودة عن نوع من العلاقات التي هي عبارة عن حقائق عامة، والتي يمكن أن تتخذ شكل صيغة محدّدة في جميع الأحوال من قبيل (كل س له جـ). وفي الواقع، فإن كل جملة من الجمل الأربع الواردة تحت (جـ) في الأمثلة السابقة (من ٤٦ إلى ٤٩) تسوق معلومة يمكننا أن نتوقع مجيئها في أحد أشكال المعرفة النمطية (مثل الإطارات المعرفية والأنساق الذهنية) التي ناقشناها في الفقرة ٦,٧ . ويمكننا أن نقول الشيء نفسه بالنسبة للعلاقة (كل س هو جـ) التي تعبر عنها الجمل جـ في المثالين الآتيين:

[٥٠] (أ) جاءت الحافلة بسرعة شديدة من منعطف الشارع.
(ب) كانت المركبة أن تدوس أحد المارّة (جارود وسانفورد ١٩٧٧م)
(جـ) الحافلة مركبة.

[٥١] (أ) ارسم قطر الدائرة بالأسود.
(ب) طول الخط ثلاث بوصات تقريبا (يول ١٩٨١م)
(جـ) القطر خطّ.

كما تظهر هذه الحلقات المفقودة التي هي من قبيل الحقائق العامة في شكل علاقة بين الفعل في جملة أو عبارة ما، وبين الاسم المعرّف في جملة أو عبارة أخرى، كما في الأمثلة الآتية:

[٥٢] (أ) قرّرت أن تبيع البقرة.
(ب) وأن تشتري متجرا بثمنها. (تشيف ١٩٧٢م)
(جـ) يقتضي البيع وجود ثمن.

[٥٣] (أ) كانت الليلة التي قتل فيها المليونير مظلمة وعاصفة.
(ب) لم يترك القاتل للشرطة أيّ خيوط تساعد على معرفته. (كاربنتر وجاست ١٩٧٧م ب)
(جـ) تقتضي جريمة القتل وجود قاتل.

[٥٤] (أ) ألبست ماري الرضيع.
(ب) كانت الثياب من الصوف الزهري. (سانفورد وجارود ١٩٨١م)
(جـ) يقتضي الإلباس وجود ثياب.

استعمل سانفورد وجارود المثال الأخير (٥٤) أثناء تجربة موجّهة لاختبار ما إذا كان اكتشاف الحلقة المفقودة يتطلب تلك المدة الزمنية الإضافية التي أشار هافيلند وكلارك (١٩٧٤م) إلى وجودها بالنسبة لمثال «العصير» و «ما يتناول أثناء النزهة» الذي أوردناه سابقا في هذا الفصل (المثال ٤٥). وبعد تسجيل المدة الزمنية التي استغرقها فهم الجملة (ب) من (٥٤) ومقارنتها بتلك التي استغرقها فهم الجملة (ب) من (٥٥)، لم يلاحظ وجود فروق تذكر بينهما.

[٥٥] (أ) ألبست ماري الرضيع ثيابه.
(ب) كانت الثياب من الصوف الزهري.

أي إنه بالرغم من أننا قادرون على الإشارة إلى حلقة مفقودة في (٥٤ جـ)، فإن الذين أجري عليهم الاختبار لم يتصرفوا وكأن تلك الحلقة المفقودة تحتاج إلى مدة زمنية إضافية لكي تتحدّد. فهل من شأن هذه النتيجة أن تلغي ما توصّل إليه هافيلند وكلارك (١٩٧٤م) من أن وجود حلقة مفقودة يتطلب قدرا من المعالجة الإضافية؟ لا يعتقد سانفورد وجارود ذلك. بل يقترحان أن الحلقة المفقودة إذا كانت منذ البداية جزءا من النموذج المعرفي (كالإطار المعرفي أو النسق الذهني) الذي يحركه في أذهاننا جزء معيّن من النص، فلا حاجة إلى معالجة إضافية لفهم ما يأتي لاحقا من إحالة إلى عنصر آخر من ذلك النموذج المعرفي. فبما أن «اللبس» يثير في أذهاننا «اللباس» وذلك عند تمثلنا للجزء الأول من النص (٥٤ أ)، فما يذكر لاحقا عن «اللباس» في رأيهما سيفهم بالسرعة نفسها تماما كما لو كان «اللباس» قد ذكر صراحة، مثلما هو الشأن في المثال (٥٥ أ). ومع ذلك، وبما أن «ما يتناول أثناء النزهة» لم يحرّك مباشرة صورة «العصير» في أذهان الأفراد الذين قام هافيلند وكلارك باختبارهم، فقد كان عليهم أن يفترضوا شيئا ما لسدّ ذلك الفراغ، فاحتاجوا بالتالي إلى مدة زمنية إضافية لمعالجة النص.

يبدو إذن أن لدينا (على الأقل) نوعين من الحلقات المفقودة. أحدهما يتوصّل إليه مباشرة ولا تتطلب معالجته مدة زمنية إضافية، والآخر لا يعرف مباشرة، لكنه يتطلب افتراضا معيّنا لمعرفة الحلقة المفقودة، وبالتالي يؤدي إلى مدة زمنية إضافية لمعالجة النص. فإذا أردنا التمسك باقتراحنا السابق من أن عمليات الاستدلال تتطلب وقتا، فإن ذلك يستلزم منا بالضرورة ألا نعتبر تلك الحلقات المفقودة التي نتوصل إليها مباشرة (من غير حاجة إلى قدر إضافيّ من المعالجة) من قبيل الاستدلال. تلك هي النتيجة الطبيعية التي يتوصّل إليها أي باحث ينطلق من أساس التجربة ولا يكتشف دليلا على أن هناك عملية افتراض قد حصلت. فلنفترض إذن أن «الحلقات المفقودة» جمل يمكن التعرف عليها شكليا كما يمكن الكشف على أنها تقيم علاقة، مبنية على وجود أدوات ربط صريحة بين الجمل داخل النصوص. قد يكون إيجاد هذه الحلقات المفقودة جزءا من تدريب على كيفية بناء النصوص، لكن ذلك لا يعني بناء لما يقوم به الناس أثناء

فهمهم للنصوص. يمكننا إذن أن نميّز بين عمليات الاستدلال (الاستنتاج) وإيجاد الحلقات المفقودة على النحو التالي: قد تكون هناك حلقات مفقودة من الناحية الشكلية داخل النصوص، لكن القراء والمتلقّين هم الذين يقومون بعمليات الاستدلال. فاكتشاف الحلقات المفقودة يختلف عن عمليات الاستدلال.

٧,٩ الاستدلال بوصفه إقامة لعلاقات غير تلقائية

يقترح سانفورد وجارود أن هناك علاقات تلقائية نقيمها بين العناصر المكوّنة لنص ما عن طريق نماذج معرفية مسبقة موجودة لدينا. ويمكننا أن نعتمد هذا الاقتراح أساسا لنميّز بين الحلقات المفقودة فنحدّد ما هو من قبيل الاستدلال منها مما هو ليس كذلك. أي أن كلّ الجمل المرقمة بـ(جـ) من الأمثلة (٤٦) إلى (٥٤) تعبّر عن علاقات تلقائية، وبالتالي يجب ألا نعدّها من قبيل الاستدلال؛ أما العلاقة بين (ما يتناول أثناء النزهة) وبين (العصير) في المثال (٤٥) فهي غير تلقائية، ويجب لذلك أن نعتبرها ضربا من الاستدلال. يبدو أن مثل هذا الاقتراح يسير في خط موازٍ لما يراه بوجراند من أن هناك في فهمنا لما نقرأ وما نسمع عملية «تنشيط تعميمية تنتج بشكل طبيعي عن إثارة المفهوم [في أذهاننا] أثناء صياغة الفكرة واستيعابها من غير أن تكون لها دوافع موجهة توجيها محدّدا» (١٩٨٠م ص ٢٢٩). وتتجه تلك «الدوافع الموجهة توجيها محدّدا» من جهة أخرى وبشكل مريح إلى تجاوز الانقطاعات أو الثغرات التي تتخلّل فهم القارىء (أو السامع) لما يقرأ (أو يسمع)، وهي تعالج على نحو أكثر ملاءمة إذا عدّت من قبيل الاستدلال. ويسمح لنا هذا الفارق بأن نفكّر في العلاقات غير التلقائية (الاستدلالات) باعتبارها تتطلب من القارىء (أو السامع) «عملا تأويليا أكبر» مما تتطلبه العلاقات التلقائية القائمة على معلومات مسبقة.

كما يمكن لفكرة «العلاقات التلقائية» أن تطبّق بشكل ناجع على مظهر من مظاهر فهمنا للنص تمت مناقشته في إطار مفهوم «المعلومات الاستدلالية» (وارن وزملاؤه ١٩٧٩م). وبما أن نوع «المعلومات» المذكورة تتضمن فيما يبدو علاقات تلقائية بين الجمل داخل النص، فلعلّه من غير الملائم أن توصف هذه الظاهرة بكونها مثالا من أمثلة «الاستدلال». يرى وارن وزملاؤه (١٩٧٩م) أننا في فهمنا لنص ما نحتاج

باستمرار إلى معرفة الإجابة عن تلك الأسئلة من قبيل «من»، «ماذا»، «أين» و«متى». والوصول إلى إجابات عن هذه الأسئلة، عند مرحلة معينة من النص، يتم عن طريق جملة من «المعلومات الاستدلالية». على هذا النحو، فإن القارىء، وقد وصل إلى هذه الجملة الأخيرة من النص التالي (المثال ٥٦)، «ربط خيطي حذائها معا»، بحاجة إلى أن يستدلّ على من يفعل ماذا ولمن وأين ومتى.

[٥٦] يوم الجمعة بعد الظهر،
كانت كارول ترسم لوحة في قاعة الدرس،
فأراد دافيد أن يزعجها.
ومن غير أن تراه كارول
ربط خيطي حذائها معا.
(وارن وزملاؤه، ١٩٧٩م، ص ٢٤)

قد يكون من سوء الحظ أن يختار وارن وزملاؤه مناقشة مسألة «المعلومات الاستدلالية» فيما يتصل بفهمنا لمثال بسيط كهذا. فبناء على مبادىء القياس والتأويل المحلّي التي تطرقنا إليها في الفصل الثاني، فإننا ندرك بشكل تلقائي واضح من يفعل ماذا ولمن ومتى وأين عند قراءتنا للجملة الأخيرة من هذا النص. وبما أنه لا وجود لأيّ «منافسة» بين أزمنة مختلفة أو أماكن مختلفة أو أطراف مختلفة، فإن فهم الجملة الأخيرة لا يتطلب من القارىء «جهدا» تأويليا كبيرا. لنفترض إذن أن إدراك القارىء أن (دايفد ربط خيطي حذاء كارول معا في قاعة الدرس يوم الجمعة بعد الظهر) هو نتيجة لعلاقات تلقائية واضحة يقيمها وليس مطلقا حصيلة عمل استدلالي.

غير أن هناك بعض النصوص التي تطرح على بعض القراء مشكلات في فهم من وماذا وأين ومتى هي أكثر جوهرية مما نراه في النص البسيط الوارد في المثال (٥٦)، وسنتطرق إلى هذه المسألة لاحقا عند مناقشة الأمثلة (٦١) و(٦٢). ويواصل وارن وزملاؤه نص المثال (٥٦) بالجملة التي نوردها هنا تحت المثال (٥٦أ)، ويقترحون أن هناك «استدلالا منطقيا» لا بدّ منه لربط الجملة الأخيرة من (٥٦) بالجملة التي في (٥٦أ):

[٥٦أ] تعثرت كارول ووقعت على الأرض.

ويقوم القراء بشكل مميز بمثل هذا الضرب من «الاستدلال المنطقي»، الذي يختار هيلديارد و أولسن (١٩٧٨م) تسميته بـ«الاستدلال التمكيني»، لإقامة الصلة بين فعل ما يتسبب في حصول فعل آخر. ومن الطريف أن يصف وارن وزملاؤه علاقة «السببية» في مثالهم باعتبارها «توقعا محددا» (١٩٧٩م، ص ٢٦) قد يقوم به قارىء المثال (٥٦). فإذا أمكن لاستدلال منطقي من هذا القبيل أن يقوم على توقع، فمن الواضح أنه يندرج ضمن مجموعة العلاقات التلقائية. ويفترض في قاعدة المعلومات التي تقوم عليها مثل تلك التوقعات أن تشمل جملة عامة من العلاقات السببية. ومن شأن هذا الضرب من المعلومات أن يقود القارىء إلى عدم القيام باستدلال منطقي للربط بين الجملتين الأوليين من المثال (٥٦) أي أن كون الزمن (يوم الجمعة بعد الظهر) ليس هو الذي دفع كارول إلى رسم لوحة. يبدو أن مفهوم «الاستدلال المنطقي» في هذا النص البسيط الذي بين أيدينا يعني إقامة جملة من «العلاقات التلقائية». غير أن هناك نصوصا قد تكون العلاقة السببية فيها غير تلقائية في الواقع. ويعود هذا إلى أن القارىء قد يسأل لماذا أو كيف بشأن فعل ما أو حدث وارد في ذلك النص. ومن شأن تلك الأسئلة أيضا أن تؤدي إلى ما يسمّيه وارن وزملاؤه بالاستدلالات «التفصيلية» و«التقييمية». عند هذا الحد، تبدأ أنواع الاستدلالات المقترحة ضمن هذا التصنيف في التداخل. وسنحاول ضرب مثال عن الاستدلالات «التفصيلية» و«التقييمية» أثناء مناقشتنا للمثال (٦١) بعد حين في هذا الفصل. أما الآن، فسنركز الاهتمام على ما تتضمنه نظرية ترى أن العلاقات التلقائية التي نقيمها أثناء فهمنا للنصوص يجب ألاّ تعالج على أنها من قبيل الاستدلال.

من الفرضيات التبسيطية التي قدّمتها كثير من الدراسات اللغوية النفسية حول عملية فهم النصوص أن الأفراد الذين جرت عليهم التجربة يمثلون عيّنة من الناس لهم خلفية متجانسة إلى حدّ ما من المعلومات والخبرة. وهناك فرضية أخرى تعتبر أن نصّا من جملتين يؤلف تأليفا خاصا ويكون مقتطعا من السياق يشكل عيّنة كافية تمثل المادة اللغوية التي يصادفها مستعمل اللغة بوصفها نمطا من أنماط الخطاب التي ترد بشكل

طبيعي . من الممكن ـ بناء على هاتين الفرضيتين ـ أن نميز بين معالجة النصوص التي تتضمن علاقات تلقائية (إلباس الرضيع – الثياب)، وتلك التي تتضمن علاقات غير تلقائية (ما يتناول أثناء النزهة – العصير) . وعليه، فإن باستطاعتنا أن نقترح أن النوع الأخير فقط هو الذي يجب أن يعالج بوصفه مثالا من أمثلة الاستدلال، وذلك لأن لدينا دليلا (هو الوقت الإضافي المتطلب) على أن القارىء قد احتاج إلى القيام بـ«جهد» تأويلي إضافي أثناء معالجته للنص . إن هذا الفارق مفيد في الأساس، وقد يمثل مؤشرا عاما لمعرفة التوقعات التي قد تكون معالجة بعض النصوص بموجبها أكثر صعوبة من نصوص أخرى .

لكن خطورة هذا المنهج تكمن في أنه يساوي نوعا ما بين عمليات الاستدلال وعلاقات نصية محددة وأنه يقيم تلك العلاقات النصية على الكلمات الواردة في النص . لننظر مرة أخرى في الفكرة القائلة بأنه إذا تمّ استحضار عنصر من العناصر في الذهن لأنه يمثل بالضرورة جزءا من التصور المعرفي المسبق لدى القارىء (أو السامع) فإن فهم ذلك العنصر يتم بالتالي بشكل مباشر (سانفورد وجارود، ١٩٨١م ص١٠٥) ولا يتطلب قدرا زمنيا من المعالجة الإضافية . ولنتصوّر الآن هافيلند وكلارك وهما يعرضان مثاليهما عن «العصير – العصير» (٤٤) و«ما يتناول أثناء النزهة – العصير» (٤٥) على مجموعة من هواة شرب العصير ممّن يطلقون العنان لهوايتهم هذه أثناء طلعات النزهة في الحدائق العامة . فبناء على توقعات سانفورد وجارود، يجب ألا يكون هناك بالنسبة لهذه المجموعة أي فارق في المدة الزمنية التي تقتضيها معالجة المثالين . كما أن هذا هو المتوقع أيضا حسب مفهوم أندرسون وزملائه (١٩٧٧م) بشأن النسق الذهني الذي تطرقنا إليه فيما يتصل بالمثال (٣٤) . ويعني هذا أن تحديد ما إذا كانت العلاقة «تلقائية» أو «غير تلقائية» لا يمكن أن يكون مستقلا عن الشخص (أو الأشخاص) الذين يعالجون النص . فالعصير بالنسبة لبعض الناس مكوّن يدرك تلقائيا من بين المواد التي تتناول أثناء النزهة، وهو بالنسبة لآخرين عنصر لا بدّ من إدراجه في مناسبة معيّنة وذلك لأن فهم النص الذي بين أيديهم يقتضي ذلك .

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بتحديد العناصر التي تستحضر في الذهن تلقائيا عن طريق التصورات المعرفية المسبقة لدى القارىء (أو السامع) . فانطلاقا من الجملة

التالية (٥٧)، يفترض أن يكون باستطاعتنا أن ندرك بشكل تلقائي العناصر التي تحيل عليها بعض العبارات المعرّفة الواردة في جمل المثال (٥٨) .

[٥٧] إن سقراطس لاعب يسدّد الكرة بمهارة.

[٥٨] (أ) طوله يمنحه ميزة مواتية جدًا.

(ب) كان والده شغوفا بالثقافة اليونانية.

(جـ) يودّ لاعب الوسط البرازيلي أن يلعب في أوربا.

(د) لم يجد حارس المرمى فرصة ولو لحركة.

(هـ) ظفر سبّابة يده اليسرى مكسور.

أوّل ما يجب أن نشير إليه هو أن بعض هذه الجمل الواردة ضمن المثال (٥٨)، والتي يمكن أن تشكل نصا واحدا، قد لا يمكن فهمها مطلقا دون الرجوع إلى السياق العام الذي تمثله الجملة (٥٧)، وذلك لأسباب كثيرة . فإذا كان الأمر كذلك، فإن استحضار المعلومات أمر يتوقف بوضوح على السياق بالنسبة للنصوص المستعملة بصورة عفوية . لقد جاء المثال (٥٧) ضمن تعليق على إحدى مباريات كرة القدم التي أجريت ضمن نهائيات كأس العالم في إسبانيا، في شهر يونيو ١٩٨٢م . وقد وردت الجملة (٥٨ د) في ذلك التعليق مباشرة بعد الجملة (٥٧) . بإمكان السامع طبعا أن يفهم العبارة المعرفة (حارس المرمى) بشكل تلقائي تماما بناء على المعلومات المستحضرة لديه ضمن «إطار» معرفته بمباريات كرة القدم . والملاحظ أنه لا يقيم هذه العلاقة «التلقائية» عبر النص المكوّن من الجملتين (٥٧) و (٥٨د) فقط . أما الجمل (٥٨ أ – جـ) فهي مختارة من مقاطع أخرى من التعليق، لكنها جميعا تتضمّن عبارات محدّدة تتوقف في فهمها على علاقة تربطها بسقراطس في الجملة (٥٧) .

لعلّ العلاقة الأكثر وضوحا هي التي بين «سقراطس» و«طوله»، ولكن حتى هذه لا تبدو في هذا النص إلا بصعوبة ومن خلال بعض العلاقات الإضافية الأخرى التي تجعل من سقراطس لاعب كرة قدم يحسن تسديد الكرة برأسه، في بعض المناسبات، ومن هنا ميزة «الطول» المواتية عنده . أما العلاقة بين «سقراطس» و«والده» فقد يبدو إدراكها أمرا بسيطا نسبيا، بما أن لكلّ إنسان والدا . ومع ذلك، فإن ذكر والده

في هذا النص جاء ضمن جملة تبدو تفسيرا للقب الذي يحمله هذا اللاعب بشكل خاص. وقد تتطلب إقامة علاقة بين «سقراطس» و «والده» في هذا النص من القارئ أن «يقيم» عدة علاقات أخرى لا تنبع أي منها بالضرورة من «الإطار الذهني» المستحضر لمباراة في كرة القدم.

وأما العلاقة بين الجملتين (٥٧) و (٥٨ جـ) فهي من النوع الذي نصادفه كثيرا في مجالات الرياضة والتقارير الإخبارية، وقد ناقشنا هذا المظهر من مظاهر الإحالة ذات العلاقة بمفهوم الدور في الفصل السادس – وسواء أكان هذا النوع من العلاقات تلقائيا أم لا يعتمد بشكل واضح على معلومات محليّة جدا، وذلك لأنه ليس من العمومية نفسها التي لاحظناها في جملة «كل حافلة مركبة» الواردة ضمن المثال (٥٠) السابق. وأخيرا فإن الجملة (٥٨ هـ) التي لم ترد ضمن التعليق وإنما هي جملة مصنوعة، فإنها مثال عن عبارة معرفة مستعملة للإحالة على عنصر يمثل جزءا لا بدّ منه في جسم أي إنسان. فكل ما له «ظفر في سبّابة يده اليسرى»، لكن هل نتوقع حقا أن تستحضر هذه المعلومة في أذهاننا بمجرد ذكر لقب لأحد الناس في جملة سابقة من النص؟ فإذا كان الجواب «نعم»، فأي الصفات البشرية إذن لا يقع استحضارها؟ إن المشكل شبيه جدا بتلك المشكلات التي لاحظناها في الفصل الثاني بالنسبة للتمثيل الذهني للسياق، وفي الفقرة ٦, ٧ بالنسبة لتمثيل الخلفية المعرفية – كيف نضع الحدود بين هذه الأشكال التي تتمثل على أساسها معارفنا؟ إن الجملة (٥٨ هـ) تمثل جزءا مما يمكن وضعه بالحجة غير المباشرة ضدّ من يقول بالطبيعة غير المقيّدة لأشكال التمثيل المعرفي التي يعتقد أنها هي التي توفر العلاقات التلقائية داخل النصوص. كما يقدّم ماراتسوس (١٩٧١م) حجة من هذا القبيل بشأن استعمال المركبات الاسمية المعرفة. فبعض العلاقات تبدو تلقائية، كما تبيّن ذلك الأمثلة (٤٦ ـ ٥٤)، بينما تبدو بعض العلاقات الأخرى غير تلقائية بالنسبة لأغلب القراء (أو السامعين) على الرغم من أنها تقام عبر مظاهر من أشكال التمثيل المعرفي لدينا، كما يظهر ذلك بين الجملة (٥٧) والجمل (٥٨ أ – هـ).

وهناك مشكلة ثالثة تتصل بالنظر إلى العلاقة التلقائية [في عملية الاستدلال] على أنها تتم من خلال الخلفية المعرفية [لدى المتلقي]. وتتمثل هذه المشكلة في افتراض

أن تلك العلاقة يمكن وصفها بناء على تشريح المعنى المعجمي. يقترح تشيف (١٩٧٢م ص ٦١) أن هذه الطريقة في المعالجة قد تكون معقولة، بينما يؤيد سانفورد وجارود ذلك بالمثال التالي: عندما نصادف فعلا من قبيل «لبس»، فإن هذا يثير في ذاكرتنا تصوّرا يضمّ عددا من الخانات المخصّصة لمجموعة من العناصر التي يتضمّنها معنى ذلك الفعل، ومنها «اللباس»، (١٩٨١م، ص ١٠٨). فلو كان هذا هو ما يحدث فعلا، فسوف ينشأ عن ذلك تمثيل تصوّري بالغ الاتساع، شديد الإسهاب، بحيث يكون من غير المحتمل أن يؤدّي إلى تلك المعالجة المبنية على العلاقات التلقائية التي أشارا إليها في استنتاجاتهما التجريبية. فلماذا يدخل «اللباس» مثلا في التشكّل التصوّري الذي ينبني عليه فهمنا للمثالين الآتيين[٨]:

[٥٩] (أ) جاء الرجل لابسا أذنيه[٩] / ب) فأزعجني بتغافله هذا.

[٦٠] (أ) لبست فلانا على ما فيه[١٠] / ب) فلم أندم على قناعتي هذه.

من الواضح أن العنصر المعجمي «لباس» ليس وحده مصدر التشكلات المعرفية التي تعتمد عليها في فهمنا لجمل من قبيل الأمثلة (٥٩)، (٦٠) و (٥٤).

واعتبارا لهذه المشكلات، يبدو أن استفادة محلّل الخطاب محدودة جدا من النتائج التجريبية التي توصلت إليها اللسانيات النفسية حول طبيعة الاستدلال. ثم إن النص المركب من جملتين مصنوعتين خصّيصا ومعروضتين خارج السياق التواصلي لا يمثل عموما ما يصادفه محلّل الخطاب من مواد، ولا ما يصادفه مستعمل اللغات من رسائل لغوية.

إن التجربة الموجّهة تبصرنا ببعض المظاهر التي تتمّ بها معالجتنا للجمل، لكنها قد تقودنا خطأ إلى تصوّر أن معالجة الخطاب تتم عامة بهذا الشكل المكثف الضيّق.

---

(٨) المثالان الأصليّان مبنيان على الاشتراك الدلالي الذي يتميز به لفظ (dress) في الإنجليزية، والذي لا يمكن أن يؤدى في العربية إلا بمقابلات لا تحمل هذه الميزة. لذا تم استبدال المثالين الأصليين بمقابلَيْن في العربية يصلحان لهذا المقام.

(٩) أي متغافلا، انظر المعجم الوسيط، مادة لبس.

(١٠) أي احتمله وقبلته، انظر المعجم الوسيط، مادة لبس.

٧,١٠ عمليات الاستدلال بوصفها سدًا لفراغات في الفهم

لقد بيّنا خطأ اعتبار عمليات الاستدلال معادلة لأي شكل من أشكال الربط بين الجمل داخل نص ما، كما أكدنا أن عمليات الاستدلال هي علاقات يقيمها الناس وهم يحاولون التوصّل إلى فهم معيّن لما يقرأون أو يسمعون. واقترحنا كذلك أنه كلما زاد «الجهد» التأويلي المطلوب من القارىء (أو السامع) من أجل التوصّل إلى فهم معقول لما قصد الكاتب (أو المتكلم) إيصاله، كان ذلك أكثر تأكيدا على احتمال حصول عمليات استدلالية. ولعل الإشكال الذي تطرحه هذه النظرة يتمثل في أن «الاستدلال» يبقى معها عملية مرتبطة بالسياق، محدّدة بالنص ومحصورة في القارىء (أو السامع) شخصيا.

في اعتقادنا أن هذه النظرة صحيحة، وأنه لا يمكن مبدئيا أن نتوقع عمليات الاستدلال الفعلية التي سيقوم بها قارىء للتوصل إلى فهم معيّن للنصّ، لكن من الممكن في الوقت ذاته أن تكون لدينا توقعات خاصة بشأن مظاهر معيّنة من نصوص يقوم فهمها من القرّاء عموما على أساس من الاستدلال. وتتصل مثل تلك التوقعات اتصالا وثيقا بمفهوم معيّن لما يعرف بـ«عمق المعالجة»، من الواضح أن القارىء الذي يمرّ نظره سريعا عبر المقال الإخباري الوارد فيما يلي تحت المثال (٦١) وهو جالس في غرفة الانتظار عند أحد أطباء الأسنان ستختلف «قراءته» للنص اختلافا نوعيًا عن ذلك القارىء الذي يتوقع أن تطرح عليه أسئلة لتحديد مدى استيعابه للنص بعد فراغه من قراءته. وبما أن نوع «الفهم» الذي تجري مناقشته عادة ضمن إطار تحليل الخطاب واللسانيات النفسية ودراسات التمثيل الإحصائي هو فيما يبدو أقرب إلى هذا النوع الأخير، فلننظر في هذا النص بناء على مجموعة من الأسئلة التي قد تطرح على القارىء لتحديد مدى فهمه لما قرأ. فإذا كانت الإجابة عن بعض هذه الأسئلة تقتضي من القارىء «عملا» إضافيا من قبيل سدّ فراغات ما في فهمه، فقد نجد بذلك أساسا لتوقع أنواع الاستدلال المطلوبة.

[٦١] (١) يبدو أنه كان في نية أعوان مكتب الأمن العام أن يرهبوا ضحيتهم، وقد نجحوا في ذلك.

(٢) كانت الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل عندما اقتحموا المبنى الممتدّ لفندق الصداقة في بكين حيث يعيش كثير من الأجانب العاملين في الصين.

(٣) طلب أعوان الشرطة من عمّال النظافة أن يوقظوا الأستاذة الأمريكية، لايزا ويشر، ٢٩ سنة، ويعلموها بأن برقية لها مستعجلة قد وصلت.

(٤) ولما ظهرت ويشر لاستلام البرقية بقامتها المربوعة وقد بدت على ملامحها آثار النوم، قيّدوا يديها ودفعوها إلى داخل سيارة الشرطة دون أي توضيح.

(٥) من الوجهة التقنية، على الأقل، ليست الطالبة التي تخرجت من جامعة نوبلزفيل، بولاية إنديانا، في عداد الموقوفين.

(مجلة تايم، ١٤ يونيو ١٩٨٢م)

لو حاولنا أولا أن نجيب عن مجموعة الأسئلة المتعلقة بمن، وماذا، وأين، ومتى، التي اقترحها وارين وزملاؤه (١٩٧٩م)، فمن المفترض أن نتوصل إلى تمثيل جزئي لما نفهمه عن الأشخاص والأحداث المتحدث عنها في هذا النصّ. أول ما يمكن ملاحظته هو أنه لا توجد في النص تلك الرابطة البسيطة بين الأسماء الأعلام والضمائر، كما كان الأمر في المثال (٥٦). غير أن هناك بدلا عن ذلك مجموعة متنوعة من الأوصاف المعرفة. ثم إن النص لا يقول لنا صراحة إن «أعوان مكتب الأمن العام» هم أنفسهم «أعوان الشرطة» وأنهم هم الذين «وضعوا القيود بيدي» أحد الأشخاص. كما أن النص لا يعلمنا صراحة بأن العبارات «ضحيتهم» و«لايزا ويشر، الأستاذة الأمريكية، ٢٩ سنة» و«ويشر، ذات القامة المربوعة» والتي «بدت على ملامحها آثار النوم» و«الطالبة التي تخرجت من جامعة نوبلزفيل، بولاية إنديانا»، قد استعملت كلها للإشارة إلى هذا الشخص بعينه. وفيما عدا لو كان للقارىء علم مسبق وخاص بهذا الخبر، فإن عليه في الأغلب أن يكتشف بنفسه أن «أعوان الشرطة» المذكورين في السطر الثالث هم أنفسهم تقريبا «الأعوان» الذين ورد ذكرهم في السطر الأول كما أن هناك قدرا مماثلا تقريبا من «الجهد» التأويلي لا بد منه لمعرفة أن «ضحيتهم» هي نفسها «لايزا ويشر» وهي كذلك «الطالبة المتخرجة» من جامعة نوبلزفيل. ولعل الطريف في هذه

العبارة الأخيرة هو أنها جاءت معرّفة واستعملت فيما يبدو للإحالة إلى شخص قد سبق ذكره في سياق الخطاب، فأصبح بذلك مرشحا لأن تكون له منزلة «مسلّمة» أو معطاة. غير أن المعلومة التي ساقتها العبارة «جديدة» في الخطاب. إنها ـ كما لاحظنا في الفصل الخامس ـ عنصر «مسلّم به» أو معطى يقوم بدور «جديد»، لهذا فإننا نقترح أنه، فيما عدا لو كان للقارىء معرفة خاصة بذلك العنصر في ذلك الدور المذكور، فإن من شأن هذا الضرب من العبارات أن يخلق فراغا ممكنا في فهم القارىء، ويتطلب منه بالتالي قدرا معيّنا من الاستدلال. ربما كان بالإمكان توضيح هذه النقطة الأخيرة بأكثر فعالية من خلال نص موجز يفترض فيه أن تكون لدى القارىء معلومات بالغة التخصص، وأن القارىء الجاهل بتلك المعلومات قد يقوم فيه بعمليات استدلال (أو استنتاج) تؤدي به إلى إقامة علاقات خاطئة تماما.

[٦٢] بينما انخفضت مستويات أسعار السبائك إلى ما دون الحد المعنوي الأدنى (٣٠٠ دولار)، وأدت إلى حصول خسائر في أسعار معظم المعادن النفيسة، حصل انخفاض حاد في «الكوافر»، وانخفضت «الأوزان الثقيلة» عند الإقفال بنسبة تتراوح «من دولار إلى أربعة دولارات».(١١)

(جريدة الجارديان، ٢٢ يونيو ١٩٨٢م)

قد يستنتج قارىء المثال (٦٢) أن «الكوافر» تمثل «مستويات لأسعار السبائك» أو «معادن نفيسة» أو أن «الأوزان الثقيلة» تمثل «معادن نفيسة» أو ربما «تجارا في السبائك» أو بعضا من أنواع المعادن. لكن مصادر موثوقة أخبرتنا بأن كل هذه الاستنتاجات في الواقع غير صحيحة.

إذا رجعنا إلى المثال (٦١)، فسنلاحظ أن زمن الأحداث الموصوفة ومكانها مذكوران صراحة في الجملة الثانية فقط، وأن باستطاعتنا وفقًا لمبدإ «عدم التغيير في الزمن والمكان ما لم يأت ما يستوجب ذلك»، الذي ناقشناه في الفصل الثاني، أن

(١١) الإشكالية الأساسية التي يطرحها هذا المثال تتصل بالغموض الذي يحيط ببعض مفرداته وخاصة «Kaffirs» التي ترجمت هنا بـ «كوافر» و«Heavies» المنقولة إلى «الأوزان الثقيلة». والملاحظ في هذه الكلمات أنها بلغت من التخصص درجة تجاوزت معها حدود الدلالة المعجمية المعروفة لها. وقد قصد في ترجمتنا هذه الحفاظ على القدر نفسه من هذا الغموض.

نضع الأحداث المذكورة في الجمل الأخرى ضمن السياق الزمني والمكان نفسه. غير أن الإجابة عن السؤال – أين كانت تنام لايزا ويشر؟ – قد تحتاج من بعض القراء إلى بعض «الجهد» التأويلي. بينما قد يجيب قراء آخرون عن هذا السؤال دون تردد ودون أن يحستوا بالحاجة إلى شيء من الاستدلال. من الواضح أنه لا توجد في النص أي إشارة صريحة حتى إلى كون لايزا ويشر تقيم في «فندق الصداقة». وللإجابة عن هذا السؤال، فقد نقترح مؤقتا أن القارىء ربما يحتاج إلى سدّ الفراغ الموجود في فهمه. لكن هذا الاستنتاج مقصود أساسا ليكون بمثابة الفرضية التي ربما أمكن الحكم عليها تجريبيا من خلال دراسة لنصوص حقيقية شبيهة بالنص (٦١). أما في الوقت الراهن، فلا نستطيع إلا أن نقترح بعض النقاط الممكنة التي قد تتطلب عمليات استدلالية.

عندما تتجاوز الاعتبارات الوقائعية البحتة للأسئلة المتعلقة بمن، وماذا، وأين، ومتى، تصبح الحاجة إلى الاستدلال أمرا بيّن الوضوح. فإذا سألنا كيف ولماذا، وجب علينا مباشرة أن نقوم بما يسمّيه وارين وزملاؤه (١٩٧٩م) عمليات الاستدلال «التفصيلية» و«التقويمية»، ويقتضي الاستدلال التفصيلي منا مثلا أن نقرر كيف كان لباس لايزا ويشر عندما حضرت لاستلام برقيتها. أما الاستدلال التقويمي، فقد يتطلّب منّا أن نقرر ما إذا كان سلوك أعوان الشرطة مبّررا، أو ما إذا كانت البرقية موجودة بالفعل أم لا. وقد نقوم بمثل هذا الاستدلال جوابا عن سؤال حول سبب اقتياد لايزا ويشر وهي مقيّدة اليدين. إن جزءا كبيرا من فهمنا لما نقرأ ونسمع (ولما نرى أيضا، بدون شك) هو رغم كل شيء حصيلة إدراكنا للأغراض والأهداف والنوايا والمبرّرات التي يصدر عنها الأطراف المشاركون في الأحداث التي نصفها أو نشاهدها. كما أن عمليات الاستدلال التقويمي تعتمد بوضوح على أكثر من مجرّد فهم القارىء للجزئيات الحرفية للأحداث الواردة في النص. فقد نقوم مثلا على معتقدات شتّى من قبيل أن كل الأمريكيين الموجودين في الصين هم أعوان لجهاز المخابرات المركزي، أو أن الصينيين من جهة أخرى يضايقون الأجانب باستمرار وبدون سبب. مثل هذه الاستنتاجات هو ما يقوم به القارىء مباشرة في محاولة لتعليل سلوك ورد ذكره في النص دون تفسير. إنها المظهر اللامتناهي من عمليات «سدّ الفراغ» التي قد يقوم بها

قارىء أو قارئة للربط بين أحداث جاء ذكرها في نص معيّن وذلك من أجل التوصل إلى «فهم» معيّن لذلك النص.

واعتبارا لهذه الطبيعة «اللامتناهية» التي يتّسم بها الاستدلال، فإنه من الصعب جدا أن نحدّد أمام أي نصّ طبيعي مجموعة الاستدلالات التي قام بها قارىء معيّن من أجل التوصل إلى فهم معيّن لذلك النص. قد يقول أحدهم، مثلما فعل كلارك (١٩٧٧م)، إن هناك مجموعة من الاستدلالات «الضرورية» التي يجب على كل قارىء أن يقوم بها حتى يتوصّل إلى فهم معيّن. لكن تلك الاستدلالات الضرورية تبدو تماما من ذلك النوع الذي أثبتت الأدلة التجريبية أنه لا يتطلب فترة زمنية من المعالجة الإضافية. فكون «موظفي الفندق» الذين ورد ذكرهم في الجملة الثالثة من المثال (٦١)، يعملون بالضرورة في «فندق الصداقة» المذكور في الجملة الثانية، أمر يجب اعتباره ربطا تلقائيا قد لا يقوم دليل (من وجهة نظر تجريبية) على أنه حصيلة معالجة تمّت عن طريق الاستدلال. ونتيجة لذلك، فقد يجد محلّل الخطاب نفسه في موقف ملبس يستحيل معه تبرير اعتبار تلك الاستدلالات «الضرورية» من قبيل الاستدلال أصلا، وتكون الاستدلالات «التفصيلية» و «التقويمية»، من حيث المبدأ، غير قابلة للتحديد. أي أن المحلّل بعبارة أخرى قد يجد نفسه بغير أساس موثوق يتحدث - بالمعنى التحليلي للعبارة في مقابل الحدسيّ - عن عمليات الاستدلال التي يقوم عليها فهمنا للنصوص.

لا نقصد بهذه النتيجة اليائسة نوعا ما أن نقول إن طبيعة الاستدلال أمر لا يمكن تحديده. وإنما هي محاولة لطرح الإشكالية القائمة بكل خصوصيّاتها. ذلك أن الوهم بأننا قادرون على تحديد طبيعة الاستدلال من خلال تصنيفات معينة وطرح مجموعة من الأمثلة المصنوعة لتوضيح كل صنف، كما فعل وارين وزملاؤه (١٩٧٩م) وكذلك كلارك (١٩٧٩م)، سرعان ما يتبدّد كلما صادفنا نصّا طبيعيا (انظر فان دايك - ١٩٨١م - وفيه نجد نقدا لهذه المقاربة التصنيفية). والواقع أنه إلى أن نتمكن من تطوير أساليب تجريبية تسمح باستخلاص نتائج حول الكيفية التي يعالج بها الناس نصوصا طبيعية ترد في سياقات «الحياة الحقيقية»، فسنظلّ قاصرين عن تحديد طبيعة الفهم البشريّ

مبالغين في ثقتنا بأساليبنا التحليلية التبسيطية. وينطبق هذا ليس فقط على طبيعة عملية الاستدلال، وإنما أيضا على المفهوم الأعم لعملية الفهم ذاتها.

أما في الوقت الراهن، فأكثر ما يمكن قوله هو أن نصّا على درجة عالية من التماسك ولا يتضمن سوى قدر قليل من «الحلقات المفقودة» سيتطلّب مجالا واسعا لإيصال كمّ قليل جدا من المعلومات، ولكنه في الوقت ذاته لن يحتاج من القارىء إلى جهد تأويلي كبير عن طريق الاستدلال. غير أن ما يميّز النصوص التي يصادفها القارىء عادة أنها تضم قدرا ضئيلا جدا من التماسك الشكلي، وتفترض وجود كميات هائلة من المعلومات المسبقة لدى القارىء، وتتطلب منه عادة أن يقوم بشتى العمليات الاستدلالية التي يرى في نفسه الاستعداد للقيام بها من أجل التوصل إلى فهم معين لمحتوى النص. ومن الأمثلة الصارخة على هذا الصنف الأخير من النصوص، نترك القارىء مع المثال (٦٣) ونطلب منه أن يحاول تسجيل ولو بضع من العلاقات (أو ربما قلنا «عمليات الاستدلال») التي يجب إقامتها للتوصّل إلى فهم متماسك لما يعتقد القارىء أن الكاتب أراد نقله من خلال النص.

[٦٣] ما رأيكم لو تبادلنا أطفالنا هذا الصيف؟ المركز العائلي للتعليم الخاص. عند اقتراب المرحلة التأهيلية ومرحلة الثانوية العامة، لا تبقى لأولياء الأمور كثير من الموضوعات التي يمكن لهم فيها مساعدة [الأبناء]: فيما عدا اللغات [الأجنبية]. والطريقة الوحيدة المجدية لتعلّم اللغة هي الانغماس فيها لمدة معينة. وبما أنه على الساحل الآخر مباشرة من البحر، يجد الطفل الأوروبي مستواه في الإنجليزية على نفس مستوى قرينه في الفرنسية أو في الألمانية، فإن التبادل يبدو أمرا بديهيا. فقضاء كل مدة ثلاثة أسابيع أو نحوها بين عائلة الآخر كفيل بدون شك بأن يضمن للمرشحين النجاح في تلك المادة من امتحان الثانوية العامة أو الباكالوريا.

إنها فكرة بسيطة وهي في الغالب ناجعة، لكن أخطاء كثيرة تحصل إذا ما كانت المحاولة مبكرة جدا. وعلى كل فإن طفلاً متزنًا في الرابعة عشرة وما فوق يفترض أن يكون قادرًا على خوض [هذه] التجربة.

(مجلة «الرعاية المنزلية الجيدة»، ١٤ أبريل ١٩٧٦م)

٧,١١ الخاتمـة

حاولنا في هذا الكتاب أن نجمع بعض المقومات التي نحتاج إليها لوضع تصوّر للكيفية التي يستعمل بها الناس اللغة للتواصل. وركزنا الاهتمام في ذلك بدرجة خاصة على أهمّ المقومات التي أوردتها الدراسات في هذا المجال. كما حاولنا أن نبين أن الباحثين في مجال تحليل الخطاب ليس لديهم الآن سوى فهم جزئي حتى لتلك المقوّمات التي حظيت بأوفر نصيب من الدراسة. إلاّ أن هناك نزعة خطيرة لدى الباحثين المتخصصين، وكذلك لدى الطلاب، تحدو بهم إلى الأمل بأن نهجًا معيّنًا في الدراسة سيؤول بهم إلى كشف «الحقيقة» حول القضية المطروحة أمامهم. فمن السهل جدا إصدار دعاوى بالغة التعميم والقوة. لذا، حاولنا أن نبيّن أن بعض الآراء الوجيهة والمقررة في مجال تحليل الخطاب قد تضيء لنا بعض الجوانب من كيفية معالجة الخطاب واستعمال اللغة، وأن كل الأساليب المقترحة تفتح في المقابل عددًا أكبر من المساحات المظلمة في نطاق فهمنا.

لم نتطرّق في مناقشتنا إلاّ إلى بعض القضايا ذات العلاقة، بينما أغفلنا إلى حد كبير جوانب كثيرة من لغة الخطاب تحظى باهتمام الدارسين ممّن ينتمون إلى التيار السائد في البحث اللساني. كما ركزنا على قضايا لها صلة بالإحالة وعلى القضايا العامة المتصلة بمفهومي التماسك المعنوي والتناسب. وفي المقابل، لم نتطرق عمليًا إلى عدّة قضايا تحظى بعناية الدارسين المهتمين بالتفاعل القائم بين علمي الدلالة والتركيب - قضايا مثل الهيئة، والزمن، وصيغة القول، وتحديد الكمّية، والنفي، والوصف عن طريق الظروف وغيرها، وكذلك إلى قضايا أخرى ذات صلة كتأثير المجاز في فهمنا للخطاب.

من البديهي أن تكون لمثل هذا النهج مواطن ضعف. لكن رجاءنا في أن ما ضاع نتيجة لما جاء من الشرح المبسّط أحيانا، ستعوّض عنه المكاسب المتأتية من جعلنا هذه القضايا ميسّرة. وأملنا فوق كل شيء هو أن تحليل الخطاب بالطريقة التي جاء عليها في هذا الكتاب، سيمكن القارىء ليس فقط من إدراك بعض الآليات المتوافرة في لغته، بل ويشجعه أيضا على التفكير من جديد في طبيعة تلك الظاهرة المعرفية والاجتماعية المركّبة التي نسميها «خطابا».

المراجـــع

Abelson, R. P. (1976) 'Script processing in attitude formation and decision-making' in (eds.) J. S. Carroll & J. W. Payne *Cognition and Social Behavior* Hilladale, N. J.: Lawrence Erlbaum

Abercrombie, D. (1964) 'Syllable quantity and enclitics in English' in (eds) D. Abercrombie, D. B. Fry, P. A. D. MacCarthy, N. C. Scott, J. L. M. Trim *In Honour of Daniel Jones* London: Longman

Abercrombie, D. (1968) 'Paralanguage' *British Journal of Disorders of Communication* 3: 55–9

Allerton, D. J. (1975) 'Deletion and pro-form reduction' *Journal of Linguistics* 11: 213–37

Allwood, J., Andersson, L-G & Dahl, Ö. (1977) *Logic in Linguistics* Cambridge University Press

Anderson, R. C. (1977) 'The Notion of schemata and the educational enterprise' in (eds.) R. C. Anderson, R. J. Spiro & W. E. Montague

Anderson, R. C. & Ortony, A. (1975) 'On putting apples into bottles: a problem of polysemy' *Cognitive Psychology* 7: 167–80

Anderson, R. C., Pichert, J. W., Goetz, E. T., Schallert, D. L., Stevens, K. V. & Trollip, S. R. (1976) 'Instantiation of general terms' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behaviour* 15: 667–79

Anderson, R. C., Reynolds, R. E., Schallert, D. L. & Goetz, E. T. (1977) 'Frameworks for comprehending discourse' *American Educational Research Journal* 14: 367–81

Anderson, R. C., Spiro, R. J. & Montague, W. E. (eds.) (1977) *Schooling and the Acquisition of Knowledge* Hilladale, N. J.: Lawrence Erlbaum

Argyle, M. (ed.) (1969) *Social Encounters* Harmondsworth, Middx: Penguin Books

Austin, J. L. (1962) *How to do Things with Words* Oxford: Clarendon Press

Bar-Hillel, Y. (1970) *Aspects of Language* The Hebrew University, Jerusalem: The Magnes Press

Bartlett, F. C. (1932) *Remembering* Cambridge University Press

Becker, A. L. (1980) 'Text-building epistemology, and aesthetics in Javenese Shadow Theatre' in (eds.) A. Becker & A. Yengoyan *The Imagination of Reality* Norwood, N. J.: Ablex

Bennett, J. (1976) *Linguistic Behaviour* Cambridge University Press

Berry, M. (1975) *An Introduction to Systemic Linguistics 1: Structures and Systems* London: Batsford

Bobrow, D. & Fraser, B. (1969) 'An augmented state transition network analysis procedure' Paper presented at the *First International Joint Conference on Artificial Intelligence*

Bobrow D. G., Kaplan R. M., Kay M., Norman D. A., Thompson H., & Winograd T. (1977) 'GUS, a frame-driven dialog system' *Artificial Intelligence 8*: 155–73

Bolinger, D. L. (1970) 'Relative height' reprinted in Bolinger (ed.) (1972) *Intonation* Harmondsworth, Middx: Penguin Books

Bower, G. H. (1978) 'Experiments on story comprehension and recall' *Discourse Processes* 1: 211–31

Bower, G. H., Black, J. B. & Turner, T. J. (1979) 'Scripts in memory for text' *Cognitive Psychology* 11: 177–220

Bransford, J., Barclay, R. & Franks, J. (1972) 'Sentence memory: a constructive versus interpretive approach' *Cognitive Psychology* 3: 193–209

Bransford, J. & Franks, J. (1971) 'The abstraction of linguistic ideas' *Cognitive Psychology* 2: 331–50

Bransford, J. D. & Johnson, M. K. (1973) 'Considerations of some problems of comprehension' in (ed.) W. G. Chase *Visual Information Processing* New York: Academic Press

Brewer, W. F. & Treyens, J. C. (1981) 'Role of schemata in memory for places' *Cognitive Psychology* 13: 207–30

Brown, E. K. & Miller, J. E. (1980) *Syntax: a Linguistic Introduction to Sentence Structure* London: Hutchinson

Brown, G. (1977) *Listening to Spoken English* London: Longman

Brown, G. (1983) 'Intonation, the categories given/new and other sorts of knowledge' in (eds.) A. Cutler & R. Ladd *Prosodic Function and Prosodic Representation* Cambridge University Press

Brown, G., Currie, K. L. & Kenworthy, J. (1980) *Questions of Intonation* London: Croom Helm

Brown, P. & Levinson, S. C. (1978) 'Universals in language usage: politeness phenomena' in (ed.) E. N. Goody

Bühler, K. (1934) *Sprachtheorie* Gustav Fischer: Jena

Butterworth, B. (ed.) (1980) *Language Production Volume 1: Speech and Talk* New York: Academic Press

Caramazza, A., Grober, E., Garvey, C. & Yates, J. (1977) 'Comprehension of anaphoric pronouns' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 16: 601–9

Carpenter, P. A. & Just, M. A. (1977a) 'Integrative processes in comprehension' in (eds.) D. Laberge & S. J. Samuels

Carpenter, P. A. & Just M. A. (1977b) 'Reading comprehension as eyes see it' in (eds.) M. A. Just & P.A. Carpenter *Cognitive Processes in Comprehension* Hillsdale, N. J.: Lawrence Erlbaum

Chafe, W. L. (1970) *Meaning and the Structure of Language* University of Chicago Press

Chafe, W. L. (1972) 'Discourse structure and human knowledge' in (eds.) J. B. Carroll & R. O. Freedle *Language Comprehension and the Acquisition of Knowledge* Washington: Wiley

Chafe, W. L. (1974) 'Language and consciousness' *Language* 50

Chafe, W. L. (1976) 'Givenness, contrastiveness, definiteness, subjects, topics, and point of view' in (ed.) C. N. Li

Chafe, W. L. (1977a) 'The recall and verbalization of past experience' in (ed.) R. W. Cole *Current Issues in Linguistic Theory* Bloomington: Indiana University Press

Chafe, W. L. (1977b) 'Creativity in verbalization and its implication for the nature of stored knowledge' in (ed.) R. O. Freedle (1977)

Chafe, W. L. (1979) 'The flow of thought and the flow of language' in (ed.) T. Givón

Chafe, W. L. (ed.) (1980) *The Pear Stories: Cognitive, Cultural and Linguistic Aspects of Narrative Production* Norwood, N. J.: Ablex

Charniak, E. (1975) 'Organization and inference in a frame-like system of common-sense knowledge' in (eds.) R. C. Schank & B. L. Nash-Webber

Charniak, E. (1979) 'Ms. Malaprop, a language comprehension program' in (ed.) D. Metzing

Chastain, C. (1975) 'Reference and context' in (ed.) K. Gunderson *Language, Mind and Knowledge* Minnesota Studies in the Philosophy of Science Vol VII

Chiesi, H. L., Spilich, G. J. & Voss, J. F. (1979) 'Acquisition of domain-related information in relation to high and low domain knowledge' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior 18*: 257–73

Chomsky, N. (1957) *Syntactic Structures* The Hague: Mouton

Chomsky N. (1965) *Aspects of the Theory of Syntax* Cambridge, Mass.: M.I.T. Press

Chomsky, N. (1968) *Language and Mind* New York: Harcourt, Brace & World

Chomsky, N. (1972) *Studies on Semantics in Generative Grammar* The Hague: Mouton

Christopherson, P. (1939) *The Articles: A Study of their Theory and Use in English* Oxford University Press

Cicourel, A. (1973) *Cognitive Sociology* Harmondsworth, Middx: Penguin Books

Cicourel, A. (1981) 'Language and the structure of belief in medical communication' in (eds.) B. Sigurd and J. Svartvik *Proceedings of AILA 81 Studia Linguistica* 5: 71–85

Clark, H. H. (1977) 'Inferences in comprehension' in (eds.) D. Laberge & S. J. Samuels

Clark, H. H. (1978) 'Inferring what is meant' in (eds.) W. J. M. Levelt & G. B. Flores d'Arcais

Clark, H. H. & Clark, E. V. (1977) *Psychology and Language* New York: Harcourt, Brace, Jovanovich

Clark, H. H. & Lucy, P. (1975) 'Understanding what is meant from what is said: a study in conversationally conveyed requests' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 14: 56–72

Clark, H. H. & Marshall, C. R. (1981) 'Definite reference and mutual knowledge' in (eds.) A. K. Joshi, B. L. Webber & I. A. Sag

Clements, P. (1979) 'The effects of staging on recall from prose' in (ed.) R. O. Freedle (1979)

Cole, P. (ed.) (1978) *Syntax & Semantics 9: Pragmatics* New York: Academic Press

Cole, P. (ed.) (1981) *Radical Pragmatics* New York: Academic Press

Coulthard M. (1977) *An Introduction to Discourse Analysis* London: Longman

Creider C. A. (1979) 'On the explanation of transformations' in (ed.) T. Givón

Crystal D. (1975) *The English Tone of Voice* London: Edward Arnold

Crystal D. (1980) 'Neglected grammatical factors in conversational English' in (eds.) S. Greenbaum, G. Leech and J. Svartvik, *Studies in English Linguistics* London: Longman

Dahl Ö. (1969) *Topic and Comment: A Study in Russian and Transformational Grammar* Slavica Gothoburgensia 4: Göteborg

Dahl, Ö. (1976) 'What is new information?' in (eds.) N. E. Enkvist & V. Kohonen *Reports on Text Linguistics: Approaches to Word Order* Åbo, Finland: Åbo Akademi Foundation
Daneš, F. (1974) 'Functional sentence perspective and the organization of the text' in (ed.) F. Daneš
Daneš, F. (ed.) (1974) *Papers on Functional Sentence Perspective* Prague: Academia
Davidson, A. (1980) 'Peculiar Passives' *Language* 56: 42–67
de Beaugrande, R. (1980) *Text, Discourse and Process* London: Longman
de Beaugrande, R. & Dressler, W. U. (1981) *Introduction to Text Linguistics* London: Longman
Dechert, H. W. & Raupach, M. (eds.) (1980) *Temporal Variables in Speech* The Hague: Mouton
Deese, J. (1980) 'Pauses, prosody and the demands of production in language' in (eds.) H. W. Dechert & M. Raupach
de Long, A. J. (1974) 'Kinesic signals at utterance boundaries in preschool children' *Semiotica* 11: 43–73
de Villiers, J. G. & de Villiers, P. A. (1978) *Language Acquisition* Cambridge, Mass.: Harvard University Press
Donnellan, K. S. (1966) 'Reference and definite descriptions' *Philosophical Review* 75
Donnellan, K. S. (1978) 'Speaker references, descriptions and anaphora' in (ed.) P. Cole (1978)
Dover Wilson, J. (ed.) (1934) *The Manuscripts of Shakespeare's Hamlet and the Problems of its Transmission* Cambridge University Press
Downing, P. (1980) 'Factors influencing lexical choice in narrative' in (ed.) W. L. Chafe
Dresher, B. E. & Hornstein, N. H. (1976) 'On some supposed contributions of artificial intelligence to the scientific study of language' *Cognition* 4: 321–98
Dressler, W. U. (ed.) (1978) *Current Trends in Textlinguistics* Berlin: Walter de Gruyter
Duncan, S. (1973) 'Towards a grammar for dyadic conversation' *Semiotica* 9: 29–46
Duncan, S. (1974) 'On the structure of speaker–auditor interaction during speaking turns' *Language in Society* 3: 161–80
Ekman, P. and Friesen, W. V. (1969) 'Non-verbal leakage and cues to deception' in (ed.) M. Argyle
Enkvist, N. E. (1978) 'Coherence, pseudo-coherence, and non-coherence' in (ed.) J-O. Östman
Enkvist, N. E. (1980) 'Categories of situational context from the perspective of stylistics' *Language Teaching and Linguistics Abstracts* 13: 75–74
Fillmore, C. J. (1968) 'The case for case' in (eds.) E. Bach & R. Harms *Universals in Linguistic Theory* New York: Holt, Rinehart & Winston
Fillmore, C. J. (1975) 'An alternative to checklist theories of meaning' *Proceedings of the First Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society* University of California
Fillmore, C. J. (1977) 'Topics in lexical semantics' in (ed.) R. W. Cole *Current Issues in Linguistic Theory* Bloomington: Indiana University Press
Fillmore, C. J. (1981) 'Pragmatics and the description of discourse' in (ed.) P. Cole
Findler, N. (ed.) (1979) *Associative Networks: The Representation and Use of Knowledge in Computers* New York: Academic Press
Firbas, J. (1974) 'Some aspects of the Czechoslovak approach to the problems of functional sentence perspective' in (ed.) F. Daneš

Firth, J. R. (1957) *Papers in Linguistics* Oxford University Press
Freedle, R. O. (ed.) (1977) *Discourse Production and Comprehension* Norwood, N. J.: Ablex
Freedle, R. O. (ed.) (1979) *New Directions in Discourse Processing* Norwood, N. J.: Ablex
Garnham, A. (1979) 'Instantiation of verbs' *Quarterly Journal of Experimental Psychology* 31: 207–14
Garnham, A., Oakhill, J. & Johnson-Laird, P. (1982) 'Referential continuity and the coherence of discourse' *Cognition* 11: 29–46
Garrod, S. & Sanford, A. J. (1977) 'Interpreting anaphoric relations: the integration of semantic information while reading' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 16: 77–90
Garvey, C., Caramazza, A. & Yates, J. (1975) 'Factors influencing assignment of pronoun antecedents' *Cognition* 3: 227–43
Gazdar, G. (1979) *Pragmatics* New York: Academic Press
Gazdar, G. (1980) 'Pragmatic constraints on linguistic production' in (ed.) B. Butterworth
Gensler, O. (1977) 'Non-syntactic anaphora and frame semantics' *Proceedings of the Third Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society* University of California
Giglioli, P. P. (ed) (1972) *Language and Social Context* Harmondsworth, Middx: Penguin Books
Givón, T. (1976) 'Topic, pronoun and grammatical agreement' in (ed.) C.N. Li
Givón, T. (1979a) *On Understanding Grammar* New York: Academic Press
Givón, T. (1979b) 'From discourse to syntax: grammar as a processing strategy' in (ed.) T. Givón
Givón, T. (ed.) (1979) *Syntax and Semantics Volume 12: Discourse and Syntax* New York: Academic Press
Gladwin, T. & Sturtevant, W. C. (1962) *Anthropology and Human Behavior* Anthropological Society of Washington
Goffman, E. (1974) *Frame Analysis* New York: Harper & Row
Goffman, E. (1981) *Forms of talk* Oxford: Basil Blackwell
Gomulicki, B. R. (1956) 'Recall as an abstractive process' *Acta Psychologica* 12: 77–94
Goody, E. N. (ed.) (1978) *Questions and Politeness* Cambridge University Press
Goody, J. (1977) *The Domestication of the Savage Mind* Cambridge University Press
Goody, J. and Watt, I. P. (1963) 'The consequences of literacy' *Comparative Studies in History and Society* 5: 304–45
Graesser, A. C., Higginbotham, J., Robertson, S. P. & Smith, W. R. (1978) 'A natural inquiry into the National Enquirer: Self-induced versus task-induced reading comprehension' *Discourse Processes* 1: 355–72
Grice, H. P. (1957) 'Meaning' *Philosophical Review* 64: 377–88
Grice, H. P. (1975) 'Logic and conversation' in (eds.) P. Cole & J. Morgan *Syntax and Semantics 3: Speech Acts* New York: Academic Press
Grice, H. P. (1981) 'Presupposition and conversational implicature' in (ed.) P. Cole
Grimes, J. E. (1975) *The Thread of Discourse* The Hague: Mouton
Grimes, J. E. (ed.) (1978) *Papers on Discourse* Summer Institute of Linguistics, Dallas, Texas
Grosz, B. (1979) 'Focusing in dialog' *American Journal of Computational Linguistics* Fiche 79: 96–103

Grosz, B. J. (1981) 'Focusing and description in natural language dialogues' in (eds.) A. K. Joshi, B. L. Webber & I. A. Sag

Gumperz, J. J. (1977) 'Sociocultural knowledge in conversational inference' in (ed.) M. Saville-Troike *Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics, 1977* Washington: Georgetown University Press

Gutwinski, W. (1976) *Cohesion in Literary Texts* The Hague: Mouton

Halle, M., Bresnan, J. & Miller, G. A. (1978) *Linguistic Theory and Psychological Reality* Cambridge, Mass.: M.I.T. Press

Halliday, M. A. K. (1967) 'Notes on transitivity and theme in English: Part 2' *Journal of Linguistics* 3: 199–244

Halliday, M. A. K. (1970a) *A Course in Spoken English: Intonation* Oxford University Press

Halliday, M. A. K. (1970b) 'Language structure and language function' in (ed.) J. Lyons *New Horizons in Linguistics* Harmondsworth, Middx: Penguin Books

Halliday, M. A. K. (1978) *Language as Social Semiotic* London: Edward Arnold

Halliday, M. A. K. & Hasan, R. (1976) *Cohesion in English* London: Longman

Hankamer, J. & Sag, I. (1976) 'Deep and surface anaphora' *Linguistic Inquiry* 7: 391–426

Hankamer, J. & Sag, I. (1977) 'Syntactically versus pragmatically controlled anaphora' in (eds.) R. W. Fasold & R. W. Shuy *Studies in Language Variation* Washington: Georgetown University Press

Harris, J. (1751) *Hermes: or a Philosophical Inquiry concerning Language and Universal Grammar* Reproduced Facsimile Edition, Menston (1968): Scolar Press

Harweg, R. (1978) 'Substitutional text linguistics' in (ed.) W. Dressler

Haviland, S. & Clark, H. H. (1974) 'What's new? Acquiring new information as a process in comprehension' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 13: 512–21

Hawkins, J. A. (1978) *Definiteness and Indefiniteness* London: Croom Helm

Hayes, P. J. (1979) 'The logic of frames' in (ed.) D. Metzing

Hayes-Roth, B. & Thorndyke, P. W. (1979) 'Integration of knowledge from text' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 18: 91–108

Hildyard, A. & Olson, D. R. (1978) 'Memory and inference in the comprehension of oral and written discourse' *Discourse Processes* 1: 91–117

Hinds, J. (1977) 'Paragraph structure and pronominalization' *Papers in Linguistics* 10: 77–99

Hinds, J. (1979) 'Organizational patterns in discourse' in (ed.) T. Givón

Hockett, C. F. (1958) *A Course in Modern Linguistics* New York: Macmillan

Horn, L. R. (1973) 'Greek Grice: a brief survey of proto-conversational rules in the history of logic' in *Papers from the Ninth Regional Meeting* Chicago Linguistic Society

Hornby, P. A. (1972) 'The psychological subject and predicate' *Cognitive Psychology* 3: 632–42

Hudson, R. A. (1980) *Sociolinguistics* Cambridge University Press

Hymes, D. (1962) 'The ethnography of speaking' in (eds.) T. Gladwin & W. C. Sturtevant

Hymes D. (1964) 'Toward ethnographies of communicative events' in (ed.) P. P. Giglioli

Isard S. (1975) 'Changing the context' in (ed.) E. L. Keenan

Jakobson R. (1960) 'Closing statements: linguistics and poetics' in (ed.) T. A. Sebeok *Style in Language* Cambridge, Mass., M.I.T. Press

Jefferson G. (1972) 'Side sequences' in (ed.) D. Sudnow

Jefferson, G. (1973) 'A case of precision timing in ordinary conversation: overlapped tag-positioned address terms in closing sequences' *Semiotica* 9: 47–96

Johnson-Laird, P. N. (1980) 'Mental models in cognitive science' *Cognitive Science* 4: 71–115

Johnson-Laird, P. N. (1981a) 'Mental models of meaning' in (eds.) A. K. Joshi, B. L. Webber & I. A. Sag

Johnson-Laird, P. N. (1981b) 'Comprehension as the construction of mental models' in *The Psychological Mechanisms of Language* Philosophical Transactions of the Royal Society of London: The Royal Society and The British Academy

Johnson-Laird, P. N. & Garnham, A. (1979) 'Descriptions and discourse models' *Linguistics and Philosophy* 3: 371–393

Johnson-Laird, P. N. & Steedman, M. (1978) 'The psychology of syllogisms' *Cognitive Psychology* 10: 64–99

Jones, L. K. (1977) *Theme in English Expository Discourse* Jupiter Press

Joshi, A. K., Webber, B. L. & Sag, I. A. (eds.) (1981) *Elements of Discourse Understanding* Cambridge University Press

Källgren, G. (1978) 'Can a deep case model be used for text analysis?' in (ed.) K. Gregersen *Papers from the Fourth Scandinavian Conference of Linguistics* Odense University Press

Källgren, G. (1979) 'Some types of textual cohesion and their effects on texts' in (eds.) N. E. Enkvist & J. Wiksell *Papers from the Fifth Scandinavian Conference of Linguistics* Stockholm

Kaplan, S. J. (1981) 'Appropriate responses to inappropriate questions' in (eds.) A. K. Joshi, B. L. Webber & I. A. Sag

Karttunen, L. (1974) 'Presupposition and linguistic context' *Theoretical Linguistics* 1: 181–94

Karttunen, L. & Peters, S. (1979) 'Conventional implicature' in (eds.) C.-K. Oh & D. A. Dineen

Katz, J. (1980) 'Chomsky on meaning' *Language* 56: 1–42

Katz, J. J. & Fodor, J. A. (1963) 'The structure of a semantic theory' *Language* 39: 170–210

Keenan, E. L. (1971) 'Two kinds of presupposition in natural language' in (eds.) C. J. Fillmore & D. T. Langendoen *Studies in Linguistic Semantics* New York: Holt, Rinehart & Winston

Keenan, E. L. (ed.) (1975) *Formal Semantics of Natural Language* Cambridge University Press

Keehan, E. O. & Schieffelin, B. (1976) 'Topic as a discourse notion' in ed.) C. N. Li

Kempson, R. (1975) *Presupposition and the Delimitation of Semantics* Cambridge University Press

Kendon, A. (1967) 'Some functions of gaze direction in social interaction' *Acta Psychologica* 26: 22–63

Kintsch, W. (1974) *The Representation of Meaning in Memory* Hillsdale, N. J.: Lawrence Erlbaum

Kintsch, W. & Keenan, J. (1973) 'Reading rate and retention as a function of the number of propositions in the base structure of sentences' *Cognitive Psychology* 5: 257–74

Kuno, S. (1976) 'Subject, theme and the speaker's empathy' in (ed.) C.N. Li

Kuno, S. & Kaburaki, E. (1977) 'Empathy and syntax' *Linguistic Inquiry* 8: 627–72

Laberge, D. & Samuels, S. J. (eds.) (1977) *Basic Process in Reading: Perception and Comprehension* Hillsdale, N. J.: Lawrence Erlbaum

Labov, W. (1966) 'On the grammaticality of everyday speech' Paper presented at the LSA Annual Meeting, New York

Labov, W. (1970) 'The study of language in its social context' *Studium Generale* 23: 30–87 reprinted in Labov (1972a)

Labov, W. (1972a) *Sociolinguistic Patterns* Philadelphia: University of Pennsylvania Press

Labov, W. (1972b) 'Rules for ritual insults' in (ed.) D. Sudnow

Lacey, A. R. (1976) *A Dictionary of Philosophy* London: Routledge & Kegan Paul

Laffal, J. (1965) *Pathological and Normal Language* New York: Atherton Press

Lakoff, R. (1973) 'The logic of politeness; or minding your P's and Q's' in (ed.) C. Corum et al. *Papers from the Ninth Regional Meeting*, Chicago Linguistic Society

Laver, J. D. (1980) *The Phonetic Description of Voice Quality* Cambridge University Press

Lehiste, I. (1970) *Suprasegmentals* Cambridge, Mass.: M.I.T. Press

Levelt, W. J. M. (1981) 'The speaker's linearisation problem' in *The Psychological Mechanisms of Language* The Royal Society and The British Academy

Levelt, W. J. M. & Flores d'Arcais, G. B. (eds.) (1978) *Studies in the Perception of Language* New York: Wiley

Levinson, S. C. (1980) 'Speech Act theory: the state of the art' *Language Teaching and Linguistics: Abstracts* 13: 5–24

Levinson, S. C. (forthcoming) *Pragmatics* Cambridge University Press

Levy, D. M. (1979) 'Communicative goals and strategies: between discourse and syntax', in (ed.) T. Givón

Lewis, D. (1969) *Convention* Cambridge, Mass., Harvard University Press

Lewis, D. (1972) 'General Semantics' in (eds.) D. Davidson & G. H. Harman *Semantics of Natural Language* Dordrecht: Reidel

Li, C. N. (ed.) (1976) *Subject and Topic* New York: Academic Press

Linde, C. & Labov, W. (1975) 'Spatial networks as a site for the study of language and thought' *Language* 51: 924–40

Loftus, E. (1975) 'Leading questions and the eyewitness report' *Cognitive Psychology* 7: 560–72

Loftus, E. & Zanni, G. (1975) 'Eyewitness testimony' *Bulletin of the Psychonomic Society* 5: 86–8

Longacre, R. E. (1979) 'The paragraph as a grammatical unit' in (ed.) T. Givón

Luria, A. R. (1969) *The Mind of a Mnemonist* London: Jonathan Cape

Lyons, J. (1968) *Introduction to Theoretical Linguistics* Cambridge University Press

Lyons, J. (1977) *Semantics* Cambridge University Press

Lyons, J. (1979) 'Deixis and anaphora' in (ed.) T. Myers *The Development of Conversation and Discourse* Edinburgh University Press

McCawley, J. D. (1979) 'Presupposition & discourse structure' in (eds.) C.-K. Oh & D. Dinneen *Syntax & Semantics, Vol 11: Presupposition* New York: Academic Press

McKay, D. G. & Fulkerson, D. C. (1979) 'On the comprehension and production of pronouns' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 18: 662–73

Malinowski, B. (1935) *Coral Gardens and their Magic, Volume 2* London: Allen & Unwin

Mandler, J. & Johnson, N. (1977) 'Remembrance of things parsed: story structure and recall' *Cognitive Psychology* 9: 111–51

Maratsos, M. (1971) 'A note on NPs made definite by entailment' *Linguistic Inquiry* 2: 254

Mathesius, V. (1942) 'From comparative word order studies' *Časopis pro Moderní Filologii* 28

Matthews, P. H. (1981) *Syntax* Cambridge University Press

Maynard, D. W. (1980) 'Placement of topic changes in conversation' *Semiotica* 30: 263–90

Metzing, D. (ed.) (1979) *Frame Conceptions and Text Understanding* Berlin: de Gruyter

Meyer, B. J. F. (1975) *The Organization of Prose and its Effects on Memory* Amsterdam: North Holland

Meyer, B. J. F. (1977) 'What is remembered from prose: a function of passage structure' in (ed.) R. O. Freedle (1977)

Minsky, M. (1975) 'A framework for representing knowledge' in (ed.) Winston, P. H. *The Psychology of Computer Vision* New York: McGraw-Hill

Mitchell, T. F. (1957) 'The language of buying and selling in Cyrenaica: a situational statement' *Hesperis* 44: 31–71

Morgan, J. L. (1975) 'Some remarks on the nature of sentences' in *Papers from the Parasession on Functionalism* Chicago Linguistic Society

Morgan, J. L. (1979) 'Toward a rational model of discourse comprehension' *American Journal of Computational Linguistics* Fiche 79

Morris, C. W. (1938) 'Foundations of the theory of signs' reprinted in Morris, C. W. (1971) *Writings on the General Theory of Signs* The Hague: Mouton

Nunberg, G. D. (1978) 'The pragmatics of reference' Indiana University Linguistics Club, Bloomington

Nunberg, G. D. (1979) 'The non-uniqueness of semantic solutions: polysemy' *Linguistics and Philosophy* 3: 143–84

Ochs, E. (1979) 'Planned and unplanned discourse' in (ed.) T. Givón

Oh, C.-K. & Dineen, D. A. (eds.) (1979) *Syntax and Semantics Volume 11: Presupposition* New York: Academic Press

Omanson, R. C., Warren, W. H. & Trabasso, T. (1978) 'Goals, inferential comprehension and recall of stories by children' *Discourse Processes* 1: 337–54

Östman J.-O. (1978) 'Text, cohesion, and coherence' in (ed.) J.-O. Östman

Östman J.-O. (ed.) (1978) *Cohesion and Semantics* Åbo, Finland: Åbo Akademi Foundation

Paivio, A. (1971) *Imagery and Verbal Processes* New York: Holt, Rinehart & Winston

Partee, B. H. (1978) 'Bound variables and other anaphors' *American Journal of Computational Linguistics* Fiche 78

Partee, B. H. (ed.) (1976) *Montague Grammar* Academic Press

Pellowe, J. & Jones, V. (1979) 'Establishing intonationally variable systems in a multi-dimensional linguistic space' *Language & Speech* 22: 97–116

Perfetti, C. A. & Goldman, S. R. (1974) 'Thematization and sentence retrieval' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 13: 70–9

Petöfi, J. S. (ed.) (1978) *Texts vs Sentence. Basic Questions of Textlinguistics* Hamburg: Buske Verlag

Petöfi, J. S. & Rieser, H. (eds.) (1974) *Studies in Text Grammar* Dordrecht: Reidel

Pirsig, R. M. (1976) *Zen and the Art of Motor-cycle Maintenance* London: Corgi Books

Popper, K. R. (1963) *Conjectures and Refutations* London: Routledge & Kegan Paul

Prince, E. F. (1978) 'A comparison of WH-clefts and it-clefts in discourse' *Language* 54: 883–907

Prince, E. F. (1981) 'Toward a taxonomy of given – new information' in (ed.) P. Cole *Radical Pragmatics* New York: Academic Press
Quine, W. V. (1960) *Word and Object* Cambridge, Mass.: M.I.T. Press
Quine, W. V. (1969) *Ontological Relativity and Other Essays* New York: Columbia University Press
Quirk, R., Greenbaum, S., Leech G. and Svartvik, J. (1972) *A Grammar of Contemporary English* London: Longman
Reder, L. (1979) 'The role of elaborations in memory for prose' *Cognitive Psychology* 11: 221–34
Reder, L. & Anderson, J. (1980) 'A comparison of texts and their summaries: memorial consequences' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 19: 121–34
Riesbeck, C. K. (1975) 'Computational understanding' in (eds.) R. C. Schank & B. L. Nash-Webber
Riesbeck, C. K. & Schank, R. C. (1978) 'Comprehension by computer: expectation-based analysis of sentences in context' in (eds.) W. J. M. Levelt & G. B. Flores d'Arcais
Rochester, S. R. & Martin J. R. (1977) 'The art of referring: the speaker's use of noun phrases to instruct the listener' in (ed.) R. O. Freedle (1977)
Rochester, S. & Martin, J. R. (1979) *Crazy Talk: A Study of the Discourse of Schizophrenic Speakers* New York: Plenum Press
Rommetveit R. (1974) *On Message Structure: A Framework for the Study of Language and Communication* New York: Wiley
Rosch, E. (1973) 'Natural categories' *Cognitive Psychology* 4: 328–50
Rosch, E. (1977) 'Classification of real-world objects: origins and representations in cognition' in (eds.) P. Johnson-Laird & P. C. Wason *Thinking: Readings in Cognitive Science* Cambridge University Press
Rosch, E., Mervis, C. B., Gray, W. D., Johnson, D. M. & Boyes-Braem, P. (1976) 'Basic objects in natural categories' *Cognitive Psychology* 8: 382–439
Ross, R. N. (1975) 'Ellipsis and the structure of expectation' *San Jose State Occasional Papers in Linguistics* 1: 183–91
Rumelhart, D. (1975) 'Notes on a schema for stories' in (eds.) D. Bobrow & A. Collins *Representation and Understanding: Studies in Cognitive Science* New York: Academic Press
Rumelhart, D. E. (1977) 'Understanding and summarizing brief stories' in (eds.) D. Laberge & S. J. Samuels
Rumelhart, D. E. & Ortony, A. (1977) 'The representation of knowledge in memory' in (eds.) R. C. Anderson, R. J. Spiro & W. E. Montague
Sacks, H. (1971) 'Mimeo lecture notes' Quoted in Coulthard (1977)
Sacks, H. (1972) 'An initial investigation of the usability of conversational data for doing sociology' in (ed.) D. Sudnow
Sacks, H., Schegloff E. A. & Jefferson G. (1974) 'A simplest systematics for the organisation of turn-taking for conversation' *Language* 50: 696–735. Reprinted in (ed.) J. Schenkein (1978)
Sadock, J. M. (1978) 'On testing for conversational implicature' in (ed.) P. Cole
Sampson, G. (1980) *Schools of Linguistics* London: Hutchinson
Sanford, A. J. & Garrod, S. C. (1981) *Understanding Written Language* Chichester: Wiley

Sapir, E. (1933) 'Language' in (ed.) D. G. Mandelbaum (1962) *Edward Sapir: Culture Language and Personality* University of California Press
Schank, R. C. (1972) 'Conceptual dependency: a theory of natural language understanding' *Cognitive Psychology* 3: 552–631
Schank, R. C. (1973) 'Identification of conceptualizations underlying natural language' in (ed.) R. C. Schank & K. M. Colby *Computer Models of Thought and Language* San Francisco: Freeman
Schank, R. C. (1977) 'Rules and topics in conversation' *Cognitive Science* 1: 421–42
Schank, R. C. (1979) 'Some prerequisites for a computational pragmatics' in (ed.) J. L. Moy *Pragmalinguistics* The Hague: Mouton
Schank, R. C. & Abelson, R. (1977) *Scripts, Plans, Goals and Understanding* Hillsdale, N. J.: Lawrence Erlbaum
Schank, R. C. & Nash-Webber, B. L. (eds.) (1975) *Theoretical Issues in Natural Language Processing* Cambridge, Mass.: Bolt, Beranek & Newman
Schegloff, E. A. (1968) 'Sequencing in conversational openings' *American Anthropologist* 70: 1075–95
Schegloff, E. A. (1972) 'Notes on conversational practice: formulating place' in (ed.) D. Sudnow
Schegloff, E. A. & Sacks, H. (1973) 'Opening up closings' *Semiotica* 8: 289–327
Schenkein, J. (ed.) (1978) *Studies in the Organization of Conversational Interaction* New York: Academic Press
Schiffer, S. R. (1972) *Meaning* Oxford: Clarendon Press
Schmerling, S. (1974) 'A re-examination of "normal stress"' *Language* 50: 66–73
Schustack, M. W. & Anderson, J. R. (1979) 'Effects of analogy to prior knowledge on memory for new information' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 18: 565–83
Schutz, A. (1953) 'Common-sense and scientific interpretation of human action' *Philosophy and Phenomenological Research* 14: 1–38
Searle, J. R. (1969) *Speech Acts* Cambridge University Press
Searle, J. R. (1975) 'Indirect speech acts' in (eds.) P. Cole & J. L. Morgan *Syntax and Semantics 3: Speech Acts* New York: Academic Press
Searle, J. R. (1979) *Expression and Meaning* Cambridge University Press
Searle, J. R., Kiefer, F. & Bierwisch, M. (eds.) (1980) *Speech Act Theory and Pragmatics* Dordrecht: Reidel
Sgall, P. (1980) 'Towards a pragmatically based theory of meaning' in (eds.) J. R. Searle, F. Kiefer & M. Bierwisch
Sgall, P., Hajičová E. & Benešová E. (1973) *Topic, Focus and Generative Semantics* Kronberg: Scriptor Verlag
Sinclair, J.McH. & Coulthard, R. M. (1975) *Towards an Analysis of Discourse* Oxford University Press
Smith, N. & Wilson, D. (1979) *Modern Linguistics* Harmondsworth, Middx: Penguin Books
Spiro, R. J. (1977) 'Remembering information from text: the "state of schema" approach' in (eds.) R. C. Anderson, R. J. Spiro & W. E. Montague
Stalnaker R. C. (1978) 'Assertion' in (ed.) P. Cole
Steedman, M. J. & Johnson-Laird, P. N. (1980) 'The production of sentences, utterances and speech acts: Have computers anything to say?' in (ed.) B. Butterworth

Stein, N. & Glenn, C. (1979) 'An analysis of story comprehension in elementary school children' in (ed.) R. O. Freedle (1979)

Stein, N. & Nezworski, T. (1978) 'The effects of organization and instructional set on story memory' *Discourse Processes* 1: 177–94

Stenning, K. (1978) 'Anaphora as an approach to pragmatics' in (eds.) M. Halle et al.

Strawson, P. F. (1950) 'On referring' *Mind* 54

Sudnow, D. (ed.) (1972) *Studies in Social Interaction* NewYork: The Free Press

Tannen, D. (1979) 'What's in a frame? Surface evidence for underlying expectations' in (ed.) R. O. Freedle (1979)

Tannen, D. (1980) 'A comparative analysis of oral narrative strategies: Athenian Greek and American English' in (ed.) W. L. Chafe

Thomason, R. (ed.) (1974) *Formal Philosophy. Selected Papers of Richard Montague* New Haven, Conn.: Yale University Press

Thompson, H. S. (1980) 'Stress and salience in English' Palo Alto Research Centre: Xerox

Thorndyke, P. W. (1977) 'Cognitive structures in comprehension and memory of narrative discourse' *Cognitive Psychology* 9: 77–110

Thorne, J., Bratley, P. & Dewar, H. (1968) 'The syntactic analysis of English by machine' in (ed.) D. Michie *Machine Intelligence 3* University of Edinburgh Press

Trudgill, P. (1974) *Sociolinguistics: an introduction* Harmondsworth, Middx: Penguin Books

Tyler, S. A. (1978) *The Said and the Unsaid* New York: Academic Press

Vachek, J. (1966) *The Linguistic School of Prague* Bloomington: Indiana University Press

Venneman, T. (1975) 'Topic, sentence accent, and ellipsis: a proposal for their formal treatment' in (ed.) E. L. Keenan

van der Auwera, J. (ed.) (1980) *The Semantics of Determiners* London: Croom Helm

van Dijk, T. A. (1972) *Some Aspects of Text Grammars* The Hague: Mouton

van Dijk, T. A. (1973) 'Text grammar and text logic' in (eds.) J. Petöfi & H. Rieser *Studies in Text Grammars* Dordrecht: Reidel

van Dijk, T. A. (1977) *Text and Context* London: Longman

van Dijk, T. A. (1981) 'Review of R. O. Freedle (ed.) 1979' *Journal of Linguistics* 17: 140–8

van Dijk, T. A., Ihwe J., Petöfi J. & Rieser H. (1972) *Zur Bestimmung Narrativer Strukturen auf der Grundlage von Textgrammatiken* Hamburg: Buske Verlag

Vygotsky, L. A. (1962) *Thought and Language* trans. E. Haufmann and G. Vakar Cambridge, Mass.: M.I.T. Press

Warren, W. H., Nicholas, D. W. & Trabasso, T. (1979) 'Event chains and inferences in understanding narratives' in (ed.) R. O. Freedle (1979)

Webber, B. L. (1978) *A Formal Approach to Discourse Anaphora* Report No. 3761 Cambridge, Mass.: Bot, Beranek & Newman

Webber, B. L. (1981) 'Discourse model synthesis: preliminaries to reference' in (eds.) A. K. Joshi, B. L. Webber & I. A. Sag

Widdowson, H. G. (1978) *Teaching Language as Communication* Oxford University Press

Widdowson, H. G. (1979a) *Explorations in Applied Linguistics* Oxford University Press

Widdowson, H. G. (1979b) 'Rules and procedures in discourse analysis' in (ed.) T. Myers *The Development of Conversation and Discourse* Edinburgh University Press

Wilks, Y. (1977) 'Natural language understanding systems within the AI paradigm: a survey' in (ed.) A. Zampolli *Linguistic Structures Processing* Amsterdam: North Holland

Wilks, Y. (1979) 'Frames, semantics and novelty' in (ed.) D. Metzing

Winograd, T. (1972) *Understanding Natural Language* New York: Academic Press

Winston, P. (1977) *Artificial Intelligence* Rowley, Mass.: Addison-Wesley

Wittgenstein, L. J. J. (1953) *Philosophical Investigations* Oxford: Basil Blackwell

Woods, W. (1970) 'Transition network grammars for natural language analysis' *Communications of the Association for Computing Machinery* 13: 591–606

Wootton, A. (1975) *Dilemmas of Discourse* London: Allen & Unwin

Yekovich, F. R. & Thorndyke, P. W. (1981) 'An evaluation of alternative functional models of narrative schemata' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior* 20: 454–69

Yule, G. (1979) 'Pragmatically controlled anaphora' *Lingua* 49: 127–35

Yule, G. (1980) 'The functions of phonological prominence' *Archivum Linguisticum* XI: 31–46

Yule G. (1981) 'New, current and displaced entity reference' *Lingua* 55: 41–52

ثبت المصطلحات العلمية

أولاً: عربي – إنجليزي

أ

الإبراز (عملية)	Foregrounding
الإحالة	Reference
الإحالة خارج النص	Exophonic reference
الإحالة الداخلية (إلى الخطاب السابق)	Anaphora
الإحالة الداخلية (إلى الخطاب السابق) بموجب ضوابط مقامية	Pragmatically controlled anaphora
الإحالة الداخلية (إلى الخطاب اللاحق)	Cataphora
الإحالة داخل النص (اشتراك)	Endophonic co-reference
الإحالة المشتركة	Co-reference
الإحالة الناجحة	Successful reference
الإخراج	Staging
الاستدلال/ الاستنتاج	Inference
الإشاري (الجهاز)	Deixis
الإشاري (الدور)	Deictic Role
الإطار الذهني	Frame
الإطار الموضوعي	Topic framework

الأفعال الإنجازية	Performatives
الأفعال القولية	Speech acts
الاندراج	Hyponymy
الأنساق الذهنية	Schemata
الإيماءات التشجيعية (من الطرف الثاني في الخطاب)	Back-channel behaviour

ب

بنية/ هيكل النص	Texture

ت

التأويل/ الفهم السياقي (المحلّي)	Local interpretation
التبعية التصورية	Conceptual dependency
التتابع الخطي (عملية)	Linearisation
التجاور اللفظي/ الاقتران	Collocation
التحليل صعودا	Bottom-up processing
التحليل نزولا	Top-down processing
التحول الموضوعي/ تغيير الموضوع	Topic-shift
التركيز	Focus
التعبيرات المعرّفة	Definite expressions
التعبيرات النكرة	Indefinite expressions
التفاعل الاجتماعي	Social interaction
التقديم الموضوعي (عملية)	Thematization
التقمص العاطفي	Empathy
التماسك/ التناسق (المعنوي)	Coherence
التماسك النصي (الشكلي)	Cohesion
تمثيل الخطاب	Discourse representation

التناوب على الأدوار (في المحادثة)	Turntaking
التنغيم	Intonation

ث

الثنائيات المتلازمة (المتجاوران)	Adjacency pairs

ج

الجملة (كموضوع للدراسة)	Sentence-as-object
الجملة النص	Text-sentence

ح

الحدث الضمني	Illocutionary act
حدود الموضوع	Topic boundaries
الحديث/ الكلام حول الموضوع	Speaking on a topic
الحديث/ الكلام في الموضوع	Speaking topically
الحذف	Ellipsis
الحقل الافتراضي/ رصيد الافتراضات المسبقة	Presupposition pool
الحلقة الناقصة	Missing link

خ

خصائص السياق	Contextual features
الخصائص فوق اللغوية	Paralinguistic features
الخطاب كعملية	Discourse-as-process

د

الدلالة	Sense

س

السكون	Silent ictus
سلسلة الإقحام	Insertion sequence
السياق	Context
السياق النصي	Co-text

ش

شروط الاستخدام	Felicity conditions

ص

الصورة النموذجية الممثلة	Prototype
صيغة الرسالة	Message form

ض

ضوابط/ مبادىء المحادثة	Conversational maxims

ع

العبارة	Clause
العلاقات بين المفردات	Lexical relations
علاقات العطف	Conjunctive relations
علامات الترقيم/ التنقيط	Punctuation
علم المقاصد/ المقامية	Pragmatics
عملية الاستبدال	Substitution
العنوان	Title

غ

الغموض/ اللبس	Ambiguity
غموض الإحالة	Referential opacity

ف

الفاعل النحوي	Grammatical subject
الفرضية الرابطة	Bridging assumption
الفرضية المسبقة/ الافتراض المسبق	Presupposition
الفكرة الرئيسة	Topic entity
الفقرة	Paragraph
الفقرة النغمية	Paratone

ق

القضية	Proposition
القواعد	Rules
القياس	Analogy

ك

الكيانات/ العناصر القابلة للاستنتاج	Inferrable entities
الكيانات المستثارة (المستدعاة)	Evoked entities

ل

لغة التعامل	Transactional language
لغة التفاعل	Interactional language

م

المالئات	Fillers
المؤشرات ما وراء اللغوية	Metalingual markers
مجالات الخطاب	Discourse domains
المجموعة النبرية	Tone group
المحمول	Rheme
المخطط الذهني	Scenario
المدار	Script
المسميات الجد جديدة	Brand-new entities
المسميات القائمة	Current entities
المسميات المحوّلة	Displaced entities
مظاهر الانتظام (مقابل: القواعد)	Regularities (vs. rules)
المعلومات الجديدة	New information
المعلومات الخلفية	Background knowledge
المعلومات المسلّمة/ المعطاة	Given information
المعنى الحقيقي/ الدلالة الذاتية	Denotation
المعنى الضمني	Implicature
المعنى الضمني في المحادثة	Conversational implicature
المعنى الضمني المتعارف (عليه)	Conventional implicature
المقطع (اللفظي) المنبور	Tonic Syllable
المناسبة (مبدأ)	Relevance
الموضوع	Theme
موضوع الجملة	Sentential topic
موضوع الحديث	Topic

موضوع المتكلم	Speaker's topic
الموقف/ الزاوية/ وجهة النظر	Point of view

ن

النص	Text
النص كنتاج	Text-as-product
النصانية (خاصية النص)	Textness
نموذج الخطاب	Discourse model
النموذج الذهني	Mental model
النموذج الذهني للقصة	Story schema
نوعية الصوت	Voice quality

هـ

الهدف	Purpose

و

وحدة معلومات	Information unit
الوحدات القائمة على الوقف	Pause-defined units
وظائف اللغة	Language functions
الوظيفة التواصلية	Communicative function
الوقف/ الوقفة	Pause

ثانيًا: إنجليزي – عربي

A

Adjacency pairs	الثنائيات المتلازمة/ المتجاوران
Ambiguity	اللبس/ الغموض
Analogy	القيـــاس
Anaphora	الإحالة الداخلية (إلى الخطاب السابق)

B

Back-channel behaviour	الإيماءات التشجيعية (من الطرف الثاني في المحادثة)
Background knowledge	المعلومات الخلفية
Bottom-up processing	التحليل صعودا
Brand-new entities	المسمّيات الجدّ جديدة
Bridging assumption	الفرضيّة الرابطة

C

Cataphora	الإحالة الداخلية (إلى الخطاب اللاحق)
Clause	العبارة
Coherence	التماسك/ التناسق (المعنوي)
Cohesion	التماسك النصّي (الشكلي)
Collocation	التجاور اللفظي/ الاقتران
Communicative function	الوظيفة التواصلية
Conceptual dependency	التبعية التصوّرية
Conjunctive Relations	علاقات العطف
Context	السياق
Contextual features	خصـائص السياق

Conventional implicature	المعنى الضمني المتعارف (عليه)
Conversational implicature	المعنى الضمني في المحادثة
Conversational maxims	ضوابط/ مبادىء المحادثة
Contextual features	خصائص السياق
Coreference	الإحالة المشتركة
Cotext	السياق النصي
Current Entities	المسمّيات القائمة

D

Data	الأمثلة/ البيانات
Definite expressions	التعبيرات المعرّفة
Deictic role	الدور الإشاري
Deixis	الجهاز الإشاري (في اللغة)
Denotation	المعنى الحقيقي/ الدلالة الذاتية
Discourse-as-process	الخطاب كعملية
Discourse domains	مجالات الخطاب
Discourse Model	نموذج الخطاب
Discourse Representation	تمثيل الخطاب
Displaced Entities	المسمّيات المحوّلة

E

Ellipsis	الحذف
Empathy	التقمّص العاطفي
Endophonic co-reference	اشتراك الإحالة داخل النص
Evoked entities	الكيانات المستثارة (المستدعاة)
Exophonic reference	الإحالة خارج النص

F

Felicity conditions	شروط الاستخدام
Fillers	المالئات
Focus	التركيز
Foregrounding	عملية الإبراز
Frame	الإطار الذهني

G

Given information	المعلومات المسلّمة/ المعطاة
Grammatical subject	الفاعل النحوي

H

Hyponymy	الاندراج
Illocutionary act	الحدث الضمني

I

Implicature	المعنى الضمني
Indefinite expressions	التعبيرات النكرة
Inference	الاستدلال/ الاستنتاج
Inferrable entities	الكيانات/ العناصر القابلة للاستنتاج
Information unit	وحدة معلومات
Insertion sequence	سلسلة الإقحام
Intention	النية/ المقصد/ القصد
Interactional language	لغة التفاعل
Intonation	التنغيم

L

Language functions	وظائف اللغة
Lexical relations	العلاقات بين المفردات
Linearisation	التتابع الخطّي (عملية)
Local interpretation	التأويل/ الفهم السياقي (المحلّي)

M

Mental model	النموذج الذهني
Message form	صيغة الرسالة
Metalingual markers	المؤشرات ما وراء اللغوية
Missing link	الحلقة الناقصة

N

New information	المعلومات الجديدة

P

Paragraph	الفقرة
Paralinguistic features	الخصائص فوق اللغوية
Paratone	الفقرة النغمية
Pause	الوقفة/ الوقف
Pause-defined units	الوحدات القائمة على الوقف
Performatives	الأفعال الإنجازية
Point of view	وجهة النظر/ الزاوية/ الموقف
Pragmatically controlled anaphora	الإحالة الداخلية (إلى الخطاب السابق) بموجب ضوابط مقامية
Pragmatics	علم المقاصد/ المقامية

Presuppositon	الافتراض المسبق/ الفرضية المسبقة
Presuppositon pool	الحقل الافتراضي
Proposition	القضية
Prototype	الصورة النموذجية الممثّلة
Punctuation	علامات الترقيم/ التنقيط
Purpose	الهدف

R

Reference	الإحالة
Referential opacity	غموض الإحالة
Regularities (vs.rules)	مظاهر الانتظام (مقابل : القواعد)
Relevance	المناسبة (مبدأ)
Rheme	المحمول
Role	الدور
Rules	القواعد

S

Scenario	المخطط الذهني
Schemata	الأنساق الذهنية
Script	المدار
Sense	الدلالة
Sentence-as-object	الجملة كموضوع للدراسة
Sentential topic	موضوع الجملة
Silent ictus	السكون
Social interaction	التفاعل الاجتماعي
Speaker's topic	موضوع المتكلم

Speaking on a topic	الحديث/ الكلام حول الموضوع
Speaking topically	الحديث/ الكلام في الموضوع
Speech acts	الأفعال القولية
Staging	الإخراج
Story schema	النموذج الذهني للقصة
Substitution	الاستبدال (عملية)
Successful reference	الإحالة الناجحة

T

Text	النص
Text-as-Product	النص كنتاج
Textness	النصّانية (خاصية النص)
Text-sentence	الجملة النص
Texture	بنية/ هيكل النص (مقومات النص)
Thematization	التقديم الموضوعي (عملية)
Theme	الموضوع
Title	العنوان
Tone group	المجموعة النبرية
Tonic syllable	المقطع (اللفظي) المنبور
Top-down processing	التحليل نزولا
Topic	موضوع الحديث
Topic boundaries	حدود الموضوع
Topic entity	الفكرة الرئيسة
Topic framework	الإطار الموضوعي
Topic shift	التحول الموضوعي/ تغيير الموضوع
Transactional language	لغة التعامل

التناوب على الأدوار (في المحادثة) — Turntaking

و

نوعية الصوت — Voice quality

كشاف الموضوعات

أ

ت